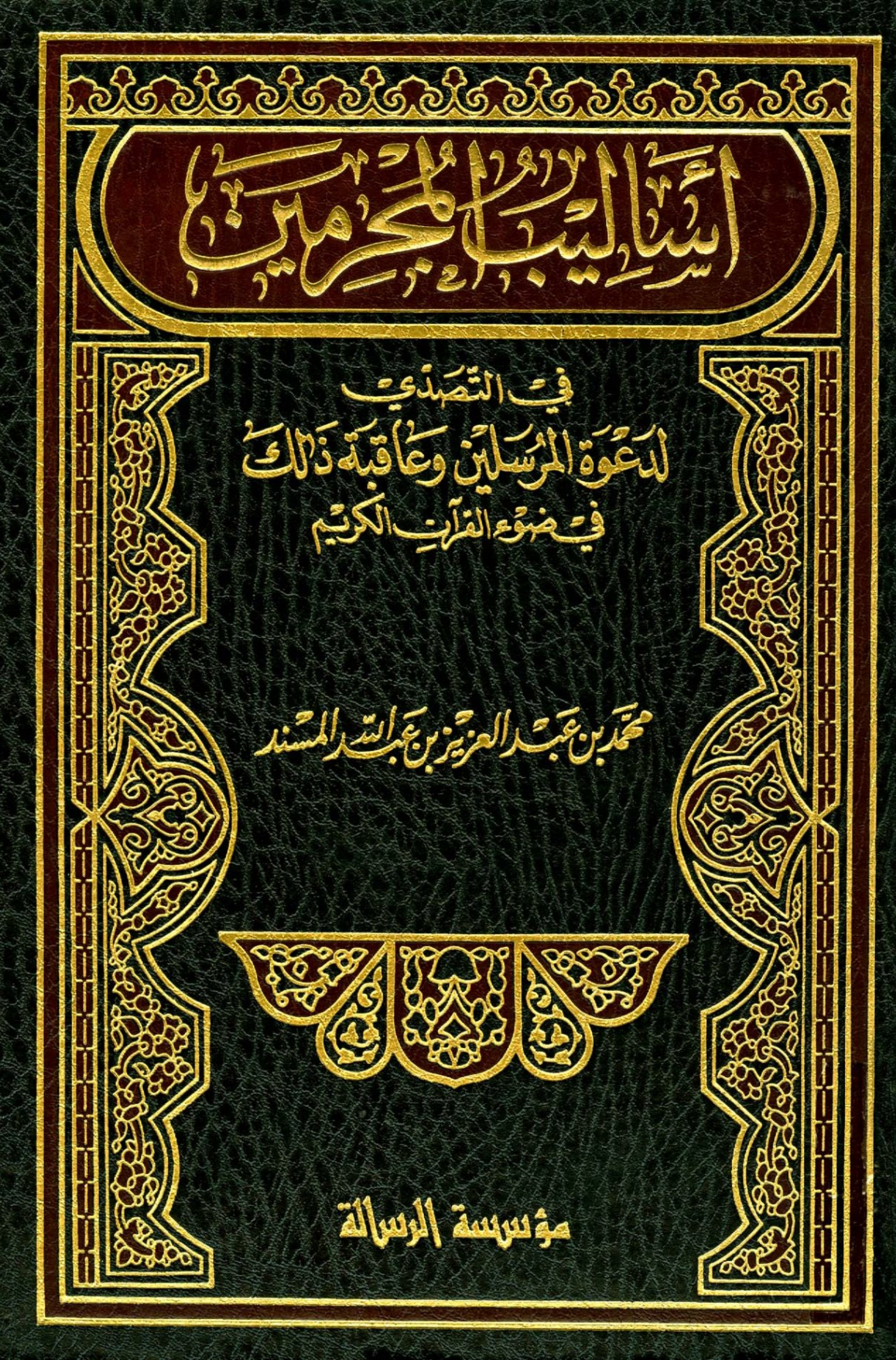

أساليب المجرمين
في التصدي
لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك
في ضوء القرآن الكريم
محمد بن عبد العزيز بن عبد الله المسند
مؤسسة الرسالة

أساليب المجرمين

في التصدي
لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك
في ضوء القرآن الكريم

محمد بن عبد العزيز بن عبد الله المسند

مؤسسة الرسالة
ناشرون

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

[الفرقان، الآية: ٣١].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

[الأنعام، الآية: ٥٥].

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إمام المتقين، وقائدالغر المحجلين، صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه النبيين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإني أحمد المولى ـ عزّ وجلّ ـ أن وفقني ويسر لي دراسة السنة التمهيدية للماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بقسم القرآن وعلومه. ولما كان اختيار موضوع البحث بعد إتمام هذه السنة أمراً لابد منه، فإني قلبت النظر، وأجلت الفكر، فلاح في ذهني برق ساطع وتخيلت جحافل الكفر يتقدمهم إبليس اللعين، ويحمل لواءهم فرعون الأثيم، وهم يحملون معاول هدمهم لدكّ حصون هذا الدين، وطمس معالمه، ونقض عراه، وتخيلت الفاروق ـ رضي الله عنه ـ وهو قائم على منبر رسول الله ﷺ يقول: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وعدت إلى كتاب الله ـ عز وجل ـ أقلب النظر فيه؛ فاستوقفني قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. [الأنعام، الآية: ٥٥]. فعلمت أن ثمة سبيلين لا ثالث لهما: سبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين.

وتأملت ـ حسب نظري القاصر ـ أسماء كثير من البحوث القرآنية،

فوجدت معظمها يُعنى بكشف سبيل المؤمنين[١] ، فرأيت أن يكون موضوع بحثي في الجانب الآخر: بيان سبيل المجرمين، ذلك أن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وأي غبش أو لبس في تصور موقف المجرمين وسبيلهم، يرتد غبشاً ولبساً في موقف المؤمنين وفي سبيلهم.

وبعد إعادة النظر والتأمل في كتاب الله ـ عز وجل ـ عزمت أن يكون موضوع بحثي: (**أساليب الكفار في التصدي لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ في ضوء آيات القرآن الكريم**).

وبعد تحقيق النظر ومزيد من التأمل، رغبت أن يكون الحديث، عن المجرمين خاصة، وذلك لأسباب، منها:

أولًا: أن أعداء الرسل ـ عليهم السلام ـ هم من المجرمين، كما ورد في التعبير القرآني الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. [الفرقان، الآية: ٣١].

ثانياً: أن لفظ (المجرم) يدخل فيه كل عدو للحق وأهله، ولو لم يكن كافراً صريحاً، كالمنافقين مثلًا، بخلاف لفظ الكافر، فلا يدخل فيه إلا من أظهر الكفر.

ثالثاً: تصحيح مفهوم معنى الإجرام في الشرع، فقد شاع في الأزمنة المتأخرة إطلاق هذا الوصف على من ارتكب جريمة جنائية كالقتل ونحوه، وقصر المعنى على ذلك[٢] ، وهذا وإن كان صحيحاً سائغاً في اللغة والشرع؛

---

(١) على سبيل المثال: بلغ عدد الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية من عام ١٣٨٩هـ حتى نهاية عام ١٤١٤هـ: ٧٠٥٣ رسالة، كلها تُعنى ببيان سبيل المؤمنين، سوى ٣٢٠ رسالة فقط تُعنى بكشف سبيل المجرمين. أي بنسبة ٥٪ تقريباً. (انظر: زيد الحسين، دليل الرسائل الجامعية (ط ٢؛ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية: ١٤١٥هـ).

(٢) مما يؤكد ذلك: أن جميع البحوث المقدمة لنيل درجة الماجستير والدكتوارة في المملكة=

إلا أن القرآن الكريم لم يرد به صراحة، وإنما الذي ورد في القرآن: إطلاق هذا اللفظ على كل من كفر بالله، وعادى رسله، وتصدى لدعوتهم، ولو لم يقتل أحداً قط في حياته أو يسرق أو يزني.

وقد قمت باستقصاء أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين في كتاب الله ـ عز وجل ـ فبلغت قريباً من مائة وتسعين أسلوباً، منها ما هو ظاهر جلي، ومنها ما هو مستتر خفي، كما أن منها ما هو مشترك بين طوائف المجرمين جميعاً، ومنها ما تختص به طائفة دون أخرى.

أهمية هذا الموضوع:

إن لهذا الموضوع أهمية بالغة ـ كما أشرت سابقاً ـ إذ أنه لا يمكن للمؤمن أن يستبين سبيل المؤمنين استبانة واعية مدركة، حتى يستبين سبيل المجرمين، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله**»[1].

قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في التعليق على هذا الحديث: «وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله. فإن شك أو توقف، لم يحرم ماله أو دمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلّها، وياله من بيان ما أوضحه،

= العربية السعودية في الفترة ما بين عام ١٣٨٩هـ إلى عام ١٤١٤هـ، والتي تحدثت عن الجريمة والمجرمين، كلها تتحدث عن الجرائم الجنائية، كجرائم القتل والزنى والسرقة ونحوها. (انظر: المصدر السابق).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. . .: ج ١ ص ٤٠ برقم ٣٧.

وحجة ما أقطعها للمنازع»[١] .

وقد صح عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[٢] . وفي رواية عند البخاري: «تعلّم أصحابي الخير، وتعلمت الشر»[٣] . وهذا من فقهه ـ رضي الله عنه ـ وكثير من الناس إنما أتوا من هذا الباب، لاسيما مع تجدد وسائل أهل الباطل وتنوعها، والتفنن في عرضها وتنفيذها، حتى التبس الحق بالباطل، واختلط الحابل بالنابل، فكان لابد من تبيين سبيل المجرمين في ذلك كما أوضحها الله ـ جل وعز ـ من غير مواربة، ليكون المؤمنون منها على حذر.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ . [الأنعام، الآية: ٥٥].

سبب اختيار الموضوع:

قد أشرت سابقاً إلى بعض الأسباب التي دعتني لاختيار هذا الموضوع، منها تصحيح المفهوم القاصر للإجرام.

ومن أهم الأسباب أيضاً، أن هذا الموضوع لم يُسبق ـ حسب علمي واطلاعي ـ أن بُحث بحثاً مستقلًا، سوى رسالتين سُجّلتا أخيراً في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إحداهما لنيل درجة الماجستير، وهي بعنوان: «**أساليب المشركين في الصد عن الدعوة في**

---

(١) كتاب التوحيد (ط ١؛ الرياض: دار السلسبيل: ١٤١٧هـ): ص ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ج ٣ ص ١٣١٩ برقم ٣٤١١، ومسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن: ٦ ص ٢٠ برقم ٥١.

(٣) انظر التخريج السابق، برقم ٣٤١٢.

العهد المكي، ومظاهرها في العصر الحاضر» للباحث حمزة الطيار.

والثانية لنيل درجة الدكتوراة، وهي بعنوان: «أساليب خصوم الدعوة في العهد المدني، ومظاهرها في العصر الحاضر» للباحث عبداللطيف آل الشيخ، وهي مكملة للأولى.

وقد طلب مني مجلس الكلية أن أكتب تقريراً عن هاتين الرسالتين قبل تسجيل موضوعي، وذلك تجنباً للتكرار، وقد كتبت تقريراً بعد الاطلاع على مخطط الرسالتين المذكورتين، بينت فيه أوجه الاختلاف بين موضوعي وموضوع تينك الرسالتين، ألخصه فيما يلي:

أولاً: الحديث عن الأساليب في الرسالتين جاء مقصوراً على أساليب خصوم الإسلام في عهد نبينا محمد ﷺ دون الحديث عن أساليب خصوم الدعوة في الأزمنة المتقدمة، من عهد نوح إلى عيسى - عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذه الأساليب.

ثانياً: لم تتعرض الرسالتان للحديث عن المجرمين وحقيقتهم، ومفهوم الجريمة في القرآن. وقد خصصت لذلك باباً مستقلاً.

ثالثاً: لم تتعرض الرسالتان للحديث عن العاقبة، وسنن الله في إهلاك المجرمين، ونصر المرسلين. وقد خصصت لذلك باباً مستقلاً.

رابعاً: في الرسالتين خصص الباحثان باباً مستقلاً لمنهج الدعوة في مواجهة هذه الأساليب. بينما لم أتعرض لذلك في رسالتي.

خامساً: خصص الباحثان باباً للحديث عن مظاهر هذه الأساليب في العصر الحاضر، بينما أنا لم أتعرض لذلك إلا ما قد يكون مبثوثاً في ثنايا البحث عند الحديث عن الأساليب.

سادساً: فيما يتعلق بتقسم الأساليب؛ فقد قسمها الباحثان إلى

قسمين: قولية وعملية. بينما سلكت في تقسيمها مسلكاً آخر، حيث قسمتها أولاً إلى أساليب مشتركة وغير مشتركة، ثم جعلت الأساليب المشتركة في عقود تنتظمها وتجمع شتاتها، وكذا الأساليب غير المشتركة، جعلتها في عقود تنتظمها جميعاً.

سابعاً: يغلب على بحثي الجانب القرآني، وكثرة الاستشهاد بالآيات، واعتمادها عناصر أساسية في الأبواب والفصول، نظراً لطبيعة الموضوع والتخصص، بخلاف الرسالتين المذكورتين، فإن للسنة ونصوص السيرة فيهما نصيباً كبيراً.

أما أوجه الاتفاق، فتنحصر في قضية واحدة وهي الأساليب، بل في جزء منها كما بينت سابقاً في النقطتين: الأولى والسادسة من أوجه الاختلاف.

علماً بأن الرسالتين المذكورتين لم تتم مناقشتهما إلا بعد تسجيل موضوعي بعام تقريباً أو يزيد، وقد قمت بالاطلاع عليهما بعد المناقشة، فأما الرسالة الأولى، فقد بلغ عدد الأساليب فيها: ستة وعشرين أسلوباً، وأما الثانية فبلغ عدد الأساليب فيها: خمسة وأربعين أسلوباً، فيكون مجموع عدد الأساليب في الرسالتين: واحداً وسبعين أسلوباً. هذا، وإن مما يؤخذ على هاتين الرسالتين ما يلي:

١ - **التكرار في الأساليب**، وهذا ناتج عن التقسيم الذي سلكه الباحثان للأساليب، فهما يذكران أساليب كل صنف من أصناف المجرمين على حدة، وهذا يؤدي إلى وقوع التكرار، فعلى سبيل المثال: محاولة قتل الرسول ﷺ أسلوب من أساليب خصوم الدعوة جميعاً، فهو من أساليب المشركين كما أنه من أساليب أهل الكتاب والمنافقين، فيضطر الباحثان إلى تكراره عند الحديث عن أساليب كل صنف، مع أنه في حقيقته أسلوب واحد، وهكذا في غيره من الأساليب المشتركة، ولو سلك الباحثان ما سلكته في التقسيم، لما حدث هذا التكرار.

٢ ـ **القصور في استقصاء الأساليب**، فهناك أساليب كثيرة لم يذكرها الباحثان، مع أنها موجودة في كتاب الله ـ عز وجل ـ وفي السيرة العطرة لنبينا محمد ﷺ.

خطة البحث:

بعد الإحاطة بجوانب الموضوع المختلفة، وتتبع أساليب المجرمين في كتاب الله ـ عز وجل ـ رأيت أن تكون خطة البحث كما يلي:

أولًا: مقدمة البحث، وتشتمل على ما يلي:

١ ـ الاستفتاح.

٢ ـ موضوع البحث وسبب اختياره.

٣ ـ أهمية الموضوع.

٤ ـ خطة البحث.

٥ ـ منهج البحث.

ثانياً: تمهيد: الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية.

وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: حتمية هذا الصراع.

المبحث الثاني: حقيقته.

المبحث الثالث: دوافعه وأسبابه.

المبحث الرابع: حكمته.

ثالثاً: أبواب البحث:

الباب الأول: المجرمون؛ حقيقتهم وأصنافهم:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم الجريمة في القرآن وحقيقة المجرمين:

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم الجريمة في القرآن.

المبحث الثاني: حقيقة المجرمين.

الفصل الثاني: أصناف المجرمين، وسماتهم في القرآن:

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أصناف المجرمين، وهم:

١ ـ المشركون.

٢ ـ أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

٣ ـ المنافقون.

المبحث الثاني: سمات المجرمين.

الباب الثاني: أساليب المجرمين في التصدي للدعوة.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: الأساليب المشتركة بين المجرمين:

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الكيد والمكر والخداع.

المبحث الثاني: الإعراض والتولي والنفور.

المبحث الثالث: تبرير المواقف.

المبحث الرابع: التعنت والعناد والمشاقة.

المبحث الخامس: إثارة الشكوك والشبهات.

المبحث السادس: التضييق والتعطيل والمنع.

المبحث السابع: التنكيل والبطش والأذى.

الفصل الثاني: الأساليب غير المشتركة (الخاصة):

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أساليب المشركين.

المبحث الثاني: أساليب أهل الكتاب.

المبحث الثالث: أساليب المنافقين.

الباب الثالث: سنن الله في إهلاك المجرمين، ونصر دعوة المرسلين.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: سنن الله في إهلاك المجرمين.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإجرام سبب للإهلاك.

المبحث الثاني: سنة الإمهال.

المبحث الثالث: انتقام الله من المجرمين.

الفصل الثاني: سنن الله في نصر دعوة المرسلين:

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الانتصار وحقيقته وصوره.

المبحث الثاني: أسباب تأخر النصر.

المبحث الثالث: شروط تحقق النصر.

ثالثاً: خاتمة البحث.

وتشتمل على أهم النتائج.

رابعاً: الفهارس.

١ ـ الآيات القرآنية.

٢ ـ الأحاديث النبوية.

٣ ـ الأعلام.

٤ ـ المصادر والمراجع.

٥ ـ الموضوعات.

منهجي في هذا البحث:

المنهج الذي استخدمته في هذا البحث إجمالاً، هو التفسير الموضوعي للآيات.

أما تفصيلًا، فإني أذكر أولاً الآيات الواردة في الموضوع ـ وقد أكتفي بذكر بعضها، وهو الغالب ـ لتكون كالأساس للبناء، ثم أعلق على هذه الآيات بما يوضحها، ويبين علاقتها بالموضوع، إما بكلام من عندي، أو بما ذكره بعض أئمة التفسير وغيرهم، وهذا هو المقدم، ثم بعد ذلك أذكر ما يحضرني من الأحاديث النبوية الشريفة، أو الوقائع التي ذكرها أهل السير في كتبهم المعتمدة، لتكون شاهداً لما أقول، وقد استشهد ببعض الشواهد الشعرية التي تتناسب مع الموضوع، لما للشعر الجيد من أثر في تجلية الحق وتوضيحه وتجميله، أما الدلالات اللغوية والفوائد البلاغية وتفسير الكلمات الغريبة، فإني أشير إليها في الحاشية.

هذا، وقد حرصت بالدرجة الأولى على الرجوع إلى كتب أئمة السلف كابن جرير وابن كثير والبغوي وابن القيم وغيرهم ـ عليهم رحمة الله ـ كما استفدت من بعض الكتب الأخرى التي لا تخلو من بعض الانحرافات العقدية والفكرية(١)، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

وقد قمت بعزو الآيات إلى سورها في القرآن الكريم، مع ذكر رقم الآية بعد ذكرها مباشرة في المتن، فإن اقتصرت في الاستشهاد بالآية على جزء منها، فإني أشير إلى الجزء المحذوف بنقطتين هكذا (. .) سواء في أول الآية أو في آخرها.

---

(١) على سبيل المثال: استفدت من كتاب الكشّاف للزمخشري في بعض الدلالات اللغوية والنكت البلاغية، كما استفدت من غيره من الكتب في بعض الأفكار السليمة، والعبارات الأدبية الجميلة، وهذا لا يعني الإقرار بما في هذه الكتب من الانحرافات العقدية والفكرية التي نبّه عليها أهل العلم جزاهم الله خيراً.

كما التزمت بتخريج الأحاديث الشريفة الواردة في هذا البحث وعزوها إلى مصادرها الأصلية بقدر الإمكان، وذلك بذكر من خرجها من أئمة الحديث، ثم ذكر اسم الكتاب والباب ورقم الجزء والصفحة ورقم الحديث إن وجد، وذكر من صححها من المحدّثين ـ بقدر الإمكان ـ إن كانت في غير الصحيحين.

أما الأعلام والفرق والأمكنة، فقد أعرضت عن الترجمة لها والتعريف بها، إلا مادعت الحاجة إليه.

الإحالات:

أما الإحالات، فقد اتبعت فيها ما يلي:

أذكر أولاً اسم المؤلف ثم اسم الكتاب أو المصدر، ثم رقم الطبعة ومكان صدورها، واسم الناشر وتاريخ النشر بين قوسين، فإن أغفلت ذكر شيء من ذلك فلعدم وجوده، ثم رقم الجزء والصفحة. هذا كله في الإحالة الأولى، ثم بعد ذلك أكتفي بذكر اسم المؤلّف والكتاب ورقم الجزء والصفحة فقط.

علامات الترقيم:

اتّبعت في ذلك ما جرت به العادة في البحوث العلمية، ومن أبرز تلك العلامات وأهمها:

١ ـ القوسان المزخرفان ﴿ ﴾ للآيات القرآنية الكريمة.

٢ ـ الشولتان المزدوجتان « »:

أ ـ للأحاديث النبوية.

ب ـ للأقوال المأثورة.

ج ـ للدلالة على الفقرة المقتبسة.

٣ ـ القوسان المركنان [ ] لاسم السورة ورقم الآية، وللدلالة على زيادة من عندي داخل الاقتباس.

الفهارس:

وقد أتبعت هذا البحث بفهارس مفصّلة لتكون مفاتيح ونجوماً يهتدي بها القارىء، وقد اشتملت على ما يلي:

١ ـ فهرس الآيات الكريمة.

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية.

٣ ـ فهرس المصادر والمراجع.

٤ ـ فهرس الموضوعات.

أما الصعوبات: فلم تكن هناك صعوبات تذكر ولله الحمد.

شكر وتقدير:

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل ـ بعد شكر الله عز وجل ـ لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في القائمين عليها، لإتاحتهم الفرصة لي لإعداد هذه الرسالة.

ثم أتوجه بالشكر الوافر إلى المناقشين الكريمين صاحبي الفضيلة الدكتور حمد بن ناصر العمار والدكتور إبراهيم بن سليمان الهويمل - حفظهما الله تعالى - على ما بذلاه من جهد ووقت في قراءة هذه الرسالة، وتقويمها. فجزاهم الله عني كل خير.

وأخص بالشكر الجزيل فضيلة الدكتور عبدالعزيز بن ناصر السبر حفظه الله تعالى المشرف على الرسالة على تشجيعه لي، وتوجيهاته الحكيمة التي أفدت منها كثيراً.

هذا وإني لأعترف في ختام هذه المقدمة بأني ربما لم أوف الموضوع حقه كاملًا، أو أني لم أوفق في تحرير بعض مسائله، فالقصور والخطأ سجية من سجايا البشر، فما كان فيه من حق وصواب فهو منة من الله ـ عز وجل ـ وتوفيق منه، وما كان فيه من خطأ أو نقصان، فهو مني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

والله ولي التوفيق.

تمهيد

الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية

وفيه أربعة مباحث:

الأول : حتمية الصراع بين الحق والباطل .

الثاني : حقيقة الصراع بين الحق والباطل .

الثالث : دوافع الصراع بين الحق والباطل وأسبابه .

الرابع : حكمة الصراع بين الحق والباطل .



الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية، قال تعالى مسلياً نبيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾. [الأنعام، الآية: ١١٢]. أي: كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويؤذونك، فقد جعلنا لكل نبي قبلك أعداء فلا يحزنك ذلك[١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾. [الفرقان: ٣١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾. [النمل: ٤٥].

فقد كانوا فريقاً واحداً، فلما بعث الله فيهم نبيه صالحاً ـ عليه السلام ـ صاروا فريقين: فريق الحق، وفريق الباطل، ووقع الصراع المحتوم[٢].

هكذا اقتضت سنة الله ـ عز وجل ـ منذ خُلق آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أن يكون الصراع بين الحق والباطل مستمراً، والخصومة دائمة تارة باللسان، وتارة بالسيف والسنان. والحرب سجال، ولكن العقبى للحق، والعاقبة للمتقين.

هذا، وكما أن للأنبياء أعداء، فإن لأتباعهم نصيباً وافراً من ذلك العداء بحسب اتّباعهم لمنهج الحق واقترابهم منه، بل إن عداوة المجرمين لهم أشد، وتكذيبهم لهم أعظم، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مؤيّدون بالوحي والمعجزات الباهرة التي تقطع بصدقهم، بخلاف أتباعهم من المؤمنين،

---

(١) انظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (ط١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤١٢هـ)، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج ٩، ص ٥٣٠.

فإنهم لم يؤيّدوا بشيء من ذلك، إلا بنصر الله وتأييده في علم الغيب، ولذا قال سبحانه: ﴿. . وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، فنعم المولى ونعم النصير.

ونظراً لأهمية هذه الحقيقة، فإن الحديث عنها سيتركز في أربعة مباحث رئيسة، وهي بإجمال:

١ ـ حتمية هذا الصراع.

٢ ـ حقيقته.

٣ ـ أسبابه ودوافعه.

٤ ـ الحكمة منه.

وسيكون الحديث في هذه المباحث باختصار وإيجاز، نظراً لطبيعة هذا الفصل التمهيدي، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول
حتمية الصراع بين الحق والباطل

إن الصراع بين الحق والباطل أمر لا مفر منه، وحقيقة واقعة ليس لأحد فيها اختيار؛ وذلك أن الباطل لا يطيق مجرد رؤية الحق، فضلًا أن يعيش معه بسلام، وحتى لو أراد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل ـ فترة من الزمن ـ تاركاً الأمر لقضاء الله وفتحه، فإن الباطل لا يرضى بذلك، بل لايزال يطارد الحق ويصاوله بكل ما أوتي من قوة حتى يقضي عليه ـ أو يُخيَّل إليه ذلك ـ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾. [البقرة: ٢١٧]. ومتى ما ارتد صاحب الحق عن دينه، أو داهن الباطل وسايره؛ أمكن أن يعيش معه بسلام، لكنه سلام يعقبه الخزي والعار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

ولقد سعى أعداء الرسل من المجرمين إلى إعادة الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم إلى ملتهم الباطلة لإنهاء الصراع المحتوم، والعيش بسلام بزوال الحق، وسلكوا في ذلك مسالك شتى: تارة بالتهديد والوعيد كما حصل لشعيب ـ عليه السلام ـ وأتباعه حيث قال الذين استكبروا من قومه: ﴿. . لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾. [الأعراف: ٨٨].

وتارة بالإغراء والوعد كما حصل لنبيا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾. [الإسراء: ٧٣].

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «ذُكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح، يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه، وكان في قولهم أن قالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا.. فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقارفهم، ثم منعه الله وعصمه من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا..﴾»[1].

وهكذا يسعى أعداء الرسل من المجرمين إلى إطفاء نور الحق ومحوه، ليستتب لهم الأمر في غياب الحق الذي يقضّ وجوده مضاجعهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾. [التوبة: ٣٢، ٣٣]. وما كان للرسل ـ عليهم السلام ـ أن يرتدوا عن دينهم الحق، ويعتنقوا ملة الباطل. وهكذا أتباعهم من بعدهم، ولئن فعلوا ليستبدلن الله بهم غيرهم، كما قال ـ سبحانه ـ لأتباع نبيه ﷺ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾. [محمد: ٣٨]. إذاً فالصراع بين الحق والباطل أمر لا مفر منه، شاء الفريقان أم أبيا، فلا مفر لأهل الحق من خوض هذا الصراع والصبر على ذلك، وانتظار الفتح من الله ـ عز وجل ـ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وأن يقولوا كما قال نبينا محمد ﷺ لما قال له عمه أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء ـ يعني قريشاً ـ قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانتهِ عن أذاهم، فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «**أترون هذه الشمس؟**» قالوا: نعم. قال: «**فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة**»[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان: ج ٨ ص ١١٩. وانظر: أبو الحسن النيسابوري، أسباب النزول (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٢هـ): ص ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص ٢٤١ برقم ١/٨٧١٧، والحاكم في المستدرك: ج=

أو يقولوا كما قال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿. . عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾. [الأعراف: ٨٩]. ثم تجري سنة الله بعد ذلك بما جرت به في كل مرة على مدار التاريخ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. [الفتح: ٢٣].

ولا ننسى الإشارة إلى سنة أخرى من سنن الله ـ عز وجل ـ في هذا الكون، ألا وهي سنة التدافع بين القوى، والتي أشار الله إليها بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. [البقرة: ٢٥١]. فلولا أن الله «يدفع بالمؤمنين في صدور الكفرة والمجرمين، لفسدت الأرض باستيلاء الكفرة عليها، وتماديهم في جميع أقطارها، والله تعالى لا يخلي زماناً من قائم بحق، وداع إلى الله ـ عز وجل ـ ومجاهد في سبيله، حتى جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فله الحمد كثيراً»[1].

= ٣ ص ٥٧٧. وانظر: أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (ط ٦؛ المدينة النبوية: مكتبة العلوم والحكم: ١٤١٥هـ): ج ١، ص ١٦٠، والألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ١، ص ١٩٤، برقم ٩٢.

(١) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز (ط ١؛ قطر: نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر: ١٤٠١هـ): ج ٢ ص ٣٧٢ (بتصرف). وانظر: عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن (الرياض: طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: ١٤٠٤هـ): ج ١ ص ٣٠٨.

المبحث الثاني
حقيقة الصراع بين الحق والباطل

ما حقيقة هذا الصراع؟

سؤال قد يتبادر إلى الذهن بعد أن عرفنا حتمية هذا الصراع.

وجوابه في قول الله تعالى: ﴿.. شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. [الأنعام: ١١٢].

قال قتادة ومجاهد والحسن ـ رحمهم الله ـ: «إن من الإنس شياطين، كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن، وعجز عن إغوائه، ذهب إلى متمرد من الإنس ـ وهو شيطان الإنس ـ فأغراه بالمؤمن ليفتنه»[١].

وأخرج الطبري رحمه الله ـ بسنده عن السدي ـ رحمه الله ـ أن شيطان الإنس وشيطان الجن يلتقيان، فيقول كل واحد منهما: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، وأضللت أنت صاحبك بكذا وكذا. فيعلّم بعضهم بعضاً[٢].

فإذاً هو صراع يقف في أحد طرفيه الحق ـ ممثلًا في رسالات الأنبياء ودعوات الرسل ـ عليهم السلام ـ وفي الطرف الآخر تقف جميع قوى الشر في هذا الكون: شياطين الإنس والجن ـ ولا يعادي الرسل إلا الشياطين ـ تقف كلها وتتجمع في تعاون وتناسق مستمر، لتنفيذ مخطط مقرر سلفاً، هو عداء الحق المبين، يمدّ بعضهم بعضاً بوسائل الإضلال والغواية، وفي الوقت نفسه يضل بعضهم بعضاً بما يزينه ويحسنه له من زخرف القول بالباطل، في كيد

---

(١) الحسين البغوي، معالم التنزيل (الرياض: دار طيبة: ١٤٠٩هـ): ج ٣ ص ١٧٩، ١٨٠.

(٢) جامع البيان: ج ٥ ص ٣١٤.

لا ينقطع ليلًا ونهاراً، ومكر تكاد تزول منه الجبال الرواسي، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾. [إبراهيم ٤٦]. ولهذا، يُنحي بعضهم باللائمة على بعض يوم القيامة، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتبدو الأمور على حقيقتها، بل يلعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى واصفاً حالهم في ذلك اليوم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. [سبأ: ٣١ـ٣٣].

وقال تعالى واصفاً حالهم في النار: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾. [الأعراف: ٣٨، ٣٩]. وقال تعالى مبيناً ما سيؤول إليه حالهم يوم القيامة: ﴿ .. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾. [العنكبوت: ٢٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولكن ما حجم كيدهم ومكرهم هذا، الذي يمكرونه في الدنيا؟ وهل هو حُرٌّ طليق خارج عن مشيئة الله وقدرته وقدره؟

كلا، فهم لا يقدرون على شيء من ذلك إلا بالقدر الذي يشاؤه الله ـ عز وجل ـ ويُقدّره. ومن هنا يبدو هذا الكيد ـ على ضخامته ـ ضئيلًا محدوداً بقدر الله وقدرته ومشيئته، لا كما يصوره الشيطان في نفوس أتباعه وأوليائه، لتتعلق قلوبهم بغير الخالق ـ سبحانه ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ . [آل عمران: ١٧٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم. ولهذا قال: فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»(١) وذلك أنهم لا يضرون أحداً من أولياء الله إلا بما أراده الله وقدّره امتحاناً وابتلاءً، ويبقى الأمر كله راجعاً إلى الله ـ عز وجل ـ وتحت مشيئته وإرادته: ﴿. . وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ . [الأنعام: ١١٢].

وخلاصة القول: إنه صراع من أجل البقاء، بين قوى الشر والكفر والفساد، وقوى الخير والطهر والنقاء، وميدانه الحياة الدنيا، وأما وسائله فالإلحاد والإغواء، والكذب والافتراء، هذا من جهة أهل الباطل، أما أهل الحق فليس لهم من وسيلة إلا ما نزل به الوحي من السماء.

هذه هي حقيقة هذا الصراع وما يؤول إليه في الدنيا والآخرة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ط ٢؛ بيروت: دار المعرفة: ١٣٩٥هـ): ج ١ ص ١١٠.

المبحث الثالث
دوافع الصراع بين الحق والباطل وأسبابه

إن كل عمل يقوم به عاقل[1] لا يخلو من دافع أو سبب يدفعه إلى القيام به، وإلا لعُدّ ضرباً من السفه والجنون. وكلما كان العمل خطيراً كان الدافع إليه أقوى، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بحياة أو موت، أو وجود أو عدم، كما هو الحال في الصراع بين الحق والباطل، لذا كان من الأهمية بمكان معرفة دوافع هذا الصراع وأسبابه. وقد قمت باستقراء هذه الدوافع والأسباب في كتاب الله ـ عز وجل ـ وتتبعها، فوجدتها لا تخرج عن ستة عشر دافعاً وسبباً، وهي بإجمال:

١ ـ الحسد والبغي.
٢ ـ الاستكبار.
٣ ـ طلب العلو في الأرض.
٤ ـ حفظ الجاه والمنصب.
٥ ـ العصبية المقيتة.
٦ ـ التقليد الأعمى للآباء والرجال.
٧ ـ الجحود.
٨ ـ الحفاظ على المألوف والتمسك بالعادات.
٩ ـ التعلق بالدنيا والرضا بها والاغترار ببهرجها الكاذب.
١٠ ـ الاغترار بالأموال والأولاد.
١١ ـ كراهية الحق.

---

(١) المقصود بالعاقل هنا: ضد المجنون. وإلا فإن من كفر بالله ورسله فليس بعاقل (انظر: ص ١٣١).

١٢ ـ الطغيان.
١٣ ـ اتباع الهوى.
١٤ ـ اتباع الشيطان.
١٥ ـ الغرور.
١٦ ـ عدم الإيمان بالآخرة، والتكذيب بيوم الدين.

هذه هي الدوافع والأسباب بإجمال، وفيما يلي عرض موجز لكل واحد منها على حدة:

أولاً: الحسد والبغي:

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ . . ﴾. [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ . . ﴾. [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾. [البقرة: ١٠٥].

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . ﴾. [النساء: ٥٤].

فالحسد أول ذنب عُصي الله به، وبسببه طرد إبليس من رحمة الله تعالى، وقامت سوق العداوة بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، وكُذبت الرسل، حتى قال فرعون هذه الأمة أبو جهل لما بُعث نبينا محمد ﷺ: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعمنا فأطعمنا، وحملوا فحملنا،

وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا[١] على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»[٢] .

ومثل ذلك قال زعماء يهود لما بعث النبي ﷺ من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، مع أنهم لا يرتابون لحظة في صدقه - عليه الصلاة والسلام - كما قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ . [البقرة: ١٤٦].

والحسد المذموم هو الذي يدفع صاحبه إلى رد الحق، ويحمله على البغي والعدوان، والسعي في إتلاف المحسود أو الإضرار به.

أما الحسد الكامن في النفس (غير المتعدي) وهو الذي لا يمنع من اتباع الحق، ولا يترتب عليه أذى بوجه من الوجوه - فهذا لا يكاد يخلو منه أحد[٣] .

قال الحسن البصري - رحمه الله -: «ما من آدمي إلا وفيه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء»[٤] .

وقال ابن رجب - رحمه الله -: «والحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل»[٥] .

---

(١) الجاذي: المقعي منتصب القدمين وهو على أطراف أصابعه. (ابن منظور، لسان العرب (القاهرة: دار المعارف): ج ١ ص ٥٨٠، مادة جذا).

(٢) عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية (مؤسسة علوم القرآن): ج ١، ص ٣١٦.

(٣) ولذا جاء تقييد الاستعاذة من شر الحاسد في سورة الفلق بقوله: ﴿إذا حسد﴾.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة): ج ١٠ ص ٤٨٢.

(٥) جامع العلوم والحكم (الرياض: توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد): ص ٢٨٦.

وفي الحديث المتفق عليه: «**إن الله ـ عز وجل ـ تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**»[١].

بل ربما دل ذلك على علوّ الهمة، وشرف النفس، وحب خصال الخير والتشبه بأهلها، فتحدث له من هذه الهمة: المنافسة والمسارعة إلى الخير مع محبة مُنافسه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا لا بأس به ولا يُلام عليه صاحبه[٢].

وأما البغي، فهو مجاوزة الحد المشروع في كل شيء، وأصل البغي: الحسد، ثم سمي الظلم بغياً؛ لأن الحاسد يظلم المحسود جهده طلباً لزوال نعمة الله عنه[٣]، فالبغي هو ثمرة الحسد المذموم الدال على خسة النفس، وسقوط الهمة، وخبث السريرة، فلا تجد حاسداً من هذا النوع، إلا وفيه من هذه الأوصاف بقدر ما في قلبه من الحسد والغل، وأعظم الناس همة، وأطيبهم نفساً: أسرعهم استجابة للحق وإذعاناً له، وإن خالف الحق هواه، ولذا أخبرنا الله ـ عز وجل ـ عن اليهود كما في الآيات السابقة، أن سبب كفرهم برسالة نبينا محمد ﷺ هو الحسد والبغي لما جُبلت عليه نفوسهم من الذلة والمهانة كما جاء وصفهم في كتاب الله تعالى: ﴿. . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ . .﴾. [البقرة: ٦١].

والمقصود أن الحسد والبغي دافع من دوافع الصراع بين الحق والباطل.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: إذا حنث ناسياً في الأيمان: ج ٦ ص ٢٤٥٤ برقم ٦٢٨٧ . ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس: ج ١ ص ٨١، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد (بيروت: دار الفكر)، ج ٢، ص ٢٣٦، ٢٧٣.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١ ص ٣٢٣، مادة: (بغا).

ثانياً: الاستكبار:

قال تعالى: ﴿ . . فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ . [الأعراف: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ . [العنكبوت: ٣٩].

وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ . [الشعراء: ١١١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، كلها تدل على أن الاستكبار في الأرض دافع من دوافع رد الحق ومن ثم مصارعته ومقارعته.

والكِبْر داء عضال، لا يرجى معه صلاح ولا فلاح إلا أن يشاء الله، وقد رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «إذا كانت خطيئة الرجل في كِبْرٍ فلا ترجُه»[١] . وقد أخبر النبي ﷺ أن الكبر: بَطر الحق [أي دفعه وردّه ترفعاً]، وغمط الناس [أي احتقارهم][٢] ، وهذا الداء أكثر ما يكون: في الأكابر، وهم الملأ من أقوام الرسل الذين يأنفون من مجالسة عامة الناس وضعفائهم، فضلًا عن أن يكونوا هم وإياهم في الحقوق العامة سواء، ولذا فإنهم يترفعون عن اتباع الرسل ـ عليهم السلام ـ لمجرد أن الذي آمن بهم من الضعفاء، مخالفة لهم، قال الله تعالى عن قوم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ . [الأعراف: ٧٥، ٧٦]. فتأمل قوله: (إنا بالذي آمنتم به. . .) أي كائناً من

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار المعرفة: ١٤٠٣هـ): ج ٣ ص ٨٩.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: ج ١، ص ٦٥ برقم ١٤٧.

كان، ولو كان الحق الذي لا مرية فيه[1] . بل إنهم ليأنفون حتى من مجالسة الرسل ـ عليهم السلام ـ والاستماع إليهم، كما قال بعضهم: ﴿. . أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا . . ﴾ . [التغابن: ٦]. وقال آخرون: ﴿. . لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ . [الزخرف: ٣١].

ثالثاً: طلب العلو في الأرض:

العلو هو التعظّم والتجبر[2] ، قال تعالى في وصف فرعون: ﴿. . إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ . [الدخان: ٣١].

وقال تعالى تعقيباً على قصة قارون وما حل به من الخسف والدمار: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ . [القصص: ٨٣].

فتأمل قوله: (لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. .) فإنه ما من أحد أراد العلو في الأرض، إلا طغى وتجبر ورد الحق، فحصل بذلك من الفساد والظلم ما يستوجب العقوبة في الدنيا والآخرة. فلا يُذعن للحق إلا من تواضع للخلق، ولم يرد العلوّ في الأرض، فهؤلاء لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿. . وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

رابعاً: حفظ الجاه والمنصب:

قال تعالى حاكياً قول فرعون وملئه، لما جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ بالبينات: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ . [يونس: ٧٨]. وذلك أن قلوبهم متعلقة بالجاه

---

(١) انظر: برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ط ١ ؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤١٥هـ)، ج ٣، ص ٥٨.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ١١٥.

والمنصب، فنضحت بما فيها، ولو كانت متعلقة بالله واليوم الآخر لأذعنوا للحق ورضوا به، ولما رموا موسى ـ عليه السلام ـ بما رموه به، ولكن: كل إناء بالذي فيه ينضحُ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن الفاتحة واشتمالها على الشفاءين؛ شفاء القلوب والأبدان: «والتحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ علماً ومعرفة، وعملًا وحالاً، يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل بأنواع الوسائل الموصلة إليها؛ كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته، من المشركين، ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدّاً أعطوا السكة والخطبة[1]، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ. . . ».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. . . »[2].

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة كثيرة لأقوام كانوا يتشدقون بالحق، فلما

---

(١) قال المحقق محمد حامد الفقي ـ رحمه الله ـ: «السكّة: المراد منها الاسم والشعار يُضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور، أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم».

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (ط ٢؛ بيروت: دار الكتاب العربي: ١٣٩٢هـ): ج ١، ص ٥٢، ٥٣.

استتب لهم الأمر، وحازوا أعلى المناصب، كانوا أول عدو للحق ومحارب له، حفظاً للجاه والمنصب.

خامساً: العصبية المقيتة:

وهي أنواع:

- فمنها ما يكون للملة والدين والمذهب ولو كان باطلًا، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . .﴾. [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾. [البقرة: ١٤٥].

وقال تعالى حاكياً قول طائفة من أهل الكتاب لبني جنسهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ . .﴾. [آل عمران: ٧٣].

- ومنها ما يكون للعِرْق والجنس، كقول اليهود والنصارى: ﴿. . نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ . .﴾. [المائدة: ١٨]، وزعْم اليهود أنهم شعب الله المختار!! وأنهم ﴿. . أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ . .﴾. [الجمعة: ٦]، فحملهم ذلك على الحسد والبغي، ورد الحق ومعاداته.

- ومنها ما يكون للقبيلة والنّسب، كحال صاحب مسيلمة الكذاب؛ الذي جاء إليه وسأله عن حاله، فأخبره أنه يأتيه رجل في ظلمة، فقال قولته المشهورة: «أشهد أنك الكاذب، وأن محمداً صادق؛ ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر!»[1]، فيا لها من كلمة ما أصدقها من كاذب.

- ومنها ما يكون لغير ذلك من أنواع العصبيات المذمومة التي تمنع من اتباع الحق، بل تحمل على معاداته ومدافعته.

---

(١) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ط ٤؛ بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤٠٣هـ): ج ٢ ص ٢٤٥. وصاحب مسيلمة هو طلحة النمري، وقد قُتل مع مسيلمة يوم عقرباء كافراً. (انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

سادساً: التقليد الأعمى للآباء والرجال:

قال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . .﴾. [البقرة: ١٧٠].

وكذلك قال قوم نوح لنوح ـ عليه السلام ـ: ﴿. . أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا . .﴾. [الأعراف: ٧٠].

وقالت ثمود لنبيها صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿. . أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا . .﴾. [هود: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)﴾. [الزخرف: ٢٣].

ولهذا قال الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)﴾. [هود ١٠٩]، ولو كانوا يجهلون الحق لربما كان لهم عذر في تقليدهم لآبائهم؛ ولكن كيف وقد جاءهم رسول من عند الله بالبينات، وقال لهم: ﴿. . أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ . .﴾ فردوا عليه قائلين: ﴿. . إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)﴾. [الزخرف: ٢٤]، أي قد كفرنا بما جئتنا به، وإنا لثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى[1] . . فكانت النتيجة: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾. [الزخرف: ٢٥]، فيا لها من عقول مريضة آثرت التقليد الذميم، على الهدى المستقيم، فقبّحها الله من عقول.

---

(١) انظر: جارالله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (بيروت: دار المعرفة): ج ٣ ص ٤١٦.

سابعاً: الجحود:

وهو الإنكار مع العلم[١].

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ ﴾. [هود: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴾. [النمل: ١٤].

فالجحود سبب من أسباب الصراع بين الحق والباطل، وإذا استقر هذه في وجدان الداعية هان عليه أمر هذا الصراع، وازداد يقينه بربه وبما معه من الحق، فلا يحزن ولا يهن، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ مسلياً: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾. [الأنعام: ٣٣].

ثامناً: التمسك بالعادات والحفاظ على المألوف:

قال تعالى حاكياً قول المشركين لما دُعوا إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾. [ص: ٥] أي: إن هذا لأمر في غاية العجب[٢]. وذلك أنهم ألفوا الشرك واعتادوه، فصار التوحيد عندهم غريباً منكراً، وقد ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية أن صناديد قريش جاءوا إلى أبي طالب، فقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ يعنون محمداً ﷺ وأصحابه ـ وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعاه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تَمِلْ كلّ الميل على قومك. قال: «وماذا

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب: ج ١ ص ٥٤٧. مادة (جحد).

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (ط ١؛ دمشق ـ بيروت: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب: ١٤١٤هـ): ج ٤ ص ٤٨٣.

يسألوني؟» قالوا: ارْفُضْنا وارفض ذكر آلهتنا ونَدَعَك وإلهك، فقال النبي ﷺ: «**أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟**». فقال أبو جهل: لله أبوك، لنعطيّنكها وعشر أمثالها، فقال النبي ﷺ: «**قولوا لا إله إلا الله**». فنفروا من ذلك، فقاموا فقالوا: اجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! كيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟! فأنزل الله فيهم هذه الآيات...[١].

إن التشبث بالعادات والمألوفات أمر في غاية الخطورة، «وما على العبد أضرّ من مِلْك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطّن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع...»[٢].

ومن هنا يُعلم أن ما يردده بعض الكُتّاب وبعض الناس من ضرورة التمسك بالعادات والتقاليد والمحافظة عليها..! أمر فيه نظر[٣]، فما كان منها موافقاً لشرع الله تعالى قبلناه وتمسكنا به امتثالاً لأمر الله، وما كان غير ذلك، تركناه وأعرضنا عنه، وإن اعتاده الناس وألفوه، فالشرع هو الذي يحكم العادات ويحكم عليها، وليست العادات هي التي تحكم الشرع المطهر.

تاسعاً: التعلق بالدنيا والرضا بها والاغترار ببهرجها:

قال تعالى في وصف أعداء الرسل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣﴾. [إبراهيم: ٣].

---

(١) أسباب النزول: ص ٢١٠.

(٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: ج ١ ص ١٤٦.

(٣) انظر: محمد المسند (جمع وترتيب)، فتاوى إسلامية (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١٥هـ): ج ٤ ص ٤٨١.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾. [مريم: ٧٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله، ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿.. خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور، على الحق..»[1].

هذا هو قولهم، وهم يقولون ذلك تسلية لأنفسهم، وتغريراً للعامة، وإلا فإنهم لا يداخلهم شك في صدق الرسل ـ عليهم السلام ـ وما جاءوا به من الحق المبين، كما قال تعالى: ﴿.. فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ..﴾. [الأنعام: ٣٣].

عاشراً: الاغترار بالأموال والأولاد:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾. [سبأ: ٣٥].

فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾. [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى حاكياً قول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ١٣٤.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾. [نوح: ٢١].

وقال تعالى في وصف الكافر المجرم: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾. [القلم: ١٤، ١٥].

فالاغترار بالأموال والأولاد سبب ظاهر من أسباب دفع الحق ومحاربته.

حادي عشر: كراهية الحق:

قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾. [الأنفال: ٨].

وقال تعالى: ﴿.. بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾. [المؤمنون: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾. [محمد: ٩].

والكراهية عمل من أعمال القلب، وهي تشكل حاجزاً منيعاً في قلوبهم، يحول بينهم وبين الإيمان بالله ـ عز وجل ـ والأنس به، واتباع رسله ـ عليهم السلام ـ فكانوا أعداء للرسل، ينافحون عن الباطل، ويستميتون في الدفاع عنه، كما فعلوا في بدر وغيرها فأخزاهم الله، وجعل العاقبة الحميدة لعباده المؤمنين.

ثاني عشر: الطغيان:

قال تعالى عن المكذبين بالرسل: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾. [الذاريات: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾. [الطور: ٣٢]. أي: بل هم طاغون[1].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٤٩٥.

وقال تعالى لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ . [طه: ٢٤].

والطغيان هو مجاوزة الحد المشروع الذي حده الله ـ عز وجل ـ وهو صفة مشتركة بين أعداء الرسل وإن لم يتفقوا عليها بلسان المقال، أو يوص بعضهم بعضاً بها على مر الدهور وتعاقب الأزمان، ولكن تشابهت قلوبهم، واتفقت تصوراتهم، فاجتمعوا على تكذيب الرسل ـ عليهم السلام ـ. والكفر ملة واحدة، والطغيان عاقبته إلى الخسران، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ . [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

ثالث عشر: اتباع الهوى:

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ . [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ . [القمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ . [المائدة: ٧٧].

فاتباع الهوى يصد عن الحق، ويحمل على معاداته، «ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد، يجعل من أهل الأهواء؛ كما كان السلف يسمونهم: أهل الأهواء»[١] ، مع تفاوت بينهم في

(١) عبدالرحمن بن قاسم (جمع وترتيب)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين) ج ٢٨ ص ١٣٣ .

القرب من الحق والبعد عنه بحسب ما يتبعونه من أهوائهم، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى اتخاذ الهوى إلهاً من دون الله فيكون قائده وسائقه، كحال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين. واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات. نعوذ بالله من الخذلان.

رابع عشر: اتباع الشيطان:

قال تعالى: يصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾. [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى محذراً عباده: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾. [يس: ٥٩ ـ ٦١]. وعبادة الشيطان: طاعته واتباعه والاستجابة له فيما يدعو إليه، فهو أول عدو للحق، وعلى يديه بدأ أول صراع بين الحق والباطل كما أخبرنا الله ـ عز وجل ـ وقد نذر نفسه لإضلال الخلق، ومعاداة الحق إلى قيام الساعة بمن اتبعه من شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويوم القيامة يتبرأ منهم، ويكفر بشركهم: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾. [الحشر: ١٦، ١٧].

خامس عشر: الغرور:

وهو أنواع؛ فمنه ما يكون بالعلم، كحال بني إسرائيل الذين قال الله فيهم: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. [آل عمران: ٢٤](١).

ومنه ما يكون بالمال والغنى، كحال قارون، وقد قص الله علينا قصته في آخر سورة القصص، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾. [القصص: ٧٦ ـ ٨٢].

ومنه ما يكون بالسلطان والقوة المادية وكثرة الجنود، كحال فرعون وملئه، كما قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾. [الذاريات: ٣٨، ٣٩]. وركنه: جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم(٢).

ومنه ما يكون بالقوة الجسمانية وكمال الخلقة، كحال قوم هود، الذين قالوا: ﴿.. مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً..﴾. [فصلت: ١٥].

ومنه ما يكون بغير ذلك مما يغتر به الإنسان من متاع الدنيا الزائل.

هذا، وقد عاقب الله كلًّا بما يستحقه، ويليق به.

سادس عشر: عدم الإيمان بالآخرة والتكذيب بيوم الدين:

قال تعالى في وصف أعداء الرسل: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾. [الأعراف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿.. فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

---

(١) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ٣٦٩.
(٢) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٧ ص ٣٧٨.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ.. ﴾. [المؤمنون: ٣٣].

وقال تعالى حاكياً قول المجرمين: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾. [المدثر: ٤٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، كلها تدل على أن عدم الإيمان بالآخرة، والتكذيب بيوم الدين ـ وهو يوم الجزاء ـ دافع رئيس من دوافع الصراع بين الحق والباطل.

هذا ما ظهر لي ـ بعد التتبع والتأمل والنظر في كتاب الله عز وجل ـ من أسباب الصراع بين الحق والباطل، والدوافع التي تدفع إليه، وأرجو أن أكون قد وفقت في جمعها وبيانها بياناً شافياً وإن كان مختصراً.

وقبل أن أختم هذا المبحث، أود أن أشير إلى أمر مهم، وهو أن هذه الدوافع والأسباب متداخلة، مشتبك بعضها ببعض، وبعضها ناتج عن بعض، ولذا قد تجتمع كلها أو بعضها في طائفة من المجرمين، وقد ينفرد بعضها بشيء منها، والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع
الحكمة من الصراع بين الحق والباطل

منذ أن أعلن إبليس تمرده الأول على ربه، ورفضه الانصياع لأمره بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ والصراع قائم بين الحق والباطل. وقد شاء الله ـ عز وجل ـ أن يقوم هذا الصراع لمصالح عظيمة اقتضتها الحكمة الإلهية، ولهذا لما قال ـ سبحانه ـ للملائكة: ﴿. . إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ. .﴾ فأجابهم بقوله: ﴿. . إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٣٠].

وفي هذا المبحث سأذكر ما ظهر لي في كتاب الله ـ عز وجل ـ من هذه المصالح والحكم لما في ذلك من زيادة الإيمان، وتثبيت اليقين.

وهي بإجمال:

١ ـ ظهور الحق ووضوحه.

٢ ـ تقوية عود الدعوة.

٣ ـ تمييز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة.

٤ ـ تمييز القائمين على الدعوات، وطرد الزائفين منها.

٥ ـ اتخاذ شهداء من المؤمنين.

٦ ـ محق الكافرين.

٧ ـ المحافظة على بقاء الحق، واستثارة الطاقات الكامنة في نفوس أصحابه.

٨ ـ حصول محبوب الله من عبودية الصبر والجهاد وتحمل الأذى فيه وغير ذلك.

التفصيل:

أولاً: ظهور الحق ووضوحه:

إن من سنن الله ـ عز وجل ـ إذا أراد إظهار دينه وإعلاء كلمته: أن يقيم له من يعارضه من المجرمين، فيُحق الله الحق بكلماته، ويقذف به على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق[1]، ولولا الباطل ما عرف الحق. كما أنه لولا الليل ما عرف النهار.. وبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنه ـ أو سوأته ـ الضد.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حصل لكليم الرحمن ـ عليه السلام ـ مع طاغية الزمان (فرعون)، وقول الله ـ عز وجل ـ في سياق تلك الآيات: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾. [يونس: ٨٢]. فإن من جملة إحقاق الله للحق، أن يقيض له الباطل ليعارضه، فإذا عارضه صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهداه ما لم يكن ليظهر لولا تلك المعارضة، فيضمحل بذلك الباطل وينقطع، ويتبين بطلانه لكل أحد[2]، فلله الحكمة البالغة سبحانه.

ثانياً: تقوية عود الدعوة:

إن الشجرة حين تقلّم أغصانها تخضر أوراقها، وتونع ثمرتها، وتزداد قوة وثباتاً ورسوخاً في الأرض، وكذلك فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوّي عودها، ويزيدها رسوخاً وثباتاً، يؤهلها للقيام بدورها المنشود في قيادة البشرية، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾. [التوبة: ٣٣].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ٢٨ ص ٥٧.

(٢) انظر: عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٦١٤.

وهذا لا يتحقق إلا بعد صراع مرير مع الباطل: ﴿.. لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. [الأنفال: ٤٢]. وهذا هو السر فيما حصل للمؤمنين الأوائل في مكة ـ شرفها الله ـ وقد عاشوا فيها ثلاث عشرة سنة وهم يتلقون أصناف الأذى والإهانات على أيدي زبانية قريش وسفهائهم، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، بل كان يتعرض للأذى كما يتعرضون، والله ـ عز وجل ـ قادر على نصرهم وإهلاك أعدائهم في أسرع من لمح البصر، لكن حكمته اقتضت أن يتربى هؤلاء الرجال على الشدائد والأذى ليكونوا فيما بعد قاعدة الإسلام الصلبة، وقد كانوا، ولولا ذلك ما قامت للإسلام قائمة، وذلك أن البناء ما لم يشيد على أساس متين فإنه سرعان ما ينهار ويتهاوى، وكذلك بناء الدعوة.

إن النفس البشرية بطبعها وجبلتها حين تُكره على ترك ما تهواه ـ ولو كان باطلًا ـ فإنها تميل إلى التحدي والإصرار والعناد، فكيف إذا أكرهت على ترك الحق الذي تعتقده وتدين الله به؟ لا ريب أن ذلك سيزيدها إصراراً وتمسكاً به مهما كلفها من تضحيات، وبهذا تتبين الحكمة من بروز المجرمين في طريق الأنبياء والدعوة.

ثالثاً: تمييز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة:

إن بروز الخصوم والأعداء للدعوات هو الذي يكشف عن حقيقتها، ويميز خبيثها من طيِّبها فلا تلتبس الدعاوى الباطلة بدعوة الحق الناصعة، ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة، لا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون، لسهل إذاً على كل مدَّع أن يكون صاحب دعوة، ولاختلطت دعوات الحق بدعاوى الباطل، والقرآن الكريم يذكر لنا نماذج حية للدعوات الحقّة الممثلة في أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من المؤمنين الصادقين، ابتداء من نوح ـ عليه السلام ـ وانتهاءً بنبينا محمد ﷺ، وكيف

صبروا على ما أصابهم في سبيل الله من الأذى والتكذيب، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

كما يذكر لنا القرآن الكريم نماذج من الدعوات الباطلة المتسترّة بالإسلام وبالحقّ، كالملأ من بني إسرائيل من قوم موسى: ﴿ . . إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . [البقرة: ٢٤٦]، فلما بعث الله لهم ملكاً، قالوا لنبيهم: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ . فقال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . [البقرة: ٢٤٧]. فلما ساروا معه للقتال: ﴿ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . [البقرة: ٢٤٦] إلى آخر ما ذكره الله عنهم.

رابعاً: تمييز القائمين على الدعوات، وطرد الزائفين منها:

قد تكون الدعوات صحيحة من حيث المنهج، لكنّ القائمين عليها من ذوي النوايا السيئة، والمقاصد الدنيوية، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يكون هذا الصراع، لتتكشّف النوايا، وتظهر الخبايا، كما قال تعالى في سياق حديثه عن غزوة أحد، وما حصل فيها من الصراع بين الحق والباطل: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . ﴾ أي يظهر علمه ـ سبحانه ـ في الواقع[1] .

وقال تعالى في الآية التي تليها: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ . [آل عمران: ١٤١] أي يختبرهم ويمتحنهم، ليتبين الصادق من الكاذب.

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٢ ص ١٦٠.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً كذَّاباً[١]، كلهم يزعم أنهم نبي، وقد ظهر بعضهم فعفا على ذكره الزمن، ولم يكن له من أثر يُذكر في التاريخ، سوى أن أصبح أضحوكة لمن بعده، وصارت سيرته مادَّة للسخرية والتهكُّم. وهذا هو مصير الأدعياء... لا مكان لهم إلا في مجاهل التاريخ.

إن بروز المجرمين في طريق الدعوات هو الذي «يمحّص القائمين عليها ويطرد الزائفين منها؛ فلا يبقى إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبتغي مغانم قريبة، ولا تريد إلا الدعوة خالصة، تبتغي بها وجه الله، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً، فلا يكافح ويناضل ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق، الجادُّون المؤمنون، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يُستشهدوا في سبيلها. ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً، وأشدّهم إيماناً، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس. عندئذ تُمحص الصفوف فيتميَّز الأقوياء من الضعفاء. وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها، واجتازوا امتحانها وبلاءها. أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته. وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي..»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (ط ١، بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤١٣هـ) عن ابن عمر رضي الله عنهما، ج ٢ ص ١٥٨ برقم ٥٩٧٩. وصحح إسناده أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على المسند.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن (ط ٩، بيروت: دار الشروق، ١٤٠٠هـ)، ج ٥ ص ٢٥٦١=

أما المتعجّلون، وأصحاب المطامع الدنيوية، فإنهم سرعان ما يتساقطون في منتصف الطريق، وينكصون على أعقابهم من أوّل مواجهة بين الحق والباطل. والتاريخ مليء بنماذج من الصنفين: أهل الثبات، وأهل الزيغ والنكوص.

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

خامساً: اتخاذُ شهداء من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ . . وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ . . ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. أي ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها[١]، وذلك أن الشهادة عند الله تعالى من أعلى المنازل والدرجات؛ ولا سبيل إلى نيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها مما تكرهه النفوس، من مجاهدة الأعداء ومقارعتهم، فمن رحمته ـ سبحانه ـ أن هيّأ لهم هذه الأسباب ليكرمهم بما يحبُّون من المنازل العالية، والنعيم المقيم[٢].

كما أنَّ في موت الشهداء ـ وهم أحياء عند ربهم ـ حياة للأمة وبعث لها، فشجرة الحق إنما تُسقى بدماء الشهداء ودموع الثكالى. ولهذا، كانت الشهادة في سبيل الله من أغلى أمنيات المؤمنين الصادقين، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

سادساً: محق الكافرين وإهانتهم وكبتهم:

قال تعالى في سياق الآيات السابقة، مبيّناً بعض حِكَمه فيما قدَّره من الصراع بين الحق والباطل: ﴿ . . وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١].

= (باختصار وتصرف).

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٤٥٠.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

«أي: ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا، وازدادوا طغياناً يستحقون به المعاجلة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين»(١) .

وسواء طال الزمان أم قصر، فإن وعد الله حق، ومن فاته المحقُ منهم في الدنيا، فإن الله يمحقه في الآخرة في نار جهنم.

ومن تأمل ما قصَّه الله ـ عز وجل ـ علينا في كتابه الكريم، من أحوال الرسل ـ عليهم السلام ـ مع المكذبين من أقوامهم، رأى مصداق هذه الآية الكريمة ماثلًا للعيان، والله المستعان.

سابعاً: المحافظة على بقاء الحق، واستثارة الطاقات الكامنة في نفوس أصحابه:

ذُكر أن بعض المهتمين بالبيئة في بعض البلاد، قرَّروا القضاء على السباع الضارية في غابة باردة مليئة بالظباء حفاظاً على حياتها من تلك السباع، لكنَّهم بعد فترة وجيزة وجدوا تلك الظباء مرتمية في أنحاء الغابة، قد قتلها الكسل، وذلك أنها أمنت الخطر الذي يضطرّها إلى الجري والفرار والحركة، فتجمَّد الدم في عروقها، وكان ذلك سبباً لحتفها.. وهذا هو الحال في الصراع بين الحق والباطل، فلولا وجود الباطل يطارد الحق ويصاوله، لاضمحلّ الحق وفني، ولتعطلت سوق الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأُصيب أهل الحق بالركود والبرود والموت البطيء. فوجود الباطل وظهوره وتعدّيه يثير مكامن الحق في نفوس أصحابه، فتجري دماء الغيرة في عروقهم، وينتفضون لنصرته، فتحيا بذلك نفوسهم، وتقوم سوق الجهاد في سبيل الله: جهاد الكفار بالسيف والسّنان، وجهاد المنافقين المتسترين، بالحجَّة والبيان، وهذه هي وظيفة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

(١) المصدر السابق: ص ٣٢٨.

ثامناً: حصول محبوب الله من عبودية الصبر والجهاد وتحمّل الأذى فيه، وغير ذلك:

وهذه من أعظم الحكم في هذا الصراع.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في معرض رده على شبه النافين للحكمة والتعليل: «الوجه السابع والثلاثون: قوله: وأي حكمة في تسليط أعدائه على أوليائه يسومونهم سوء العذاب...؟!».

فأجاب ـ رحمه الله ـ عن هذه الشبهة قائلًا: «فكم لله في ذلك من حِكَم باهرة، منها: حصول محبوبه من عبوديّة الصبر والجهاد وتحمّل الأذى فيه، والرضى عنه في السرَّاء والضراء، والثبات على عبوديته وطاعته، مع قوَّة المعارض وغلبته وشوكته. وتمحيص أوليائه من أحكام البشرية، ودواعي الطباع، ببذل نفوسهم له، وأذى أعدائه لهم. وتميز الصادق من الكاذب، ومن يريده ويعبده على جميع الحالات، ممن يعبده على حرف. وليحصل له مرتبة الشهادة التي هي من أعلى المراتب، ولا شيء أبـرّ عند الحبيب من بذل مُحِبِّه نَفْسَه في مرضاته، ومجاهدة عدوّه. فكم لله في هذا التسليط من نعمة ورحمة وحكمة...».

إلى أن قال: «ولولا ذلك التسليط لم تظهر فضيلة الصبر والعفو وَالحكم[1] وكظم الغيظ، ولا حلاوة النصر والظفر والقهر، فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها، ولولا ذلك التسليط لم تستوجب الأعداء المحق والإهانة والكبت، فاستخرج ذلك التسليط من القوة إلى الفعل ما عند أوليائه، فاستحقوا كرامتهم عليه. وما عند أعدائه، فاستحقُّوا عقوبتهم عليه، فكان هذا التسليط مما أظهر حكمته وعزَّته ورحمته ونعمته في الفريقين، وهو العزيز الحكيم»[2].

---

(١) كذا في الكتاب، ولعلها: والحلم.

(٢) شفاء العليل، في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ط ١، الرياض: مكتبة=

وقد صدق ابن القيم ـ رحمه الله ـ ولو لم يكن من الحِكَم إلا هذه لكانت كافية، فكيف ومعها غيرها، مما سبق ذكره.

هذا ما ظهر لي من الحِكَم، من خلال تتبعي لآيات القرآن الكريم، وأقوال بعض المفسرين وأهل العلم من السلف والخلف.

وأختم هذا المبحث الجليل بخلاصة مهمة للمباحث الأربعة السابقة، فأقول:

أولًا: إن الله ـ عز وجل ـ قد جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، وإن لأتباع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ نصيباً من هذا العداء بحسب اتّباعهم لمنهج الأنبياء وقربهم منه.

ثانياً: إن الذين يقفون بالعداوة في وجه الأنبياء وأتباعهم هم شيـــــاطين: ﴿ . . . شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ . . ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فلا يعادي الرسل إلا الشياطين كما قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ(١).

ثالثاً: إن هؤلاء المجرمين، بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك، مع قيامهم جميعاً بوظيفة واحدة؛ هي عداء أولياء الله.

رابعاً: إن الله ـ عز وجل ـ يبتلي المؤمنين بهؤلاء المجرمين لأمر يريده ـ سبحانه ـ من التمحيص والتطهير ورفع الدرجات.

خامساً: إن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله بقدرة ذاتية فيهم؛ إنما هم في قبضة الله ـ جل وعز ـ وتحت تصرفه: ﴿ . . وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ . . ﴾ [الأنعام: ١١٢].

سادساً: هـوان هؤلاء الشياطين على الله، وهوان كيدهم وأذاهم، فما ينبغي لمؤمن أن يجزع أو يحزن، أو أن يكون في ضيق مما يمكرون:

= الرياض الحديثة: ١٣٢٣هـ)، ص ٢٦٦.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٦٦.

﴿.. فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. ﴿.. وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

سابعاً: إن الله ـ عز وجل ـ قد تكفَّل بهداية أوليائه المؤمنين الصادقين إذا ما التبست عليهم الأمور وخفي عليهم الحق. كما تكفَّل ـ سبحانه ـ بنصرهم وتخليصهم من قبضة عدوّهم: ﴿.. وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١](١)، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ٣ ص ١١٩٠.



الباب الأول

المجرمون؛ حقيقتهم وأصنافهم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم الجريمة في القرآن وحقيقة المجرمين.

الفصل الثاني: أصناف المجرمين وسماتهم في القرآن.



الفصل الأول

مفهوم الجريمة في القرآن وحقيقة المجرمين

ويشتمل على مبحثين :
المبحث الأول : مفهوم الجريمة في القرآن .
المبحث الثاني : حقيقة المجرمين .



المبحث الأول
مفهوم الجريمة في القرآن

قبل الحديث عن مفهوم الجريمة في القرآن؛ لابد من معرفة المعنى اللغوي لأصل كلمة (الجريمة)، وما تدلّ عليه من معانٍ، فأقول مستعيناً بالله تعالى:

أصل هذه الكلمة: جَرَمَ.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «الجيم والراء والميم أصل واحد يرجع إليه الفروع. فالجَرْم: القطع، ويقال لصِرام النَّخل: الجِرام.

وممّا يُردُّ إليه، قولهم: جَـرَم، أي: كسب؛ لأن الذي يحوزه فكأنه اقتطعه، وفلان جريمة أهله أي: كاسبهم. .

والجُـرْم والجريمة: الذَّنْب، وهو من الأول؛ لأنه كسب، والكسب اقتطاع. . .»[١].

وقال الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ: «أجرم: صار ذا جُـرْم، نحو: أَثْمَر وأَتمَر وأَلْبَنَ. واستُعير ذلك لكلِّ اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامَّة كلامهم للكيِّس المحمود. ومصدره: جَـرْم. .»[٢].

وقيل: أجرم الرجل: أذنب وعظُم جُرمه، وجسده. .[٣]. ويُقال:

---

(١) معجم مقاييس اللغة (دار الكتب العلمية، إيران): ج ١، ص ٤٥٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن (بيروت: دار المعرفة): ص ٩١.

(٣) انظر: بطرس البستاني، قُطر المحيط (ط ٢، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون: ١٩٩٥م): ص ٧٥.

جِلّةٌ جريم[١] ، عِظام الأجرام[٢] . وجـرُم : إذا عظم[٣] .

وقيل : الجريمة هي الجُرم أو الذنب الخطير[٤] ، والجمع جرائم[٥] .

و«الإجرام : الإقدام على القبيح بالانقطاع إليه؛ لأن أصل الجُـرْم القطع؛ فكأنّه قطع ما يجب أن يوصل من العمل، ومنه قيل للذنْب : الجُرم والجريمة»[٦] .

و«المجرم : المنقطع عن الحقّ إلى الباطل، وهو القاطع لنفسه عن المحاسن إلى القبائح»[٧] .

وجَرُم فلان : أذنب، كأجرم واجترم فهو مجرم وجريم. وجرم لأهله : كسب كاجترم، وجرم عليهم وإليهم جريمة : جنى جناية كأجرم. والمجرمون : الكافرون[٨] .

---

(١) الجِلَّة من الإبل : المسانّ، وجلَّتِ الناقة إذا أسنّت. (انظر : لسان العرب : ج ١ ص ٦٦٣ ، مادة : جلل).

(٢) انظر : إسحاق الفارابي، ديوان الأدب (القاهرة : مجمع اللغة العربية : ١٣٩٤هـ) : ج ١ ص ٤٢٢ .

(٣) الحسن بن محمد الصغاني : التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية (القاهرة : مطبعة دار الكتب : ١٣٩٧هـ) : ج ٥ ص ٥٩٩ .

(٤) قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ (لسان العرب : ج ٢ ص ١١٩٦) : «وأمر خطير : رفيع . . ، والخطير من كل شيء : النبيل». وعلى هذا يكون في وصف الذنب بالخطير تجوّز، ولو قال : الذنب العظيم، لكان أصح وأبلغ . والله تعالى أعلم .

(٥) انظر : حسن الكرمي، الهادي إلى لغة العرب (ط ١ ؛ بيروت : دار لبنان : ١٤١١هـ) : ج ١ ص ٣٢٨ .

(٦) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (ط ٢ ؛ بيروت : دار المعرفة : ١٤٠٨هـ) : ج ٣ ص ٥٧٧ ، وانظر : الياس كلانتري، مفردات القرآن في مجمع البيان (ط ١ ؛ طهران : ١٤٠٧هـ) ص ٦٩ .

(٧) مجمع البيان : ج ٥ ص ٥٢٣ .

(٨) الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ط ١ ؛ بيروت : دار الكتب العلمية : ١٤١٥هـ) : ج ٤ ص ٢٥ .

وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجرماً: كافراً معانداً[١].

أما تعريف الجريمة في الاصطلاح العسكري، فهي: كلّ تصـرّف حـرّمه «القانون» سواء كان إيجابيًّا أم سلبيًّا، كالتَـرْك والامتناع.

وجريمة الحرب: انتهاك فرد أو مؤسسة لقوانين وتقاليد الحرب المتعارف عليها[٢].

وخلاصة القول: أن لفظ الجريمة في الأصل يطلق على القطع، وعلى كل اكتساب يكتسبه الإنسان من خير أو شر، لكن غلب عليه الاستعمال الثاني، فصار يطلق على كل اكتساب مكروه.

كما يطلق على كل عمل قبيح مستبشع، وذنب عظيم مستشنع؛ صادر من كافر، أو فاجر، معاند للحق، منقطع إلى الباطل، قاطع لما أمر الله به أن يوصل.

ويطلق على الجناية على النفس أو العرض أو المال، أو غير ذلك من الجنايات المستوجبة للعقوبة، وإقامة الحدّ.

وقد ورد لفظ الجريمة ومشتقاته في القرآن الكريم في سبعة وستين موضعاً، مرجعها جميعاً إلى ستة أصول أو تصاريف[٣]، وهي:

١ ـ يَجْـرِم: في ثلاثة مواضع بلفظ: ﴿يَجْرِمنّكم﴾.

٢ ـ أَجْـرَم: في أربعة مواضع؛ ثلاثة منها بلفظ: ﴿أجرموا﴾ والرابع بلفظ: ﴿أجرمنا﴾.

٣ ـ يُجْـرِمُ: في موضع واحد بلفظ: ﴿تُجْرمون﴾.

٤ ـ إجْرام: في موضع واحد بلفظ: ﴿إجرامي﴾.

---

(١) مجمع اللغة العربية (مصر: ١٤٠٩هـ): ج ١ ص ٢٢١.

(٢) محمد فتحي أمين، قاموس المصطلحات العسكرية، ص ١٤٩.

(٣) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي): مادة (جرم).

٥ ـ مُجرم: في اثنين وخمسين موضعاً، بألفاظ أربعة، وهي: ﴿المجرم﴾، ﴿مجرماً﴾، ﴿مجرمون (مجرمين)﴾، ﴿مجرميها﴾.
٦ ـ جَرَم: في خمسة مواضع بلفظ: ﴿لا جرم﴾.

ويلاحظ أن أكثرها وروداً: لفظ المجرم؛ وذلك أن القرآن الكريم كثيراً ما يتحدث عن المجرمين بالمفهوم الذي سأذكره بعد قليل، إن شاءالله تعالى.

وقد شاع في الأزمنة المتأخرة قصر إطلاق لفظ الجريمة على الأعمال الجنائية البحتة من قتل واعتداء ونحوه، وهذا المعنى وإن كان سائغاً وصحيحاً في اللغة؛ إلا أن القرآن الكريم لم يرد به، وقد تأملت جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجريمة والمجرمين، وسياق كل منها، فلم أجد ما يدلّ على هذا المعنى ولا ما يقاربه، بل إن الله ـ عز وجل ـ لما ذكر قصة موسى ـ عليه السلام ـ وقتله القبطي استجابة لاستغاثة الإسرائيلي لم يجعله من المجرمين على الرغم من مباشرته للقتل، واعترافه بخطئه وظلمه لنفسه، وأن ما فعله من عمل الشيطان المضلّ المبين؛ بل إن موسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿.. رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾. [القصص: ١٧]. ولم يقل: (فلن أكون من المجرمين).

وقد اختلف المفسرون في المراد بقوله: ﴿.. فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ فقيل: أراد صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده.

وقيل: بل أراد مظاهرة من أدَّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، وهو الإسرائيلي[١]. والآية محتملة للوجهين، إذ لا تعارض بينهما، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ط ٢؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي): ج ١٣ ص ٢٦٢. وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤١٣هـ): ج ٧ ص ١٠٥.

والمقصود أن مفهوم الجريمة في القرآن مخالف للمفهوم الشائع عند كثير من الناس من قصر معنى الجريمة على ارتكاب عمل جنائي عدواني، من قتل ونحوه، فلفظ الجريمة في القرآن الكريم تدور أكثر معانيه حول معاداة الرسل ـ عليهم السلام ـ وتكذيب ما جاءوا به من الحق، والتكذيب باليوم الآخر، والجزاء والحساب. ولا يكاد المعنى يتجاوز ذلك إلا في مواضع معدودة لا تكاد تنفكّ عن المعنى السابق.

كما أن مما يلفت الانتباه أن الحديث عن المجرمين في القرآن الكريم لم يرد إلا في السِّور المكية، أو في سياق الآيات التي تتحدث عن المشركين والمنافقين في السور المدنية، وهذا قليل، والأول هو الغالب[1]، وذلك أن السور المكية إنما كانت تُعنى بالحديث عن قضايا العقيدة الأساسية، وهي: التوحيد، واليوم الآخر، والرسالة، وهي التي عارضها أعداء الرسل، ونازعوا فيها، بخلاف السور المدنية، فإن الحديث فيها يتركز ـ في الغالب ـ حول بناء المجتمع الإسلامي وما يحتاجه من تشريعات وأحكام في سائر شؤون الحياة المختلفة، أو ما عبر عنه بعض الكتاب بالبناء والحماية والصيانة للمجتمع الإسلامي[2]، فلذا يقلّ في السور المدنية ذكر المجرمين، وهذا يؤيد ما ذكرته من المعنى السابق.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) انظر: مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (ط ١؛ الرياض: دار المسلم: ١٤١٥هـ): ص ٦٨.

المبحث الثاني
حقيقة المجرمين

جاء في بعض قواميس اللغة أن المجرمين هم الكافرون(١) ، وهذا إن أُريد به أن لفظ المجرم من معانيه الكافر، فلا إشكال حينئذ(٢) ؛ لأن اللفظ محتمل لذلك. أما إن أُريد به الحصر أو التخصيص بحيث لا يدخل في لفظ المجرم سوى الكافر ـ فهو مشكل، والمتأمل لنصوص الكتاب والسنة يجد أن هذا اللفظ يطلق على الكافر وغيره كالمنافق، ومن ارتكب جناية لا تخرجه عن دائرة الإيمان، وعلى هذا فلا وجه لتخصيصه بالكافر، وهذا على سبيل الإطلاق في اللغة. أما في القرآن خاصة فقد ذكر الدامغاني ـ رحمه الله ـ في قاموسه أن مادة (ج ر م) في القرآن تأتي على ستة أوجه(٣) فأنا أذكرها بنصها، ثم أتناولها بالمناقشة والتعليق.

قال ـ رحمه الله ـ:

«[ج ر م] على ستة أوجه:

١ ـ المشركون.

٢ ـ القول بالقدر.

٣ ـ اللواط.

٤ ـ العداوة.

---

(١) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ج ٤ ص ٢٥.

(٢) وليس هذا على إطلاقه؛ ولذا قيده مجمع اللغة العربية في معجمه بالمعاند: ج ١ ص ٢٢١. وهو تقييد حسن تدل عليه آيات الكتاب العزيز.

(٣) الحسين الدامغاني، قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (ط ٥؛ بيروت: دار العلم للملايين: ١٩٨٥م): ص ١٠٤، ١٠٥.

٥ ـ حقّاً.

٦ ـ الإثم.

فوجه منها: المجرمون بمعنى المشركين:

قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ..﴾ [المعارج: ١١] يعني أبا جهل وأصحابه، والنضر بن الحارث.

مثلها في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزخرف ٧٤]. وأمثاله كثير.

الثاني: الجُـرْم هو القول بالقدر:

قوله تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾. [القمر: ٤٧]. قال محمد بن كعب (القرظيّ): المجرمون هاهنا: القدريّة.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: جاء مشركو العرب فخاصموا النبي ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ..﴾[1].

الثالث: الجُـرْم اللواط:

قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤] يعني قوم لوط.

الرابع: الجُـرْم: حِمْلُ العداوة:

قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿.. لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ..﴾ يعني لا تحملنّكم عداوتي، ذكره في قصة شعيب ـ عليه السلام ـ مثلها (فيها): ﴿.. لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ..﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر: ج ٨ ص ٥٢ برقم ١٩.

الخامس: لا جَـرَمَ يعني حقاً...[١] .

السادس: الجُـرْم الإثم:

قوله تعالى في سورة هود: ﴿. . فَعَلَيَّ إِجْرَامِي . .﴾ [هود: ٣٥] يعني: إثامي، ﴿. . وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: تأثمون» ا. هـ.

المناقشة والتعليق:

أولاً: قوله: «المجرمون بمعنى المشركين». . لو قال: «المكذّبين بالحق» لكان أولى؛ لأن التكذيب أعمّ وأشمل من مجرد الإشراك بالله.
والتكذيب يتناول أربعة أمور:

أحدها: التكذيب بآيات الله، وهو الغالب في آيات القرآن الواردة في ذكر التكذيب والمكذبين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ . .﴾ [الأنعام: ٣٩]، وغيرها كثير.

والمقصود بالآيات هنا: الآيات الشرعية لا الكونية؛ لأنها محل وفاق بين الرسل ـ عليهم السلام ـ وأعدائهم، إلا من شذّ من الدهريين والطبائعيين الملاحدة، وهم قلة.

الثاني: التكذيب برسل الله، قال تعالى: ﴿. . فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٥].

الثالث: التكذيب بلقاء الله، قال تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ . .﴾ [الأنعام: ٣١]. وهو يتضمن التكذيب بالبعث والنشور، والتكذيب بالجزاء والحساب.

الرابع: التكذيب بقدر الله، وقد ذكره المؤلف في الوجه الثاني مع دليله.

---

(١) ذكرت هذا الوجه باختصار لعدم الحاجة إليه في هذا المبحث.

وهذه الأمور الأربعة قد جاءت مجموعة في حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقَدَر خيره وشره**»[1] .

وإن مما يدل على ذلك: الآية التي استشهد بها المؤلف من سورة المعارج، وهي قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى . .﴾ فإنها وردت في سياق الحديث عن المكذبين بالبعث والرد عليهم، وهذا هو موضوع السورة ومحورها الأساس من افتتاحيتها وحتى خاتمتها[2] ، وكذا الآية الثانية التي استشهد بها من سورة الزخرف، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾؛ فإنها وردت في سياق الحديث عن المكذبين بالرسل، وبما جاءوا به من الآيات البينات. وعلى هذا غالب آيات الكتاب العزيز التي ورد فيها أو في سياقها ذكر المجرمين، كما ظهر لي من خلال التتبع والنظر. والله تعالى أعلم.

وأما جزم المؤلف ـ رحمه الله ـ بأن المعنيَّ بقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ هو أبو جهل وأصحابه، والنّضر بن الحارث؛ فأما أبو جهل فقد ثبت في الصحيح أنه هو القائل: (اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم)[3] . لكن لم يثبت أنّ هذه الآيات

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره: ج ٤ ص ٤٥٢ برقم ٢١٤٥، وابن ماجة في المقدمة، باب في القدر: ج ١ ص ١٨ برقم ٦٩، وابن أبي عاصم في السنة (ط ١؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٠هـ): ج ١ ص ٥٩، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة: ج ٢ ص ٦٢٠ برقم ١١٠٥، وأحمد في المسند: ج ١ ص ١١٨ برقم ٧٥٨، وصححه الحاكم: ج ١ ص ٣٣، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ج ٦ ص ٢٠٨ برقم ٧٤٦٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. .﴾: ج ٤ ص ١٧٠٥ برقم ٤٣٧٢. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في قوله تعالى: ﴿وما كان=

من أول سورة المعارج، قد نزلت فيه، فلا وجه للجزم بأنه هو المعنيّ بها.

وأما النضر بن الحارث، فقد ذكر ابن جرير في تفسيره[١]، والواحدي في أسباب النزول[٢]، أنه هو القائل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء... إلخ، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، فقُتل يوم بدر صبراً، وهذا معارض لما ثبت في الصحيح من كون القائل هو أبو جهل، ولكن الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ أجاب عن هذا الإشكال بقوله: «ولا ينافي ذلك ما في الصحيح، لاحتمال أن يكونا قالاه، ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى»[٣].

ولقد كان هذان الرجلان: أبو جهل والنضر بن الحارث، من أشدّ أهل مكة تكذيباً للنبي ﷺ، وعداوة له ولدعوته، فهما شر سلف لكل مكذب للحق معادٍ لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ. ولما كانت العبرة ـ على الصحيح ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٤]؛ كان قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ..﴾ عام في كل مكذّب بالرسل، وما جاؤوا به، وبالجزاء والحساب.

ثانياً: قوله: «الجرم هو القول بالقدر..» قد سبق أن ذلك داخل في الأول وهو التكذيب.

ثالثاً: قوله: «الجرم اللواط..» وهو عمل قوم لوط، ولم يرد في كتاب الله ـ عز وجل ـ تسميته بهذا الاسم، لكن ورد في السنة قوله ﷺ فيمن

= الله ليعذبهم..﴾: ج ٨ ص ١٢٩ برقم ٣٧.

(١) انظر: ج ٦ ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) انظر: ص ١٣٥ وص ٢٥٠.

(٣) فتح الباري: ج ٨ ص ٣٠٩.

(٤) انظر: أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول (ط ١؛ مصر: المطبعة الأميرية ببولاق: ١٣٣٢هـ): ج ٢ ص ٦٠. والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ط ٤؛ مصر: مكتبة مصطفى الحلبي: ١٣٩٨هـ): ج ١، ص ٣٩.

أتى امرأته في دبرها: «هي اللوطية الصغرى[١]»[٢].

وإنما استحقّ قوم لوط وصف الإجرام، لأمور منها:

١ ـ قذارة معصيتهم، وقبحها المتناهي، كيف وقد قالوا متبجّحين: ﴿.. أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

٢ ـ مخالفتها للفطرة السوية: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

٣ ـ إعلانهم بها في نواديهم ومجتمعاتهم: ﴿.. وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ..﴾ [العنكبوت: ٢٩].

٤ ـ أنهم لم يسبقهم إليها أحد: ﴿.. مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

٥ ـ أن الله قد يسَّر لهم سُبل الحلال من النساء، بل إن لوطاً ـ عليه السلام ـ عرض عليهم بناته بالحلال ليتزوجوهنّ، لكنهم أبوا إلا المسلك الحرام، وقالوا لنبيهم ـ عليه السلام ـ: ﴿.. لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

٦ ـ أنهم جمعوا بين هذه المعصية القبيحة، ومعاصٍ أخرى كبيرة، من الكفر بالله ـ عز وجل ـ وتكذيب الرسل، وقطع السبيل. ولهذا نالوا من العذاب الشديد في الدنيا ما لم تنله أمة قبلهم من طمس الأعين، وتنكيس الديار، والرجم بالحجارة المسوَّمة. وما ذلك من الظالمين ببعيد.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ١٠ ص ١٧٧ برقم: ٦٧٠٦، بسند صحيح كما قال المحقق أحمد شاكر.

(٢) قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ في لسان العرب (ج ٥ ص ٤٠٩٩): «لاط الرجل لِواطاً ولاوَطَ أي عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط. قال الليث: لوط كان نبيًا، بعثه الله إلى قومه فكذبوه، وأحدثوا ما أحدثوا؛ فاشتق الناس من اسمه فعلًا لمن فعل فعل قومه».

رابعاً: قوله: «الجرم حمل العداوة..». وقد استدلّ لذلك بقوله تعالى: ﴿.. لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ..﴾ [هود: ٨٩] ونسب الآية إلى سورة المائدة، ثم إلى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ ولم يذكر اسم السورة.. فأما نسبته الآية إلى سورة المائدة، فهو وهمٌ منه ـ رحمه الله ـ[١] ؛ فليست في سورة المائدة بهذا اللفظ، وإنما هي بلفظ: ﴿.. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ..﴾ في موضعين منها: في الآية الثانية، والثامنة، وقد وردت باللفظ الذي ذكره المؤلف في سورة هود في قصة شعيب كما قال ـ رحمه الله ـ.

والشنآن والشقاق معناهما متقارب، وهو العداوة والبغض[٢] .

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ الوجه الخامس والسادس..

وقد ظهر لي بعد النظر والتتبع وجوهاً أخرى لم يذكرها المؤلف، أذكرها أولاً بإجمال، ثم بتفصيل:

١ ـ النفاق.

٢ ـ الظلم.

٣ ـ نسبة الولد إلى الله تعالى.

٤ ـ التعنُّت والعتوّ والاستكبار.

٥ ـ جحد نعمة الله.

٦ ـ الأكابر ـ من أعداء الرسل ـ وأتباعُهم.

---

(١) ولا أدري كيف غاب ذلك عن محقق الكتاب عبدالعزيز سيد الأهل، وهو الذي يزعم أنه رتب الكتاب وأكمله وأصلحه؟!

(٢) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٣ ص ٩، وابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٧ ص ٣٨٣.

التفصيل:

الوجه الأول: الجرم: النِّفاق:

قال تعالى في معرض حديثه عن المنافقين: ﴿.. لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

والمراد بالطائفة الأولى ـ على ما ذكر المفسرون ـ: رجل واحد، وهو مَخشِيّ بن حُمَيِّرٍ الأشجعي، كان من المنافقين ثم تاب توبة صحيحة بعد نزول هذه الآية، وتسمَّى بعبدالرحمن، ورُوي أنه قال: «اللهم إني لا أزال أسمع آية تُقرأ أُعنى بها، تقشعرُّ منها الجلود، وتجب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلًا في سبيلك لا يقول أحد: أنا غسَّلت أنا كفَّنت أنا دفنت» فقتل يوم اليمامة، فما عَـرَفَ أحدٌ مصرعَه[1].

وقد ذكر بعض أهل العلم[2] أن المنافقين صنفان:

ـ صنف جاء الأمر بجهادهم والإغلاظ عليهم، وهم الرؤساء المدبرون، المعلنون بالأراجيف.

ـ وصنف ضعفة رعاع مظهرون للإيمان ـ وإن أبطنوا الكفر ـ متّبعون لكل ناعق؛ فهؤلاء أقلّ خطراً، وإن كانوا أكثر سواداً.

ويؤيد ذلك قول الله تعالى في آخر السورة: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١]. فهؤلاء قد توعدهم الله بالعذاب مرتين، فضلًا عن عذاب الآخرة، وماذاك إلا لعتوهم وتمردهم ورسوخهم في النفاق، حتى إن أمرهم قد خفي على النبي ﷺ لشدة

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٤٠٩، والبغوي، معالم التنزيل: ج ٤ ص ٧٠، وابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٦ ص ٥٥٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٥٢٥.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٦٨.

توقيهم وحذرهم[١] .

الوجه الثاني: المجرمون بمعنى الظالمين:

قال تعالى في قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع الإسرائيلي، وقَتْلِه القبطيّ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص: ١٧] أي: فلن أُعين بعدها ظالماً على فُجره، قاله قتادة ـ رحمه الله ـ[٢] .

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خدمة أهل الجور، ومعونتهم في شيء من أمرهم، ورأوا أنها تتناول ذلك. نص عليه عطاء بن أبي رباح»[٣] .

وقد وردت في السنة أحاديث تؤيد هذا المعنى، لكن أسانيدها لا تخلو من مقال، منها حديث: «**من مشى مع ظالم فقد أجرم**»[٤] ، وحديث: «**من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام**»[٥] .

والمقصود أنّ الظالم الباغي مستحق لوصف الإجرام.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٥ ص ٧٩.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٤٦، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص ٢٦٣.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١١ ص ٢٧٧. وقد سبق الحديث عن هذه الآية. انظر: ص ٤٢.

(٤) قال البيروتي ـ رحمه الله ـ في أسنى المطالب: ص ٢٣١: «رواه الديلمي وهو ضعيف».

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (ط ٢؛ العراق: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية: ١٤٠٥هـ) ج ١ ص ٢٢٧. قال المنذري ـ رحمه الله ـ (كما في أسنى المطالب ص ٢٣١): «ضعيف غريب. فيه عياش بن موسى: مجهول». وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ج ٢ ص ١٨١: «ضعيف جدًّا».

الوجه الثالث: الجُـرْم: نسبة الولد إلى الله تعالى:

وقد ورد ذلك في موضعين من كتاب الله ـ عز وجل ـ:

الأول: في سورة مريم؛ قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم: ٨٦ ـ ٨٨].

الثاني: قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٨١].

الوجه الرابع: التَّعنت والعتوّ والاستكبار:

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٢].

الوجه الخامس: جحد نعمة الله ـ عز وجل ـ:

وذلك في ثلاث سور: القلم والرحمن والقصص.

فأما سورة القلم؛ فقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢] أي: لست ـ بما أنعم الله عليك من النبوة والحكمة ـ بمجنون، كما يقول الجاحدون المكذبون من قومك[1] من أمثال أبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وأشباههم..

إلى قوله سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥] أي: لا يستوي من استسلم لله، وانقاد لأوامره، واتبع مراضيه. ومن جحد نعمته، وكفر بآياته، وعاند رسله، وحارب أولياءه. فإن حكمة الله ـ عز وجل ـ تأبى ذلك.

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٨ ص ١٨٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٤٠٢.

وكما بُدئت السورة بذكر النعمة؛ فإنها خُتمت بذلك: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨، ٤٩]. ولكن الفرق بين النعمتين، كالفرق بين النبيين ـ عليهما وعلى سائر أنبياء الله أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ.

وأما سورة الرحمن، فقد ورد ذكر المجرمين في موضعين منها:

الأول: قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

الثاني: قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ..﴾ [الرحمن: ٤٣].

والسورة بمجملها تتحدث عن آلاء الله الباهرة، ونعمه الظاهرة التي هي من مقتضيات رحمته العامة[1]، وأعظم هذه النعم على الإطلاق: نعمة القرآن، لذا خُصّت بالتقديم: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، ثم نعمة خلق الإنسان، وتعليمه البيان والإفصاح عما في نفسه، ثم سائر نعم الله وآلائه البينة الواضحة، التي لا ينكرها إلا جاحد مستحقّ لوصف الإجرام. ولذا يكثر في ثنايا هذه السورة قوله تعالى متحدياً الثقلين: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فلا يجحد نعم الله وآلائه إلا مجرم مكابر.

وأما سورة القصص، فقول الله تعالى في سياق قصة قارون: ﴿.. وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وذلك أن الله أنعم على قارون بنعمة المال، فبغى على قومه، وجحد نعمة الله عليه، ونسبها إلى نفسه، فقال عن المال الذي آتاه الله إياه: ﴿.. إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي..﴾ أي: بالتصرف في التجارات والزراعات، وأنواع المكاسب[2] فنسب النعمة إلى نفسه، ولم ينسبها إلى مسديها وموليها ـ سبحانه ـ فاستحق بذلك وصف الإجرام.

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٧ ص ٣٧١.

(٢) البغوي، معالم التنزيل: ج ٦ ص ٢٢٢.

الوجه السادس: المجرمون: الأكابر ـ من أعداء الرسل ـ وأتباعهم:

أما الأكابر ـ وهم العظماء والرؤساء والسادة ـ فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا . . ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: أي عظماءهم[١] .

وقال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «كذلك جعلنا بكل قرية عظماءها مجرميها، يعني أهل الشرك بالله والمعصية له»[٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩] أي: ما أضلنا إلا الكبراء والسادة من ذوي الجاه والمكانة في الدنيا[٣] .

وأما الأتباع ـ وهم المستضعفون باختيارهم وإرادتهم ـ فقوله تعالى حاكياً قول الأكابر للأتباع: ﴿ . . أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]. فليس وصف الإجرام مقصوراً على الأكابر، فإن للأتباع نصيباً من هذا الوصف؛ لأن الراضي بالشيء كالفاعل له.

وقد جمع الله الفريقين معاً في آية واحدة بعد أن ذكر الحوار الدائر بينهما يوم القيامة، وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٢٧ ـ ٣٤][٤] .

---

(١) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم (ط ١؛ مكة: جامعة أم القرى: ١٤٠٩هـ)، ج ٢ ص ٤٨٤.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص ٣٣٣.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١١ ص ١٢٨. وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٧، ص ٢٥.

(٤) إن مما يسترعي الانتباه في القرآن الكريم: اقتران ذكر الأكابر والسادة، بالمكر والكيد والخداع والتضليل والإغواء. ففي سورة الأنعام: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. . ﴾ [الآية: ١٢٣].

=

هذه بعض الوجوه التي ظهرت لي زيادة على ما ذكره الدامغاني ـ رحمه الله ـ فيكون مجموعها: اثني عشر وجهاً، وهي:

١ ـ المشركون (المكذِّبون).
٢ ـ القول بالقدر.
٣ ـ اللواط.
٤ ـ حمل العداوة.
٥ ـ حقّاً.
٦ ـ الإثم.
٧ ـ النِّفاق.
٨ ـ الظلم.
٩ ـ نسبة الولد إلى الله ـ سبحانه ـ.
١٠ ـ التعنُّت والعتوُّ والاستكبار.
١١ ـ جحد نعمة الله ـ عز وجل ـ ونسبتها إلى غيره.
١٢ ـ الأكابر والأتباع من أعداء الرسل ـ عليهم السلام ـ.

وعند تأمل هذه الأوجه، تتجلى لنا حقيقة المجرمين في القرآن، فهم:

= وفي سورة الأعراف قول الأتباع: ﴿. . ربنا هؤلاء **أضلونا** . .﴾ [الآية: ٣٨].
وفي سورة الشعراء: ﴿وما **أضلنا** إلا المجرمون﴾ [الآية: ٩٩].
وفي الأحزاب: ﴿. . إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا **فأضلونا** السبيلا﴾ [الآية: ٦٧].
وفي سبأ: ﴿. . بل **مكر** الليل والنهار . .﴾ [الآية: ٣٣].
وفي الصافات: ﴿**فأغويناكم** إنا كنا غاوين﴾ [الآية: ٣٢].
وذلك أن الأكابر قلة، ولا سبيل لهم إلى الإمساك بزمام الأمور في مقابل الكثرة الكاثرة من الأتباع إلا بالمكر والخداع والتضليل، والقوة أحياناً: ﴿. . إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾.
وإن كان هذا لا يُعفي الأتباع من تحمل المسؤولية والتبعة، فقد كانوا على علم بما يدبره لهم الأكابر، لكنهم رضوا بالتبعية والهوان لتسلم لهم معايشهم ودنياهم ولو على حساب دينهم!! ولذا كانوا يوم القيامة جميعاً في العذاب مشتركين.

المكذبون بالله وآياته ورسله، المُعادون للحق، المكذبون بقدر الله، المجترؤون على الله عتوًّا واستكباراً، وكذباً وبهتاناً، الجاحدون لنعم الله، المرتكبون لأبشع أنواع المعاصي والذنوب من الظلم والفواحش والآثام، المصّرون عليها.

وهم: إما متبوعون سادة وهم قلة، لكن بيدهم زمام الأمور وتسيير دفتها. وإما أتباع مستضعفون وهم الكثرة، لكنم رضوا بالتبعية والهوان طمعاً وخوفاً.

ثم إن منهم منافقين متسترين داخل الصف المسلم، متربصين بالمؤمنين في كل حين.

هذه حقيقة المجرمين في القرآن حسب ما ظهر لي، والله تعالى أعلى وأعلم.



الفصل الثاني

أصناف المجرمين وسماتهم في القرآن

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول
أصناف المجرمين في القرآن

المبحث الثاني
سمات المجرمين في القرآن



المبحث الأول
أصناف المجرمين في القرآن

المجرمون في القرآن ـ بالمفهوم الذي ذكرته سابقاً ـ ليسوا فئة واحدة، وإنما هم فئات متعددة يمكن حصرها في أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: المشركون.

الصنف الثاني: كفرة أهل الكتاب.

الصنف الثالث: المنافقون.

وسأتحدث عن كل صنف من هذه الأصناف على حدة، ثم أبيّن علاقة كل صنف بالآخر حسب ما ظهر لي من كتاب الله ـ عز وجل ـ.

أولاً: المشركون:

وهم الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر، من صنم أو وثن أو غير ذلك مما يُعبد من دون الله، ويتعلّق به الناس تعظيماً وتقديماً ومحبة، ورغبة أو رهبة.. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ.. ﴾ [النساء: ٣٦]. فقوله (شيئاً) نكرة في سياق النهي فيشمل كل شيء مهما كان صغيراً أو حقيراً، وذلك أن الله ـ عز وجل ـ هو وحده المستحق للعبادة دون سواه، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهو مشرك، وإن قال لا إله إلا الله بلسانه، إلا أن يكون معذوراً بجهل ونحوه[١].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ فيما نقله عنه صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد: «الإله هو الذي يُطاع ولا يُعصى، هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً

---

(١) انظر: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ط ٥؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٢هـ) ص ٧٤.

ورجاءً وتوكلًا عليه، وسؤالاً منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا الله - عز وجل - فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك»[1].

والآيات في ذم الشرك وأهله، وبطلان آلهة المشركين وإبطال حججهم - كثيرة جدًّا، والرسل - عليهم السلام - إنما بُعِثوا لمحو الشرك وإبطاله وقطع دابره، وإثبات ضدّه من التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده لا شريك له.

الفرق بين الشرك والكفر:

قد سبق قريباً أن المشرك هو من جعل مع الله إلهاً آخر، ولا ريب أن من فعل ذلك فهو كافر أيضاً. لكن الكفر أعمّ من الشرك.

قال النووي - رحمه الله -: «الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى، وقد يُفرَّق بينهما؛ فيُخصّ الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك»[2].

وذكر المناوي - رحمه الله تعالى - في فيض القدير أن الشرك نوع من الكفر[3].

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد: ص ٧٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (بيروت: دار الفكر: ١٤٠١هـ): ج ٢ ص ٧١. وانظر: أبو العلى المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي (بيروت: دار الكتاب العربي: ١٣٥٩هـ): ج ٣ ص ٣٥٩.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير (ط ٢؛ بيروت: دار المعرفة: ١٣٩١هـ): ج ٣ ص ٢١٠.

وعلى هذا فيكون كل مشرك كافراً، وليس كل كافر مشركاً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ . .﴾ [البينة: ١]، فعطف المشركين على أهل الكتاب مع اشتراكهم جميعاً في الكفر، وفي هذا دليل على أن الشرك أخصّ من الكفر.

ومما يؤيد ذلك أيضاً، قوله تعالى حاكياً قول مؤمن آل فرعون: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ . .﴾ [غافر: ٤٢]، فعطف الشرك على الكفر، ومن القواعد المقررة في التفسير أن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه(١)، إما مغايرة تباين كما هو الغالب في المتعاطفات، أو أن يكون أحدهما جزءاً من الآخر كما هو الحال هنا في لفظي الكفر والشرك، وهو أيضاً من باب عطف الخاص على العام. والله تعالى أعلم.

بداية الشرك:

إن الشرك وإن كان قديماً في البشرية، لكنه ليس هو الأصل؛ فلقد عاشت البشرية في أول نشأتها ألف عام من الزمان على التوحيد الخالص، والدين الحق(٢)، وكان مبدأ الشرك في زمن قوم نوح ـ عليه السلام ـ؛ فقد زيّن لهم الشيطان الغلو في الصالحين وتعظيم الصور، حتى عبدوها من دون الله ـ عز وجل ـ فبعث الله إليهم نوحاً ـ عليه السلام ـ فكان أول رسول إلى أهل الأرض(٣)، ثم توالت الرسل من بعده يدعون الناس إلى توحيد الله

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ٧ ص ١٧٢. وانظر: خالد السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة (ط ١؛ الخُبر: دار ابن عفان: ١٤١٨هـ): ج ١ ص ٤٣٤.

(٢) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره: ج ٢ ص ٣٧٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

(٣) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ١ ص ٢٤٣. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٢٥١.

وعبادته وحده لا شريك له، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿. . ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . .﴾ [الأعراف: ٥٩]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولكن الشرك ظل ضارباً بأطنابه في الأرض ـ لحكمة يعلمها الله ـ عز وجل ـ، وتناقل الناس الأصنام التي في زمن نوح ـ عليه السلام ـ حتى صارت إلى مشركي هذه الأمة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعدُ؛ أما ودّ: كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: كانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجَوْف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهَمْدان، وأما نَسْر: فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنسّخ العلم عُبدت»[1].

هذه ـ بإيجاز شديد ـ قصة مبدأ الشرك وانتشاره في الأرض، وقد أخبرنا الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم أن المشركين من أشد الناس عداوة للمؤمنين ـ وفي مقدمتهم الرسل عليهم السلام ـ فقال ـ سبحانه ـ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢]، فهم أكثر أعداء الرسل عدداً، وأشدهم تكذيباً وأذى، ومع أن دعوة التوحيد واضحة المعالم، بل في غاية الوضوح والظهور؛ إلا أنهم أبوا إلا الإصرار على الشرك والتشبّث به والعضّ عليه بقوة، وقد تأملت أسباب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق. .﴾: ج ٤ ص ١٨٧٣ برقم ٤٦٣٦. ومعنى تنسخ العلم أي: زال واندرس. (انظر: لسان العرب، مادة نسخ: ج ٦ ص ٤٤٠٧).

ذلك في كتاب الله ـ عز وجل ـ فوجدتها منحصرة فيما يلي :

أولاً: تقليد الآباء واتّباعهم والاقتداء بهم والاهتداء بهديهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وهي حجة قديمة، تتناقلها الأجيال جيلًا بعد جيل، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن . .﴾ [هود: ١٠٩]، فهم يرون أن اتّباع الآباء أمر مفروض، ومخالفتهم مسبّة وعار وشنار، وهذا ما حمل أبا طالب ـ حتى وهو في سياق الموت ـ على ردّ شهادة الحق، وقد وقف على رأسه أرحمُ الخلق ﷺ يقول له: «يا عم، قل لا إله إلا الله؛ كلمة أحاجّ لك بها عند الله». فيقول ـ آخر ما يقول ـ: هو على ملة عبدالمطلب[١] فيموت على الشرك، ويكون من جثي جهنم، ولقد كان من قبلُ يقول مبيّناً سبب إصراره على الشرك، مع اعترافه بصدق ما جاء به محمد ﷺ:

ولقد علمت بأن دين محمد ... مـن خير أديـان البريـة دينـاً
لولا الملامة أو حذاري سُبّةً ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً[٢]

وهو القائل في القصيدة المشهورة:

فـوالله لـولا أن أجـيء بسبـةٍ ... تُجرّ على أشياخنا في المحافلِ

---

(١) الحديث. . أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله: ج ١ ص ٤٥٧ برقم ١٢٩٤.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي: ١٣٨٣هـ): ج ١ ص ٤٦٤.

لكنّا اتّبعناه على كل حالةٍ ... من الدهر جدًّا غير قول التهازلِ
لقد علموا أنّ ابننا لا مكذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
إلى آخر ما قال. . .»[١].

هذا هو مبلغ علمهم، ومنتهى عقولهم، وقد رد الله على حجتهم هذه بقوله: ﴿. . أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر قال: ﴿. . أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وهذا هو السبب الثاني من أسباب إصرارهم على الشرك وهو:

ثانياً: تزيين الشيطان وغروره:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة. وتزيين الشيطان قد بيّنه الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿. . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ . .﴾ وذلك بإلقاء الوساوس في صدورهم، ومناجاة ضمائرهم، بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب[٢]، وكل ذلك كذب وغرور، ولهذا قال الله تعالى: ﴿. . وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم إن هؤلاء المزيَّن لهم: منهم الضالّ ويحسب أنّه على الهدى، كحال ملكة سبأ وقومها، قال تعالى حاكياً قول الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٨٠.

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١١ ص ٣٩٠، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٢ ص ١٧٢.

لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]. ومنهم الجاحد المعاند المستبصر، كحال قوم عاد وثمود، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[1] [العنكبوت: ٣٨].

وهذا هو حال أعداء الرسل جميعاً: إمّا ضالّ جاهل، وإمّا جاحد معاند.

ولهذا أُمر المسلمون بالاستعاذة من سلوك صراط هاتين الطائفتين، في اليوم الواحد أكثر من سبع عشرة مرّة، في الصلاة المكتوبة وغيرها، وذلك في قوله تعالى في سورة الفاتحة التي لا تتم الصلاة إلا بها: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ثالثاً: الاستكبار عن قبول الحق:

قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥].

---

(١) اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿. . وكانوا مستبصرين﴾ على قولين:
الأول: أنهم كانوا مستبصرين في ضلالتهم، متمادين فيها، ويحسبون أنهم على هدى وصواب. وهذا القول رجحه الطبري، بل لم يحكِ غيره (انظر: جامع البيان: ج ١٠ ص ١٤٠).
الثاني: ما ذكرته هنا، ورجحه القرطبي وابن القيم وغيرهما. (انظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص ٣٤٤، وشفاء العليل: ص ٣٩). ويؤيد هذا القول، قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ. . ﴾ [فصلت: ١٧] والله تعالى أعلم.

فبين الله ـ عز وجل ـ أن الاستكبار سبب من أسباب إصرارهم على الشرك وتماديهم فيه، ورفضهم كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، لعلمهم أن هذه الكلمة تساوي بينهم وبين عامة الناس من الضعفاء والعبيد وغيرهم، وقد صرح بعضهم بذلك فأظهروا ما في دخائل نفوسهم من الاستكبار والترفّع، من ذلك قول قوم نوح لنبيهم نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿.. أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] أي كيف نُقرّ بتصديقك فيما تدعونا إليه وإنما اتّبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل الجاه والمكانة![1].

وأما ثمود ـ وهم قوم صالح ـ فقد كان أمرهم أعجب، فإنهم قد رفضوا الحق لمجرد أن الذي اتّبعه هم المستضعفون من قوم صالح ـ عليه السلام ـ، وقد سبق الحديث عن ذلك[2].

رابعاً: التكذيب بالبعث:

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ [المدثر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ: ٢٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة كلها تدل على أن عدم إيمانهم بالآخرة والجزاء والحساب، سبب من أسباب تمسكهم بالشرك، وإصرارهم عليه.

خامساً: الاحتجاج ببشرية الرسول ﷺ:

وهذا كثير في القرآن الكريم، من ذلك قولهم للرسل: ﴿.. مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ..﴾ [يس: ١٥]، وقولهم: ﴿.. مَا هَٰذَآ إِلَّا

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٤٥٧.

(٢) انظر: ص ٣٣. وانظر: أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي): ج ٣ ص ٢٤٣.

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقولهم: ﴿.. أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا..﴾ [التغابن: ٦]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤]، فرد الله عليهم ـ قاطعاً حجتهم ـ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. ولما قال المشركون لرسلهم: ﴿.. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا..﴾ [إبراهيم: ١٠]. أجابتهم الرسل: ﴿.. إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..﴾ [إبراهيم: ١١] أي يتفضل على من يشاء من خلقه فيصطفيه لحمل الرسالة(١)، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ..﴾ [الحج: ٧٥]، والسبب بينه الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿.. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي هو أعلم بمن يصلح لحمل الرسالة، ومن لا يصلح لحملها(٢) وهو العليم الحكيم ـ سبحانه ـ.

سادساً: الحرص على الحياة:

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ..﴾ [البقرة: ٩٦].

فحرصهم على الحياة هو الذي حملهم على التمسك بالشرك والإصرار عليه، لاعتقادهم الضر والنفع في آلهتهم المزعومة، وأن لها تأثيراً في حياتهم سلباً وإيجاباً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، أي يتعززون بها ويستنصرونها من دون الله(٣)، ولهذا لما حاج

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٧ ص ٤٢٥.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٧٣.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٩ ص ٥٣٠. وابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين (بيروت: دار الفكر): ج ١ ص ١٥٤. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٥ ص ١٣٦.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه في الله، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة دونما سواه، كأنهم هددوه بآلهتهم أن تصيبه بأذى أو نازلة، فرد عليهم معلناً توحيده الخالص لله، وبطلان كيد آلهتهم المزعومة، قال: ﴿.. وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠][1]، ثم وجه اللوم إليهم قائلًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١]، فبين أن الله ـ عز وجل ـ المستجمع لصفات الكمال والعظمة والقدرة، أحق بأن يُخاف ويُخشى من جمادات ومخلوقات لا تملك لنفسها ـ فضلًا عن غيرها ـ ضرًّا ولا نفعاً.

وأعجب من ذلك: قوم عاد؛ فقد قالوا لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ حين دعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ ..﴾ [هود: ٥٤] أي أصابتك بجنون وخبل في عقلك، بسبب عيبك لها، ونهيك عن عبادتها[2]. فقد وصل بهم الحال إلى أن اعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد في آلهتهم «فسبحان من طبع على قلوب المجرمين كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحقّ الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم»[3].

وقد بين الله ـ عز وجل ـ في آيات كثيرة ضعف آلهتهم، وعجزها عن نصر نفسها فضلًا عن غيرها، وأنها تنقلب عليها ضدًّا: إما في الدنيا إن كانت ممن يعقل، أو في الآخرة إن كانت ممن لا يعقل كالأصنام ونحوها، أو

---

(١) انظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (بيروت: دار الكتاب العربي): ج ١ ص ٤٨٣. والبقاعي، نظم الدرر: ج ٢ ص ٦٦١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٤٩ (بتصرف يسير).

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٣ ص ٤٣٢.

في الدارين جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٢]، وقد جرت سنة الله ـ عز وجل ـ أنه ما من مخلوق يتخذ وليًا من دون الله يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به، إلا حصل له به ضد مقصوده[١]، والعاقل ينظر ويتأمل.

والمقصود: أن حرص المشركين على الحياة، وخوفهم من آلهتهم المزعومة سبب من أسباب إصرارهم على الشرك.

سابعاً: اتّباع الظن:

وهو الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد[٢].

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ . . ﴾ [يونس: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ . . وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس: ٦٦].

ومن ذلك، قولهم محتجين بالقدر: ﴿ . . لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ . . ﴾ فرد الله عليهم بقوله: ﴿ . . قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فأبطل الله حجتهم بذلك، وبين أنهم إنما يتبعون مجرد ظنون كاذبة، وأوهام وخيالات لا حقيقة لها إلا في أذهانهم، في مقابل ما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق المبين الذي لا يتطرق إليه شك. فيا عجباً لمن ينكر ضوء الشمس، ويتعلق بخيوط هي أوهى من بيت العنكبوت!

---

(١) انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين: ج ١ ص ١٥٥.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٨٦. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «والظن لا يُراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهماً، بل قد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث». وقد قال تعالى: ﴿ . . إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ . . ﴾ [يونس: ٣٦]، فالاعتقاد المرجوح هو ظن، وهو وهم». (مجموع الفتاوى: ج ١٥ ص ١٧٦).

ثامناً: اتباع الهوى:

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿.. إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ..﴾ [النجم: ٢٣].

فاتباع الهوى سبب من أسباب إصرارهم على الشرك، ولهذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿.. أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ[1] ..﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿.. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ..﴾ [القصص: ٥٠].

كما أن اتّباع الهوى من أعظم أسباب الضلال والإضلال، قال الله لنبيه داود ـ عليه السلام ـ: ﴿.. وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ [الأنعام: ١١٩].

فالمشركون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، ضلوا عن الطريق المستقيم، وزُيِّن لهم سوء أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

---

(١) قوله ﴿على علم﴾ أي على علم سبق عنده ـ سبحانه ـ أنه لا يهتدي، وأنه أهل للضلال. وقيل: على علم منه (أي المشرك) أن معبوده لا ينفع ولا يضر. وقد رجح ابن القيم ـ رحمه الله ـ القول الأول، وذكر أنه قول عامة السلف (انظر: شفاء العليل: ص ٣٩) وبهذا يندفع التعارض بين قوله: ﴿على علم﴾ وقوله: ﴿بغير علم﴾ هذا إن كان ثمة تعارض، وإلا فإنه يمكن الجمع بينهما بأن يقال بأن متبعي الهوى صنفان: الأول من يتبع هواه بغير علم، وهم االضُّلّال. والثاني هو من يتبع هواه عن علم ومعرفة، وهم المغضوب عليهم، ويؤيد ذلك اختلاف التعبير في الآيتين؛ ففي الأولى عبر بالاتخاذ وهو لا يكون إلا عن علم، وفي الثانية عبر بالاتباع وهو هنا التقليد بلا علم. والله تعالى أعلم.

تاسعاً: اتّباع السادة والكبراء المضلين:

قال تعالى حاكياً اعتراف المشركين يوم القيامة: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩] أي: «ما أضلنا إلا كبراؤنا وأهل الحزم والجرأة والمكانة»(١) . وهم القادة والسادة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقد صرحوا في موضع آخر بعظم كيد سادتهم وشدة مكرهم في الدنيا، فقالوا موجهين لهم اللوم: ﴿.. بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ..﴾، ولكن بعد فوات الأوان، ولهذا قال تعالى: ﴿.. وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

كما حكى الله ـ عز وجل ـ بعض أقوال السادة المضلين، من ذلك قولهم للأتباع: ﴿.. ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

عاشراً: الحسد:

قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقد تقدم الحديث عن ذلك مفصلاً في مبحث دوافع الصراع بين الحق والباطل(٢) .

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١١ ص ١٢٨، وانظر: محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (ط٤؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي: ١٤٠٥هـ): ج ١٩ ص ١٠٤.

(٢) انظر: ص ٣٠، وقد جعلت الحسد من دوافع الصراع بين الحق والباطل، كما جعلته هنا من أسباب إصرار المشركين على شركهم، ولا مانع أن يكون الشيء الواحد سبباً لأمرين مختلفين أو أكثر، وهكذا بقية الأسباب الأخرى المتكررة.

حادي عشر: عدم توقير الله وتقديره حق قدره:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤][1] .

وقال تعالى حاكياً قول نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

فلو أن المشركين قدروا الله حق قدره، ووقروه حق توقيره، لما أشركوا به ما لم ينزّل به سلطاناً، لكن خلت قلوبهم من ذلك فأصروا على الشرك.

ثاني عشر: الجهل بالحق:

قال تعالى: ﴿. . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فالجهل داء عظيم، وهو أصل الشر والفساد[2] ، والجاهل عدو لنفسه قبل أن يكون عدوًّا لغيره، وقد بين الله ـ عز وجل ـ في مطلع السورة التي ذُكرت فيها هذه الآية سبب جهلهم بالحق وإعراضهم عنه فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ . .﴾ [الأنبياء: ١ ـ ٣] فهم في غفلة ولعب ولهو، «ما يستمعون القرآن إلا وهم يلعبون، غافلة عنه

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبُه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه . .». ثم شرع ـ رحمه الله ـ في شرح ذلك، وبينه أحسن بيان. (انظر: إعلام الموقعين: ج ١ ص ١٨١).

(٢) انظر: البقاعي: نظم الدرر: ج ٥ ص ٧٧.

قلوبهم، لا يتدبرون حِكَمَه، ولا يتفكرون فيما أودعه الله من الحجج عليهم»[١] ، سادرين في غيهم، متمادين في ضلالهم، فلم يبق في قلوبهم متسع لمعرفة الحق والإذعان له. فلا عجب أن يتشبثوا بما هم عليه من الأوهام والظنون الكاذبة.

والتقييد في الآية بالأكثر يُفهم منه أن منهم العالم بالحق الجاحد المعاند، لكن أكثرهم كما ذكر الله ـ عز وجل ـ: لا يعلمون الحق فهم معرضون.

هذا ما وقفت عليه في كتاب الله ـ عز وجل ـ من أسباب تمسك المشركين بشركهم وإصرارهم عليه، والله تعالى أعلى وأعلم.

ثانياً: كفرة أهل الكتاب:

وهم اليهود والنصارى الذين كفروا برسالة نبينا محمد ﷺ، وناصبوه العداء.

وسُمّوا أهل كتاب لأن الله ـ عز وجل ـ أنزل على كل منهما كتاباً من السماء، فاليهود أنزل عليهم التوراة، والنصارى الإنجيل، لكنهم حرّفوه وبدّلوه، وأخفوا كثيراً منه بغياً منهم وعدواناً، فاستحقوا اللعن والغضب من الله.

وقد اختصمت الطائفتان، فسفّهت إحداهما الأخرى، كما أخبرنا الله ـ عز وجل ـ عنهما بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ . .﴾ [البقرة: ١١٣].

كما زعمت كل طائفة منهما انتسابها إلى خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنها على دينه، فأكذبهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٤ (بتصرف يسير).

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧](١).

وعلى الرغم من العداء السافر والاختصام البين بين الطائفتين، إلا أنهم سرعان ما يتناسون خلافاتهم، ويتحدون في مواجهة عدوهم المشترك، الممثل في دعوة الحق، ولهذا قال الله تعالى محذراً المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ . . ﴾ [المائدة: ٥١]، وقد جاء التعبير هنا بالجملة الاسمية: (بعضهم أولياء بعض) للدلالة على أن هذا الوصف دائم وأصيل فيهم، لا يتغير بتغير الأزمان والأحوال. والتاريخ شاهد على ذلك.

كما يلاحظ في الخطاب والسياق القرآني: اقتران ذكر الطائفتين جميعاً ـ إلا في مواضع قليلة ـ تارة بنسبتهم إلى الكتاب: (يا أهل الكتاب)، وتارة بالتصريح باسم الطائفتين: (وقالت اليهود والنصارى. .)، (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى. .)، وما ذاك إلا لما بينهم من التشابه والتقارب في مواجهة الحق.

هذا وإن المتتبع لآيات القرآن التي تحدثت عن أهل الكتاب، يلحظ كثرة تقريع الله لهم، وتأنيبهم على ردهم الحق مع معرفتهم له، وكفرهم بآيات الله، ولبسهم الحق بالباطل، وصدهم عن سبيل الله من آمن. . بخلاف المشركين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ . . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، فالمشركون جهلوا الحق فعادَوه، وهؤلاء عرفوا الحق فكتموه، ولبسوه بالباطل، بل ودّ كثير منهم لو يردون المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً ﴿ . . حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ . . ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فانظر إلى سوء نيتهم وخبث طويتهم كيف حرموا أنفسهم من الخير والهدى، وأرادوا أن يحرموا غيرهم منه. . فيالله العجب!.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٠٢، ٣٠٣، وغيره.

وقد أكثر الله الحديث في القرآن الكريم عن اليهود ـ على وجه الخصوص ـ سابقهم ولاحقهم[١] ، وبين ما تنطوي عليه دخائل نفوسهم المريضة من الضغائن والأحقاد الدفينة، وما تمتلىء به قلوبهم من الغرور والاستكبار، وكشف عما يحيكونه من مؤامرات ودسائس ضد رسل الله ـ عليهم السلام ـ فهم بحق ألدّ أعداء الرسل، وأشدهم خطراً، وأكثرهم مكراً وأبعدهم نظراً، هذا مع قلة عددهم، وشدة جبنهم وهلعهم، وبلوغهم الغاية في الذلة والمهانة، ولهذا لا يكون لهم ظهور ولا ترتفع لهم راية إلا في غياب جند الحق، أو ضعفهم وتخليهم عن حمل الرسالة، كما قال تعالى مبيناً هذه الحقيقة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ . .﴾ [آل عمران: ١١٢]، فحبل الله: إمداده لهم حين يتخلى أهل الحق عن إقامة دين الله وتحكيم شرعه، فيسلط الله عليهم شراذمة يهود حتى يراجعوا أنفسهم، ويقيموا دين الله ـ عز وجل ـ ويحكموا شرعه كما أراد سبحانه.

لكن هذا الحبل وحده غير كاف لظهورهم ـ لرسوخهم في الذل ـ حتى ينضم إليه حبل آخر من الناس: إما من الأمم الكافرة المعادية للحق، أو من المنافقين المتربصين بالمؤمنين الدوائر، أو منهما جميعاً[٢] .

ليسوا سواء:

وهذا وقد أثنى ـ عز وجل ـ على طائفة من أهل الكتاب ممن آمن بالنبي ﷺ، وشهد شهادة الحق، من ذلك قوله تعالى بعد ذكر من كفر منهم: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) انظر: مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود: ص ٤، ٥.

(٢) انظر: عبدالقادر شيبة الحمد، تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردىء الأقاويل (ط ١؛ الرياض: مكتبة المعارف: ١٤١٤هـ): ج ٣ ص ٤٣.

ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

نزلت هذه الآيات فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً[١].

كما أثنى الله ـ عز وجل ـ على وجه الخصوص ـ على طائفة من النصارى؛ فأخبر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، وعلل ذلك بقوله: ﴿ . . ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ . . ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

«**فالسبب الأول**: أنهم علماء متزهدون، وعُبَّاد معتزلون، والعلم مع الزهد وكثرة التعبد مما يُلطِّف القلب ويرققه، ويزيل ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، ولا شدة المشركين.

والسبب الثاني: أنهم ﴿لا يستكبرون﴾، فليس فيهم تكبر وعتوّ عن الانقياد للحق، فهم متواضعون، والمتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

والسبب الثالث: أنهم: ﴿ . . وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ . . ﴾ ففيهم خشوع وخشية من الله ـ عز وجل ـ ولذلك آمنوا وأقروا فقالوا: ﴿ . . رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾، فكانت النتيجة أن ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بنبينا محمد ﷺ كالنجاشي وغيره»[٢]، وقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٩٨. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٩٧.

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤ (بتصرف واختصار).

أنه قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران. . .**» الحديث[١] ، ولعل هذا هو السر ـ والله تعالى أعلم ـ في اقتران ذكر أهل الكتاب بوصف الكفر في معرض الذم في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ. .﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ. .﴾ [الحشر: ٢].

ولما تكرر ذكر أهل الكتاب في أول سورة آل عمران في معرض الذم خالياً من وصف الكفر، أعقب الله ذلك بقوله: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣] أي «ليسوا كلهم على حدّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم»[٢] ، ثم أكد ذلك في خاتمة السورة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

والحديث فيما سيأتي إن شاءالله من أبواب هذا البحث سيكون منصبّاً على المجرمين من أهل الكتاب ممن كفر بالله ورسوله، وعادى أولياءه، ولو آمن ببعض الرسل ـ عليهم السلام ـ فإن من كذب برسول واحد فقد كذب بجميع الرسل[٣] ، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ. .﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقوم نوح لم يبعث إليهم إلا رسول واحد، ولم يكن قبله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته: ج ١ ص ٩٣ برقم ٢٤١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٩٧.

(٣) انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: ج ٦ ص ٤٥٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٣١٨، والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٨٨.

رسول، لكن لما كان دين الأنبياء واحداً، كان التكذيب بواحد منهم تكذيباً للباقين.

وأوضح من ذلك وأصرح قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. والله تعالى أعلم.

الفرق بين المشركين وأهل الكتاب:

قد غاير الله ـ عز وجل ـ بين المشركين وأهل الكتاب في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، مع وصفهم جميعاً بالكفر، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ..﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١]، فهم مشتركون في الكفر وعداء الحق، مختلفون في المنهج والتفكير، وإن حصل بينهم التقاء في بعض الوسائل والأساليب في محاربة الحق، وقد سبق أن الكفر أعم من الشرك[1]، فيدخل في مسمى الكفر كل أصناف المجرمين من أعداء الرسل، من المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، لكن كفر المنافقين كفر باطن لا ظاهر، إذ هم في الظاهر مسلمون.

ويلاحظ في الآيات التي يقترن فيها ذكر الطائفتين معاً كالآيتين السابقتين وما شابههما، تقديم أهل الكتاب على المشركين بالذكر، وذلك لما منَّ الله به على أهل الكتاب وخاصة اليهود (وهم بنو إسرائيل) من العلم والحكمة والنبوة، والتفضيل على سائر العالمين في زمانهم، كما قال تعالى:

---

(١) انظر: ص ٨٤.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الجاثية: ١٦]، فقد اختارهم الله ـ عز وجل ـ من بين سائر الأمم، وحملهم مسؤولية قيادة البشرية، والقيام بأعباء الرسالة، فكانوا في عصرهم مفضلين على غيرهم من الأمم الوثنية والمشركة، لكنهم لما تخلوا عن حمل الرسالة، ونقضوا العهود، وخانوا المواثيق، وحرفوا وبدلوا؛ استحقوا الطرد والإبعاد من رحمة الله، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ففي تذكير الله لهم بهذا التفضيل، وتقديمهم بالذكر على المشركين، إغراء لهم باتباع الحق، الذي جاء به سيد الخلق ﷺ[1] ، ولأن المشركين أنفسهم كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب نظرة احترام وتقدير، ويعترفون لهم بالعلم، ويستشيرونهم في بعض أمورهم، كما استشاروهم في أمر نبينا محمد ﷺ[2] ، فلا غرو أن يُقدَّموا بالذكر على المشركين.

ثالثاً: المنافقون:

وهم أعداء الرسل المتسترون، وخصومهم الخفيّون، وجند إبليس المخلصون، فما ابتُلي رسل الله ـ عليهم السلام ـ ببلية أعظم من بليتهم، ولا دُهوا بداهية أعظم من داهيتهم، وذلك أنهم إلى الحق منتسبون، ولنصرته وموالاته مظهرون، وهم في الحقيقة أعداؤه الألدّون، «فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولايزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية.

---

(١) انظر: مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود: ص ١٢٠.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٨ ص ١٧٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٠٠، والسيوطي، لباب النقول في أسباب النزول (ط ١؛ دمشق: مطبعة الملاح): ص ١٥٥، ١٥٧.

ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والخَتْر[1]، وحسبهم - في ظنهم - أن الفريقين عنهم راضون! وهم بينهم آمنون! ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعزّ قبيلًا ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣][2]، فهم أشد أصناف المجرمين خطراً، وذلك أن الجميع مشتركون في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والمكر والخديعة والاطلاع على عورات المسلمين وأسرارهم، ولهذا حصر الله العداوة فيهم بقوله: ﴿. . هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ . .﴾ [المنافقون: ٤]، لكن الحصر هاهنا غير مراد؛ لأن الله - عز وجل - أثبت العداوة لغيرهم من المشركين وبعض أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ . .﴾ [المائدة: ٨٢]، وإنما المقصود إثبات الأولوية لهم في هذا الوصف.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿. . هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ . .﴾: «ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يُرِد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يُتوهَّم بانتسابهم

---

(١) الختر: شبيه بالغدر والخديعة، وقيل: هو الخديعة بعينها. (انظر: لسان العرب: ج ٢ ص ١٠٩٩، مادة ختر).

(٢) ابن القيم، صفات المنافقين (ط ٤؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٣٩٩هـ) باختصار وتصرف.

إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إيَّاهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر. وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: (هم العدو فاحذرهم) لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوّاً من الكفار المجاهرين»[١] .

تعريف النفاق:

أصل لفظ النفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهو باب جحره؛ فاليربوع يحفر له جحراً ثم يسد بابه بترابه، وهو «القاصعاء»، ثم يحفر له مخرجاً آخر حتى إذا بقي من التراب قشرة رقيقة تركها حتى لا يُعرف مكان هذا المخرج ويسمى: «النافقاء»، فإذا أُتي من قِبَل القاصعاء عدا فضرب النافقاء برأسه ولاذ بالفرار، وكذلك المنافق يُظهر خلاف ما يُبطن[٢] وعلى هذا أكثر أهل اللغة[٣] .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ط ٣؛ القاهرة: المطبعة السلفية: ١٤٠٠هـ): ص ٣٧٤.

(٢) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٤٥٥. وابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص ٣٧٨.

(٣) انظر: عبدالعزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ط ١؛ جدة: دار المجتمع: ١٤٠٩هـ): ص ١٣.

أنواع النفاق:

النفاق نوعان: نفاق أكبر، ونفاق أصغر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «النفاق كالكفر: نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر..»(١).

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «والنفاق لغة مخالفة الظاهر للباطن، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق كفر، وإلا فهو نفاق عمل..»(٢).

والمقصود بنفاق العمل: ما يكون في الأعمال كالكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة.. وهو النفاق الأصغر، ويسمَّى عمليّاً، وعليه يُحمل قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وفي لفظ آخر: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت في خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(٣).

وهذا النوع من النفاق لا يُخرج صاحبه من الملة، لكنه من كبائر الذنوب، وصاحبه على خطر عظيم.

---

(١) مجموع الفتاوى: ج ٧ ص ٥٢٤.

(٢) فتح الباري: ج ١ ص ٨٩. وانظر: النووي، شرح صحيح مسلم: ج ٢ ص ٤٦ ـ ٤٨. وابن القيم، صفات المنافقين: ص ١٥.

(٣) أخرج الحديثين البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق: ج ١ ص ٢١ برقم ٣٣، ٣٤. ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق: ج ١ ص ٨٩. وليس بين الحديثين تعارض، كما قرر ذلك الإمامان النووي وابن حجر ـ رحمهما الله تعالى ـ وغيرهما. (انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٢ ص ٤٨، وفتح الباري: ج ١ ص ٨٩).

وأما النفاق الأكبر فهو الذي ينعقد قلب صاحبه عليه، فيبطن الكفر الصراح مع إظهار الإيمان والخير والصلاح، ويسمى هذا النوع: اعتقاديًّا، وهو مخرج من الملة، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار عياذاً بالله تعالى من ذلك.

بواعث النفاق:

سبق أن النفاق الأكبر هو الذي ينعقد عليه قلب صاحبه من الكفر والتكذيب وبغض الحق.. فما هي بواعث هذا النفاق ومسبباته الداعية إليه؟

لقد تأملت الآيات التي تحدثت عن المنافقين في كتاب الله ـ عز وجل ـ فظهر لي من بواعث نفاقهم ما يلي:

١ ـ مرض قلوبهم.
٢ ـ سوء ظنهم بالله.
٣ ـ حب الرئاسة والتطلع إليها.
٤ ـ خوفهم على أنفسهم.
٥ ـ طلب العز والجاه.
٦ ـ تسويل الشيطان وإملاؤه.
٧ ـ إغناء الله لهم من فضله.
٨ ـ اتباع الهوى.
٩ ـ سكنى البادية والبعد عن موطن العلم.

التفصيل:

أولاً: مرض قلوبهم:

قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ.. ﴾ [البقرة: ١٠] أي شك وريب(١).

(١) انظر: أبو الفرج ابن الجوزي، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (ط ١؛ الرياض: مكتبة المعارف: ١٤٠٧هـ): ج ١ ص ٥١.

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ في لسان العرب: «والمرْض والمرَض: الشكّ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .. ﴾ أي شك ونفاق وضعف يقين.. ويُقال: قلب مريض من العداوة، وهو النفاق..»[١].

وقد يُطلق مرض القلب ويُراد به مرض الشهوات، كما في قوله تعالى: ﴿ .. فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله؛ فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق، محبًّا له، مؤثراً له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سمّى الله كلًّا منهما مرضاً..»[٢].

والمقصود هنا: مرض الشك والريب الذي هو مرض المنافقين.

وقد يجتمع النوعان في بعض أصناف من المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، فقد فُسِّر المرض هنا بحب الزنى، وأنه حال طائفة من المنافقين، فيكون العطف هنا من باب عطف الخاص على العام[٣].

ثانياً: سوء ظنهم بالله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى في وصف طائفة من المنافقين: ﴿ .. وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .. ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال تعالى في وصف المنافقين والمشركين: ﴿ .. الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في تفسير الظن في الآية: «وقد فُسِّر هذا

---

(١) ج ٦ ص ٤١٨١، مادة (مرض).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل: ص ٩٨، ٩٩. وانظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ٤٩.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٢ ص ١١٨. وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٧ ص ٢٤١.

الظن الذي لا يليق بالله بأنه ـ سبحانه ـ لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلمه للقتل. وقد فُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه. . .».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يُتمّ أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم. وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق، إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء. .»[(١)] .

ولعمر الله تعالى إن هذا لمن أعظم بواعث النفاق ودواعيه، فإن من كان هذا حاله، وهذه تصوراته، كيف يقر له قرار، ويهدأ له بال، ويكون ممن باع نفسه لله مع المؤمنين الصادقين؟

ثالثاً: حب الرئاسة والتطلع إليها:

كما هو حال رأس المنافقين في زمن نبينا محمد ﷺ: عبد الله بن أبيّ، فقد كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه مَلِكاً عليهم، فلما قدم النبي ﷺ المدينة انصرف قومه عنه إلى الإسلام، فامتلأ قلبه حقداً وضغينة، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكاً، فلما أعز الله الإسلام في بدر، قال ابن أبي: إن هذا أمر قد توجّه. فأبطن الكفر، وأظهر النفاق[(٢)] ، وقد ظل يحلم بالملك بعد ذلك، ويتحين الفرص لإخراج النبي ﷺ وأصحابه المهاجرين من

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (ط ٢؛ بيروت: مؤسسة الرسالة: ١٤٠١هـ): ج ٣ ص ٢٢٨. وانظر: عبدالله بن سليمان، تيسير العزيز الحميد: ص ٦٧١ ـ ٦٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿. . ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب. .﴾: ج ٤ ص ١٦٦٤ برقم ٤٢٩٠. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦. ومحمود شاكر، التاريخ الإسلامي (ط ٢؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٢هـ): ج ٢ ص ٢٢٣. وأحمد باوزير، مرويات غزوة بدر (ط ١؛ المدينة المنورة: مكتبة طيبة: ١٤٠٠هـ): ص ٣٠١.

المدينة، طمعاً في استعادة ملكه المستلب! وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ . . ﴾ [المنافقون: ٨](١) . يريد بالأعز: نفسه، وبالأذل: رسول الله ﷺ، فجاء الرد من عند الله حاسماً قويًا: ﴿ . . وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

والمقصود أن حب الرياسة والتطلع إليها، باعث من بواعث النفاق.

رابعاً: خوفهم على أنفسهم، وطلبهم الأمن لها:

قال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ . . ﴾ إلى قوله: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴾ [النساء: ٨٨ ـ ٩١].

روى ابن جرير ـ رحمه الله ـ بسنده عن مجاهد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «هم ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا»(٢) .

وقد ذكر الله تعالى عن المنافقين في أكثر من موضع أنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . . ﴾ [المجادلة: ١٦]، أي جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية لهم يستجنّون بها من القتل والسبي؛ وذلك أنهم كفرة في الباطن، وحكم الله في أهل الكفر أن يُقتلوا وتُسبى ذراريهم ونساؤهم، وتُستباح أموالهم، فلا سبيل لهم إلى أن يأمنوا على أنفسهم في المجتمع المسلم ـ مع إصرارهم على الكفر ـ إلا باللجوء إلى النفاق، وإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

كما كشف الله ـ عز وجل ـ عما تخفيه نفوسهم من شدة الخوف والهلع، وبغض المجتمع المسلم، بقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا

(١) انظر: مقبل الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول (الرياض: مكتبة المعارف: ١٤٠٠هـ): ص ١٦٠.

(٢) جامع البيان: ج ٤ ص ٢٠٣. وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٤ ص ١٦٧.

هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦] أي يخافون أن يُظهروا ما هم عليه، ليأمنوا فيكم فلا يُقتلوا[١] والحال أنهم ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] فهم ـ لشدة فَرَقهم وخوفهم ـ يتطلعون دائماً إلى مهرب آمن، من حصن حصين، أو مغارة في جبل، حتى نفق في الأرض ليسارعوا في الدخول فيه، طلباً للأمن والسلامة، ومفارقة المجتمع المسلم.

ولكن هيهات أن يجدوا.

خامساً: طلب العز والجاه:

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى عنهم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ . . ﴾ [التوبة: ٦٢].

وفي الآية الأخرى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ . . ﴾ [التوبة: ٩٦].

فهم يريدون العز والجاه من الطائفتين (الكفار والمؤمنين)؛ فيرُضوا المؤمنين ليعزّوهم، ويُرضوا الكفار ليُعزّوهم. ومن ههنا دخل عليهم البلاء؛ فإنهم طلبوا العز بغير طاعة الله ـ عز وجل ـ، فقوبلوا بأعظم الذل بأن جُعل مستقرهم في الدرك الأسفل من النار تحت الكافرين[٢] . ولهذا قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ . . ﴾ [فاطر: ١٠] أي فليطلبها بطاعة الله سبحانه وتعالى، ومنه لا من غيره[٣] .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٣٩١. والبغوي، معالم التنزيل: ج ٤ ص ٥٩.

(٢) انظر: ابن القيم، طريق الهجرتين، ص ٣٧٥.

(٣) انظر: ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ط ١؛ بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤٠٧هـ): ص ١٠٤. والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٣٩١.

سادساً: تسويل الشيطان وإملاؤه لهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد: ٢٥] أي زين لهم ذلك وحسنه لهم، وغرّهم وخدعهم[١].

ويوم القيامة حين يُضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور له باب، باطنه - مما يلي المؤمنين - فيه الرحمة، وظاهره من قِبَله العذاب، ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلّي بصلاتكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم؟!.. فيجيبهم المؤمنون: ﴿.. بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد ١٤] أي خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان[٢]، فحسّن لكم النفاق وزينه لكم.

والمقصود أن من بواعث النفاق تزيين الشيطان وتسويله وإملاءه أعاذنا الله منه.

سابعاً: إغناء الله لهم من فضله:

قال تعالى في طائفة من المنافقين: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ.. ﴾ [التوبة: ٧٤].

نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين[٣] نطقوا بكلمة الكفر في بعض مجالسهم، وهمّوا بأمور عظام، منها قتل النبي ﷺ، ثم لما انكشف أمرهم حلفوا عند رسول الله ﷺ أنهم ما قالوا ذلك، فأكذبهم الله - عز وجل - وبيّن أن كذبهم ونفاقهم ليس له من سبب سوى أن أغناهم الله ورسوله من فضله،

---

(١) انظر: فتح القدير: ج ٤ ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق: ج ٥ ص ٢٠٥.

(٣) انظر: ابن العربي المالكي، أحكام القرآن (ط ٣؛ بيروت: دار المعرفة: ١٣٩٢هـ): ج ٢ ص ٩٧٩. وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٧٣.

وذلك أن أهل المدينة كانوا قبل مقدم النبي ﷺ في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فلما قدم النبي ﷺ أثْرَوا، وكثرت أموالهم، فكان حقهم أن يشكروا هذه النعمة، ويُثنوا على مسديها، وقد فعلوا، سوى من ذكرهم الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية من المنافقين وأشباههم، وفي هذا دليل على لؤمهم وخسَّتهم[1] .

ثامناً: اتّباع الهوى:

قال تعالى في وصف طائفة من المنافقين: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد: ١٦]، فهم لا يفقهون ما يُقال لهم مما ليس لهم رغبة في سماعه. وإمعاناً منهم في الخبث والاستهزاء، فإنهم بعد خروجهم من عند رسول الله ﷺ يسألون أهل العلم من أصحابه: (ماذا قال إنفاً) أي قريباً، ولو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، لكن الله ختم عليها، وسد أبواب الخير الموصلة إليها، والسبب أنهم اتبعوا أهواءهم فزُيِّن لهم سوء أعمالهم[2] .

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ [محمد: ١٤].

تاسعاً: سكنى البادية، والبعد عن موطن العلم:

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ .. ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ .. ﴾ [التوبة: ٩٧ ـ ٩٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أخبر تعالى أن في الأعراب كفَّاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي أحرى

---

(١) انظر: البحر المحيط: ج ٥ ص ٧٣، ٧٤.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٧ ص ٧٢.

ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . »[١] .

وما ذاك إلا لما طُبِعت عليه نفوسهم من الغلظة والجفاء والجهل بسبب بعدهم عن مواطن العلم ومعدنه، ولهذا لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ . . ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويؤيد ذلك، ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سكن البادية جفا . . »[٢] .

هذا ما ظهر لي من بواعث النفاق في القرآن الكريم، والله تعالى أعلى وأعلم.

أهداف المنافقين:

النفاق ـ بمعناه الشرعي ـ لا وجود له ألبتّة في مجتمع كافر، معلنٍ للكفر، حامٍ له، مدافع عنه. . هذا لا يكون أبداً، إنما يظهر النفاق في مجتمع مسلمٍ، وفي ظل حكم إسلامي راشد، راعٍ للحق، حامٍ له، قامعٍ للشر وأهله. وكلما قوي الإسلام ـ ممثلًا في مجتمعهً ودولته ـ قويَ النفاق، واشتدّ عوده، ونما وازداد. والعكس صحيح. فالإسلام هو السبب الوحيد في ظهور النفاق، وبروز المنافقين، ولذا كان الهدف الأول والأخير للمنافقين هو القضاء على الإسلام والمجتمع المسلم. ويتخلل هذا الهدف الأساس أهداف أخرى ثانوية من أهمها: تحقيق بعض المكاسب الدنيوية، مادية كانت أو معنوية[٣] كالحصول على بعض المغانم القريبة، ونيل الجاه

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٨٢، ٣٨٣.

(٢) المسند: ج ١ ص ٤٤٦ برقم: ٣٣٦١. وقد حكم أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ على إسناده بالصحة.

(٣) انظر: الحميدي، المنافقون في القرآن: ص ٢٠. وقد عد من أهداف المنافقين: (وقاية أنفسهم وأموالهم)، وعددتُ ذلك من بواعث النفاق كما سبق؛ وذلك أن المنافقين لما ظهر=

الرفيع والمنزلة العالية بين المسلمين.

ولذا، يكثر في القرآن الكريم الحديث عن تربص المنافقين بالمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . .﴾ [النساء: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ . .﴾ [التوبة: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

وهناك طائفة من المنافقين ـ وهم الرعاع ـ ليس لهم من هدف سوى العيش بسلام في المجتمع المسلم على ما انطوت عليه أنفسهم من الكفر والنفاق وبغض الحق وأهله، وقد يظهر شيء من ذلك على قسمات وجوههم وفلتات ألسنتهم، لكن ليس لديهم تخطيط أو تنظيم في مواجهة الحق، وهؤلاء أقل خطراً من الطائفة الأولى، وإن كانوا جميعاً مشتركين في أصل الكفر والنفاق، وبغض الحق.

العلاقة بين أصناف المجرمين:

إن ثمة علاقة وثيقة تربط بين بعض أصناف المجرمين ببعضهم الآخر، يمكن حصرها فيما يلي:

١ ـ العلاقة بين المشركين وأهل الكتاب.

٢ ـ العلاقة بين المنافقين وأهل الكتاب.

٣ ـ العلاقة بين المنافقين والمشركين.

أولاً: العلاقة بين المشركين وأهل الكتاب:

لقد ورد الحديث في القرآن الكريم عن هذه العلاقة في ثلاث آيات بيِّنات:

= الإسلام وقويت شوكته خافوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، فكان ذلك باعثاً لهم على النفاق، فخوفهم على أنفسهم سابق لنفاقهم، والسابق للشيء كيف يكون هدفاً له؟!. والله أعلم.

الأولى: قوله تعالى في طائفة من أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

الثالثة: قوله تعالى فيهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . .﴾ [المائدة: ٨٠].

فأما الآية الأولى فإنها تتحدث عن حال أهل الكتاب ـ واليهود منهم على وجه الخصوص ـ قبل مبعث النبي ﷺ، وأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، أي يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذِّب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ. . .»[١].

أما الآية الثانية فهي تتحدث عن طائفة من أهل الكتاب بعد بعثة النبي ﷺ، وتفضيلهم المشركين عَبَدَة الأوثان على أهل الحق والإيمان.

أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة [وهو من أشراف يهود] قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة، وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا ألا ترى إلى هذا الصنبور[٢] المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٢٤.

(٢) الصنبور: الأبتر الذي لا عقب له. (انظر: النهاية: ج ٣ ص ٥٥).

السدانة، وأهل السقاية! قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣]، وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ . .﴾ إلى قوله: ﴿. . فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][1].

وأما الآية الثالثة فإنها تتحدث عن تولي أهل الكتاب الكفار، وهم المشركون من عَبَدَة الأوثان[2].

والمتأمل لهذه الآيات الثلاث ـ وهي مرتبة حسب نزولها ـ يرى التذبذب الواضح، والتناقض الصريح في مواقف أهل الكتاب من المشركين، فقبل مبعث النبي ﷺ كانوا يُظهرون العداء الصريح لهم، ويتوعدونهم بالقتل والإبادة عند ظهور النبي المرتقب، فلما ظهر هذا النبي، وكان من العرب، فضلوا عليه عبدة الأوثان، وقالوا: هؤلاء ـ أي المشركون ـ أهدى من الذين آمنوا سبيلًا!، مع يقينهم بصدق هذا النبي ﷺ وما جاء به من الهدى والنور، ثم تطور بهم الحال إلى أن اتخذوا المشركين أولياء، يُصافونهم، ويحبّونهم. ولا غرو فإن المبادىء حين تنتصر عليها الأهواء، وتعمى عنها القلوب؛ تفقد قيمتها، وتكون أرخص شيء في ميدان العرض والطلب.

وأما علاقة المشركين بأهل الكتاب، فإنها علاقة تقدير واحترام، فهم

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ١٣٦. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥١٣، والوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول: ص ٤٤.

(٢) انظر: جامع البيان: ج ٤ ص ٦٥٩، والبغوي، معالم التنزيل: ج ٣ ص ٨٤، ٨٥، وابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٤ ص ٥٣٨. وحكى البغوي وابن عطية قولاً آخر في الآية، واختاره ابن كثير في تفسيره، بل لم يحكِ غيره، وهو أن قوله (منهم) يعود إلى المنافقين، فيكون الكلام في هذه الآية منطقعاً من ذكر بني إسرائيل، وهذا القول فيه بُعد، إذ أن سياق الآيات لم يرد فيه ذكر للمنافقين ألبتة، والأصل عدم الانقطاع، فيكون القول الأول هو الراجح، والله تعالى أعلم.

يرونهم أهل علم وأهل كتاب، في مقابل ما عُرفوا هم به من جهل وأُميّة، ولذا كانوا يستشيرونهم في بعض القضايا المتعلقة بالدين، كاستشارتهم في أمر محمد ﷺ، وقد سبق الحديث عن ذلك(١) .

ثانياً: العلاقة بين المنافقين وأهل الكتاب:

العلاقة بين المنافقين وأهل الكتاب علاقة وثيقة جدًّا، فالمنافقون يُعلقون آمالاً كبيرة على أهل الكتاب للقضاء على الإسلام وأهله، لذا فإنهم لا يتوانون عن مد أيديهم إليهم، والمسارعة إلى خدمتهم، والارتماء في أحضانهم عند الملمات، وقد ورد الحديث عن هذه العلاقة في القرآن الكريم في عدد من الآيات منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤] فسمى الله أولياءهم ـ وهم في الغالب من اليهود ـ شياطين، وذلك لأن الشياطين مهمتها الإفساد في الأرض ومعاداة الحق، وهذا الوصف منطبق عليهم.

ـ وقال تعالى مبيناً علاقة المنافقين باليهود المغضوب عليهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤].

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «هم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم»(٢) .

أما مظاهر هذه العلاقة، فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ إعلان المنافقين الطاعة لأهل الكتاب سرًّا.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ .. ﴾ [محمد ٢٦]، فالقائلون هم المنافقون،

---

(١) انظر: ص ١٠٣.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٢٣.

والكارهون هم اليهود[١] .

وهذه الطاعة التي أعلنها المنافقون لليهود فيما بينهم، ليست طاعة مطلقة، نظراً لخطورة وضع المنافقين في المجتمع المسلم، ولذاجاء تقييدها بقولهم: ﴿ . . فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ . . ﴾، وهو ما يقدرون عليه، ولا ينكشف معه أمرهم، كاختلاق الأعذار للقعود عن الجهاد، وتثبيط المؤمنين عنه، ونحو ذلك[٢] .

٢ ـ تشجيع أهل الكتاب وحثهم على التمرد وقتال المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ . . ﴾ [الحشر: ١١].

نزلت هذه الآية في المنافقين، وذلك أنهم بعثوا إلى يهود بني النضير لما حاصرهم رسول الله ﷺ أن: اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نُسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم[٣] . وهم كاذبون في قولهم هذا، لكنهم أرادوا تشجيع اليهود وحثهم على حرب رسول الله ﷺ .

٣ ـ المسارعة في خدمتهم، والتجسس لصالحهم، وتنفيذ مخططاتهم[٤] .

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ . . ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ج ٥ ص ٤٧. وفي الآية أقوال أخرى ذكرها عامة المفسرين، وقد رجح الشوكاني ـ رحمه الله ـ هذا القول، وقال: «ويؤكد كون القائلين المنافقين، والكارهين اليهود: قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ . . ﴾ [الحشر: ١١].

(٢) انظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤١٥هـ): ج ٥ ص ٣٠٦.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٤٤.

(٤) انظر: الحميدي، المنافقون في القرآن: ص ٦٦.

نزلت هذه الآية في طائفتين من اليهود كانت بينهما خصومة قبل مبعث النبي ﷺ، فرغبت إحداهما التحاكم إلى رسول الله ﷺ، فخشيت الأخرى ـ وهي الظالمة العزيزة ـ ألا يحكم لها النبي ﷺ، فدسَّت إليه ناساً من المنافقين ليُخبروا لهم، فإن كان الحكم موافقاً لأهوائهم جاؤوا، وإلا لم يأتوا. . .(١).

وقد بين الله ـ عز وجل ـ سبب مسارعة المنافقين إلى موالاة كفرة أهل الكتاب، ومدّ أيديهم إليهم، فقال سبحانه: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى . . ﴾ [المائدة: ٥٢] أي نخشى أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمؤمنين، فتكون لنا أيادٍ عند اليهود والنصارى، فينفعنا ذلك(٢). وفي هذا دليل على خواء قلوبهم من الإيمان بالله وتعظيمه وخشيته، والثقة بوعده، وهو الذي بيده ـ سبحانه ـ مقاليد الأمور جميعاً، ولهذا قال سبحانه في ختام الآية: ﴿ . . فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وليس ولاؤهم مقتصراً على أهل الكتاب، بل إنهم ليمدون أيديهم لكل عدو للحق، ممن كفر بالله ورسله، كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

---

(١) انظر تمام القصة في مسند الإمام أحمد: ج ١ ص ٣٠٦ برقم ٢٢١١، وقد صحح إسنادها أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ. وقد رُوي في نزول هذه الآيات سبب آخر، رواه الإمام مسلم في صحيحه، ورواه غيره أيضاً. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله». انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٦١. وانظر: الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول: ص ٥٩، ٦٠، والحميدي، المنافقون في القرآن: ص ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٦٨.

ومن أهل الكتاب منافقون:

نعم.. من أهل الكتاب منافقون، أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وقد جلّى الله أمرهم في القرآن الكريم فقال ـ سبحانه ـ في وصفهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: ٧٦][1].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ..﴾ [المائدة: ٦١][2].

ولهذا كان لفظ النفاق أعم من لفظ الكفر، فكل منافق كافر، وليس كل كافر منافق، فيدخل في لفظ النفاق كل من أظهر الإيمان والصلاح، وأبطن الكفر الصراح، سواء كان كتابيًا أو مشركاً أو غير ذلك.

ثالثاً: العلاقة بين المنافقين والمشركين:

العلاقة بين المنافقين والمشركين لا تختلف كثيراً عن العلاقة بين المنافقين وأهل الكتاب، وذلك أن هدف المنافقين الأساس هو القضاء على الإسلام كما سبق، فهم على استعداد لأن يمدوا أيديهم إلى كل عدو للإسلام، ويتعاونوا معه لتحقيق هدفهم المنشود. وإنما كانت علاقة المنافقين بأهل الكتاب في زمن النبي ﷺ أقوى من علاقتهم بالمشركين، لأسباب، من أهمها: قرب أهل الكتاب منهم، وسهولة الاتصال بهم في أي وقت، فإنهم كانوا مقيمين في المدينة داخل المجتمع المسلم، بخلاف المشركين فإنهم كانوا بعيدين عنهم، والاتصال بهم يتطلب سفراً دائماً، وهذا قد يؤدي إلى انكشاف أمر المنافقين، إضافة إلى روابط النسب التي تربط بين بعض

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٤١٢.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج ٤ ص ٦٣٦.

المشركين والمؤمنين، وهذا من شأنه أيضاً أن يؤدي إلى افتضاح أمر المنافقين، لاسيما وأن في المجتمع المشرك مؤمنين يخفون إيمانهم، فهم بمثابة عين للمسلمين، ولذا لم ترد آيات صريحة في علاقة المنافقين بالمشركين كما ورد في علاقتهم بأهل الكتاب. والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني
سمات المجرمين في القرآن

قبل الحديث عن السمات، لابد من التفريق بينها وبين الأساليب التي سيأتي الحديث عنها ـ إن شاءالله ـ في الباب الثاني من هذا الكتاب، إذ بينهما تشابه، فأقول: إن السِّمة هي العلامة التي تميز الشيء عن غيره، فيُعرف بها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥][1].

وهي: إما خَلقية من صنع الله ـ تعالى ـ لا يد للإنسان فيها، وهذه ليست موضوع حديثنا في هذا البحث، وإما خُلُقية مكتسبة يعملها الإنسان بطوعه واختياره، وهي المقصودة هاهنا.

أما الأسلوب فهو الطريق الذي يسلكه الإنسان للوصول إلى هدف ما[2].

فالسمة غير الأسلوب. وقد يكون الشيء سمةً وأسلوباً في آن واحد، كما لو اختص شخص، بسلوك طريق ما، للوصول إلى غاية ما؛ فسلوكه لهذا الطريق يُعدّ أسلوباً من الأساليب للوصول إلى تلك الغاية، واختصاصه بسلوك هذا الطريق دون غيره يعدّ سمة له تميزه عن غيره.

وبناء على ذلك، يمكننا تقسيم السمات والأساليب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يكون سمة وليس بأسلوب.

---

(١) انظر: ابن عباد، المحيط في اللغة (ط ١؛ بيروت: عالم الكتب: ١٤١٤هـ): ج ٨ ص ٤٠٥، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٦/ ١١٠ مادة (وسم)، والبستاني، قطر المحيط: ص ٦٦٧.

(٢) انظر: المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي (ط ٥؛ مصر: المطبعة الأميرية: ١٩٢٢م): ص ٣٨٦. وابن منظور، لسان العرب: مادة (سلب): ج ٣ ص ٢٠٥٨.

القسم الثاني: ما يكون أسلوباً وليس بسمة.

القسم الثالث: ما يكون سمة وأسلوباً في آن واحد.

ولما كان هذا المبحث مخصصاً لذكر السمات دون الأساليب؛ فإنني سأقتصر على ذكر السمات فقط، فما كان منها من القسم الأول فإني أفصّل فيه، وما كان من القسم الثالث فإني أذكره مجملًا دون تفصيل، إذ سيأتي تفصيله في الباب القادم إن شاءالله.

وإنما أرجأت تفصيله إلى الباب القادم لأن عنوان الكتاب يقتضي ذلك، فإن مقصود البحث الأساس هو الحديث عن الأساليب، وإني أسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد إنه ولي ذلك.

سمات المجرمين:

إن لكل شيء سمة أو سمات تميزه عن غيره، وقد ينفرد بهذه السمات، وقد يشاركه فيها أو في بعضها غيره، وقد تتبعت سمات المجرمين في كتاب الله ـ عز وجل ـ وقمت بجمعها، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: السمات المشتركة.

القسم الثاني: السمات غير المشتركة.

أولاً: السمات المشتركة:

وهي التي يشترك فيها المجرمون بجميع أصنافهم، وقد بلغت ـ حسب ما ظهر لي من كتاب الله ـ أربعين سمة، وهي:

السمة الأولى: الاستهزاء بالرسل ـ عليهم السلام ـ ويدخل في ذلك الاستهزاء بآيات الله ـ عز وجل ـ.

قال تعالى: ﴿.. قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

السمة الثانية: الطعن في القرآن والتشكيك فيه.

ومن ذلك قولهم إنه: ﴿.. أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٥].

السمة الثالثة: مشاقة الرسل ـ عليهم السلام ـ ومخالفتهم:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . ﴾ [الأنفال: ١٣].

السمة الرابعة: الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ . . وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . . ﴾ [إبراهيم: ٣].

وسواء صدوا بأنفسهم، أو صدوا غيرهم عن سبيل الله. فهي سمة بارزة من سمات المجرمين.

السمة الخامسة: الكفر بنعمة الله وجحدها وإنكارها، ونسبتها إلى غير المنعم سبحانه:

قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال سبحانه بعد تعداده بعض نِعَمه على عباده: ﴿ . . أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل: ٧٢][1].

وقد قص الله علينا في كتابه الكريم قصص بعض المجرمين الجاحدين لنِعَم الله ـ عز وجل ـ وما حلّ بهم من الدمار والهلاك، منهم:

---

(١) وفي سورة العنكبوت: ﴿ . . وبنعمة الله يكفرون﴾ بغير الضمير (هم)، والعلة في ذلك أنه إنما أتى بالضمير المنفصل (هم) في سورة النحل لئلا تلتبس الغيبة بالخطاب، وذلك أن الآية بدأت بالخطاب ثم انتقلت إلى الغيبة، بخلاف آية العنكبوت فإن الخطاب فيها واحد، فأمن الالتباس. (انظر: الكرماني، أسرار التكرار في القرآن (ط ٣؛ مصر: دار الاعتصام: ١٣٩٨هـ): ص ١٢٥). وقيل: إن قوله: ﴿ . . أفبالباطل يؤمنون . . ﴾ في النحل راجع إلى من تقدم ذكرهم في قوله: ﴿ويجعلون لله البنات . . ﴾ لا إلى ما اتصل به من قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً . . ﴾ ولأجل ذا أتى بضمير (هم) المشعر بالبعد لئلا يُتوهم عَوْد الضمير إلى القريب. (انظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل (بيروت: دار النهضة العربية: ١٤٠٥هـ): ج ٢ ص ٦١٣ ـ ٦١٦). والقول الأول أرجح، بدليل قوله تعالى في ختام الآية السابقة لآية النحل: ﴿ . . أفبنعمة الله يجحدون﴾ بدون ذكر الضمير (هم)، وذلك لأن الخطاب فيها واحد ليس فيه التفات، ومقتضى القول الثاني (المرجوح) إثبات الضمير (هم) هنا أيضاً لأن السياق واحد. والله تعالى أعلم.

ـ قارون الذي آتاه الله أموالاً طائلة، فقابل هذه النعمة بالجحود والنكران، ونسبها إلى نفسه، فقال: ﴿. . إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ . .﴾ [القصص: ٧٨][1]، فكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره الأرض.

ـ ومنهم صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿. . أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: ٣٤]، ولم يكتف بذلك؛ بل إنه لما دخل جنته وهو في قمة زهوه وغروره قال: ﴿. . وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، فكانت النتيجة أن سُلِب تلك النعمة التي كان يفخر بها، فإذا بالجنتين العامرتين تتحولان ـ بأمر الله تعالى ـ إلى خراب بلقع.

وفي قصة سبأ، وأصحاب الجنة، وغيرهما من القصص مزيد من الأمثال والعِبرَ لمن أراد أن يعتبر.

والمقصود أن جحد نعمة الله ـ عز وجل ـ والكفر بها، سمة بارزة من سمات المجرمين.

السمة السادسة: قسوة القلوب:

قال تعالى في سياق حديثه عن بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ . .﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم بين السبب في ذلك فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ . .﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى في سياق حديثه عن المشركين: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ . .﴾ [الأنعام: ٤٣].

ومن مظاهر قسوة قلوبهم ما يلي:

١ ـ عدم الانتفاع بالمواعظ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣﴾ [الصافات: ١٣].

---

(١) انظر: ص ٧٦.

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ٩ ـ ١١].

بل وصل الحال ببعضهم إلى إعلان ذلك تيئيساً للرسل ـ عليهم السلام ـ كما حكى الله عن قوم عاد قولهم لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وحجتهم في ذلك قولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] أي ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين وطريقتهم. . ويا لها من حجة[1] !

٢ ـ التبرم والضيق بالرسل:

قال تعالى حاكياً قول قوم نوح لنبيهم نوح ـ عليه السلام ـ لما دعاهم إلى الله، وألح عليهم: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

أما قوم لوط، فقد قالوا لنبيهم لوط ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وأما قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فما كان جوابهم لنبيهم إلا أن قالوا: ﴿ . . ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . . ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، فيا له من جواب ما أقبحه، ويا لها من قلوب ما أقساها!

٣ ـ عدم الاعتبار بالمصائب والحادثات:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦] أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر. .[2] .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٤٦٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٢٥١.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٦].

٤ ـ بغضهم لاستماع القرآن والذكر ونفورهم منه:

قال تعالى في طائفة من المنافقين: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال تعالى واصفاً حال المشركين عند استماع القرآن: ﴿ .. وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقد شبه الله حالهم عند استماع الذكر بحال الحُمُر الوحشية عند رؤية رام أو أسد، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١][1].

أما حال وجوههم، فقد وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴾ [الحج: ٧٢].

بل إنهم من شدة حنقهم وكراهيتهم للقرآن، وثقله على قلوبهم ومسامعهم، لينظرون إلى الرسول ﷺ نظراً شديداً يكاد يصرعه كما يُصرع من به مس من الجن، ويقولون إنه لمجنون، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم: ٥١][2]، ولكن الله قد عصم نبيه ﷺ.

وربما لجأ بعضهم إلى أسلوب التجاهل، وتظاهر بالصمم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا .. ﴾ [لقمان: ٧].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٤ ص ٤٤٧.

(٢) انظر: الفراء، معاني القرآن (ط ٢؛ بيروت: عالم الكتب: ١٩٨٠م): ج ٣ ص ١٧٩.

٥ ـ الغلظة والجفاء وسوء الخُلُق :

قال تعالى في وصف بعض المجرمين : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القلم : ١٣].

والعتلّ هو الغليظ الجافي.

وقال الحسن ـ رحمه الله ـ : هو الفاحش الخَلْق، السيء الخُلُق[١] .

وقال الفراء ـ رحمه الله ـ : «هو الشديد الخصومة في الباطل»[٢] .

وهذه كلها أوصاف للمجرمين .

٦ ـ دع اليتيم وترك إكرامه والإحسان إليه :

قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفجر : ١٧].

وقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون : ١، ٢]، ودعّ اليتيم : قهره ودفعه عن حقه[٣] .

فاليتيم من أضعف خلق الله ـ عز وجل ـ وأشدهم حاجة إلى العطف والحنان والإكرام، ولهذا جاء التوجيه الإلهي الكريم لأكرم الخلق وأرحمهم ﷺ بالعناية باليتيم في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى : ٩]، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال : «**إنّي أحرّج حقّ الضعيفين : اليتيم والمرأة**»[٤] .

٧ ـ ترك إطعام المسكين والحضّ عليه :

وقد سجل القرآن الكريم اعترافهم على أنفسهم يوم القيامة، وذلك حين يسألهم أهل الجنة : ما سلككم في سقر، فيجيبون معترفين : ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المدثر : ٤٣، ٤٤].

---

(١) البغوي، معالم التنزيل : ج ٨ ص ١٩٢ .

(٢) معاني القرآن : ج ٣ ص ١٧٣ .

(٣) انظر : معالم التنزيل : ج ٨ ص ٥٥١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه : ج ٢ ص ٥٧٩ برقم ٩٦٤٦، وابن ماجه في كتاب الأدب، باب حق اليتيم : ج ٢ ص ٣١١ برقم ٣٧٢٢، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٤٤٣ .

وقال تعالى في وصف المجرم المكذب بالدين: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾ [الماعون: ٣] أي «لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه»[١]، وذلك لقسوة قلوبهم، وتكذيبهم بيوم الدين، فهم لا يرجون ثواباً ولا حساباً.

السمة السابعة: الحسد والبغي:

وقد سبق الحديث عن ذلك[٢].

السمة الثامنة: الغرور والإعجاب بالنفس:

ومن ذلك قول أهل الكتاب: ﴿ .. لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ .. ﴾ [البقرة: ١١١].

وقولهم: ﴿ .. نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ .. ﴾ [المائدة: ١٨].

وقول المشركين احتقاراً للمؤمنين من الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم: ﴿ .. أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ .. ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء الصعاليك ـ وهم غالب أتباع الرسل ـ ويدعنا ونحن أشراف القوم وسادتهم[٣].

وقريب من ذلك قولهم: ﴿ .. لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ .. ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكأن الإيمان لا يستحقه إلا أهل الشرف والجاه والسيادة والسلطة.

أما المنافقون، فإنهم إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا متبجحين: ﴿ .. إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ ﴾ [البقرة: ١١]، بل بلغ بهم الغرور إلى حد أنهم إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: ﴿ .. أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ .. ﴾ [البقرة: ١٣] فانظر كيف فسدت تصوراتهم حتى صار الإفساد

---

(١) معالم التنزيل: ج ٨ ص ٥٥١.

(٢) انظر: ص ٣٠.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٥ ص ٢٠٥، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٣٥.

عندهم إصلاحاً، والإيمان بالله ورسوله سفهاً وحمقاً!.

السمة التاسعة: أنهم لا يعقلون:

قال تعالى في وصف الكفار: ﴿.. صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة: ٥٨].

وقال تعالى واصفاً حال اليهود، وإخوانهم من أهل النفاق: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: ١٤].

والمراد بالعقل هنا: العقل المكتسب لا العقل المطبوع الذي هو حاصل لهم أصلاً(١)، كما قال تعالى: ﴿.. لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ ..﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فأثبت لهم صورة المدارك والحواس، ونفى عنهم الانتفاع بها في إدراك الحق، وذلك لأنهم «آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسُلبوا خاصية العقل»(٢)، واستحقوا هذا الوصف.

ولهذا، يرد كثيراً في ختام بعض الآيات قوله تعالى: ﴿..أفلا تعقلون﴾، ﴿.. لعلكم تعقلون﴾، ﴿.. إن كنتم تعقلون﴾، وما ذاك إلا لأن كثيراً من الناس لا ينتفعون بعقولهم في إدراك الحق والتجرد لطلبه، وإنما يقلدون غيرهم ممن سبقهم أو ممن يرونه في حياتهم بغير حجة أو برهان، وإلا فأي عقل لمن يُدعى إلى الهدى والرشاد، ويؤمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونجاته، فيعصي الناصح، ويأبى إلا اتّباع ما يضّره ولا

---

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٢ ص ٦٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ج ١ ص ٦٥٨. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ٧ ص ٢٤.
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٣ ص ١١٩.

ينفعه من الأوهام والظنون؟ إن هذا لهو عين السفه، إن لم يكن الجنون[١].

السمة العاشرة: أنهم لا يعلمون:

وهذه السمة يشترك فيها المشركون والمنافقون دون أهل الكتاب؛ فإنهم كانوا على علم، لكنهم حرفوا وبدلوا.

قال تعالى في الرد على المنافقين: ﴿.. أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وقال سبحانه ـ مبيناً حال المنافقين وتخلفهم عن الجهاد: ﴿.. رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

وأما المشركون فالآيات في نفي العلم عنهم كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ..﴾ [البقرة: ١١٨].

وقوله: ﴿.. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤][٢].

السمة الحادية عشرة: كثرة الحلف بالباطل.

السمة الثانية عشرة: كره الحق:

قال تعالى: ﴿.. بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

فكره الحق وأهله سمة بارزة من سمات المجرمين.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) انظر: ص ٩٦.

السمة الثالثة عشرة: المسرّة بانخفاض دين الإسلام، وكراهية انتصاره وظهوره:

قال تعالى في طائفة من المنافقين: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . . ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقد فُسرت الحسنة بالنصر والتأييد والعز والخصب، وفُسرت السيئة بالجذب وإدالة العدو ونحو ذلك[١]، والعموم أولى.

وقال تعالى في طائفة أخرى من المنافقين: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وهذه الآيات وغيرها، كلها تدل على ما تنطوي عليه نفوس المجرمين من كراهية لظهور الحق، وفرح بانخفاضه وانحساره، ولا عجب، فإن من كره الحق حري أن يكون هذا حاله.

السمة الرابعة عشرة: الإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله، والتحاكم إلى غيره إلا أن يكون الحق لهم.

قال تعالى: ﴿ . . يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ . . ﴾ [النساء: ٦٠].

السمة الخامسة عشرة: الظلم:

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . ﴾ [النساء: ١٦٠].

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٩٩.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا . . ﴾ [يونس: ١٣].

وقال تعالى في معرض حديثه عن المجرمين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وفي موضع آخر: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ . . ﴾ [هود: ١٠١]، فهم قد ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله - عز وجل - وإشراكهم به، وارتكابهم ما نهى عنه، وظلموا غيرهم بأنواع المظالم من سلب ونهب واعتداء وإضلال.

وقد جاء تفسير الظلم في كتاب الله على أوجه متعددة، هي:

١ - **الكفر بالله**، قال تعالى: ﴿ . . وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٢ - **الشرك بالله**، قال تعالى: ﴿ . . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣].

٣ - **افتراء الكذب على الله**، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . . ﴾ [هود: ١٨].

٤ - **جحد آيات الله**، قال تعالى: ﴿ . . وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

٥ - **التكذيب بآيات الله ورسله**، قال تعالى: ﴿ . . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا . . ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٣].

٦ - **الخوض في آيات الله**، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا . . ﴾ إلى قوله: ﴿ . . فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٧ - **الحكم بغير ما أنزل الله - عز وجل -**، قال تعالى: ﴿ . . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥].

٨ - **تعدي حدود الله**، قال تعالى: ﴿ . . وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٩ - **الإعراض عن حكم الله إلا أن يكون لهم الحق**، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿.. بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾..﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠].

١٠ ـ تولي الكفار من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿.. وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

١١ ـ الإعراض عن آيات الله، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ..﴾ [السجدة: ٢٢].

١٢ ـ كتم شهادة الله، قال تعالى: ﴿.. وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ..﴾ [البقرة: ١٤٠].

١٣ ـ تعطيل بيوت الله، والسعي في خرابها، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ..﴾ [البقرة: ١١٤].

١٤ ـ النفاق، قال تعالى في المنافقين: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾..﴾ [التوبة: ٤٧].

١٥ ـ الاعتداء على الغير، قال تعالى: ﴿.. وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة: ١٠٧].

١٦ ـ قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، قال تعالى في قصة ابني آدم: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: ٢٩].

١٧ ـ السرقة، قال تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: ٧٥].

١٨ ـ ارتكاب الفواحش، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال تعالى في قرية قوم لوط: ﴿.. إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: ٣١].

١٩ ـ الإصرار على الذنب، ﴿.. وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

٢٠ ـ أكل أموال اليتامى بغير الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ

ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا . . ﴾ [النساء: ١٠].

وقد سجل القرآن الكريم اعتراف المجرمين بظلمهم يوم لا ينفع الندم، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

السمة السادسة عشرة: الخيانة:

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ . . ﴾ [الأنفال: ٧١].

السمة السابعة عشرة: المسارعة إلى الإثم والعدوان:

قال تعالى في معرض حديثه عن أهل الكتاب: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ . . ﴾ [المائدة: ٦٢].

وقال تعالى في وصف المجرمين من أهل الشرك: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . . ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [المطففين: ١١ ـ ١٢]، ويلاحظ مجيء هذه الصفات بصيغة المبالغة؛ مما يدل على عراقتها وتمكنها من نفوسهم الشريرة.

وقال تعالى كاشفاً حقيقة المنافقين الذين يختلقون الأعذار للفرار من جبهات القتال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٤]، أي: «لو دُخِلتْ المدينة عليهم من أقطارها، واشتد بهم الخوف، ثم سئلوا الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم؛ لطاروا إليها، وأتوها مجيبين فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً. قيل: قدر ما يأخذون سلاحهم»[1].

وقد فسرت الفتنة هنا بالشرك[2]، وبحرب النبي

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٢ ص ٢٧.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٢٧١.

ﷺ[١] . وأي إثم أعظم من الشرك؟، وأي عدوان أعظم من حرب النبي ﷺ وأصحابه الكرام؟

السمة الثامنة عشرة: اتخاذ الدين هزواً ولعباً:

ومن ذلك : اتخاذ آيات الله ، والرسول ﷺ هزواً .

السمة التاسعة عشرة: الاستكبار عن قبول الحق:

وقد سبق الحديث عن ذلك[٢] .

السمة العشرون: تولّي بعضهم بعضاً:

قال تعالى : ﴿ . . وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . ﴾ [الجاثية : ١٩] .

السمة الحادية والعشرون: سلوك السبل الملتوية:

قال تعالى : ﴿ . . وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . . ﴾ [إبراهيم : ٣] .

السمة الثانية والعشرون: الغفلة:

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ . . ﴾ إلى قوله : ﴿ . . أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

والغفلة محلها القلب ، قال تعالى : ﴿ . . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن . . ﴾ [الكهف : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا . . ﴾ [المؤمنون : ٦٣] أي في غفلة[٣] .

والمراد بالغفلة هنا : التي تكون بعد العلم وقيام الحجة ، أما قبل ذلك فهي غفلة لا تستوجب الذم والمؤاخذة ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣١][٤] .

---

(١) انظر : أبو حيان : البحر المحيط : ج ٧ ص ٢١٣ .

(٢) انظر : ص ٨٩ .

(٣) انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : ج ٣ ص ٢٤٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق : ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

السمة الثالثة والعشرون: القول على الله بغير علم:

ومن ذلك قول طائفة من أهل الكتاب ـ وهم اليهود ـ: ﴿.. لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ..﴾ [البقرة: ٨٠][1] ، وذلك زعمهم أنهم لن يدخلوا النار إلا تحلة القسم[2] ، فرد الله عليهم بقوله: ﴿.. قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

ومن ذلك ما حكاه الله عن المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ..﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿.. قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومن ذلك قولهم: ﴿.. ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨]؛ فاليهود قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله.

---

(١) وفي سورة آل عمران: ﴿.. أياماً معدودات..﴾ [آية: ٢٤] وقد وجه ذلك الكرماني ـ رحمه الله ـ بأن آية البقرة جاءت على الأصل، وهو أن واحد الجمع إذا كان مذكراً فإنه يُقتصر في الوصف على التأنيث، نحو قوله: ﴿سرر مرفوعة﴾، وقد يأتي: سرر مرفوعات، على تقدير: تسع سرر مرفوعات. لكنه ليس بالأصل، وعلى هذا جاءت آية آل عمران. (انظر: أسرار التكرار في القرآن: ص ٣٢).

وقد ظهر لي في توجيه الآيتين وجه آخر، وهو أن هذا الاختلاف في اللفظ إشارة إلى اختلافهم في عدد هذه الأيام، فقد قيل إنها سبعة، وذلك أنهم زعموا أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنهم إنما يُعذبون بكل ألف سنة يوماً في النار. وقد حسّن الحافظ ابن حجر إسناد هذه الرواية كما في الفتح: ج ١٠ ص ٢٤٦.

وقيل إن عدد هذه الأيام أربعون يوماً وهي بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل (انظر: المصدر السابق)، فآية البقرة إشارة إلى السبعة، وآية آل عمران إشارة إلى الأربعين. ولم أر من أشار إلى ذلك، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله منه بريء.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٤٢٥، ويشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه في كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ: (ج ٥ ص ٢١٧٨ برقم ٥٤٤١)، أن النبي ﷺ قال ليهود خيبر: «من أهل النار؟». فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً..» الحديث.

وأما المشركون فقد قالوا ما هو أعظم من ذلك، قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوا لله ما يكرهون، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً، فرد الله عليهم بعد أن نزه نفسه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

هذا، وقد عظم الله ـ عز وجل ـ خطر القول عليه بغير علم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئاً بالأسهل منها ثم ما هو أصعب منه ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدها، وهو القول عليه بلا علم»[1]. فجعله فوق مرتبة الشرك بالله تعالى، فيا له من أمر عظيم لو كان المجرمون يعلمون، ولهذا كان الشيطان يأمر به، ويحثّ عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٩].

السمة الرابعة والعشرون: عدم الاعتبار بالآيات مع وضوحها:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا . .﴾ [القمر: ٢].

السمة الخامسة والعشرون: الإفساد في الأرض:

قال تعالى: ﴿. . وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . .﴾ [المائدة: ٦٤].

السمة السادسة والعشرون: الاختلاف والتفرّق:

المجرمون وإن اتفقوا على معاداة الرسل ـ عليهم السلام ـ، والصد عن الحق؛ فإنهم مختلفون فيما بينهم، فالاختلاف والتفرق من أبرز سماتهم.

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «أهل الباطل مختلفة أهواؤهم، ومختلفة

---

(١) الكلام على مسألة السماع: (ط ١؛ الرياض: دار العاصمة: ١٤٠٩هـ): ص ٣٢٤، ٣٢٥.

شهادتهم، مختلفة أعمالهم. وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق»[١].

والآيات الدالة على اختلافهم وتفرقهم كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى مبيناً حال أهل الكتاب: ﴿ .. بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. ﴾ [الحشر: ١٤].

وقد برأ الله رسوله ﷺ من سبيل أهل الفرقة والاختلاف، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وأمر بالاجتماع على الحق، ونهى عن التفرق، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ .. ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وحذر من الاختلاف والتفرق، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وإنما جمع الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية بين التفرق والاختلاف؛ لأن التفرق يكون بالأبدان، والاختلاف يكون بالآراء والأفهام، ولما كان التفرق بالأبدان قد يحصل مع اتفاق الآراء والأفهام؛ بين ـ سبحانه ـ أن الأمر ليس كذلك، وأن تفرقهم كان عن اختلاف فيما بينهم في الآراء من بعد ما جاءهم العلم الموجب للاتفاق والاجتماع[٢].

وإن مما ينبغي أن يُعلم أن الاختلاف المذموم هو الذي يكون في أصول الدين، ومسائل الاعتقاد التي لا مدخل للعقل فيها، أما مسائل الاجتهاد،

---

(١) البغوي، معالم التنزيل: ج ٨ ص ٨١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٢ ص ١٣٣.

وفروع الشريعة التي لم يرد فيها نص قاطع، أو دليل ساطع، وللعقل فيها مجال، فإن الاختلاف فيها سائغ، نظراً لاختلاف العقول والأفهام، وتغير الزمان والمكان(١)، وقد اختلف الصحابة - رضي الله عنهم - في زمن الوحي في بعض المسائل الاجتهادية، فلم ينكر عليهم النبي ﷺ كما في القصة المشهورة، وهي قول النبي ﷺ لبعض أصحابه: «**لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة**». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منّا ذلك. فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنّف واحداً منهم(٢). فمثل هذا الاختلاف ليس بمذموم، أما ما ثبت به النص، ولم يحتمل تأويلًا، فلا يجوز العدول عن مقتضاه سواء كان من أصول الشريعة أو من فروعها.

قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿.. وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨] «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك؛ ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ج ١ ص ٤٢٣. وقد أنكر - رحمه الله - جواز الاختلاف في بعض مسائل الدين دون بعضها الآخر - أي المسائل الفرعية الاجتهادية -، فقال بعد أن ساق القول بجواز الاختلاف في المسائل الاجتهادية دون الأصولية: «وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر (هكذا!) ليس بصواب؛ فالمسائل الشرعية متساوية الأقدام في انتسابها إلى الشرع..». قلت: إذا كانت المسائل الشرعية متساوية الأقدام في انتسابها إلى الشرع؛ فإن العقول والأفهام غير متساوية، والإسلام قد كرم العقل، وجعل له مجالاً يصول فيه ويجول، وإن من غير الممكن أبداً جمع الناس كلهم على مسألة واحدة اجتهادية، فضلًا عن أن يجتمعوا على جميعها. وهذا القول غريب من الشوكاني، ولعله رجع عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب..: ج ١ ص ٣٢١ برقم ٩٠٤، ومسلم في الجهاد والسير، باب من لزمه أمر فدخل عليه أمر آخر: ج ٥ ص ١٦٢.

وملل شتى، إلا من رحم ربك، فآمن بالله وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله»[١] .

السمة السابعة والعشرون: فساد فطرهم:

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . . ﴾ [الروم: ٣٠].

يخبر الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية الكريمة، أنه قد فطر جميع عباده على الدين الحنيف والتوحيد الخالص، وجبلهم على محبة الحق وإيثاره، لكن بعضهم قد انحرفت فطرته عن الحق بتأثير شياطين الإنس والجن، كما ورد في الحديث القدسي الشريف: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم**[٢] **عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً . .**»[٣] ، فكل من كره الحق، وآثر غيره عليه، فإنما فعل ذلك لفساد في فطرته التي فطره الله عليها[٤] . قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصرانه، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء**[٥] ، **هل تحسّون فيها من جدعاء؟**»[٦] ، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه راوي الحديث: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ

---

(١) جامع البيان: ج ٧ ص ١٣٩ .

(٢) أي استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال. يقال: جال واجتال إذا ذهب وجاء (النهاية ج ١ ص ٣١٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: ج ٨ ص ١٥٩ .

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٣٢ . والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ١٢٦ .

(٥) جمعاء: تامة الأعضاء، مستوية الخلق.

(٦) جدعاء: ناقصة الأعضاء بفعل فاعل.

﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ . .﴾(١) .

وفساد الفطرة كما يكون في الاعتقاد والتصورات؛ يكون في السلوك والأخلاق، وقد جمع ذلك قوم لوط، فجُمع لهم من العقوبة ما لم يُجمع لغيرهم من الأمم المكذبة الهالكة(٢) .

السمة الثامنة والعشرون: العناية بالمظاهر والأبّهة(٣) :

قال تعالى عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ . .﴾ [القصص: ٧٩] أي «في زينة عظيمة، وتجمّل باهر، من مراكب، وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه . .»(٤) ، خرج في تبختر وغرور واختيال، وهذه سمة بارزة من سمات المجرمين حين يمنّ الله عليهم بالمال الوافر، والغنى الفاحش، وذلك لعظم شأن الدنيا في نفوسهم.

السمة التاسعة والعشرون: الجبن والخوف والهلع:

وهذه السمة أكثر ما تكون في اليهود والمنافقين، قال تعالى مبيناً حال اليهود: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ . .﴾ [الحشر: ١٤].

فهم لا يواجهون جنود الحق بالمبارزة والمقاتلة، فيلجؤون إلى الاحتماء بالحصون المنيعة والجدران الساترة(٥) ، ولذا لم يحفظ لنا التاريخ حرباً برز فيها اليهود لقتال المؤمنين، وعندما تقوم المعركة الفاصلة التي أخبر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات: ج ١ ص ٤٥٤ برقم ١٢٩٢، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة . . : ج ٦ ص ١٢٦ برقم ٢٢.

(٢) انظر: ص ٤٩٩ من هذا الكتاب.

(٣) الأبهة: العظمة والكبر، ورجل ذو أبهة: أي ذو كبر وعظمة. (انظر: لسان العرب، مادة أبه: ج ١ ص ١٤).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٠٠.

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٤٥، وتفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٤٠.

عنها الصادق المصدوق ﷺ في آخر الزمان بين الفريقين، يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر، حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبدالله.. ورائي يهودي فتعال فاقتله..» الحديث(١).

وأما المنافقون، فقد وصفهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ.. ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿.. يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ.. ﴾ [المنافقون: ٤].

ففي هاتين الآيتين وصف دقيق لحال المنافقين عند ورود الخوف، حيث يظهر ذلك جليًّا في حركة أعينهم الزائغة، وأجسامهم المرتعشة، فلا تراهم إلا خائفين مرعوبين، إن حركت الريح الباب، قالوا: جاء الطلب، وإن سمعوا وقع قدم، خافوا أن يكون نذيراً بالعطب، يحسبون كل صيحة عليهم، وكل مكروه قاصداً إليهم(٢).

السمة الثلاثون: الجدال بالباطل لدحض الحق:

قال تعالى: ﴿.. وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ.. ﴾ [غافر: ٥].

السمة الحادية والثلاثون: الإسراف:

وهو يأتي في القرآن: تارة مقيَّداً، وتارة مطلقاً.

فالمقيد كقوله تعالى: ﴿.. وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿.. وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ.. ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وأما المطلق، فهو في القرآن كثير، وهو المقصود هنا، ومن ذلك:

---

(١) الحديث بمعناه أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب قتال اليهود: ج ٣ ص ١٠٧٠ برقم ٢٧٦٧. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..: ج ٨ ص ١٨٨ برقم ٨٢.

(٢) انظر: ابن القيم، الجواب الكافي: ص ١٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ..﴾ [طه: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ..﴾ [غافر: ٢٨].

وفي السورة نفسها، في آية أخرى قال: ﴿.. مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وقوله في وصف قوم لوط: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤].

وقوله في وصف فرعون: ﴿.. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقد بين الله ـ عز وجل ـ حقيقة المسرفين، فقال ـ سبحانه ـ حاكياً قول نبيه صالح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

وأخبر ـ سبحانه ـ أن الإسراف سبب للهلاك، فقال: ﴿.. وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

كما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن المسرفين: ﴿.. هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

السمة الثانية والثلاثون: الارتياب والشك:

قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقد نفى الله هذه السمة عن المؤمنين فقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا..﴾ [الحجرات: ١٥].

السمة الثالثة والثلاثون: الفرح بغير الحق:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..﴾ [غافر: ٧٥].

فالفرح بغير الحق من سمات المجرمين. ومن ذلك:

١ ـ الفرح بالعلوم الباطلة، والمناهج المنحرفة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ..﴾ [غافر: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣].

٢ ـ الفرح بالمال، كحال قارون: ﴿.. إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: ٧٦].

٣ ـ الفرح بما يصيب أهل الحق من نكسات ونكبات، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ..﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة: ٥٠].

٤ ـ الفرح بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله، كما هو حال المنافقين، قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾ [التوبة: ٨١].

٥ ـ الفرح بكتمان العلم وخداع المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ..﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقد أشكلت هذه الآية على مروان بن الحكم، فأرسل إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول له: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتي، وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذباً؛ لنعذبنّ أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم..

ثم قرأ ابن عباس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. يفعلوا..﴾[١].

وهذا الفرح المذكور هنا، هو الفرح المذموم المستوجب للعقاب والمقت، بخلاف الفرح المحمود الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفرح بالحق[٢].

السمة الرابعة والثلاثون: المرح:

وهو الأشر والبطر[٣].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥]، فلم يكتفوا بالفرح في الأرض بغير الحق حتى أضافوا إليه ما يدل على تماديهم في الغفلة والعتوّ والاستكبار، وهو المرح.

السمة الخامسة والثلاثون: الذلة والمهانة:

قال تعالى في وصف أهل الكتاب: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ..﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠]، وهذا عامّ في كل من حادّ الله ورسوله من المجرمين.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا..﴾: ج ٤ ص ١٦٦٥ برقم ٤٢٩٢، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم: ج ٨ ص ١٢٢. وقد أخرج الشيخان في سبب نزول هذه الآية حديثاً آخر مفاده أن هذه الآية نزلت في رجال من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلافه، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (ج ٨ ص ٢٣٣): «ويمكن الجمع بأن تكون الآية نزلت في الفريقين معاً..» والله أعلم.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٥٥٠.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٧٩، والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٥٧٥.

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم: ١٠] أي: وضيع حقير[1].

فالمجرم ذليل حقير. ومهما تكبّر وتجبر فإنه لابد أن يذلّ لمن فوقه، ولمن يخافه ويرجوه من البشر، وما أحسن قول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذلّ من عصاه»[2].

السمة السادسة والثلاثون: ترك الصلاة:

قال تعالى مسجلًا اعتراف المجرمين يوم القيامة حين يسألهم أصحاب اليمين: ما سلككم في سقر: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٤٣].

وقال تعالى في وصف المجرم المكذب: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١].

ولقد كانوا في الدنيا يؤمرون بالصلاة بعد الإيمان بالله ـ عز وجل ـ فلا يستجيبون، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٨].

ويوم القيامة يُدعون إلى السجود لله فلا يستطيعون، والسبب أنهم كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود وهم سالمون أصحاء، فيأبون إلا الإصرار على الكفر، فكان جزاؤهم أن حُرموا من السجود يوم القيامة، ومن ثم كان مصيرهم إلى النار، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٨ ص ١٩٢، وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٠٠.

(٢) ابن القيم، الجواب الكافي: ص ١٠٤. ومعنى طقطقت: صوتت بحوافرها. وهملجت: أسرعت في خفة. والبراذين: جمع برذون، وهو التركي من الخيل. (انظر: ابن منظور، لسان العرب: ج ٤ ص ٢٦٨٤ مادة (طقق) وج ٦ ص ٧٤٠٢ مادة (هملج) وج١ (ص ٢٥٢ مادة (برذن).

يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

أما المنافقون، فإنهم يصلون مع المؤمنين، لكن صلاتهم مردودة عليهم، لأنهم كافرون بالله في حقيقة أمرهم، فهم إنما يصلون مع المؤمنين بأجسامهم فقط، خوفاً علي أنفسهم، وحتى لا يُفتضح أمرهم، ولذا فإنهم كما قال تعالى: ﴿. . وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ . .﴾ [التوبة: ٥٤]، ﴿. . وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]. فهم وتارك الصلاة سواء، بل إن تارك الصلاة بالكلية أهون حالاً منهم لما في فعلهم من الخداع والتغرير بالمؤمنين، ولذا كانوا في الدرك الأسفل من النار.

فإن قيل: فكيف يؤاخذ المجرمون على ترك الصلاة وهم كافرون بالله ورسله أصلًا، وليس بعد الكفر ذنب؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، ومحاسبون عليها، وإن كانت لا تصحّ منهم لكفرهم(١).

الثاني: أن في هذا دليلًا على أهمية الصلاة، وأن تاركها كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن بين الرجل، وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة**»(٢). فقد جاء لفظ الشرك والكفر هنا

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ٢٣٧، والشوكاني، فتح القدير: ج ٥ ص ٣٩٩. وانظر: مجد الدين ابن تيمية، المسودة في أصول الفقه (مصر: مطبعة المدني): ص ٤١، وعبدالله الفوزان، شرح الورقات في أصول الفقه (ط ٢؛ الرياض: دار المسلم: ١٤١٤هـ): ٦٩ ـ ٧١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة: ج ١ ص ٦٢ برقم ١٣٤.

معرَّفاً بـ(ال) الدالة على أن المراد بالكفر حقيقة الكفر المخرج من الملة.

كما أن النبي ﷺ جعل الصلاة حدًّا فاصلًا بين الكفر والإيمان، والحد يميز المحدود، ويخرجه عن غيره[1].

السمة السابعة والثلاثون: الطغيان والجبروت:

قال تعالى في وصف فرعون: ﴿.. إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿.. وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩].

هذا على مستوى الأفراد. أما على مستوى الأمم، فقد قال الله تعالى في وصف الأمم المكذبة: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ [الفجر: ١١].

ولما ذكر الله ـ عز وجل ـ اتفاقهم في الكفر وتكذيب الرسل، مع اختلاف أزمانهم؛ أخبر أن الوصف الجامع لهم هو الطغيان، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

أما أسباب الطغيان في كتاب الله، فهي كثيرة، منها:

١ ـ الغنى وكثرة المال:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد ضرب الله لذلك مثلًا: قارون.

٢ ـ التمادي في الضلال:

قال تعالى ـ حاكياً براءة القرين من قرينه يوم القيامة ـ: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾﴾ [ق: ٢٧]. وقد صدق القرين وهو كذوب؛ لأن الله تعالى يقول مبيناً حقيقة كيد الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

ويقول ـ سبحانه ـ مخاطباً إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا

---

(١) انظر: محمد ابن عثيمين، رسالة في حكم تارك الصلاة (الرياض: مطابع الخالد) ص ٥، ٦.

مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢][1] .

فما ضلّ من ضلّ إلا باختياره أو تفريطه في البحث عن الحق، مع وضوحه وسهولة الوصول إليه.

٣ ـ السكوت عن الظالم وطاعته والإذعان له:

قال تعالى مبيناً سبب طغيان فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

٤ ـ عدم رجاء لقاء الله ـ جل وعلا ـ:

قال تعالى: ﴿. . فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١] أي: يتخبّطون في الضلال والعمى، حائرين مترددين[2] .

٥ ـ رحمة الله بهم، وكشفه الضر عنهم:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥] أي: استمروا في كفرهم وعنادهم وطغيانهم يتخبطون[3] ، وهذا من أعجب ما يكون؛ فإن رحمة الله ـ عز وجل ـ بهم، أمر يستوجب الشكر لله، والإنابة إليه ـ سبحانه ـ، والإيمان به وبرسله، لكن ذلك لم يزدهم إلا كفراً وطغياناً.

وأعجب من ذلك، السبب الذي يليه وهو:

٥ ـ نزول الوحي والقرآن:

قال تعالى في معرض ذمّه لليهود: ﴿. . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا . .﴾ [المائدة: ٦٤].

ومثل ذلك قوله تعالى في المشركين: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ

---

(١) انظر: نظم الدرر: ج ٧ ص ٢٦٠.

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٧ ص ١١٥، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٣ ص ٣٣١.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٢٥١.

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا . .﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ . .﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. فكما يزداد المؤمنون بما أنزل الله ـ عز وجل ـ إيماناً وتصديقاً ويقيناً؛ يزداد المجرمون به طغياناً وكفراً وتكذيباً(١) .

السمة الثامنة والثلاثون: الخوض(٢) في الباطل:

قال تعالى مسجلًا اعتراف المجرمين يوم القيامة: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ . .﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال تعالى في سياق حديثه عن المنافقين: ﴿. . وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ . .﴾ [التوبة: ٦٩]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

السمة التاسعة والثلاثون: التطير بالرسل ـ عليهم السلام ـ:

وهو التشاؤم. قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ . .﴾ [يس: ١٨].

السمة الأربعون: أنهم لا يفقهون:

قال تعالى: ﴿. . وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿. . صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٢ ص ٧٦.

(٢) الخوض: الخلط والاقتحام في الشيء، تقول: خضت الماء خوضاً. واستُعير هنا في الكلام الذي فيه الكذب والباطل، فهو بهذا المعنى لا يستعمل إلا في الباطل، لأن أمور الحق إنما تأتي على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض. (انظر: المحرر الوجيز: ج ٦ ص ٥٦٠، وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٣ ص ٣٧٥، وابن منظور، لسان العرب: ج ٢ ص ١٢٨٩ مادة «خوض»).

يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال أيضاً: ﴿.. وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقين: ٧].

وقال تعالى في وصف أهل الكتاب: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣].

وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ بأن لهم قلوباً، ولكن ﴿.. لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا..﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وبين سبحانه سبب ذلك، فقال: ﴿.. وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ..﴾ [الأنعام: ٢٥] وهذه الأكنّة والوقر ينتج عنها «شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً»[1]، فهم لما كرهوا الحق وأعرضوا عنه، عاقبهم الله ـ عز وجل ـ بأن طبع على قلوبهم وختم عليها، كما قال تعالى: ﴿.. فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ..﴾ [الصف: ٥].

هذا ما ظهر لي من سمات المجرمين المشتركة في القرآن الكريم، والله تعالى أعلم.

ثانياً: السمات غير المشتركة:

وهي التي يختص بها بعض أصناف المجرمين دون بعضهم الآخر، وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: السمات التي يختص بها المشركون.

القسم الثاني: السمات التي يختص بها أهل الكتاب.

القسم الثالث: السمات التي يختص بها المنافقون.

أولاً: السمات التي يختص بها المشركون:

وهي بإجمال:

١ ـ اللجوء إلى الله عند الشدائد دون غيرها.

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل: ص ٥٦.

٢ ـ غياب الهدف.
٣ ـ أنهم لا يؤتون الزكاة.
٤ ـ الصد عن المسجد الحرام.
٥ ـ منع الخير.
٦ ـ التكذيب بالقدر.

التفصيل:

السمة الأولى: اللجوء إلى الله عند الشدائد:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ.. ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فهم على علم بأن آلهتهم المدعاة لا تملك لهم في مثل هذه الأحوال ضرًّا ولا نفعاً، وأن النافع الضار فيها هو الله وحده لا شريك له، فلذا يلجؤون إليه في وقت الشدة.

ولكن، هل ينفعهم ذلك؟

الجواب: أما قبل معاينة العذاب فنعم، ينفعهم ذلك، فالتوحيد مفزع أعداء الله، وأوليائه؛ فأما أعداؤه فينجيهم من كُرَب الدنيا وشدائدها، وأما أولياؤه فينجيهم من كُربات الدنيا والآخرة.

وأما بعد المعاينة فلا، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

ولذا، لما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه ذلك؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يُقبل.

والمقصود أنه لا يُلقي في الكُرَب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا

التوحيد[١] وأن مشركي الزمن الأول كانوا يُشركون بالله في الرخاء، ويُخلصون له في الشدة[٢] .

السمة الثانية: غياب الهدف:

فالمشركون ليس لهم من هدف في هذه الحياة سوى الأكل والشرب والتمتع بملاذ الدنيا وشهواتها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ . . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد: ١٢].

ولهذا أنكر الله عليهم بقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

بخلاف المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فالله ـ عز وجل ـ لم يخلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم لحكمة عظيمة جليلة، لا يدركها أو يدرك بعضها إلا من عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وجلاله، وقدره حق قدره[٣] .

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، الفوائد (ط ١؛ بيروت: دار النفائس: ١٣٩٩هـ): ص ٦٩، ٧٠.

(٢) أما مشركو هذا الزمان، فكثير منهم شركه دائم في الرخاء والشدة. قاله الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ. انظر: الأصول الثلاثة وأدلتها والقواعد الأربع وشروط الصلاة (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١٤هـ) ص ٢٠.

(٣) انظر: ابن القيم، شفاء العليل: ص ٢٠٦. وقد عقد ـ رحمه الله ـ باباً فصّل فيه طرق إثبات حكمة الرب تعالى في خلقه وأمره، وإثبات الغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة التي فعل وأمر لأجلها. وانظر أيضاً: محمد بن عبدالوهاب ومحمود شكري الألوسي، مسائل=

السمة الثالثة: أنهم لا يؤتون الزكاة:

قال تعالى: ﴿.. وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ..﴾ [فصلت: ٦، ٧].

واختلف المفسرون في المراد بالزكاة هنا، فقال أكثر المفسرين من السلف ومَن بعدهم: هي التوحيد والإيمان الذي هو أصل ما تزكو به القلوب والأرواح[١].

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الآية على ظاهرها، وأن المعنى أنهم: لا يؤدون زكاة أموالهم. واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله[٢].

وقد يقال إن الآية محتملة للوجهين، فيكون المعنى أنهم: «دسّوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا، ولا زكوا. فلا إخلاص منهم للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق منهم بالزكاة وغيرها»[٣].

وإنما خُصّ المشركون بهذا الوصف لأنهم كانوا يأتون ببعض الشعائر الإسلامية، كالحج والعمرة وإطعام الحاج ونحو ذلك، لكنهم لا يزكون أعمالهم، أي لا يطهرونها من الشرك، كقولهم في التلبية: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً لك تملكه وما ملك).

السمة الرابعة: الصد عن المسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿.. وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..﴾ [الأنفال: ٣٤].

= الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية (من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية: ١٣٩٥هـ): ص ٦٥.

(١) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان: ج ١ ص ٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان: ج ١١ ص ٨٦.

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٥٦٠.

السمة الخامسة: منع الخير:

قال تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ . . ﴾ [ق: ٢٥].

السمة السادسة: التكذيب بالقدر والاحتجاج به على الكفر:

ومن ذلك قولهم: ﴿ . . لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا . . ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ثانياً: السمات التي يختص بها أهل الكتاب:

وهي بإجمال:

١ ـ الغلو في الدين.

٢ ـ إعلان التمرد والعصيان على أنبيائهم.

٣ ـ التعصب لدينهم المحرف.

٤ ـ كتم الحق وإخفاؤه.

٥ ـ اتباع المتشابه من الآيات للإضلال والتلبيس.

٦ ـ قتل الأنبياء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

٧ ـ أكل أموال الناس بالباطل.

٨ ـ تحريف الكلم عن مواضعه.

٩ ـ الاشتراء بعهد الله والأيمان ثمناً قليلاً.

١٠ ـ النيل من الذات الإلهية.

١١ ـ أنهم يأمرون الناس بالبر ولا يعملون هم به.

التفصيل:

السمة الأولى: الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ . . ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ . . ﴾ [المائدة: ٧٧] أي: لا تتجاوزوا الحد المشروع فيه إفراطاً أو تفريطاً.

وقد فعلوا، فمن ذلك موقفهم من عيسى ـ عليه السلام ـ فقد غلوا

فيه مدحاً وقدحاً، فالنصارى قالوا هو ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة. واليهود قالوا هو ابن زنى، وجعلوا أمه زانية. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم[١].

السمة الثانية: إعلان التمرد والعصيان:

ومن ذلك قولهم: ﴿.. سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..﴾ [البقرة: ٩٣].

السمة الثالثة: التعصب لدينهم المحرَّف:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ..﴾ [البقرة: ١٢٠].

السمة الرابعة: كتم الحق:

قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

السمة الخامسة: اتباع المتشابه للإضلال والتلبيس:

قال تعالى: ﴿.. فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ..﴾ [آل عمران: ٧].

السمة السادسة: قتل الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس:

قال تعالى: ﴿.. وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ..﴾ [البقرة: ٦١].
وهذه السمة أبرز ما تكون في اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ.

السمة التاسعة: أكل أموال الناس بالباطل:

قال تعالى في معرض حديثه عن اليهود: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ..﴾ [النساء: ١٦١].
وقال تعالى أيضاً في وصف طائفة من اليهود: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ

(١) انظر: محمد ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد (ط ١؛ الرياض: دار العاصمة: ١٤١٥هـ): ج ٢ ص ٧٧.

أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ . . ﴾ [المائدة: ٤٢] أي الحرام من الرشى وغيرها[١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ . . ﴾ [التوبة: ٣٤].

فالأحبار: علماء اليهود. والرهبان: عبَّاد النصارى. وأكلهم المال بالباطل: هو ما يأخذونه من أتباعهم من الأموال، وما يفرضونه عليهم من الضرائب باسم الكنائس والبِيَع وغير ذلك مما يوهمون به الناس أنه من الشرع والتقرب إلى الله، وهم يكنزونه لأنفسهم[٢].

واليهود على وجه الخصوص هم عبَدَة المال وخُدَّامه، ولهذا جاء وصفهم بصيغة المبالغة (أكَّالون) الدالة على تمرسهم في ذلك، وانهماكهم فيه.

السمة العاشرة: تحريف الكلم عن مواضعه:

قال تعالى: ﴿ . . يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . ﴾ [النساء: ٤٦].

السمة الحادية عشرة: أنهم يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ . . ﴾ [آل عمران: ٧٧].

نزلت هذه الآية في الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ألك بينة؟**». قلت: لا. فقال لليهودي: «**احلف**». قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ . . ﴾[٣].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ٥٧٩، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٦٠.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٣٨، وتفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض: ج ٢ ص ٨٥١ برقم ٢٢٨٥، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة=

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فالعهود والأيمان لا قيمة لها عندهم ـ وبخاصة اليهود ـ فهم على استعداد لنقض العهود، وبيع الأيمان، بأبخس الأثمان، ولأدنى مكسب دنيوي فانٍ.

وقد حذر الله المؤمنين من مشابهة أهل الكتاب في ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ..﴾ [النحل: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿.. وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ..﴾ [المائدة: ٨٩].

السمة الثانية عشرة: النيل من الذات الإلهية:

ومن ذلك قول اليهود: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ..﴾ [آل عمران: ١٨١]، وذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا..﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقولهم: ﴿.. يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ..﴾ [المائدة: ٦٤] أي محبوسة مقبوضة عن الرزق[1].

السمة الثالثة عشرة: أنهم يأمرون الناس بالبر ولا يعملون به:

ولذا أنكر الله عليهم بقوله: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

والبر: اسم جامع لكل وجوه الخير والطاعات[2]، فهم يأمرون الناس بطاعة الله تعالى، واتباع نبيه محمد ﷺ، وهم لا يفعلون ذلك.

وقيل: يأمرون الناس بالإيمان بما عندهم من الكتاب المنزل على

= بالنار: ج ١ ص ٨٥. وانظر: الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول: ص ٢٥.

(١) البغوي، معالم التنزيل: ج ٣ ص ٧٦.

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١ ص ٢٧٥.

نبيهم ﷺ، وهم يكفرون بالكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ، مع علمهم بأنه الحق من عند الله مصدِّقاً لما معهم[١] .

هذا ما ظهر لي من السمات التي يختص بها أهل الكتاب، وهذا لا يعني أنها لا تكون في أحد غيرهم، لكنها تبقى سمات يتميزون بها، ويكون من فعلها من غيرهم متشبهاً بهم، لاسيما وأن نبينا ﷺ قد أخبر بأن ذلك كائن في هذه الأمة، فقال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم**» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[٢] أي إذا لم يكونوا هم، فمن يكون غيرهم.

ثالثاً: السمات التي يختص بها المنافقون:

وهي على ضربين: خَلْقيّة[٣] وخُلُقية.

أما الخلقية فهي التي تتعلق بخَلْقهم الظاهر، وهي ثنتان لا غير:

الأولى: تناسق أعضائهم، وحسن منظرهم:

قال تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . . ﴾ [المنافقون: ٤].

وذلك لعنايتهم الفائقة بصلاح ظواهرهم، وتقوية أجسامهم على حساب أرواحهم، فهم أشباح بلا حقائق[٤] .

أخرج الفريابي ـ رحمه الله ـ عن الحسن ـ رحمه الله ـ قال: «لا يُلقى

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٢٩٦، والبغوي، معالم التنزيل: ج ١ ص ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»: ج ٦ ص ٢٦٦٩ برقم ٦٨٨٩، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى: ج ٨ ص ٥٧ برقم ٦.

(٣) سبق وأن ذكرتُ في بداية هذا المبحث أن السمات الخَلْقية ليست هي موضوع حديثنا في هذا البحث (انظر: ص ١٢٣)، وإنما ذكرتها هنا لأن لها تعلقاً بالباطن وليست خَلْقية محضة لا يد للإنسان فيها.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٧ ص ٦٠٨.

المؤمن إلا شاحباً، ولا يُلقى المنافق إلا وبّاصاً[١] أي برّاقاً[٢] .

وليس كل من أعجبك جسمه وحسُن منظره يكون منافقاً؛ ولكن الغالب أنّ من كان هذا وصفه، تعجبه نفسه، فيغترّ بجماله، ويشغله ذلك عما ينفعه من الإيمان بالله والعمل الصالح .

الثانية: ذلاقة ألسنتهم، وحلاوة منطقهم:

قال تعالى: ﴿ . . وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ . . ﴾ [المنافقون: ٤]، فحديثهم لحلاوته وعذوبته، يكاد يأخذ بمجامع القلوب، ولهذا قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان**»[٣] .

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «(كل منافق عليم اللسان) أي عالم للعلم، منطلق اللسان به، لكنه جاهل القلب والعمل، فاسد العقيدة، يغرّ الناس بشقشقة لسانه، فيقع ـ بسبب اتّباعه ـ خَلْق كثير في الزلل . . »[٤] .

وقد يكون جاهلًا متعالماً يزخرف القول ويبهرجه بأنواع من البهارج، فيخدع به السذج والبسطاء من الناس، وما أكثر هذا الصنف من المنافقين .

وأما سماتهم الخُلُقية فقد ظهر لي منها ما يلي:

١ ـ تولي الكفار من دون المؤمنين .

٢ ـ التخلف عن الجهاد .

٣ ـ كراهية النفقة في سبيل الله .

---

(١) جعفر الفريابي، صفة المنافق (ط ١؛ الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي: ١٤٠٥هـ): ص ٨٢ .

(٢) ابن قتيبة، غريب الحديث: ج ٢ ص ٦١١ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ط ١؛ بيروت: دار الفكر: ١٤٠٤هـ): ج ٣ ص ٩٧٠ . وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير: ج ١ ص ١٢٧ برقم ٢٣٧ .

(٤) فيض القدير: ج ١ ص ٢٢١، ٢٢٢ .

٤ ـ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.
٥ ـ إخلاف الوعد.
٦ ـ الكذب.
٧ ـ استغلال النكبات للطعن والتشكيك.
٨ ـ الدعوة إلى الإقليمية الضيقة.
٩ ـ الشح في الخير.
١٠ ـ التكاسل عن الصلاة.
١١ ـ اللحن في القول.

التفصيل:

السمة الأولى: تولي الكفار من دون المؤمنين:

قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم..﴾ [المجادلة: ١٤].

السمة الثانية: التخلف عن الجهاد في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ..﴾ [التوبة: ٨١].

السمة الثالثة: كراهية النفقة في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿..وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]، ولا غرو، فإن من يكره الحق، ويسعى بكل جهده لإبطاله؛ كيف تطيب نفسه بالإنفاق في سبيل نصرته وتأييده وإعزازه؟!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم راحوا يخذّلون الناس عن الإنفاق في سبيل الله، فإن تصدق متصدق بمال قليل، قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا، وإن تصدق بمال كثير، قالوا: ما أراد بذلك وجه الله، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩][(١)].

السمة الرابعة: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ . .﴾ [التوبة: ٦٧].

السمة الخامسة: إخلاف الوعد:

قال تعالى في معرض حديثه عن المنافقين: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ . .﴾ [التوبة: ٧٧]. فإذا كان هذا حالهم مع الخالق سبحانه؛ فكيف يكون حالهم مع الخلق؟!

السمة السادسة: الكذب:

قال تعالى: ﴿. . وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

السمة السابعة: استغلال النكبات والأزمات للطعن والتشكيك:

ومن ذلك قولهم يوم الأحزاب: ﴿. . مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

السمة الثامنة: الدعوة إلى الإقليمية الضيقة:

ومن ذلك قولهم يوم الأحزاب: ﴿. . يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . .﴾ [الأحزاب: ١٣]. نادوهم باسم الأرض والبلد، وسيأتي تفصيل ذلك[(٢)] إن شاءالله تعالى.

السمة التاسعة: الشحّ في الخير:

قال تعالى: ﴿. . أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ . .﴾ [الأحزاب: ١٩] أي لا خير فيهم[(٣)]، ولهذا وصفهم الله -عز وجل- في سورة المنافقين بقوله:

---

(١) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) انظر: ص ٤٤٢.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٧٤.

﴿.. كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ..﴾ [المنافقون: ٤] أي لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم. وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول»[١] .

السمة العاشرة: التكاسل عن الصلاة:

قال تعالى: ﴿.. وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿.. وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ..﴾ [التوبة: ٥٤].

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء...**»[٢] .

ولولا خوفهم على أنفسهم ومصالحهم الدنيوية، ما حضروا صلاة قط، ولكن النفاق هو الذي يحملهم على ذلك.

وإذا كان هذا هو حال المنافقين في زمن النبوة؛ فإن الذين جاؤوا من بعدهم في زمن التابعين لم يقفوا عند هذا الحد، بل جاوزوه إلى الإعلان والمجاهرة، وقد أدركهم حذيفة رضي الله عنه ـ وهو صاحب سر رسول الله ﷺ، وأخبر الناس بالمنافقين ـ فقال مخاطباً مَنْ حوله: «المنافقون الذين فيكم اليوم، شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ». فقالوا: يا أبا عبدالله! وكيف ذاك؟ قال: «إن أولئك كانوا يُسرّون نفاقهم، وإن هؤلاء يُعلنون»[٣] .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال ابن التين: أراد أنهم أظهروا

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ١٠١.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل العشاء في الجماعة: ج ١ ص ٢٣٤ برقم ٦٢٦.
(٣) الفريابي، صفة المنافق: ص ٦٢.

من الشر ما لم يُظهر أولئك، غير أنهم لم يُصرحوا بالكفر، وإنما هو النفث يلقونه بأفواههم، فكانوا يُعرفون به»[١].

السمة الحادية عشرة: اللحن في القول:

قال تعالى: ﴿.. وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ..﴾ [محمد: ٣٠]، أي فحواه ومعناه[٢]، فمهما حاولوا إخفاء ما تنطوي عليه بواطنهم من الكفر والنفاق، فإن الله يظهره على فلتات ألسنتهم.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»[٣]، وصدق رضي الله عنه، فإن الألسن مغاريف القلوب، فما في القلب لابد وأن يظهره اللسان.

قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ

هذه هي السمات التي يختص بها المنافقون حسب ما ظهر لي من تتبع آيات القرآن الكريم، وبذكرها ينتهي الباب الأول من أبواب هذا البحث، والله ولي التوفيق.

---

(١) فتح الباري: ج ١٣ ص ٧٤.

(٢) انظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ١٦١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ١٨٠.

الباب الثاني

أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأساليب المشتركة.

الفصل الثاني: الأساليب الخاصة.



هذا الباب من أهم أبواب الكتاب، وهو المقصود الأساس منه، إذ المقصود جمع الأساليب التي لجأ إليها المجرمون في التصدي لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى نبينا محمد ﷺ، في ضوء القرآن الكريم، وبيانها بياناً وافياً شافياً.

وقد اجتهدت في جمع هذه الأساليب واستنباطها من كتاب الله ـ عز وجل ـ في حدود وسعي وطاقتي ـ فبلغت أكثر من مائة وتسعين أسلوباً، منها ما هو ظاهر جلي، ومنها ما هو مستتر خفي. ومنها ما هو مشترك، ومنها ما هو غير مشترك. ومنها أصول، وفروع تندرج تحت تلك الأصول. كما أن بين بعضها تداخلًا واشتباهاً.

وقد رأيت أن أجعلها قسمين:

القسم الأول: الأساليب المشتركة.

القسم الثاني: الأساليب غير المشتركة.

وقد خصصت لكل قسم منها فصلًا مستقلًا.

كما رأيت أن أجعل كل أصل منها عقداً ينتظم ما تحته من الفروع، وجعلت لكل عقد منها مبحثاً مستقلًا، ليكون البحث أكثر دقة وتنظيماً.

هذا، وأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن أكون قد وفقت للصواب، والله ولي التوفيق.

الفصل الأول
الأساليب المشتركة

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: أساليب في الكيد والمكر والخداع.

المبحث الثاني: أساليب في التولي والإعراض والصد عن سبيل الله.

المبحث الثالث: في تبرير المواقف واختلاق الحجج.

المبحث الرابع: في التعنت والعناد والمشاقة.

المبحث الخامس: في إثارة الشكوك والشبهات.

المبحث السادس: في التضييق والتعطيل والمنع.

المبحث السابع: في التنكيل والبطش والأذى.

المبحث الأول

أساليب في الكيد والمكر والخداع

قال تعالى: ﴿.. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، كلها تدل على عظم مكرهم وكيدهم، حتى إن الجبال الرواسي لتكاد تزول من أماكنها من جراء ذلك المكر العظيم، كما قال تعالى: ﴿.. وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦][1]، كما أن التعبير بالفعل المضارع (يكيدون)، (يمكرون)، (يخادعون) يدل على تجدد مكرهم واستمراره وعدم انقطاعه، وإن كان هو في عاقبة الأمر راجعاً إليهم ومنقلباً عليهم: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: ٤٢]، ﴿.. وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وهذا ما يطمئن قلوب المؤمنين ـ من الرسل وأتباعهم ـ ويشرح صدورهم، وإن كان ذلك لا يتحقق إلا ببذل كل ما في الوسع، واستفراغ الجهد والطاقة في نصرة هذا الدين، وكشف سبيل المجرمين.

وبتتبع واستقراء ما ورد في كتاب الله ـ عز وجل ـ من أساليبهم في المكر والخداع، ظهر لي منها ما يلي:

١ ـ المغالطة ولبس الحق بالباطل.

---

(١) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (دار الجيل): ص ٣٤٣، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٤ ص ١٥٠.

٢ ـ المحاجة والمجادلة بالباطل لدحض الحق.
٣ ـ الإلحاد في آيات الله وأسمائه.
٤ ـ قطع ما أمر الله به أن يوصل.
٥ ـ افتراء الكذب على الله.
٦ ـ التلاعب بأحكام الله وتغييرها حتى توافق أهواءهم.
٧ ـ الإفساد في الأرض.
٨ ـ تولي بعضهم بعضاً.
٩ ـ عقد اللقاءات السرية للتآمر على الدعوة.
١٠ ـ التفريق بين المؤمنين.
١١ ـ إبرام العهود والمواثيق ثم نقضها ونبذها.
١٢ ـ الغدر والخيانة والخديعة.
١٣ ـ إرضاء المؤمنين بالألسن مع إضمار العداوة لهم في القلوب.
١٤ ـ كثرة الحلف بالباطل.
١٥ ـ التغرير بالعامة وحضهم على الكفر.
١٦ ـ المساومة.
١٧ ـ الحرب النفسية وتحطيم المعنويات.
١٨ ـ الاستنجاد بالرسل في كشف الكروب.
١٩ ـ الاستعداء.

التفصيل:

الأسلوب الأول: المغالطة، ولبس الحق بالباطل:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ . .﴾ [آل عمران: ٧١].

وقال تعالى: ﴿.. وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..﴾ [إبراهيم: ٣] أي زيغاً وميلاً[١].

وهو أسلوب ماكر، قلّ من يتفطن له من عامة الناس، لذا فإنه يروج على أكثرهم، وربما اعتقد بعضهم الباطل من جراء ذلك وهو لا يشعر، لاسيما إذا صدر التلبيس ممن ينتسب إلى العلم والفضل من الأئمة المتبعين، أو من أهل الجاه والشرف من السادة المطاعين.

ومن ذلك قول اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ: «محمد نبي مبعوث، ولكن إلى غيرنا».

فإقرارهم ببعثته ﷺ حق، وجحدهم أنه مبعوث إليهم باطل[٢].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الله ـ عز وجل ـ عن المشركين أنهم: ﴿.. إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧]، ومعلوم أن الله ـ عز وجل ـ لو شاء لأطعم من شاء من عباده، لكنهم يقولون ذلك مغالطة وتلبيساً.

ولم يكتفوا بذلك حتى وصفوا المؤمنين ـ من الرسل وأتباعهم ـ بالضلال الواضح الذي لا مرية فيه، وذلك إمعاناً منهم في المغالطة والتلبيس.

فإذا اتضح الحق، ولم تُجدِ أساليب المغالطة والتلبيس؛ لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الثاني: المحاجة والمجادلة بالباطل لدحض الحق:

قال تعالى: ﴿.. وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ..﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿.. وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ..﴾ [غافر: ٥].

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج ٣ ص ٢٣١، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٩٦.
(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١ ص ٢٧٣.

ومن ذلك، ما قصه الله علينا من محاجة نمرود الطاغية لإبراهيم - عليه السلام - في ربه: ﴿.. إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ..﴾ فحجه إبراهيم بقوله: ﴿.. فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فانظر إلى حكمة أبينا إبراهيم - عليه السلام - كيف ترك مجادلة هذا المجرم فيما ادعاه من إحياء الموتى - مع إمكان مجادلته في ذلك - وانتقل إلى أمر لا يقبل الجدل والمناظرة، وهو إتيانه بالشمس من المغرب، وهذا الأسلوب من أرقى أساليب الدعوة إلى الله - عز وجل - وأقواها.

ومن ذلك أيضاً، محاجة قومه له - عليه السلام - في ألوهية الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ ..﴾ [الأنعام: ٨٠]، وكانوا قد خوفوه بآلهتهم، فحجهم بقوله: ﴿.. وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ ..﴾، ثم ألقى عليهم هذا السؤال - وهو موضع الخلاف بينه وبينهم - قال: ﴿.. فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فحكم الله - عز وجل - بين الفريقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ..﴾، أي شرك: ﴿.. أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فيا لها من حجة قاطعة تقتلع الباطل من جذوره، وتأتي عليه من قواعده، ولهذا عقب الله تعالى بعد هذه الآيات بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد نهى الله - عز وجل - المؤمنين عن المجادلة إلا بالتي هي أحسن، وذلك لما تجرّ إليه من الضغينة والبغضاء والبعد عن الحق، فقال - سبحانه -: ﴿.. وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ..﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟

أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ . . ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والذين ظلموا منهم هم الذين «حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا»(١). فهؤلاء ليس لهم إلا السيف والجلاد، أو التولي والإعراض، حسب الحال من قوة أو ضعف.

فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوب، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب الثالث: الإلحاد في آيات الله وأسمائه:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ . . ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ . . وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ . . ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في آيات الله، هو الميل بها عن الصواب؛ سواء بالكفر بها وإنكارها، أو تحريفها عن معناها الحقيقي إلى معانٍ أخرى لم يردها الله ـ عز وجل ـ منها(٢).

أما الكفر بها فظاهر، وأما تحريفها عن معناها الحقيقي، فهو باب واسع ولجه أهل الأهواء والبدع لنصرة أهوائهم وبدعهم(٣).

أما الإلحاد في أسماء الله تعالى، وهو الميل بها عما يجب اعتقاده فيها، فهو على أضرب(٤):

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤١٥.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٥٨١.

(٣) يراجع في ذلك ما كتبه أئمة أهل السنة في الرد على أهل البدع، كالتدمرية والحموية والواسطية، جميعها لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وغيرها من كتب السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ.

(٤) فهد السلمان (جمع وترتيب)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ط ٢؛ الرياض: دار الثريا: ١٤١٤هـ): ج ١ ص ١٥٨، ١٥٩ (بتصرف). وانظر: مسائل الجاهلية: ص ٤٠.

الضرب الأول: جحد شيء منها، أو ما دلت عليه من الصفات.

فالأول: كفعل المشركين الذين أنكروا بعض أسماء الله كالرحمن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ . . ﴾ [الفرقان: ٦٠].

والثاني: كفعل بعض المبتدعة الذين يقولون: إن الله رحيم بلا رحمة، سميع بلا سمع!

الضرب الثاني: تسمية الله ـ عز وجل ـ بما لم يسم به نفسه، كما صنع الفلاسفة من تسمية الله ـ تعالى ـ بالعلة الفاعلة، وكما صنع النصارى من تسميته بالأب ونحو ذلك. ووجه كون ذلك إلحاداً: أن أسماء الله تعالى توقيفية، فلا يحل لأحد أن يسمّي الله بما لم يسمّ به نفسه؛ لأن هذا من القول على الله بغير علم.

الضرب الثاني: اعتقاد أن هذه الأسماء دالة على أوصاف المخلوقين.

ووجه كون ذلك إلحاداً: أن من اعتقد أن أسماء الله ـ تعالى ـ دالة على تمثيل الله بخلقه فقد أخرجها عن مدلولها، ومال بها عن الاستقامة، وجعل كلام الله ـ تعالى ـ وكلام رسوله ﷺ دالاً على الكفر؛ لأن تمثيل الله بخلقه كفر لكونه تكذيباً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ . . لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى: ١١].

الضرب الرابع: اشتقاق أسماء منها للأصنام ونحوها، كما فعل المشركون من اشتقاق اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنّان.

ووجه كون ذلك إلحاداً: أن أسماء الله تعالى خاصة به، فلا يجوز نقل معانيها الدالة عليها إلى أحد من المخلوقين، ليُعطى من العبادة ما لا يستقحه إلا الله ـ عز وجل ـ».

فإن لم ينجح هذا الأسلوب؛ فإن المجرمين لا يتورعون عن أساليب أخرى، منها:

الأسلوب الرابع: قطع ما أمر الله به أن يوصل:

قال تعالى: ﴿. . وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ . .﴾ [البقرة: ٢٧]، فإن الأنبياء والرسل إنما بُعثوا لوصل ما انقطع بين الله وخلقه وبين الناس بعضهم مع بعض، ولهذا كان من أُولى وصايا الرسول ﷺ قبل أن تنزل معظم الشرائع: «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[1] .

فإفشاء السلام وصل لما انقطع بين الناس عامة. وإطعام الطعام وصل لما انقطع بين الأغنياء والفقراء خاصة. وصلة الأرحام وصل لما انقطع بين الأقارب على وجه أخصّ. والصلاة والناس نيام وصل لما انقطع بين الناس وخالقهم جل جلاله.

وإنما خص الصلاة والناس نيام؛ لأنها أقرب إلى الإخلاص، وأدعى إلى الخشوع والتدبر، وبذلك تقوى صلة العبد بربه.

ومن صور قطع المجرمين ما أمر الله به أن يوصل ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده[2] عن ربيعة بن عِباد الديلي ـ وكان جاهليًّا أسلم ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني، بسوق ذي المجاز يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**» ويدخل في فجاجها، الناس متقصّفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت، يقول: «**أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**» إلا أن وراءه رجلًا أحول وضيء الوجه ذا غديرتين، يقول: إنه صابىء، كاذب. فقلت: مَن هذا؟ قالوا: محمد بن عبدالله، وهو يذكر النبوة. قلت: مَنْ هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب.

هذه صورة واحدة من صور القطيعة التي كان يمارسها بعض

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص ٥٦٠ برقم ٢٣٧٨١، وذكره الألباني في الجامع الصحيح.

(٢) ج ٣ ص ٦٤٧ برقم ١٦٠٠٣.

المشركين مع أقرب الناس إليهم: رسول الهدى ﷺ، لقطع الصلة ما بينه وبين الناس، ومن ثم قطع ما أمر الله به أن يوصل من أنواع الطاعات والقربات، ومن أعظمها توحيد رب الأرض والسموات، الذي يقضّ مضاجع المشركين، ويعرّض مصالحهم وزعاماتهم للخطر.

أما اليهود، فقد جاء في مضابط المحفل الماسوني[١] اليهودي الأكبر المنعقد عام ١٨٩٧م: «لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية..».

إلى أن قالوا: «وبغية التفرقة بين الفرد وأسرته، عليكم أن تنزعوا الأخلاق من أسسها؛ لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة، والاقتراب من الأمور المحرمة، فعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم، وتقذفوا بهم إلى لذائذ الحياة البهيمية»[٢].

وبهذا وغيره تتم لهم السيطرة على العالم، ويكون الناس كلهم عبيداً لهم.

فإن فشلوا في تحقيق هذا الأسلوب فإنهم يلجؤون إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الخامس: افتراء الكذب على الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧﴾ [الصف: ٧].

---

(١) الماسونية معناها في لغتهم: البناؤون الأحرار، وهي في الاصطلاح: منظمة يهودية سرية غامضة محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وقد اختُلف في تاريخ نشأتها وظهورها، وقد ظهرت أول ما ظهرت للتنكيل بالنصارى وإفساد عقيدتهم قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام، وسّعوا دائرتها ليُحيطوه بأشراكها. (انظر: عبدالرحمن الدوسري، الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة (ط ١؛ الكويت: مكتبة دار الأرقم: ١٤٠٢هـ): ص ١٧٤، والندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (ط ١؛ الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي: ١٤٠٩هـ) ص ٤٤٩.

(٢) انظر: الأجوبة المفيدة: ص ١٧٨، ١٧٩.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص..»[١].

وهذا هو حال أكثر المجرمين من أعداء الرسل، بل إنهم ـ من كيدهم ومكرهم ـ ليُلصقون هذه التهمة برسل الله ـ عليهم السلام ـ الذين هم أصدق الناس قيلًا، كما قال تعالى حاكياً قول بعض المجرمين عن نبيهم المرسل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨]، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلى محاولة فتنة الرسول ﷺ ليفتري على الله ـ عز وجل ـ غير ما أنزل إليه، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣]، لكن الله ثبّته وعصمه، وكشف له عن حقيقة كيدهم ومكرهم، ليكون منهم على حذر، بل توعده إن فعل ـ وحاشاه أن يفعل ـ ليُذيقنّه ضعف عذابي الدنيا والآخرة، وليختمنّ على قلبه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥][٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ..﴾ [الشورى: ٢٤]، أي: «لو حدَّثت نفسك أن تفتري على الله كذباً، لطبعتُ على قلبك...»[٣]. وفي هذا رد على من زعم أن محمداً ﷺ اختلق القرآن من تلقاء نفسه.

وقد بين الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم بعض مفترياتهم الكاذبة، فمن ذلك:

١ ـ اتخاذهم آلهة من دون الله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى حكاية عن أصحاب الكهف: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٦١.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: ج ١١ ص ١٤٦، ١٤٧.

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٥].

٢ ـ تحريمهم ما أحل الله وتحليلهم ما حرّم الله:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ . . ﴾ [النحل: ١١٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهّيه»[١] .

٣ ـ زعمهم أن الله أمرهم بفعل الفاحشة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . . ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة[٢] أو الشيء، وتقول:

اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدا منه فلا أحلّه»[٣]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتّبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فِعْلَ آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك . . »[٤] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٥٩٠.
(٢) النسعة: قطعة من الجلد مضفورة، تُجعل زماماً للبعير. (النهاية: ج ٥ ص ٤٨).
(٣) الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص ٤٦٣. وانظر: تفسير الإمام مجاهد بن جبر (ط ١؛ مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة: ١٤١٠هـ) ص ٣٣٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٠٨.

هكذا يؤصل المجرمون لفجورهم وانحرافهم، وإلا فمتى كان الله - عز وجل - يأمر بالفحشاء، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً. ولذا رد الله عليهم في ختام الآية بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤ - نسبتهم الولد إلى الله - عز وجل -:

قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ٤، ٥].

وهذه الفرية من أعظم الفِرى على الله - عز وجل - ولهذا قال تعالى معظماً أمرها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

٥ - تزكية أنفسهم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم. .﴾ إلى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ. .﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

ومن ذلك قول أهل الكتاب: (نحن أبناء الله وأحباؤه)، وقولهم: (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى).

وقد جاء في بعض أسفار التلمود[1] - وهو من كتبهم المقدسة -:

(١) التلمود يشتمل على: الـ«ميشنا»، ومعناها عند اليهود الشريعة المكررة أو الثانية، وهي إيضاح للبنود المهمة من الشريعة الأولى الموسوية (التوراة). و«الجيمارا»، وهي شروح إضافية عُلّقت على «ميشنا». فهذه الشروح مع متنها أطلق عليها اسم: «تلمود». وهي عندهم مساوية للتوراة، بل فوقها كما جاء في التلمود نفسه: «إن الذين يدرسون التوراة يحتمل أن يكون عملهم فضيلة أو غير فضيلة. أما الذين يدرسون الميشنا، فإنهم يمارسون=

«اليهود أحبّ إلى الله من الملائكة، واليهود من عنصر الله، كالولد من عنصر أبيه، ومن صفع يهوديًا فكأنما يصفع الله، ولولا اليهود، لارتفعت البركة من الأرض، واحتجبت الشمس، وانقطع المطر، وما سوى اليهود فهم كلاب وخنازير، يُحرم على اليهود العطف عليهم، وكل شر يفعله بهم فهو قربى إلى الله..»[١]، وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما هو مسطر في كتبهم المختلقة، التي تقطر سمًّا وحقداً على سائر أمم الأرض من غير اليهود، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾[٢] [النساء: ٤٩، ٥٠].

٦ ـ استحلالهم أموال غيرهم:

ومن ذلك قول طائفة من أهل الكتاب: ﴿.. لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ..﴾ [آل عمران: ٧٥] أي: «ليس علينا من حرج في أكل أموال الأميين، وهم العرب». زاعمين أن الله قد أحلها لهم في دينهم، وهم بذلك يفترون على الله الكذب[٣].

وقد جاء في بعض أسفار التلمود: «اقْسِم عشرين يميناً كاذباً كي تنفع

= الفضيلة ويثابوا [هكذا] عليها، إلا أن الذين يدرسون الجيمارا، فإنهم يكتسبون أعظم فضيلة وأسماها». (انظر: بولس حنا مسعد، همجية التعاليم الصهيونية (ط ٢؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٣هـ): ص ٢٤ ـ ٢٦. وانظر: ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ط ١؛ جدة: مكتبة السوادي: ١٤٠٨هـ): ص ٢٥٠.

(١) انظر: عبدالرحمن الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم (ط ١؛ الكويت: مكتبة دار الأرقم: ١٤٠١هـ): ج ٢ ص ٢٠١ (بتصرف يسير). ومحمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين (الرياض: دار اللواء: ١٤٠١هـ) ص ٢٤١.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ١٣٣. وانظر: مسائل الجاهلية: ص ١٢٢ ـ ١١٥.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٧٤.

وفيه أيضاً: «يباح لليهودي، بل يفرض عليه قتل من أمكنه من الجوييم [غير اليهود]، ويباح، بل يفرض اغتصاب ماله، وسرقته. . . ، إن أملاك غير اليهود تُعدّ كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يمتلكه، إن الله قد منح اليهود السلطة على مقتضيات الشعوب»[١] .

كما أنهم حرفوا نصوص التوراة، وفسروها بما يتوافق مع أهوائهم، فما فيها من النواهي، مثل: (لا تقتل، لا تسرق، لا تأخذ الربا. .) جعلوا معناه فيما بينهم: لا تقتل يهوديًا، لا تسرق من يهودي، لا تأخذ الربا على يهودي، وهكذا. أما غير اليهود فهم غير داخلين في هذا النهي[٢] .

هذا بعض ما افتراه المجرمون على الله ـ عز وجل ـ وقد أخبر سبحانه أن مآل هؤلاء المفترين إلى الخسران والفشل والعذاب الموجع، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب السادس: التلاعب بأحكام الله وتبديلها وتغييرها حتى توافق أهواءهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ . . ﴾ [التوبة: ٣٧].

---

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم: ص ١٩٩، ٢٠٠. والنجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين: ص ٢٤٢.

(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم: ص ١٩٩ . وهمجية التعاليم الصهيونية. ص ٧٨، ٧٩.

والنسيء هو التأخير[١]. وقد نزلت هذه الآية في المشركين، وذلك أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحُرُم، تحايلوا على حكم الله ـ عز وجل ـ فقدموا فيها وأخروا بما يوافق أهواءهم، مع المحافظة على عدة هذه الأشهر، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً. فأخبر الله ـ عز وجل ـ أن عملهم هذا زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير، منها:

- «أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.
- ومنها أنهم غيروا حكم الله، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.
- ومنها أنهم موّهوا على الله ـ بزعمهم ـ وعلى عباده، ولبّسوا عليهم دينهم.
- ومنها أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبحها عن النفوس؛ وربما ظُنّ أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل»[٢].

أما أهل الكتاب، فمِنْ تلاعبهم بأحكام الله ـ تعالى ـ ما فعلوه في حد الزنى، فقد روى مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مُـرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمّماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ، فقال: **«هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟»** قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: **«أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»** قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف

---

(١) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢١٤. والمختار أحمد الشنقيطي، الترجمان والدليل لآيات التنزيل (ط ١؛ الرياض: دار روضة الصغير: ١٤١٣هـ): ج ٢ ص ٧٩٥.
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ٣ ص ٢٣٠ (باختصار وتصرف).

والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرُجم، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ . . ﴾ [المائدة: ٤١](1).

ففي هذه القصة دليل واضح على تلاعبهم بأحكام الله وتغييرها وتبديلها لتوافق أهواءهم. وما أكثر ما ابتدعه المجرمون في دين الله، وغيروه وبدلوه حتى صار شرعاً متبعاً لا يسع أحداً ـ عندهم ـ الخروج عنه، ومن تأمل التاريخ، رأى من ذلك العجب.

فإن لم يتمكنوا من ذلك، فإنهم يلجؤون إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب السابع: الإفساد في الأرض:

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١].

وقال تعالى في معرض حديثه عن اليهود: ﴿ . . وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ . . ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى في وصف فرعون: ﴿ . . إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤].

وقال سبحانه حاكياً قول نبيه صالح ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد تأملتها فظهر لي منها ما يلي:

أولاً: **المنافقون** ـ لانتكاس قلوبهم وانطماس بصائرهم ـ يرون أن إفسادهم في الأرض إصلاحاً، وأنهم هم المصلحون حقًّا، والحق أنهم:

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى: ج ٥ ص ١٢٢، ١٢٣. وأخرجه البخاري عن ابن عمر مختصراً في كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿ . . يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . ﴾ [البقرة: ١٤٦]: ج ٣ ص ١٣٣٠ برقم ٣٤٣٦.

﴿ . . هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢].

ثانياً: اليهود يسعون سعياً حثيثاً في نشر الفساد في الأرض بكافة الوسائل المتاحة والأساليب الممكنة، بغرض تحطيم المجتمعات الأممية (غير اليهودية)، ومن ثم الإمساك بزمام الأمور، ومن أبرز أساليبهم في الإفساد وأنجحها: تشجيع التكشف والعري، والانحلال الخلقي، والدعوة إلى ذلك، وتيسيره، والإشراف عليه. وقصّة يهود بني قينقاع شاهد على ذلك، فقد روى أصحاب السِّير أن امرأة مسلمة قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع، فلما جلست إلى صائغ يهودي، اجتمع عليها نفر من اليهود يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من أسفله، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا بها. .[1] .

هذه الصورة البدائية الساذجة التي حدثت في ذلك الزمن، قد تطورت مع تطور الوسائل والإمكانات، وصار بإمكان اليهود وغيرهم من المفسدين في الأرض أن يحطموا مجتمعات بأكملها في زمن قياسي قصير، وبأساليب غاية في المكر والدهاء والإغراء، لا يمكن الصمود أمامها إلا خلف جدار من العقيدة صلب، تتحطم عليه سهام الإفساد مرتدة إلى نحور أصحابها.

ثالثاً: الإفساد في الأرض لا يكون إلا بعد إصلاحها، لأن الإصلاح بناء، والإفساد هدم، والهدم إنما يكون بعد البناء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا . . ﴾ [الأعراف: ٥٦].

رابعاً: المجرمون يفسدون في الأرض ولا يصلحون، إذ كيف يكون المفسد مصلحاً في آن واحد؟! وأعظم إفساد في الأرض: إحلال الشرك بالله ـ عز وجل ـ محل التوحيد الخالص، والجهل محل العلم، والفواحش

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٤٨. وابن الأثير، الكامل: ج ٢ ص ٩٦. وابن كثير، البداية والنهاية (ط ٥؛ بيروت: مكتبة المعارف: ١٤٠٤هـ): ج ٤ ص ٣، ٤.

والمنكرات محل الطاعات والقربات. . وهذا ما يسعى إليه المجرمون.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم، وفتنة، وبلاء، وقحط، وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله ﷺ. .»(١).

خامساً: المفسدون لهم سبيل، قال تعالى حاكياً قول موسى لهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿. . وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي من السبل التي حذر الله من اتباعها بقوله: ﴿. . وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ. .﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أما سبيل المؤمنين فواحدة لا تتعدد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

سادساً: الإفساد في الأرض لا يكون إلا بعد التولي والإعراض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا. .﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ. .﴾ [محمد: ٢٢].

سابعاً: المفسدون وإن خفي أمرهم على الناس؛ فإنه لا يخفى على رب الناس ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿. . وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿. . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ. .﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ثامناً: المفسدون مآلهم إلى الفشل والخسران، قال تعالى: ﴿. . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وهذا خبر صادق عن الله ـ عز وجل ـ بأنه لا يصلح عمل المفسدين، ومن أصدق من الله قيلًا؟.

---

(١) بدائع الفوائد: ج ٣ ص ١٥.

تاسعاً: إن من الإفساد في الأرض:

- **الإشراك بالله** - عز وجل - وهو أعظمها، وقد سبق الحديث عنه قريباً.
- **الكفر والصد عن سبيل الله**، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].
- **جحد آيات الله**، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].
- **ارتكاب الفواحش والدعوة إليها**، قال تعالى حكاية عن لوط - عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

فإذا أحس المجرمون بالضعف أمام قوة الحق المبين، فإنهم يلجؤون إلى:

الأسلوب الثامن: تولي بعضهم بعضاً:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ..﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ ..﴾ [الجاثية: ١٩].

فالكفر ملة واحدة، والمجرمون - مع اختلاف أصنافهم وأجناسهم - ليس لهم دين سوى الحفاظ على شهواتهم ومصالحهم الدنيوية، فلا غرابة أن يكون دين الحق الذي جاءت به الرسل، هو عدوهم المشترك، بل لا غرابة أن يعين بعضهم بعضاً، ويتنازل بعضهم لبعض في سبيل مواجهة هذا العدو الذي يهدد مصالحهم، ويحول بينهم وبين شهواتهم الدنية. وهم - على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح - كتلة واحدة إذا كانت المعركة مع دين الله - عز وجل - ممثلًا في رسله الداعين إليه، وأتباعهم من المؤمنين.

وأوضح مثال على ذلك، ما حصل يوم الأحزاب من تجمع قوى الكفر والشر آنذاك، من اليهود - وهم الرأس المدبر - والمشركين الموتورين من قريش في مكة وما حولها، والأعراب المرتزقة من قبيلة غطفان وغيرها، والمنافقين في الداخل، وذلك أن نفراً من اليهود خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم

عليه حتى نستأصله، فرأت قريش أن الفرصة مواتية لانتزاع تنازل من اليهود، فقالت لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وإنكم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ . . وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥]، فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك، واتعدوا له، ثم خرج ذلك النفر من يهود حتى أتوا غطفان ـ وهي من أكبر القبائل العربية ـ فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بنصف ثمر خيبر، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً تابعوهم على ذلك، فخرجوا جميعاً لاستئصال المؤمنين، والقضاء على دولة الإسلام في المدينة، أما المنافقون فإنهم ـ مع خوفهم وهلعهم الشديد ـ كانوا يفركون أيديهم فرحاً بقدوم هذه الأحزاب لاستئصال محمد ﷺ وأصحابه، ولما اشتد الخوف أظهروا نفاقهم، وقالوا: كان محمد يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً[1] .

لكن الله رد كيدهم جميعاً في نحورهم، وكانت العاقبة لعباد الله المؤمنين، وفي هذا يقول الله تعالى في أروع وصف وأبلغه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ

---

(١) عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة): ص ٢٨٠، ٢٨١. وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ٢ ص ٤١٩. ومحمد أحمد باشميل، غزوة الأحزاب (ط ٥؛ بيروت: دار الفكر: ١٣٩٧هـ). والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٢٠٧.

وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ٢٧].

فإن تنامى أمر الحق وقوي وأوشك على الظهور، فإنهم يلجؤون إلى:

الأسلوب التاسع: عقد اللقاءات السرية للتآمر على الدعوة:

قال تعالى واصفاً حال سحرة فرعون، واختلافهم في أمر موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿ فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ [طه: ٦٢]، أي اختلفوا في أمر موسى وهارون، فعقدوا اجتماعاً سريًّا طارئاً ليتفقوا على رأي واحد في مواجهة هذا الموقف، فخلصوا إلى أنهما: ﴿ . . لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه: ٦٣].

وهذا هو رأي فرعون من قبل، فما كان لهم أن يخالفوه، أو يأتوا برأي جديد، كيف وهو ربهم الأعلى، وإلههم الذي لا إله غيره عندهم[١].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ . . ﴾ [المجادلة: ٨]، والنجوى هي السِّرار[٢].

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون إلى المؤمنين، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن أهلنا الذين في السرايا قتل أو موت، فيحزنهم ذلك، وأمرهم النبي ﷺ ألا يتناجوا دون المسلمين، ونزلت هذه الآية»[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ج ٢ ص ٤٣٨. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٥ ص ١٦٨.

(٢) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق. وانظر: السيوطي، لباب النقول: ص ٢٢٦.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ . . ﴾ [الأنفال: ٣٠].

نزلت هذه الآية في طواغيت قريش لما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ ودعوته، وأجمعوا على قتله والتخلص منه.

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر خبر اجتماعهم وتآمرهم: «وكان مما أنزل الله ـ عز وجل ـ من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . ﴾ الآية[1].

وقال تعالى في موضع آخر محذراً المجرمين المتآمرين: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٩، ٨٠]، أي: إن أحكموا كيداً يكيدون به رسول الله ﷺ والحق الذي جاء به، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم من النكال والعذاب[2].

وسيأتي قريباً إن شاءالله، ذكر المنافقين، ومسجد الضرار الذي بنوه في المدينة ليكون مقرًّا لاجتماعاتهم ولقاءاتهم السرية للتآمر على الإسلام، والكيد لأهله.

وحين تدور الدائرة على الحق، ويكون الظهور للباطل فإن المجرمين لا يترددون في عقد لقاءات علنية مكشوفة يتداعون إليها من كل حدب وصوب لبث سمومهم، والتواصي بكل ما من شأنه إطفاء نور الحق، وإضعاف أهله حتى لا تقوم له قائمة. ولكن: ﴿ . . وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢].

فإن قوي الحق وكثر أتباعه، وعجز المجرمون عن مواجهته، فإنهم يلجؤون إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب العاشر: التفريق بين المؤمنين:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٨٤. والطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان: ج ١١ ص ٢١٤.

وهذا الأسلوب من أخفى أساليب المجرمين، وأكثرها دهاءً ومكراً، وهم يسلكون ـ لتحقيق ذلك ـ طرقاً عدة، من أبرزها وأخطرها:

١ ـ **اتخاذ مساجد للضرار**، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

نزلت هذه الآية في جماعة من رؤوس المنافقين، كانوا قد بنوا مسجداً في المدينة، وزعموا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية المطيرة، وحلفوا أنهم ما أرادوا بذلك إلا الحسنى، وهم إنما بنوه ليكون مقرًّا لاجتماعاتهم ومؤامراتهم على المسلمين للتفريق بينهم، ومرصداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فأتوا رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يصلي فيه تلبيساً على المسلمين، فاعتذر إليهم بأنه على جناح سفر، ووعدهم بالصلاة فيه إذا رجع، وكان المسلمون قد تجهزوا لغزو الروم، فلما رجع النبي ﷺ نزلت هذه الآية لتكشف عن حقيقة أولئك المنافقين، وتفضح نواياهم الخبيثة، وأمر النبي ﷺ فأُحرق ذلك المسجد على من فيه، فخرجوا منه هاربين كالجرذان الشاردة، ورد الله كيدهم في نحورهم[1].

ومثل هذا المسجد قد يُتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل التي يتخذها أعداء الرسل من المجرمين في كل زمان ومكان.. يُتخذ في صورة نشاط ظاهره لنصرة الحق، وإعلاء كلمته، وباطنه لسحق الحق أو تشويهه وتمييعه.

وقد نصت المحافل الماسونية اليهودية على إقامة مثل هذه المساجد وما شابهها، فجاء في بعض توصياتها ما يلي: «على الإخوان [أي الماسونيين] أن ينفذوا في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، بل عليهم ـ إن احتاج الأمر ـ

---

(١) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ١٤٩. وانظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة (ط ٦؛ بيروت: مؤسسة الرسالة: ١٤٠٢هـ): ص ٣٨٧، ٣٨٨.

أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيات، على أن لا تُشمّ منها رائحة حقيقية للدين»[١] .

وهذه المساجد الضرارية ـ في صورها المختلفة ـ تتنامى وتزداد كلما تنامت قوة الحق وازدادت، ولذا كان من واجب الرسل كشف هذه المساجد ـ في أي صورة كانت ـ وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وتحذير الناس منها، كما فعل الله ـ عز وجل ـ بمسجد الضرار. فقد نهى نبيه ﷺ عن مجرد القيام في ذلك المسجد نهياً مؤكداً، فقال سبحانه: ﴿لا تقم فيه أبداً. .﴾ .

٢ ـ إثارة العصبيات القبلية، والنعرات الجاهلية، قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا . .﴾ [الأحزاب: ١٨].

القائلون هنا هم المنافقون، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته: (هلمّ إلينا)، أي أقبلوا علينا، ودعوا محمداً وأصحابه، فقد ـ والله ـ هلك، وماله قِبَلٌ بأعدائه. وذلك يوم الأحزاب[٢] .

ولما خرج النبي ﷺ إلى بني المصطلق؛ ازدحم مهاجري وأنصاري على الماء واقتتلا، فقال الأنصاري: يا معشر الأنصار. وقال المهاجري: يا معشر المهاجرين. فلما بلغ رسول الله ﷺ قول الأنصاري والمهاجري، قال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟!**»، قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**». فسمع بذلك رأس المنافقين عبدالله بن أبي، فقال: أوَقد فعلوا؟! قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه ـ يريد رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرين ـ إلا كما قال القائل: (سمِّن كلبك يأكلك)، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل. .[٣] .

---

(١) انظر: الدوسري، الأجوبة المفيدة: ص ١٧٩ .

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٢ ص ٣٠.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٧٠. وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ٢ ص ٤٠٩. وقد أخرج البخاري هذه القصة مختصرة في صحيحه، في كتاب=

وقد ذكر بعض أهل التفسير والسير أن شاس بن قيس ـ وكان شيخاً يهوديًّا قد غبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من اجتماعهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة[1] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكّرهم «بُعاثاً» وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ـ وكان بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ـ ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الحرة، السلاح السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم**»، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

= المناقب، باب ما يُنهى من دعوى الجاهلية: ج ٣ ص ١٢٩٦ برقم ٣٣٣٠. وفي مواضع أخرى بألفاظ متقاربة.

(١) بنو قيلة: هم الأوس والخزرج. وقيلة: هي بنت كاهل أم من أمهات الأنصار نسبوا إليها. (أنظر: لسان العرب، مادة «قيل»: ج ٥ ص ٣٧٩٨.

كَٰفِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿. . وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١١٠][1] .

ويظهر في هذه القصة عظم كيد اليهود، وشدة حسدهم وعداوتهم للمؤمنين، وهم الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار! والحق أنهم شعب الله المحتال.

ويدخل في ذلك تشجيع الإنتماءات الحزبية وإثارتها، وقد جاء فيما يسمى ببروتوكلات حكماء صهيون[2] : «ولكي نغري الطامحين إلى القوة بأن يسيئوا استعمال حقوقهم - وضعنا القوى، كل واحدة منها ضد غيرها، بأن شجعنا ميولهم التحررية نحو الاستقلال، وقد شجعنا كل مشروع في هذا الاتجاه، ووضعنا أسلحة في أيدي كل الأحزاب، وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفعة. وقد أقمنا ميادين تشتجر فوقها الحروب الحزبية بلا ضوابط ولا التزامات. وسرعان ما ستنطلق الفوضى، وسيظهر الإفلاس في كل مكان»[3] .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٧٣. والواحدي، أسباب النزول: ص ٦٦، ٧٦. وابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٥٧.

(٢) بروتوكول protocol كلمة إنجليزية بمعنى: مرسوم أو اتفاقية. . (انظر: الياس أنطون، قاموس إلياس العصري (ط ١٩؛ بيروت: دار الجيل): ص ٥٧٧. وبنو صهيون هم اليهود. (انظر: الدوسري، صفوة الآثار: ج ٢ ص ١١٦ و٢٠٤.

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون (الكويت: مكتبة الحنفاء): ص ٦٨، ٦٩. وهي مجموعة مراسيم أو بنود تبلغ أربعة وعشرين بنداً سجلها حكماء صهيون بشكل سري، والهدف منها وضع الخطوط العريضة للسيطرة على العالم ومن ثم إقامة مملكة يهود الكبرى، وتأتي أهمية هذه البروتوكولات أو البنود من كونها تنطلق من منطلق ديني توراتي، فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر منها: «حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أي دين غير ديننا. . ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين، فلن يدخل هذا في موضوعنا، ولكن سيضرب مثلًا للأجيال القادمة التي ستصغي إلى تعاليمنا على دين موسى الذي وَكَل إلينا - بعقيدته الصارمة - واجب=

٣ ـ السعي في الإيقاع بين الرسل وأتباعهم، كما سبق مِنْ فِعْلِ رأس المنافقين عبدالله بن أبي في غزوة بني المصطلق، وقوله محرضاً: أوقد فعلوا؟. . .[١] .

وقد جاء في (بروتوكلات) حكماء صهيون الآنفة الذكر: «لابد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتستمر العداوات والحروب والكراهية، والموت استشهاداً أيضاً، هذا مع الجوع والفقر، ومع تفشي الأمراض، وكل ذلك سيمتد إلى حد أن لا يرى الأمميون [غير اليهود] أي مخرج لهم من متاعبهم غير أن يلجؤوا إلى الاحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملة»[٢] .

٤ ـ المشي بالنميمة، قال تعالى في وصف بعض المجرمين: ﴿. . مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

وقال تعالى في وصف أم جميل زوج أبي لهب: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤].

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: تمشي بالنميمة[٣] .

ولعظم خطر النميمة، عدها بعض العلماء ضرباً من ضروب السحر، لما لها من أثر عظيم في التفريق بين الناس[٤] .

كما أن النبي ﷺ قد توعد فاعلها بعدم دخول الجنة، فقال: «**لا يدخل الجنة نمَّام**»[٥] .

= إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا» ص ١٢٩، ١٣٠ (باختصار يسير).

(١) انظر: ص ١٩٣.

(٢) ص ١١١.

(٣) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به: ج ٤ ص ١٩٠٣.

(٤) انظر: محمد بن عبدالوهاب، كتاب التوحيد: ص ٥٤، ٥٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب البر، باب ما يكره من النميمة: ج ٥ ص ٢٢٥٠ برقم ٥٧٠٩، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة: ج ١ ص ٧١. واللفظ له.

٥ ـ استغلال غياب الرسل والدعاة المؤثرين:

ومن الأمثلة على ذلك، قصة السامري التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ في سورة طه، فإنه قد اغتنم فرصة غياب موسى ـ عليه السلام ـ وأحدث ما أحدثه من الفتنة، والتفريق بين المؤمنين.

هذه بعض أساليبهم في التفريق بين المؤمنين، فإن فشلوا في تحقيق ذلك، لجؤوا إلى أسلوب آخر وهو:

الأسلوب الحادي عشر: إبرام العهود والمواثيق ثم نقضها ونبذها:

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

هذا هو شأن المجرمين في عهودهم ومواثيقهم؛ لا يستقيم لهم عهد، ولا تُصان لهم ذمة.. عهودهم مرتبطة بمصالحهم، فإذا انقضت مصالحهم ضربوا بتلك العهود عرض الحائط، وتفلّتوا من كل قيد كما تتفلت البهيمة من عقالها، بل إن البهيمة لتتقيد ـ أحياناً ـ بضوابط فطرتها، وهؤلاء لا ضابط لهم سوى أهوائهم ومصالحهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الله ـ عز وجل ـ عن قوم فرعون حيث قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

فإذا خافوا على أنفسهم أو ضعفوا، لجؤوا إلى العهود والمواثيق حتى إذا ما أمنوا وزال عنهم الخطر، وعادت إليهم قوتهم، نكثوا تلك العهود والمواثيق، وعادوا إلى حرب الرسل ـ عليهم السلام ـ وإيذائهم وتكذيبهم.

ولأجل هذا قال تعالى موجهاً نبيه ﷺ، ومطمئناً له: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢]. وهذا إنما يكون في حال العجز والضعف، أما في حال القوة والقدرة، فقد قال تعالى: ﴿ . . فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . . ﴾ [التوبة: ٥][1].

وقال سبحانه: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ٢٩][2].

فإن أحس المجرمون بشيء من القوة والقدرة على المواجهة، فإنهم يلجؤون إلى أسلوب آخر خسيس وهو:

الأسلوب الثاني عشر: الغدر والخديعة والخيانة:

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ . . ﴾ [الأنفال: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ . . ﴾ [الأنفال: ٦٢].

نزلت هذه الآية في المشركين، وقيل في طائفة من

---

(١) رُوي عن جماعة من السلف أن هذه الآية ناسخة لآية السلم السابقة، وأنكر ذلك ابن جرير وابن كثير ـ رحمهما الله تعالى ـ ثم رجح ابن جرير أن آية السلم نزلت في بني قريظة خاصة، وأنكر ذلك ابن كثير أيضاً، وقال: «فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر . . ». ثم رجح أن هذ الايات محكمة من جميع الوجوه حسب حال المسلمين وعدوهم من ضعف وقوة. وانظر: مكي بن أبي طالب، الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه (ط ١؛ الرياض: من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٣٩٦هـ): ص ٢٥٩.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٢٧٨، ٢٧٩، وابن العربي، أحكام القرآن: ج ٢ ص ٨٧٦، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٢٢، ٣٢٣، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٣ ص ٢٣٧.

اليهود[1] ، وسواءنزلت في هؤلاء أو أولئك، فإن الجميع قد سلكوا هذا الأسلوب في حربهم للرسل ـ عليهم السلام ـ، فأما المشركون، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه، وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسْفَان[2] ومكة، ذُكروا لحيّ من هذيل يقال لهم: بنو لِحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد[3] ، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب[4] وزيد[5] ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيهم، فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أوّل الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة.

وفيه أيضاً من حديث أنس رضي الله عنه أن رِعلًا وذَكوان[6] وعصبة من بني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٢٢.

(٢) عُسفان: قرية جامعة بين مكة والمدينة (النهاية: ج ٣ ص ٢٣٧).

(٣) الفدفد: الموضع الذي فيه غِلَظ وارتفاع (السابق: ج ٣ ص ٤٢٠).

(٤) هو خبيب بن عدي رضي الله عنه.

(٥) هو زيد بن الدثنة رضي الله عنه.

(٦) هما بطنان من بني سليم إحدى القبائل المعروفة في الجزيرة العربية (انظر: فتح الباري: ج ٧ ص ٣٧٩).

الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة، قتلوهم وغدروا بهم[١].

وأما اليهود فهم أهل الغدر والخيانة، وقد صرّحوا بذلك في (بروتوكولاتهم)، فقد جاء فيها ما نصه: «يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة..».

إلى أن قالوا: «إن هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير!، ولذلك يتحتم إلا نتردد لحظة واحدة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا»[٢].

وقصة محاولتهم قتل النبي ﷺ معروفة مشهورة فقد ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في السيرة أن النبي ﷺ خرج إلى يهود بني النضير ليستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قُتلا خطأ ـ وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ـ فلما أتاهم ليستعينهم، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال، قال: وكان جالساً إلى جانب جدار لهم، فقالوا: مَنْ رجل يعلو هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك أحدهم، فجاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فقام مظهراً أنه يقضي حاجة، وقال لأصحابه: «**لا تبرحوا**» ورجع مسرعاً إلى المدينة...[٣].

ومن صور الخيانة، ما ذكره الله ـ عز وجل ـ عن امرأتي نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ لما ضرب مثلًا للذين كفروا، وذلك قوله تعالى:

---

(١) الحديثان أخرجهما البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورِعل وذكوان..: ج ٤ ص ١٤٩٩ ـ ١٥٠١، الحديث الأول برقم: ٣٨٥٨، والثاني برقم: ٣٨٦٢.

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون: ص ٥٩.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ٧ ص ٣٣١، وابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٩٠.

﴿. . فخانتاهما. . ﴾ [التحريم: ١٠]. وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى[١].

هذه بعض صور الغدر والخيانة التي مارسها المجرمون في حربهم للرسل ـ عليهم السلام ـ. وتاريخ الدعوات حافل بمثل هذه الأخبار والصور، وما كان ذلك ليفت في عضد الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ من الرسل وأتباعهم، ويعيقهم عن القيام بواجبهم في إبلاغ دين الله، فهم على يقين بأن الله ـ عز وجل ـ محيط بالمجرمين، مطلع على كيدهم ومكرهم وسرائرهم، فلا يصلون إلى شيء من ذلك إلا بتدبير من الله ـ سبحانه ـ وبمشيئته وحكمته. وأن الله ـ عز وجل ـ يبتلي بهم رسله والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فإن قوي شأن الحق، وصارت له الصولة والدولة، فإن المجرمين يلجؤون إلى:

الأسلوب الثالث عشر: إرضاء المؤمنين بالألسن مع إضمار العداوة لهم في القلوب:

قال تعالى عن المشركين: ﴿. . يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وهذا الأسلوب يلجأ إليه المشركون في وقت الخوف، حين يكون الحق عزيزاً ظاهراً، أما عند ظفرهم وظهورهم، فإنهم كما قال تعالى في أول الآية: ﴿. . لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً. . ﴾ أي لا يحفظوا قرابة ولا عهداً[٢].

أما المنافقون فإنهم قد تجاوزوا ذلك إلى الأيمان الكاذبة، إمعاناً منهم

---

(١) انظر: ص ٤٩٠ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢١٠.

في الكيد والخداع، فهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ . .﴾ [التوبة: ٦٢]، و﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم . .﴾.

ولكن: ﴿. . فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦].

ويلاحظ في الآيتين ـ الأولى والأخيرة ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد ختمهما بوصف الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة، وتجاوز الحد في ذلك، وما ذاك ـ والله تعالى أعلم ـ إلا لعظم ما جاءوا به من إظهار خلاف ما في قلوبهم من الكفر والفسوق والعصيان وبغض المؤمنين.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «إذا استُعمل الفسق في أي نوع من المعاصي، وقع على أعظمها من كفر وغيره، فتقول: كافر فاسق أي متمرد في الكفر . .»[1].

ولما كان المنافقون أشد خطراً وخفاءاً من المشركين، لم يستثنِ منهم أحداً، بخلاف المشركين، فإن أمرهم ظاهر جلي وإن أظهروا خلاف ما يبطنون، ولذا قال تعالى: ﴿. . وأكثرهم فاسقون﴾.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الرابع عشر: كثرة الحلف بالباطل:

قال تعالى في وصف المجرم الكافر: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ١٠]. أي كثير الحلف، حقير وضيع. ومن مهانته أنه يحلف كاذباً[2].

وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا . .﴾ [الأنعام: ١٠٩]، أي حلفوا أيماناً مغلظة لئن جاءهم رسول الله ﷺ بمعجزة ليُصدِّقُنَّ بها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً . . فهمّ رسول الله ﷺ أن يدعو ربه،

---

(١) انظر: الشنقيطي، الترجمان والدليل: ج ٢ ص ٥٦٧.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ١٠١.

لكنه خشي ألا يصدقوه، فينزل بهم العذاب، فاختار أن يمهلهم، ليتوب الله على من تاب منهم[1] كيف وقد جاءهم ﷺ بأعظم مما سألوا، فلم يؤمنوا ولم يصدقوا! كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

أما المنافقون، فإن الحَلِف هو سجيتهم، والأيمان الكاذبة هي درعهم الذي يتدرعون به من سيف الحق المسلط، فما من حادثة ولا مناسبة إلا ويحلفون فيها للمؤمنين، وربما غلظوا الأيمان مكراً منهم وخداعاً، والله يشهد إنهم لكاذبون: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة: ١٦].

فهم ﴿ . . يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [النساء: ٦٢]، وهم إنما أرادوا خلاف ذلك.

و﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢].

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [التوبة: ٥٦].

و﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة: ٦٢]، لكنهم ليسوا بمؤمنين.

و﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ . . ﴾ [التوبة: ٧٤].

و﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [التوبة: ٩٥].

و﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٦٤. والحديث أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٢٤٢، ٢٤٥. وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية ج ١ ص ٣٦٢: إسناده جيد.

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

والمقصود أنهم: ﴿.. وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وأعجب من ذلك: أنهم حين يقفون يوم القيامة بين يدي علام الغيوب ﴿.. فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ..﴾ [المجادلة: ١٨]، فيا لله العجب كيف بلغت بهم الخسة في ذلك اليوم العصيب أن يكذبوا على رب السموات والأرض، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، الذي لا تخفى عليه خافية ـ سبحانه ـ، ويحسبون ـ لفرط جهلهم ـ أن ذلك سينفعهم، ويدفع عنهم العذاب! ﴿.. أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فإن كان لهم ولاية وسلطة لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الخامس عشر: التغرير بالعامة وحضهم على الكفر:

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ..﴾ [نوح: ٢٢، ٢٣].

وقد بين الله ـ عز وجل ـ حقيقة هذا المكر، وأنه مكر دائم لا ينقطع، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ حاكياً قول الأتباع يوم القيامة، لما قال لهم أسيادهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ..﴾ قالوا ـ أي الأتباع ـ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ..﴾ [سبأ: ٣٣].

وقد سلكوا في التغرير بالعامة وإلهائهم مسالك شتى، منها:

١ ـ **صرفهم عن الاهتمام بالشؤون العامة**، والبحث عن الحقيقة بأنفسهم، وحضهم على التمسك بما هم عليه من عبادة غير الله، والصبر على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، أي: إنها مؤامرة، فتمسكوا أنتم بآلهتكم، ولا تلتفتوا

إلى غيرها[١] .

فإن كان لدى العامة فراغ قد يقود إلى التفكير؛ اتخذ المجرمون خطوات عملية لإلهائهم، منها:

٢ ـ إشغالهم بتجمعات باطلة:

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا . . ﴾ [لقمان: ٦].

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: نزلت في شراء القيان والمغنيات[٢] .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث[٣] كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى إحداهنّ فيقول: «أطعميه وأسقيه وغنّيه»، ويقول: «هذا خير مما يدعوك إليه محمد . . »[٤] .

أما الذين لا يستهويهم هذا النوع من الإلهاء، ولا تغريهم تلك التجمعات؛ فقد سلك المجرمون معهم أسلوباً آخر وهو:

٣ ـ إلقاء الخطب الحماسية، والكلمات الرنانة، التي تخلب العقول، وتلهب العواطف، وتشعل جذوة الحماس في النفوس، لما تشتمل عليه من تلبيس، وخداع، وقلب للحقائق.

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٧ ص ٣٦٩. وهذا القول أحد أربعة أقوال ذكرها أبو حيان ـ رحمه الله ـ في معنى الآية.

(٢) الواحدي، أسباب النزول: ص ١٩٧ .

(٣) النضر بن الحارث أحد صناديد قريش ممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، ويناصبه العداء. وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار فكان يصد بها الناس عن سماع الحق.

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص ٥٢ .

ومن ذلك ما فعله فرعون مع قومه، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢].

وكثير من الناس تستهويهم مثل هذه الخطب الرنانة، ولذلك حرص المجرمون من أعداء الرسل على إلقائها، وتباروا في ذلك في وقت السلم والحرب، فخدّروا المشاعر بزخرف من القول غروراً، كما فعل فرعون مع قومه.

فإن كان لدى العامة شيء من الوعي والإدراك؛ لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر أرقى، وأفضل، وهو:

٤ ـ الشورى المزيفة:

قال تعالى عن فرعون لما بهره نور الحق الساطع: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥].

فرعون ـ الطاغية المجرم ـ يستشير الملأ من قومه، وهم بالأمس كانوا عبيداً عنده يسجدون له، وهوالذي كان يقول لهم من قبل: ﴿ . . مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فما الذي جعله الآن يلين في القول لمن حوله، ويلتفت إليهم يستشيرهم؟! . . إنها شنشنة الطغاة حين يحسون بالخطر، حتى إذا ما أمِنوا، عادوا كما هم: جبابرة مستبدين ظالمين.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى أسلوب آخر أكثر جدية، وهو:

٥ ـ إظهار الحياد، والتظاهر بالإنصاف وطلب الحق:

قال تعالى حاكياً قول فرعون وملئه للناس لما اجتمعوا لرؤية المباراة بين موسى ـ عليه السلام ـ والسحرة: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠]، عبروا بأداة الشرط إظهاراً للإنصاف والحياد

والنزاهة[١]، والله يعلم ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والخداع والتزييف، ولهذا لما ظهر الحق، وآمن السحرة لموسى ـ عليه السلام ـ، انكشفت حقيقة المجرمين، وتبين ما في دخائل نفوسهم من الإصرار على الكفر والطغيان.

فإذا لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى أسلوب آخر غاية في المكر والدهاء، وهو:

٦ ـ التظاهر بالورع:

قال تعالى عن فرعون الطاغية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

الله أكبر.. فرعون يتورع أن يقول لقومه بصيغة الجزم: ما لكم من إله غيري. فيرد ذلك إلى علمه المتواضع! (ما علمت لكم..) وكأنه قد بحث عن إله آخر فلم يجد[٢]، ولم يكتف بذلك، بل أراد ـ إمعاناً منه في الكيد والخداع والتضليل ـ أن يتخذ خطوات عملية ظاهرة للبحث عن إله موسى المزعوم! ويا له من أسلوب ماكر خبيث يغرّ ويخدع. وبعض العقول تنطلي عليها مثل هذه الألاعيب والأكاذيب.

وقد كان عبدالله بن أُبي بن سلول ـ وهو رأس المنافقين، وأشد الناس بغضاً لرسول الله ﷺ ودعوته ـ يقوم كل جمعة واعظاً في مسجد رسول الله ﷺ، فيقول: «أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا» ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع من خذلانه المسلمين ورجوعه بثلث الجيش، منعه

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٥ ص ٣٥٨.
(٢) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٢٥.

الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من القيام، وقالوا له: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل. .»[1].

فإن اشتهر أمر الرسول ﷺ، ولم تجدِ أساليب التغرير والإلهاء، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب السادس عشر: المساومة:

قال تعالى محذراً نبيه ﷺ: ﴿. . وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ. .﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقصة مساومة مشركي قريش للنبي ﷺ مشهورة معلومة، فقد ذكر ابن هشام ـ رحمه الله ـ في السيرة أن عتبة بن ربيعة ـ وهو من صناديد قريش ـ قال يوماً وهو جالس في ناديهم: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه. فقام عتبة حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس إليه وقال: يا ابن أخي، إنك منّا حيث علمت من السِطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: قال يا أبا الوليد، أسمعُ. قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٠٥.

رَئِيًّا[١] تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه.. أو كما قال له.. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم. قال: «**فاسمع مني**»، فتلا عليه النبي ﷺ أول سورة فصلت.. إلى آخر ما جاء في القصة[٢].

فأي مساومة أعظم من هذه المساومة؟

وقد تعرض ﷺ لمحاولات أخرى من المساومة والفتنة، كلها باءت بالفشل والخيبة، وهي محاولات ماكرة خبيثة، الغرض منها استدراج النبي ﷺ، والإيقاع به فخ الفتنة وشراكها. ولكن الرسول ﷺ كان خبيراً بمكائد هؤلاء الأعداء ومقاصدهم، ذلك أنه يرى بعين البصيرة قبل البصر هذا الشراك المنصوب، فمحال أن يقع فيه، ولو كان غيره ﷺ من سائر الناس، لربما حدثته نفسه بالاستجابة لمطالبهم باسم مصلحة الدعوة، فيتولى الملك مثلًا، ثم يفرض دعوته على الناس بقوة السلطان. لكن هذا ليس هو المنهج الصحيح، ذلك أن الداعي حين يتخلّ عن مبدئه ـ ولو ظاهراً ـ يتخلى عنه الناس، ويسقط من أعينهم، فلا يكون لدعوته وزن.

ثم إن المُلْك ليس هدفاً في حد ذاته، وإنما الهدف هو إعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ وتحكيم دينه وشرعه على يد مَن كان من الناس، فالرسل ـ عليهم السلام ـ ليسوا طلاب مُلْك ورئاسة.

وقد استخدم فرعون هذا الأسلوب مع سحرته ليقفوا معه في وجه الحق الأبلج الذي جاء به موسى ـ عليه السلام ـ وذلك حين قالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]،

---

(١) الرئي: التابع من الجن، سمي بذلك لأنه يتراءى لمتبوعة. (انظر: النهاية: ج ٢ ص ١٧٨).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٩٣.

فوعدهم ـ زيادة على الأجر الذي سيبذله لهم ـ بتقريبهم منه، لكن نور الحق الساطع بهر أعين السحرة، فهانت عليهم أنفسهم، بل هانت عليهم الدنيا بأسرها، وقالوا لفرعون في عزة وإباء غير آبهين لتهديداته: ﴿. . لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وهناك صور أخرى كثيرة للمساومة، منها: تقديم الهدايا والأعطيات، قال تعالى حكاية عن بلقيس ملكة سبأ لما جاءها كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، ومثل هذا الأسلوب يلجأ إليه المجرمون لجس النبض، ولما للهدية من أثر فعال في قتل الحماس، وأسر القلب، فالداعية الصادق لا يفرح بمثل هذه الهدايا، بل يرفضها ويردها، وهذا ما فعله سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿. . بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب في حربها لدعوة نبينا محمد ﷺ، وذلك حين أمر النبي ﷺ نحواً من ثمانين رجلًا من أصحابه من المسلمين المستضعفين، بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، فبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية إلى النجاشي لاستردادهم، لكن الله خيب سعيهم، فقد رد النجاشي هديتهم، وشهد شهادة الحق مع المؤمنين[١].

ولذا، كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويُثيب عليها[٢] حتى لا يكون أسيراً لها، وليقطع طمع صاحبها، إن كان له مطمع، ولغير ذلك . .

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر أشد قسوة، وهو:

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج ١ ص ٥٧٧ برقم ٤٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب المكافأة في الهبة: ج ٢ ص ٩١٣ برقم ٢٤٤٥.

الأسلوب السابع عشر: الحرب النفسية، وتحطيم المعنويات:

أو كما تسمى اليوم: الحرب الباردة[١]، وهي نوع من أنواع الحروب الخفية التي تستهدف ـ أول ما تستهدف ـ النفس الإنسانية، لإحداث الاستجابات المطلوبة والمحددة منها، وعلى قدر نجاح هذه العملية تتحقق الأهداف المطلوبة[٢].

وتتخذ هذه الحرب صوراً وأشكالاً عدة، بعضها مشترك بين أصناف المجرمين، وبعضها يختص به صنف دون صنف، وسأقتصر هنا على ذكر ما كان منها مشتركاً دون ما كان خاصًّا، إذ سيأتي في موضعه إن شاءالله تعالى.

وهي بإجمال:

١ ـ السخرية والاستهزاء.

٢ ـ التجويع.

٣ ـ التيئيس.

٤ ـ التشهير.

٥ ـ التخويف.

٦ ـ التهديد والوعيد.

٧ ـ الاستخفاف.

٨ ـ التطير.

---

(١) ذكر بعض الباحثين أن الحرب النفسية يطلق عليها مصطلحات عدة، منها: الحرب المعنوية، وحرب الأفكار، وحرب الإرادات، وحرب الأعصاب، وحرب الدعاية، وحرب الإشاعة، والحرب العقائدية، والحرب السياسية، والحرب الدماغية، وحرب الكلمات.. إلخ. (انظر: محمد المخلف، الحرب النفسية في صدر الإسلام (ط ٢؛ الرياض: دار عالم الكتب: ١٤١٣هـ) ص ٢٢.

(٢) جاء في النظم الميدانية للجيش الأمريكي، في الفصل العاشر، الفقرة رقم ٢٧٨، بند «ب» ما نصه: «تلعب الحرب النفسية في الوقت الحاضر دور العدو الرئيس في كافة أنواع المعارك. وتوجيه الحرب النفسية المضادة بنجاح، يمثل العامل الحاسم في تحقيق الأهداف المطلوبة». (انظر: مجلة الجندي المسلم، عدد ٤٧ ص ٣٩).

٩ ـ إظهار الشماتة.

التفصيل:

١ ـ السخرية والاستهزاء:

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . ﴾ [الرعد: ٣٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

ومن أساليبهم في السخرية والاستهزاء:

أ ـ الضحك: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩].

وقال تعالى عن قوم فرعون لما جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٧].

ب ـ الغمز، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: إذا مر المؤمنون بالكفار تغامزوا فيما بينهم سخرية واستهزاء.

جـ ـ اللمز، وهو العيب والطعن باللسان(١)، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ . . ﴾ [التوبة: ٧٩]، أي: يعيبونهم فيها.

وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة: ١].

د ـ التعيير، قال تعالى حاكياً قول فرعون لقومه في تعيير موسى ـ عليه السلام ـ بالعي: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ . . ﴾ إلى قوله: ﴿ . . وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، أي لا يكاد يفصح عن كلامه(٢).

---

(١) انظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢١٨. والشنقيطي، الترجمان والدليل لآيات التنزيل: ج ٢ ص ٧١٨.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ١٣٠.

وقد كانت قريش تعيّر نبينا محمداً ﷺ بأنه أبتر، أي لا عقب له. يشيرون بذلك إلى موت الذكور من أولاده ﷺ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ في الرد عليهم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[1].

هـ ـ **الاحتقار والازدراء**، قال تعالى حاكياً قول أصحاب مدين لنبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ محتقرين له: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: ٩١]. فأي احتقار بعد هذا؟

وقال تعالى حاكياً قول فرعون في احتقار موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ..﴾ [الزخرف: ٥٢]. أي حقير ضعيف[2].

وقد تعرض نبينا محمد ﷺ لشيء من ذلك، فقد أخرج أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ لما اشتد عليه البلاء في مكة بعد موت عمه أبي طالب، عمد إلى ثقيف يرجو أن يؤوه وينصروه، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف، وهم إخوة: عبد ياليل بن عمرو، وخبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه، فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط!. وقال الآخر: والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً، لأن كنت رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقًّا من أن أكلمك. وقال الآخر: أعَجزَ الله أن يرسل غيرك!. وأفشوا في ثقيف ذلك الذي قال لهم، واجتمعوا يستهزؤون برسول الله ﷺ، وقعدوا له صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة،

---

(١) انظر: الواحدي، أسباب النزول، ص ٢٦٠.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ١٣٠.

وهم في ذلك يستهزؤون ويسخرون..[١].

٢ ـ التجويع (الحصار الاقتصادي):

قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟.. ﴾ [المنافقون: ٧].

نزلت هذه الآية في رأس المنافقين عبدالله بن أبي لما قال لأصحابه: «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله...»[٢]، وفي بعض الروايات أنه قال: «هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها»[٣].

إنها دعوة صريحة لفرض حصار اقتصادي على أتباع الدعوة لينفضوا عن صاحبها ﷺ تحت وطأة الجوع والضيق. وهذا عين ما فعلته قريش في مكة يوم أن قاطعت بني هاشم في شعب أبي طالب، لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ، ويسلموه للمشركين، فقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تاريخه أن مشركي قريش اجتمعوا، فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوا بني هاشم وبني عبدالمطلب، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يُسْلِموا رسول الله ﷺ للقتل!، وكتبوا في ذلك صحيفة وعهوداً ومواثيق: لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يُسْلِموه للقتل. فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون لهم طعاماً يَقْدَم مكة، ولا بيعاً، إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ..»[٤].

---

(١) دلائل النبوة (بيروت: عالم الكتب) ص ١٠٣.

(٢) انظر: ص ١٩٣ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٧٠.

(٤) البداية والنهاية: ج ٣ ص ٨٤ (بتصرف).

إنه أسلوب قديم توارثه المجرمون جيلًا بعد جيل لمواجهة الدعوات والرسل، غير عابئين بتضوع الجوعى، وأنين المرضى، وصراخ الأطفال والنساء، وهم ـ لدناءة نفوسهم ـ يحسبون أن لقمة العيش هي كل شيء في هذه الحياة ـ كما هي في تصورهم ـ فيحاربون بها المؤمنين. وقد نسوا في الوقت نفسه حقيقة مهمة يذكرهم الله بها في ختام الآية بقوله: ﴿.. وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾.

٣ ـ التيئيس:

قال تعالى حاكياً قول بني إسرائيل لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وقال تعالى حاكياً قول عاد لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦﴾ [الشعراء: ١٣٦]، أي: «وعظك وعدمه سواء عندنا، لا نبال بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله، ولا نرجع عن شيء مما نحن عليه.. قالوا ذلك تيئيساً له حتى لا يستمر في دعوتهم»(١).

ومن ذلك: قول مشركي قريش لنبينا محمد ﷺ: ﴿.. قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥]. فقد سدّوا في وجه الرسول ﷺ كل منفذ، بل جعلوا بينهم وبينه حاجزاً يحول دون وصول دعوته إلى آذانهم ـ فضلًا عن قلوبهم ـ، وهو حاجز وهمي لا وجود له إلا في أذهانهم التي عشعش فيها الشرك وفرّخ، وقد قصدوا بقولهم هذا، تيئيس الرسول ليكفّ عن دعوته.

ولولا أن الله ـ عز وجل ـ يثبت رسله، ويقوي عزائمهم، ويشد من أزرهم، لداخلهم شيء من الإياس من استجابة أقوامهم لهم، وما وُعدوا به

---

(١) محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير (ط ٥؛ الرياض: مكتبة دار السلام: ١٤١٤هـ): ص ٤٨٨ (بتصرف يسير).

من النصر، بل إن شيئاً من ذلك قد يقع منهم، وذلك حين يستنفدون كل ما في وسعهم وطاقتهم من الجهد، فلا يلقوا من أقوامهم إلا الأذى والتكذيب، والإصرار والعناد، عندها يتنزل النصر، ويتحقق وعد الله لرسله، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا . . ﴾ [يوسف: ١١٠][1].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «كانوا بشراً، فضعفوا ويئسوا»[2].

وفي هذا عبرة لأتباعهم من بعدهم، فإنهم لابد أن يبتلوا بمثل ما ابتلي به رسل الله ـ عليهم السلام ـ فلا يهنوا، ولا ييأسوا؛ لأن لهم في ذلك أسوة، ولو كان الرسل ـ عليهم السلام ـ معصومين من ذلك لما كان لأتباعهم أسوة يتأسون بها في أوقات الشدائد، ولاستولى اليأس على قلوبهم[3].

٤ ـ التشهير:

قال تعالى في معرض سياقه لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه، وتكسيره الأصنام: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أي على مرأى من الناس ونظر، ليشهدوا عقوبتنا إياه. وهم

---

(١) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٤ ص ٦٥.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٧ ص ٣٢٠. والبغوي، معالم التنزيل: ج ٤ ص ٢٨٦. وهذا التأويل على قراءة التخفيف: (كُذِبوا)، وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ هذه القراءة، وكانت تقرأ بالتشديد: (كُذِّبوا) أي ظن الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها، وقد تأولها ابن عباس، وظاهر الكلام معه. .» ثم شرع ـ رحمه الله ـ يوجه هذه القراءة بكلام نفيس. (انظر: مجموع الفتاوى: ج ١٥ ص ١٧٦ ـ ١٩٥). وانظر: أحمد بن الحسين النيسابوري، الغاية في القراءات العشر (ط ١؛ ١٤٠٥هـ): ص ١٨١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ج ١٥ ص ١٧٨.

إنما أرادوا التشهير به، وتأليب الناس عليه[1] ، لاسيما وأنه كان فتى حديث السن، لكن كيدهم قد ارتد في نحورهم، وكان ما أراده إبراهيم ـ عليه السلام ـ من اجتماع الناس إليه، واستماعهم له ليقيم عليهم الحجة، ويلزمهم بها.

٥ ـ التخويف:

قال تعالى: ﴿ . . وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ . . ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي بأصنامهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، كما قالت عاد لنبيها هود ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ . . ﴾ [هود: ٥٤][2] .

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ . . ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥]، نزلت هذه الآيات في الرسول ﷺ وأصحابه الذين خرجوا معه إلى حمراء الأسد. وذلك أن المشركين بعد غزوة أحد هموا بالرجوع إلى الرسول ﷺ وأصحابه لاستئصالهم والقضاء عليهم، فمر عليهم رجل من بني خزاعة من حلفاء النبي ﷺ، فثبطهم، وقال لهم: إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله، يتحرقون عليكم تحرقاً. . فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، ومر به ركب من بني عبدالقيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال أبو سفيان: فهل أنتم مبلّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها وأحّمل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا جئتموه

---

(١) انظر: جامع البيان: ج ٩ ص ٣٩.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٥٤. والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦ ص ٤٤٩. ولفظ الآية أعم من ذلك، فهو يتناول كل معظم ومعبود من دون الله ـ عز وجل ـ من الأصنام وغيرها.

فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم (يريد تخويفهم). فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل. فلما رجعوا من حمراء الأسد، أنزل الله تعالى فيهم وفيمن لقيهم هذه الآيات[1] .

٦ ـ التهديد والوعيد:

وهو كثير في القرآن على ألسنة المجرمين:

ـ تارة بالسجن، كما قال فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

ـ وتارة بالرجم، كما قال قوم شعيب لنبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ . . ﴾ [هود: ٩١]. وقول المكذبين لرسلهم: ﴿ . . لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ . . ﴾ [يس: ١٨].

ـ وتارة بالإخراج والنفي، كما قال قوم شعيب: ﴿ . . لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . ﴾ [الأعراف: ٨٨]. وقول قوم لوط: ﴿ . . لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

ـ وتارة بالأذى الجسدي، كما قال فرعون للسحرة لما آمنوا: ﴿ . . فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ . . ﴾ [طه: ٧١].

ـ وتارة بالعذاب الأليم المطلق، كما قال المكذبين لرسلهم: ﴿ . . وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: ١٨].

وتارة بغير ذلك من أنواع الأذى الحسي والمعنوي.

وقد كان أبو جهل ـ وهو من أكابر مجرمي قريش ـ إذا سمع برجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٥٢١، ٥٢٢ (باختصار وتصرف). وانظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ٧٥.

منك، لنسفهنّ حلمك. وإن كان تاجراً، قال: والله لنكسدنّ تجارتك. وإن كان ضعيفاً هدده بالضرب ونحوه[١].

٧ ـ الاستخفاف:

قال تعالى: ﴿.. وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [الروم: ٦٠].

وهو أسلوب استفزازي. يقال: استخف فلان فلاناً: استجهله، حتى حمله على اتّباعه في الغي[٢].

٨ ـ التطير:

قال تعالى حاكياً قول المجرمين لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ..﴾ [يس: ١٨].

والتطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم، وأصله مأخوذ من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون بالطيور على طريقتهم المعروفة بزجر الطير، ويعلقون أمورهم سلباً وإيجاباً على ذلك[٣].

والمجرمون إنما يلجؤون إلى هذا الأسلوب، لتحطيم معنويات الرسل ـ عليهم السلام ـ بدليل أنهم في أوقات الأزمات يلجؤون إلى الرسل لكشف الكروب عنهم.

٩ ـ إظهار الشماتة:

قال تعالى حكاية عن هارون ـ عليه السلام ـ: ﴿.. فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَآءَ ..﴾ [الأعراف: ١٥٠].

فشماتة الأعداء داء ما له دواء، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ من ذلك في دعائه، ففي الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ٥٩. وانظر: محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة (القاهرة: دار الفكر العربي: ١٣٩٩هـ): ص ٢١٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص ٤٩. وانظر: لسان العرب، مادة «خفف»: ج ٢ ص ١٢١٢.

(٣) انظر: محمد بن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: ج ٢ ص ٧٧.

الله ﷺ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء(١) .

وفي رواية أنه أمر بذلك فقال: «**تعوذوا بالله . . .**»(٢) .

وفي تاريخ الإسلام، ما أظهر المجرمون شماتتهم مثل ما أظهروها بعد هزيمة المسلمين يوم أحد، فأما المشركون فقد رقصوا فرحاً وطرباً.

وأما اليهود فإنهم قالوا شامتين: ما محمد إلا طالب مُلك، ما أُصيب هكذا نبي قط.

واما المنافقون فإنهم قد أظهروا الشماتة على استحياء، خوفاً على أنفسهم، ومن ذلك قول رأس المنافقين ابن أبي لابنه عبدالله ـ وكان قد رجع جريحاً ـ: «ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني أنظر إلى هذا». والله أعلم بما في نفسه من الغل للمسلمين، والفرح بهزيمتهم(٣) .

فإن اشتدت الخطوب، وتعاظمت الكروب، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر غريب، وهو:

الأسلوب الثامن عشر: الاستنجاد بالرسل في كشف الكروب:

قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء: ج ٥ ص ٢٣٣٦ برقم ٥٩٨٧ . ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء. . : ج ٨ ص ٧٦ برقم ٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء: ج ٦ ص ٢٤٤٠ برقم ٦٢٤٢ .

(٣) انظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة: ص ٣٣٨ وص ٣٧٦ .

لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]. وهو أمر في غاية العجب، فموسى الذي كان بالأمس كاذباً وضالاً ومفسداً، بل مجنوناً! أصبح اليوم منقذاً ومخلصاً! وفرعون الطاغية الذي كان يقول بالأمس لقومه: ﴿.. أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، أصبح ـ هو وقومه ـ يَعِدون اليوم بالاستجابة، ويُمنّون بالإيمان ورفع الضغوط عن المؤمنين!

وسياق الآيات يدل على نوع من الخوف والترقب، ممزوج بشيء من السخرية والتهكم ففي الوقت الذي يطلبون فيه من موسى ـ عليه السلام ـ أن يدعو لهم ربه ليرفع عنهم العذاب، يقولون متهكمين: (ياأيها الساحر)[1] ! وفي موضع آخر نادوه باسمه المجرد (يا موسى)! ولم ينادوه باسم الرسالة، وهم يعلمون أنه مرسل من عند الله. ويقولون له: (ادع لنا ربك)! وهو يقول لهم: إنه رسول رب العالمين، لا ربه هو وحده.

ويقولون له كذلك: ﴿.. لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وكأن المسألة عندهم لا تعدو أن تكون مسألة مقايضة، لا مسألة إيمان وكفر: إن فعلت لنا كذا، فعلنا لك كذا وكذا.

وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب في صراعها مع رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين وغيرهما عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فأُتي رسول الله ﷺ،

---

(١) وهناك قول آخر، وهو أن قولهم: ﴿يا أيها الساحر﴾ على سبيل التعظيم والمدح، أي: يا أيها العالم. واختار هذا القول ابن جرير وابن كثير ـ رحمهما الله ـ وحكى السعدي ـ رحمه الله ـ القولين ولم يرجح أحدهما. والله تعالى أعلم.

فقيل: يا رسول الله، استسقِ لمضر، فإنها قد هلكت. قال: «لمضر؟! إنك لجريء»، فاستسقى فسُقوا. فنزلت: ﴿. . إنكم عائدون﴾، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعني يوم بدر[1] .

وهذا الأسلوب، إنما يلجأ إليه المجرمون إذا أحسوا بالخطر، وتلفتوا يميناً وشمالاً فلم يجدوا إلا رسل الله ـ عز وجل ـ ودعاته الصادقين، وقد اشرأبت إليهم الأعناق، وانصرف إليهم الناس بقلوبهم، فلا يجد المجرمون حينئذ بُدًّا من أن يمدوا إليهم أيديهم حفاظاً على جاههم، وإبقاء على أنفسهم. حتى إذا ما انكشف العذاب وزال الكرب، عادوا إلى كفرهم وطغيانهم، وذهبت وعودهم أدراج الرياح: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

فإن كان هؤلاء المجرمون أصحاب جاه ومكانة لدى ذي السلطان، لجؤوا إلى أسلوب آخر ماكر، وهو:

الأسلوب التاسع عشر: الوشاية (استعداء السلطة):

وقد سلك هذا الأسلوب الملأ من قوم فرعون وذلك فيما حكاه الله عنهم من قولهم لفرعون يستعدونه على موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿. . أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ . .﴾ [الأعراف: ١٢٧]. فكان أن استجاب لهم قائلًا: ﴿. . سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في مسائل الجاهلية[2] : «المسألة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾: ج ٤ ص ١٨٢٣ برقم ٤٥٤٤، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان: ج ٨ ص ١٣١ برقم ٤٠.

(٢) ص ١٠١.

الستون: كونهم إذا غُلبوا بالحجة فزعوا إلى السيف والشكوى إلى الملوك، ودعوى احتقار السلطان، وتحويل الرعية عن دينه، قال تعالى: ﴿. . أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ. . ﴾».

وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب في حربها للمهاجرين من المسلمين إلى أرض الحبشة، وذلك بإرسالها رجلين من دهاة العرب للوشاية بهم عند النجاشي ملك الحبشة ـ وكان نصرانيًّا ـ فلما دخلا عليه سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا: إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنّا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم. فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟! قال: إنا لا نسجد إلا لله ـ عز وجل ـ. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله ـ عز وجل ـ بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله ـ عز وجل ـ، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال رسول قريش: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله ـ عز وجل ـ: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يَفْرِضْها ولد[١]. فرفع النجاشي عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يَسْوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نَجِدُ في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضيئه.. فعاد الوفد القرشي خائباً[٢].

---

(١) لم يفرضها أي: لم يؤثر فيها ولم يحزّها، يعني قبل المسيح ـ عليه السلام ـ (النهاية: ج ٣ ص ٤٣٣).

(٢) الحديث بنحوه أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص ٥٧٧ برقم ٤٤٠١، وحسن=

هذا ما ظهر لي في القرآن الكريم من أساليب المجرمين في الكيد والمكر والخداع، وليس بالضرورة أن تكون بالترتيب الذي ذكرته في هذا المبحث، فقد يسبق بعضها بعضاً، أو ينفرد بعض المجرمين ببعضها دون بعض، والله تعالى أعلم.

= إسناده أحمد شاكر: ج ٦ ص ١٥٨. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ٦٩. وقال بعد سياق هذه القصة: «وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن». وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح: ج ٧ ص ١٨٩.

المبحث الثاني
أساليب في التولي والإعراض[1] والصد عن سبيل الله

قال تعالى: ﴿.. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾[البقرة: ٨٣][2].

وقال تعالى: ﴿.. وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿.. وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾[الأعراف: ٤٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، كلها تدل على تولي المجرمين، وإعراضهم عما جاءت به الرسل، وصدهم عن سبيل الله. وقد تنوعت أساليبهم في ذلك، وهي ـ حسب ما ظهر لي من كتاب الله ـ:

١ ـ التعامي والتصامم عن سماع الحق.

٢ ـ ثني الصدور استخفاءً.

---

(١) التولي والإعراض، قيل: إنهما بمعنى واحد. وقيل: التولي يكون بالجسم، والإعراض بالقلب. وقيل: هما مأخوذان من سلوك السبيل؛ فإن من ترك سلوك السبيل له حالتان، إحداهما: أن يرجع من حيث بدأ، وذلك هو التولي. والثانية: أن يأخذ في عرض الطريق، وذلك هو الإعراض. فالمتولي أحسن حالاً من المعرض؛ لأنه متى عزم على الرجوع سهل عليه ذلك. بخلاف المعرض، فإنه إذا أخذ في عرض الطريق وتشعبت به سبل الضلال، عسر عليه الرجوع. (انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج ١ ص ٤٤٨ و٤٥٦. والألوسي، روح المعاني: ج ١ ص ٣١٠).

(٢) انظر في توجيه معنى التولي والإعراض في هذه الآية: محمد بن أبي بكر الرازي، تفسير الرازي المسمى بـ: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل (ط ١؛ بيروت: دار الفكر المعاصر: ١٤١١هـ): ص ٢٧.

٣ ـ ثني الأعطاف.
٤ ـ النكوص على الأعقاب.
٥ ـ التولي على الأدبار.
٦ ـ الانصراف.
٧ ـ الفرار.
٨ ـ رد الأيدي في الأفواه.
٩ ـ سد الآذان.
١٠ ـ استغشاء الثياب.
١١ ـ الإصرار.
١٢ ـ الاستكبار.
١٣ ـ النهي عن الرسول ﷺ والنأي عنه.
١٤ ـ الإعراض عن قبول النصحية.
١٥ ـ الإعراض عن حكم الله ورسوله إلا أن يكون الحق لهم.
١٦ ـ التربص بالرسول والمؤمنين.
١٧ ـ الاعتياض عن كتاب الله بكتب السحر والضلال.

التفصيل:

الأسلوب الأول: التعامي والتصامم عن سماع الحق:

قال تعالى في معرض ذمّه لأهل الكتاب: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ..﴾ [المائدة: ٧١].

وقال تعالى في ذم بعض المشركين: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٧﴾ [لقمان: ٧].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ

قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

فالمجرمون يتعامون ويتصاممون عن سماع الحق إعراضاً واستكباراً، فعاقبهم الله ـ عز وجل ـ بأن طبع على قلوبهم، وقطع عنها مادة الاهتداء، فأصمهم وأعمى أبصارهم، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]. فأخبر سبحانه أنهم لو سمعوا الحق وفهموه، ما انقادوا له ولا انتفعوا به، لفساد قصدهم وإرادتهم، فاستحقوا الطرد والإبعاد(١). بخلاف عباد الله المؤمنين الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].

الأسلوب الثاني: ثني الصدور استخفاءً:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ. .﴾ [هود: ٥].

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «كانوا يحنون صدورهم، لكي لا يسمعوا كتاب الله. .»(٢). وقال السدي ـ رحمه الله ـ: «يثنون: أي يُعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني. . .»(٣).

وهو أسلوب انفعالي سلبي يلجأ إليه المجرمون حين يفجؤهم نور الحق المبين فلا يملكون وسيلة لدفعه والاستخفاء منه إلا أن يثنوا صدورهم على ما تنطوي عليه من الكفر والفجور وبغض الحق الذي جاءت به الرسل، والذي فيه نجاتهم وفلاحهم، وقد فاتهم أن الله ـ تعالى ـ: ﴿. . يَعْلَمُ مَا

---

(١) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ١٧١.
(٢) الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٦٢٥.
(٣) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٤ ص ١٦١. وفي الآية أقوال أخرى غير ما ذكرت، ولعل الآية محتملة للجميع، والله تعالى أعلم.

يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ .

فإن أعجزهم الاستخفاء، ورفعوا رؤوسهم، وجادلوا الرسول استكباراً بغير علم، لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الثالث: ثني الأعطاف:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . .﴾ [الحج: ٨، ٩] أي: لاوٍ رقبته إعراضاً عن الحق واحتقاراً لأهله، وإنما حمله على ذلك الاستكبار، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]، وقوله تعالى في وصف الكافر المجرم: ﴿. . وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرٗا . .﴾ [لقمان: ٧][1] ، وهذا هو حال المبطلين المستكبرين. إذا دمغهم الحق بأدلته الباهرة لجؤوا إلى مثل هذه الأساليب المضللة هروباً من الاعتراف بالحق، ولزوم الحجة عليهم، وإن كان ذلك لا يغني عنهم شيئاً، ولا ينفعهم حالاً ولا مآلاً.

فإن علا صوت الحق، وعجزوا عن إسكاته، لجؤوا إلى:

الأسلوب الرابع: النكوص على الأعقاب:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦] أي: «ترجعون مولين عنها إذا سمعتموها كراهية منكم لسماعها، وكذلك يقال لكل من رجع من حيث جاء: نكص فلان على عقبه»[2] .

ففي الآية استعارة للإعراض والإدبار عن الحق[3] ، وكأنهم يرجعون

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ١١٤، ١١٥.
(٢) المصدر السابق: ج ٩ ص ٢٢٩.
(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٠ ص ٣٧٩. وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٦ ص ٣٨٠.

القهقرى على عقابهم نفوراً من سماع الحق، وهم ينظرون إلى رسول الله ﷺ، وهو يتلو عليهم آيات الله ـ عز وجل ـ حتى إذا ما جاء ذكر التوحيد، وعيب آلهتهم المدعاة لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الخامس: التولي على الأدبار:

قال تعالى: ﴿ . . وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦] أي: انفضّوا عنك نفوراً من قولك، واستعظاماً أن يُوحَّد الله تعالى[1]، وولّوا كما يولي المنهزم في القتال موجهاً دبره لعدوه، وذلك حين يعجز عن المواجهة.

وهذا التولي والنفور من المشركين عند سماع التوحيد، دافعُه: اشمئزاز قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . .﴾ [الزمر: ٤٥] أي: انقبضت ونفرت[2]، فقلوبهم لا تطيق سماع كلمة التوحيد، في الوقت الذي تأنس فيه وتستبشر بذكر الشرك والأصنام: ﴿ . . وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، نعوذ بالله من الشقاء والخذلان.

أما المنافقون، فإنهم قد لجؤوا إلى أسلوب آخر أكثر حذراً وحيطة، وهو:

الأسلوب السادس: الانصراف:

وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاءالله في مبحث أساليب المنافقين[3].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ٨٦.

(٢) انظر: أبو بكر السجستاني، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب (ط ٣؛ بيروت: دار الرائد العربي: ١٤٠٢هـ) ص ٣٦. ومكي بن أبي طالب، العمدة في غريب القرآن (ط ٢؛ بيروت: مؤسسة الرسالة: ١٤٠٤هـ) ص ٢٦٢. وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ١٢٧.

(٣) انظر ص ٤٤٦ من هذا الكتاب.

فإذا أقبل إليهم الرسول ﷺ كالأسد الهصور، يُذكّرهم بالله ـ عز وجل ـ ويدعوهم إليه، لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب السابع: الفرار:

قال تعالى حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ ﴾ [نوح: ٥، ٦].

وقال تعالى واصفاً حال المجرمين: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

في هذه الآيات تشبيه لطيف ـ وهو من بديع القياس والتمثيل[١]؛ فقد شبههم الله ـ عز وجل ـ في إعراضهم ونفورهم عن الذكر، بالحمر الوحشية حين ترى الأسد أو القناصة، فتفرّ هاربة مولية، فهؤلاء كالحمر التي لا تعقل شيئاً، بل هم أضل سبيلًا؛ فإن هاته الحمر إنما فرت طلباً للنجاة، وإبقاء على حياتها. أما هؤلاء فإنهم إنما فروا عما فيه نفعهم وحياتهم إلى ما فيه هلاكهم وخسرانهم المبين، فالتشبيه هاهنا إنما وقع في الفرار، أما الغايات والمقاصد فإنها مختلفة، والله تعالى أعلم.

فإن حاصرهم الرسول ﷺ، ولم يتمكنوا من الفرار لجؤوا إلى:

الأسلوب الثامن: رد الأيدي في الأفواه:

قال تعالى: ﴿ . . جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ . . ﴾ [إبراهيم: ٩].

قال بعض أهل اللغة: هذا ضَرْبُ مثل، أي: سكتوا ولم يجيبوا إعراضاً واستكباراً، والعرب تقول للرجل إذا سكت عن الجواب وأمسك: ردّ يده في فيه.

---

(١) انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين: ج ١ ص ١٦٤.

وكذا قال الأخفش ـ رحمه الله ـ[(١)] .

وسكوتهم مع إصرارهم على الكفر، دليل على عجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة، فإن المقام مقام تحد وإعجاز[(٢)] ، وهم لم يؤمنوا ويقروا بما جاءت به الرسل، ولم يأتوا بما يعارضه ويبطله، فدل ذلك على عجزهم وخسرانهم في الحالين، وصِدْق الرسل ـ عليهم السلام ـ.

فإن ألح عليهم الرسل بالدعوة وهم في هذه الحال، لجؤوا إلى:

الأسلوب التاسع: سدّ الآذان:

قال تعالى حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٣٩٨. والبقاعي، نظم الدرر: ج ٤ ص ١٧٤. والشوكاني، فتح القدير: ج ٣ ص ١١٦. وفي الآية أقوال أخرى كثيرة، وإنما اخترت هذا القول لأن القرآن نزل بلغة العرب، وقد سُمع ذلك من العرب كما قال أبو عبيدة والأخفش. قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر القول الأول، وهو أن المعنى: عضّوا على الأيدي حنقاً وغيظاً. قال: «وهو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة والأخفش، فإن صح ما ذكراه، فتفسير الآية به أقرب». وقد أنكر القتبي ما ذكره أبو عبيدة والأخفش، وزعم أن ذلك لم يُسمع عن أحد من العرب، فرد عليه أبو حيان بقوله: إن من سمع حجة على من لم يسمع.

وفي الآية إشكال آخر على القول المختار، وهو: كيف يقال إنهم سكتوا وهم قد أجابوا بقولهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به..﴾ كما في تمام الآية. وقد أجاب عن ذلك أبو حيان بقوله: إن المقصود أنهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضي الذي يقتضيه مجيء الرسل بالبينات، وهو الاعتراف بالإيمان والتصديق بالرسل.. والله تعالى أعلم.

(٢) الرسل ـ عليهم السلام ـ لم يُبعثوا للتحدي والإعجاز، وإنما جاءوا بالبينات والمعجزات الباهرة، مقرونة بالتحدي ليدل ذلك على صدقهم وصحة ما جاءوا به، وأنهم رسل من عند الله، وليسوا سحرة أو كهنة.

لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ . . ﴾ [نوح: ٧].

ولما كان سد الآذان لا يمنع من رؤية وجه النبي الصادق، وتعابير وجهه المؤثرة وهو يدعوهم إلى الله بإخلاص؛ لجؤوا إلى أسلوب آخر إمعاناً منهم في الإعراض، وهو:

الأسلوب العاشر: استغشاء الثياب:

قال تعالى: ﴿ . . وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ . . ﴾ [نوح: ٧] أي: غطّوا رؤوسهم[1] كراهية رؤية الرسول ﷺ والتأثر بملامح وجهه، واحتقاراً له ولدعوته، فهو مصر على دعوتهم، وهم مصرون على كفرهم وضلالهم، حتى وصل بهم الأمر إلى هذه الحال المزرية من سد الآذان واستغشاء الثياب.

فإن استمر الرسول في دعوته ولم ييأس من استجابتهم له، لجؤوا إلى:

الأسلوب الحادي عشر: الإصرار:

قال تعالى: ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَأَصَرُّواْ . . ﴾ [نوح: ٧] أي: «استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع»[2]، فقد دعاهم نوح ـ عليه السلام ـ ليلاً ونهاراً، وسرًّا وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا إعراضاً ونفوراً واستكباراً، فهو لم يترك أسلوباً للدعوة إلا سلكه، وهم لم يتركوا أسلوباً للإعراض إلا اتبعوه وسلكوه، وكلما واجههم الرسول بأسلوب في الدعوة إلى الله؛ اخترعوا له أساليب جديدة في الصد والإعراض عن سبيل الله، وهو لا يسألهم أجراً على دعوته ولا يريد لهم إلا الخير والنجاة، لكنهم هم لا يريدون لأنفسهم إلا الهلاك والخسران، وهذا هو حال المجرمين جميعاً، يهلكون أنفسهم وهم لا يشعرون.

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٤٢٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٤٢٥.

فإن استمر الرسول في إلحاحه، وصبر على إعراضهم وتكذيبهم، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثاني عشر: الاستكبار:

قال تعالى في وصف المجرمين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ . . وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح: ٧]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والكِبْرُ محلّه القلب، وإنما تظهر آثاره على الجوارح في صورة إعراض وصدود عن الحق واحتقار للناس، كما قال النبي ﷺ في بيان حقيقته: «**الكِبْرُ بَطَر الحق، وغمط الناس**»[(١)] ، وحين يمتلىء القلب إيماناً، فإنه يخضع للحق وينقاد له ويُقبل عليه بانشراح ورضا، فإذا أقفر القلب من الإيمان، وامتلأ كبراً، لم يكن شيء أبغض إليه من سماع صوت الحق والانقياد له.

فإن كان الرسول ـ عليه السلام ـ قريباً منهم ـ وإن لم يخاطبهم ـ لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الثالث عشر: النهي عنه والنأي عنه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ . . ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: يتباعدون منه إعراضاً عن سماع ما يتلوه من كتاب الله ـ عز وجل ـ[(٢)] ، وقد كان النبي ﷺ يخرج إلى الحرم فيصلي فيه، ويجهر بصلاته قليلًا ليُسمع من حوله، وكانت قريش تحذر الناس ـ لاسيما الغرباء من الحجاج الوافدين وغيرهم ـ من الاستماع إلى الرسول ﷺ والاقتراب منه لئلا يسحرهم بكلامه ـ بزعمهم ـ! فكان بعضهم يحشو أذنيه قطناً حذراً من الاستماع إليه، منهم الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، فقد روى عنه أهل السير وغيرهم

---

(١) سبق تخريجه وبيان معناه، انظر: ص ٣٣.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص ١٧١.

أنه قال ـ يذكر قصته ـ: «كنت شاعراً سيداً في قومي، فقدمت مكة فمشيت إلى رجالات قريش، فقالوا: يا طفيل، إنك امرؤ شاعر سيد مطاع في قومك، وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل فيصيبك ببعض حديثه، فإنما حديثه كالسحر، فاحذره أن يُدخل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا وعلى قومنا، فإنه يُفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه. . ، فوالله ما زالوا يحدثونني وينهونني أن أسمع منه حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادّ أذني، قال: فعمدت إلى أذنيّ فحشوتهما كرسفاً[1] ثم غدوت إلى المسجد فإذا برسول الله ﷺ قائماً في المسجد. قال: فقمت منه قريباً، وأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فقلت في نفسي: والله إن هذا للمعجز، والله إني امرؤ ثبت ما يخفى عليّ من الأمور حسنها ولا قبيحها، والله لأستمعن منه، فإن كان أمره رشداً أخذت منه، وإن كان غير ذلك اجتنبته. قال: فقلت بالكرسفة فنزعتها من أذني فألقيتها، ثم استمعت له فلم أسمع كلاماً قط أحسن من كلام يتكلم به، فقلت في نفسي: يا سبحان الله، ما سمعت كاليوم لفظاً أحسن منه ولا أجمل. قال: ثم انتظرت رسول الله ﷺ حتى انصرف، فاتبعته فدخلت معه بيته، فقلت له: يا محمد، إن قومك جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ـ فأخبرته بالذي قالوا لي ـ وقد أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول، وقد وقع في نفسي أنه حق، فاعرض عليّ دينك وما تأمر به، وما تنهى عنه. قال: فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام فأسلمت. . »[2] .

وهكذا خيّب الله ـ عز وجل ـ سعي المجرمين من كفار قريش، وجعل

---

(١) الكرسف: القطن. (النهاية: ج ٤ ص ١٦٣).

(٢) ابن عبدالبر المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب (بيروت: دار الكتاب العربي): ج ٢ ص ٢٢٣، ٢٢٤. وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (ط ٤؛ بيروت: مؤسسة الرسالة: ١٤٠٦هـ): ج ١ ص ٣٤٥. وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (بيروت: دار الكتاب العربي) ج ٢ ص ٢١٧.

العاقبة لنبيه ﷺ.

والأمثلة على نهيهم عنه ونأيهم عنه كثيرة، وما ذكرته ليس إلا مثالاً واحداً فقط من تلك الأمثلة.

فإذا ما نصحهم الرسول ﷺ، وحذرهم من مغبة عملهم هذا، فإنهم يلجؤون إلى:

الأسلوب الرابع عشر: الإعراض عن قبول النصحية:

قال تعالى في وصف صنف من المجرمين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ.. ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وقال تعالى حاكياً قول صالح ـ عليه السلام ـ لقومه بعد أن حل بهم العذاب: ﴿.. يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ.. ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿.. وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣].

فالرسل ـ عليهم السلام ـ إنما جاؤوا بالنصيحة لأقوامهم، فما من نبي إلا ونصح لقومه، وحذرهم من عاقبة كفرهم بالله وإشراكهم به، فهذا نوح ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ.. ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ومثله هود ـ عليه السلام ـ فقد قال لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٨]. وهكذا سائر الرسل ـ عليهم السلام ـ إلى خاتمهم محمد ﷺ القائل: «**الدين النصيحة**»[1] فجعل الدين كلّه: النصيحة.

وجماع تفسير النصيحة ـ كما ذكر بعض أهل العلم ـ: «عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان»[2]، وهكذا كان حال الرسل مع أقوامهم،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون..: ج ١ ص ٥٣ عن تميم الداري رضي الله عنه، وتمام الحديث: قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» برقم ٩٥.

(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: ص ٦٨، ٦٩. وانظر: صحيح مسلم بشرح=

ولكن المجرمين أبوا إلا الإعراض، ورد النصحية، وبغض الناصحين، كما قال صالح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿. . وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩]، وأيّ شيء تغني النصيحة عن قوم لا يؤمنون؟ ولذا قال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤].

أما حين يكون المجرم زعيماً معظماً، فإنه يكون أبعد عن قبول النصحية، وذلك أن من اعتاد سماع ألقاب الثناء والتعظيم، والتقديس والتبجيل، شعراً ونثراً، وسرًّا وجهراً، فإنه لا يطيق بعدها أن يسمع صوت ناصح مخلص يقول له: اتق الله، قد أخطأت. . وكيف يخطىء وهو الزعيم المبجل، والقائد الأوحد الذي لا يُسأل عما يفعل وغيره يُسأل. فليس شيء ينغّص عليه عيشه من أن يقف في وجهه من يذكّره بالله، ويكشف له زيف ما هو فيه، وزيف من حوله من المنافقين والمنتفعين.

فإن كان هؤلاء المجرمون تحت هيمنة الحق وحكمه، ودُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، لجؤوا إلى:

الأسلوب الخامس عشر: الإعراض عن حكم الله ورسوله إلى حكم الطاغوت، إلا أن يكون الحق لهم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين وآخر من اليهود، كانت بينهما خصومة فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودي إلى حاكمهم لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في

= النووي: ج ٢ ص ٣٧.

أحكامهم، فلما اختلفا اجتمعا على أن يُحكّما كاهناً في جهينة، فأنزل الله ـ تعالى ـ في ذلك: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك﴾ يعني المنافق، ﴿وما أُنزل من قبلك﴾ يعني اليهودي، ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. .﴾ إلى قوله: ﴿ويسلموا تسليماً﴾(١) .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً أخرى في سبب نزول هذه الآيات كلها تدور حول هذا المعنى.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق بعض هذه الأقوال: «والآية أعمّ من ذلك كله، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا»(٢) .

فإن كان الحق لهم رضوا بحكم الله ورسوله، وأتوا إليه خاضعين مذعنين كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: ٤٩] نزلت هذه الآيات في طائفة من المنافقين كانوا يظهرون الإيمان والطاعة، ويبطنون خلاف ذلك من الكفر وبغض الله ورسوله، بدليل أنهم إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أعرضوا ولم يرضوا به إلا أن يكون الحق لهم، فإنهم يأتون منقادين سامعين مطيعين.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدُعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يَظْلم فدُعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: انطلق إلى فلان. .»(٣) .

وهذا الأسلوب من أخبث أساليب المجرمين في التولي والإعراض. . ولو كانت مقاليد الأمور بأيديهم، لكان أول ما يسعون إليه إقصاء شريعة الله

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: ص ٩٢. وانظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ١٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥١٩ (بتصرف يسير).
(٣) انظر: المرجع السابق: ج ٣ ص ٢٩٨. والسيوطي، لباب النقول: ص ١٧٥.

ـ عز وجل ـ وحكمه، ليُحلوا مكانه حكم الطاغوت، وشريعة البشر التي تتماشى مع شهواتهم ونزواتهم، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠].

فإذا كان للحق من يحوطه ويحميه، وعجزوا عن إطفاء نوره، لجؤوا إلى:

الأسلوب السادس عشر: التربص بالرسول والمؤمنين:

قال تعالى حاكياً قول المشركين: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٣٠].

والتربص هو الانتظار.

وتربصت الشيء بفلان: انتظرت نزوله به[1].

وكانت قريش تقول: دعوا محمداً فما هو إلا شاعر نتربص به الموت كما مات شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان[2].

أما المنافقون فإنهم وإن كانوا لا يصرحون بذلك ولا يجاهرون به، إلا أن القرآن الكريم قد فضحهم، وأظهر ما تنطوي عليه دخائل نفوسهم من عداء للحق، وتمن لزواله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ.. ﴾ [النساء: ١٤١].

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿.. هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: ٥٢]. والحسنيان: «النصر والشهادة»[3].

---

(١) الشنقيطي، الترجمان والدليل: ج ١ ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٤٩٤.

(٣) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢١٧.

بل أمره أن يقول للمجرمين جميعاً على اختلاف أصنافهم: ﴿.. كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ..﴾ [طه: ١٣٥]، و﴿.. تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣١].

وقد تربص الجميع فكانت العاقبة للرسل ـ عليهم السلام ـ.

ومن أساليبهم في الإعراض:

الأسلوب السادس عشر: الإعراض عن كتاب الله والاعتياض عنه بكتب السحر والضلال ونحوها:

قال تعالى ذامًّا طائفة من أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ..﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢]، فأعرضوا عن كتاب الله ـ عز وجل ـ ونبذوه وراءهم ظهريًّا، متجاهلين ما فيه من الحق المبين، والهدى المستبين، واتبعوا ما تلقيه إليهم شياطينهم من الكفر والضلالات، مدعين أن ذلك من الكرامات والفتوحات. وكيف يكرم الله ـ عز وجل ـ من باع دينه واشترى به ثمناً قليلًا؟! ولهذا قال تعالى: ﴿.. وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ..﴾ أي: من نصيب، ثم قال تعالى: ﴿.. وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢][1].

ومن ذلك: الاعتياض بأحاديث ملوك الفرس ورستم وغيرها من أمم الكفر، وكان مشركو العرب قبل بعثة النبي ﷺ ينظرون إلى هذه الأمم نظرة إعجاب وتقدير لما بلغوه من التقدم والحضارة المادية، وكان النضر بن الحارث ـ وهو من أكابر مجرمي قريش، وأشدهم عداوة لرسول الله ﷺ ـ قد «قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٥١١. ومحمد بن عبدالوهاب، مسائل الجاهلية: ص ٢٩، ٣٠.

واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمّ إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه.. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟!»[1].

فكل من أعرض عن كتاب الله، واعتاض عنه بشيء من كتب أهل الضلال والكفر أو أخبارهم وسيرهم فهو داخل في ذلك.

هذا ما ظهر لي من أساليب المجرمين في التولي والإعراض في كتاب الله ـ عز وجل ـ والله تعالى أعلم.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٠٠.

المبحث الثالث
تبرير المواقف واختلاق الحجج[1]

المجرمون في تصديهم لدعوة الرسل - عليهم السلام - كثيراً ما يلجؤون إلى تبرير مواقفهم، واختلاق الحجج الواهية للصد عن سبيل الله، وإقناع غيرهم للسير في ركابهم، والوقوف في صفهم في مواجهة الرسل - عليهم السلام - ولهم في ذلك أساليب متنوعة، وقد تتبعتها في كتاب الله - حسب وسعي - فبلغت خمسة عشر أسلوباً، وهي بإجمال:

١ - الاحتجاج باتباع دين الآباء والأجداد.
٢ - الاحتجاج بالقرون الأولى.
٣ - الاحتجاج بالملل السابقة.
٤ - الاحتجاج بالشرائع الماضية.
٥ - الاحتجاج بعدم وضوح الحجة.
٦ - الاحتجاج بعدم الفهم.
٧ - الاحتجاج على الحق برذالة أتباعه.
٨ - الاحتجاج على الحق بقلة أهله.
٩ - الاحتجاج على بطلان الحق بكونه غريباً.
١٠ - الاحتجاج بعدم إنزال القرآن جملة.
١١ - قولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم.

---

(١) التبرير هو التسويغ. وبعض أهل اللغة يخطئون من استخدم هذا اللفظ (برّر)، ويقولون إن الصواب: سوغ. لكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أقر جواز ذلك. (انظر: محمد العدناني، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة (ط ١؛ بيروت: مكتبة لبنان: ١٩٨٤م) ص ٥٢، ٥٣.

١٢ ـ قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه.
١٣ ـ الاحتجاج على ترك الهدى بالقوى الخارجية.
١٤ ـ قولهم (درست).

التفصيل:

الأسلوب الأول: الاحتجاج باتباع دين الآباء والأجداد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ . .﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر: ﴿. . قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ . .﴾ [المائدة: ١٠٤]. وهذا أبلغ من قولهم الأول؛ فإن قولهم (حسبنا) يفيد انتهاءهم إلى عقيدة آبائهم، واستقرارهم عليها، وعدم الرجوع عنها، وكأن الرسل ـ عليهم السلام ـ لما أعادوا عليهم الأمر باتباع ما أنزل الله، أرادوا هم تأكيد ما هم عليه من التمسك بدين الآباء، وانتهائهم إليه، بخلاف قولهم الأول فإنه لا يمنع من رجوعهم عن اتباع آبائهم[1].

ومن ذلك قولهم احتجاجاً على أنبيائهم: ﴿. . وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦].

وهي حجة واهية يرددها المجرمون كثيراً، وهم إنما يريدون الهروب من اتباع دين الحق، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿. . أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: أولو كان آباؤهم من أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً وبعداً عن الحق، أفيسوغ اتِّباعهم وهم على هذه الحال؟[2].

لا شك أن ذلك غير سائغ عند من له أدنى مسكة من عقل، ولذا شبههم الله ـ عز وجل ـ بالبهائم التي لا تعقل ولا تسمع سوى مجرد صوت الراعي حين يصيح بها وهي لا تعي ما يقول: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا

---

(١) انظر: الكرماني، أسرار التكرار في القرآن: ص ٣٨.
(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ٢٠٢.

يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، وهذه منتهى الزراية بمن يعطل عقله، ويلغي تفكيره، ويسير كالأعمى خلف غيره متجاهلاً الحق الذي لا مرية فيه.

والمقصود أن دين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أحق بالاتباع والاقتفاء من دين الآباء، لا سيما إذا كان الآباء في ضلال مبين وبعد عن الحق. فالحق أحق أن يتبع.

الأسلوب الثاني: الاحتجاج بالقرون الأولى:

قال تعالى حاكياً قول فرعون محتجًّا على موسى ـ عليه السلام ـ لما قال له: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه: ٥١] أي: إن كان الأمر كذلك، فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول، ولم تصدق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، بل عَبَدَتْ غيره من الأوثان والأصنام والآلهة؟! فأجابه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿.. عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ أي إن هؤلاء الماضين الذين لم يعبدوه ويوحدوه، عملهم مسجل عليهم في كتاب ـ وهو اللوح المحفوظ أو كتاب الأعمال ـ وسيجزيهم الله بعملهم هذا، لا يشذ عنه ـ سبحانه ـ شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير[1].

واحتجاج فرعون بالقرون الأولى مغالطة واضحة، وجهل فاضح أو تجاهل للحقيقة، فإن القرون الأولى من آدم إلى نوح ـ عليهما السلام ـ كانت على التوحيد الخالص، وإنما حدث الشرك في القرون المتأخرة، بعد القرون العشرة الأولى كما وردت بذلك الأخبار[2]، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ أعرض عن مجادلة هذا المجرم فيما ذكره، وأحال علم تلك القرون إلى

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ٤٢٣. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ١٥٥.

(٢) انظر: ص ٨٥ من هذا الكتاب.

خالقها ـ عز وجل ـ ليفوِّت عليه الفرصة في تشتيت الحوار، وتغيير مساره، ليتحول إلى جدل عقيم لا يخدم جانب الدعوة بقدر ما يفتح ثغرات تعيق موسى ـ عليه السلام ـ عن مقصوده الأساس، وإنما أراد موسى ـ عليه السلام ـ تقرير ربوبية الله ـ عز وجل ـ وأنه وحده المستحق للعبادة دون ما سواه، ولذا استرسل ـ عليه السلام ـ في ذكر شواهد من الواقع المحسوس لا سبيل إلى إنكارها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

ويشبه قول فرعون، ما قاله قوم نوح لنبيهم نوح ـ عليه السلام ـ منكرين دعوته، قالوا: ﴿.. مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون: ٢٤]، بل إن هذا القول نفسه قاله قوم فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ لما جاءهم بالبينات، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾ [القصص: ٣٦] تشابهت قلوبهم.

أما المجرمون من كفار قريش، فإنهم لجؤوا إلى أسلوب آخر قريب من هذا، وهو:

الأسلوب الثالث: الاحتجاج بالملل السابقة:

قال تعالى حاكياً قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧]، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد والبراءة من جميع الآلهة سوى الله، في الملة النصرانية؛ ملة عيسى، إذ هي الملة الآخرة[1]، وهم يشيرون بذلك إلى عقيدة التثليث التي اخترعتها

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٥٢. وغيره، وقد ذكر عامة المفسرين قولاً آخر في الآية، وهو أن المراد بالملة الآخرة: ملة العرب ونحلتهم التي كانوا عليها وهو ما كان عليه آباؤهم. والآية محتملة للقولين. قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر القول الأول=

العقلية اليهودية الماكرة لإفساد الديانة المسيحية النقية التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ والتي هي دعوة الرسل جميعاً[١] .

وهذه مغالطة أخرى من مغالطات المشركين لتبرير موقفهم المعادي لدعوة الحق، وقد كان فيهم من اعتنق النصرانية الحقة، وآمن بمحمد ﷺ قبل ظهور دعوته، كورقة بن نوفل[٢] وغيره.

ثم إن عقيدة التثليث التي يستشهد بها المشركون على بطلان التوحيد، عقيدة غامضة لا يمكن تصورها، ولهذا قال بعض العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، ولهذا قال بعض العلماء: لو اجتمع عشرة نصارى، لتفرقوا عن أحد عشر قولاً. وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم، لقال الرجل قولاً، وامرأته قولاً آخر، وابنه قولاً ثالثاً[٣] .

= وهو أن المراد: ملة النصارى، قال: «وذلك متجه؛ لأنها ملة شهر فيها التثليث، وأن الإله ليس بواحد» (المحرر الوجيز: ج ١٢ ص ٤٢٤).

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، في أجوبة اليهود والنصارى: ص ٣١٦، ٣١٧. ومحمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (ط ٤؛ الرياض: طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: ١٤٠٤هـ): ص ٨٥. وإبراهيم الجبهان، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير (الرياض: طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: ١٤٠٤هـ): ص ١٢، ٤٢، ٥٨. وناصر القفاري وناصر العقل، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة (ط ١؛ الرياض: دار الصميعي: ١٤١٣هـ): ص ٦٦.

(٢) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى، ابن عم خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وكان امرؤاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني؛ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاءالله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. (انظر: صحيح البخاري: ج ١ ص ٥. وابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ١٥٧).

(٣) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ط ١؛ جدة: مكتبة البلد الأمين: ١٤١٤هـ): ج ٢ ص ١٦٥.

ومن طريف ما يُروى أن «ثلاثة من الوثنيين تنصروا على يد قسيس، ومكثوا سنة كاملة يترددون عليه ليتعلموا منه عقيدة التثليث. وقد حدث أن زار هذا القسيس أحد أصدقائه فرأى التلامذة عنده، فأحب أن يختبرهم ليعرف مدى ما وصلوا إليه من المعرفة، فسأل أحدهم عن عقيدة التثليث، فأجاب بأن الآلهة ثلاثة؛ واحد في السماء، والثاني في الأرض، والثالث وسيط بينهما، وهو على شكل حمامة! فنهره وطرده. ثم التفت إلى الثاني وسأله: فأجاب بأن الآلهة ثلاثة وقد مات منهم واحد وبقي اثنان! فنهره وطرده. ثم التفت إلى الثالث وقال له: وأنت ماذا تقول؟ وكان أذكى من صاحبيه، فقال: الآلهة واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، مات ثلثه وبقي الثلثان! فالتفت القس يبحث عن شيء يضربه به، فما كان منه إلا أن أطلق ساقيه للريح وهرب»[1].

والمقصود أن استدلال المشركين على بطلان عقيدة التوحيد النقية، بالملة النصرانية المحرفة أمر في غاية العجب، بل في غاية الضلال والسفه.

أما أهل الكتاب فقد لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الرابع: الاحتجاج بالشرائع الماضية:

ومن ذلك قول اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ ..﴾ [آل عمران: ١٨٣].

ذكر الواحدي ـ رحمه الله ـ أن هذه الآية نزلت في جماعة من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنك تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، وإن الله قد عهد إلينا في التوراة إلا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله

(١) إبراهيم الجبهان، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير: ص ٧٦. (بتصرف يسير).

حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية[١] .

والقُرْبان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من ذبح وغيره[٢] . . وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا «إذا قرّبوا قرباناً أو غنموا غنيمة، جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دوي فتأكله، وتحرق ذلك القربان، وتلك الغنيمة، فيكون ذلك علامة القبول. وإذا لم يقبل بقيت على حالها»[٣] . وقد نُسخ ذلك بالشريعة المحمدية، وأحل الله لنبيه محمد ﷺ الغنائم، فكان ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام كما ثبت في الصحيحين من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحد قبلي . .**» ذكر منهن: «**وأُحلت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي**»[٤] ، وكذلك سائر الشرائع الماضية قد نُسخت بالشريعة المحمدية، فلا حجة لليهود فيما ذكروه وافتروه على الله ـ عز وجل ـ وعلى رسله، بل إن الله أمرهم بخلاف ما ذكروه وافتروه.

ذكر البغوي ـ رحمه الله عن السدي ـ رحمه الله ـ أنه قال: إن الله ـ تعالى ـ أمر بني إسرائيل: مَنْ جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما، فإنهما يأتيان بغير قربان[٥] .

ولو صح ما ذكروه ـ على سبيل الافتراض ـ فإنهم أول من كفر به

---

(١) أسباب النزول: ص ٧٧.

(٢) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٦٠. وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ١٠٥. والشنقيطي، الترجمان والدليل: ج ٢ ص ٦٠٦.

(٣) البغوي، معالم التنزيل: ج ٢ ص ١٤٤، ١٤٥ (باختصار).

(٤) أخرجه البخاري في أول كتاب التيمم: ج ١ ص ١٢٨ برقم ٣٢٨. ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة: ج ٢ ص ٦٣ برقم ٣.

(٥) معالم التنزيل: ج ٢ ص ١٤٥.

وتنكبه وأعرض عنه، ولهذا قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿.. قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣] وأي جريمة أعظم من قتل النبيين، وإزهاق أرواح المرسلين ـ عليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ؟ فتبين بذلك كذب ادعائهم وتناقضهم، وجرأتهم على الله ـ عز وجل ـ بافتراء الكذب عليه، وليس هذا بغريب على قتله الأنبياء، ولهذا أعرض النبي ﷺ عن جدالهم فيما ذكروه، ودمغهم بحجة لا تحتمل جدلاً، وهذه هي طريقة الرسل ـ عليهم السلام ـ في الرد على المعاندين الجاحدين، وإلزامهم بالحجة القاطعة.

ومن أساليب المجرمين التبريرية:

الأسلوب الخامس: الاحتجاج بعدم وضوح الحجة:

قال تعالى حكاية عن قوم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ..﴾ [هود: ٥٣] أي: بحجة واضحة تلجئنا إلى الإيمان بك، والتصديق بما جئت به[١]، وقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات، وأُجري على يديه من المعجزات الباهرات ما يقطع بصدقه، ولا يدع مجالاً للشك والتكذيب بما جاء به، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[٢].

والوحي الذي أوتيه نبينا محمد ﷺ هو القرآن العظيم[٣]؛ المعجزة

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٢٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل: ج ٤ ص ١٩٠٥ برقم ٤٩٦٩. ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس: ج ١ ص ٩٢.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ٩ ص ٦.

الخالدة إلى قيام الساعة، إلى قوم عُرفوا بالفصاحة والبلاغة، وقد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة، فعجزوا، ومع ذلك قالوا: ﴿ .. لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ .. ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الأسلوب السادس: الاحتجاج بعدم الفهم[1] :

قال تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ .. ﴾ [هود: ٩١]. أي ما نفهم كثيراً من قولك[2] ، وليسوا صادقين في قولهم هذا؛ فما كان شعيب ـ عليه السلام ـ وهو المرسل من ربه ـ أن يأتيهم بما يعجزون عن فهمه، وهو يخاطبهم بلسانهم ولغتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ﴾ [إبراهيم: ٤]، كيف، وقد عُرف شعيب ـ عليه السلام ـ بالفصاحة والبلاغة حتى لقب بخطيب الأنبياء[3] .

ولكن المجرمين لما بهرهم نور الحق الساطع، لجؤوا إلى هذه الحيلة السخيفة لإسكاته، وتبرير ما هم عليه من الكفر.

الأسلوب السابع: الاحتجاج على الحق برذالة أتباعه:

قال تعالى حاكياً قول قوم نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ .. وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ .. ﴾ [هود: ٢٧].

وفي موضع آخر صرحوا بذلك قائلين ـ بلهجة استنكارية ـ: ﴿ .. أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١١١] أي: كيف نتبعك ونحن

(١) انظر: مسائل الجاهلية: ص ٢٦.
(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٣١.
(٣) المصدر السابق: ج ٢ ص ٤٥٧.

لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وضعفاءهم وسقطهم، ممن لا خلاق له ولا رأي[١].

وقولهم (بادي الرأي): أي فيما يبدو لنا من ظاهر حالهم[٢]، وهي حجة متهافتة تكشف عما تنطوي عليه أنفسهم من الكبر والغرور، والتعلق بالدنيا وبهرجها، وإلا فما ذنب الرسل ـ عليهم السلام ـ أن كان الفقراء والضعفاء هم أول المسارعين إلى اتّباعهم والإيمان بهم، أفيليق برسول مرسل من عند الله ـ عز وجل ـ أن يمنع الناس من اتباعه والدخول في دينه إرضاء لأكابر القوم وعليتهم وانتظاراً لهم حتى يؤمنوا؟! إنه إن فعل ذلك ليكونن من الظالمين بله أن يكون من المرسلين، ولهذا قال تعالى موجهاً رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]. فمن كان صادقاً في طلب الحق، لم يمنعه من اتباعه شيء، ولو خسر ماله وجاهه، بل ولو خسر نفسه التي بين جنبيه.

ثم إن الأرذلين حقًّا هم المكذبون بالرسل، الذين فضلوا عبادة الشيطان والأوثان على عبادة الواحد الديان، فهم قد فروا من رق العبودية لله الذي هو أشرف المقامات وأعلاها، فوقعوا في رق العبودية للنفس والشيطان، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

هربوا من الرق الذي خُلِقوا له　　　فبُلوا برقّ النفس والشيطان[٣]

---

(١) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٥ ص ٥٣٠، ٥٣١.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٢٨. وقرأ أبو عمرو بالهمز ﴿بادىء الرأي﴾. والمعنى: أنهم اتبعوك بادىء الأمر من غير تفكير ولا رويّة، ولو فكروا لم يخالفونا في تكذيبك. (انظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢٤٧، ٢٤٨. وعبدالفتاح القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ط ١؛ بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤٠١هـ) ص ١٥٣).

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ط ١؛ الرياض: دار ابن خزيمة: =

والإنسان لا يخلو: إما أن يكون عبداً لله أو لغيره، ولهذا كان المؤمنون بالله ورسله هم الأعلون قدراً وجاهاً عند الله تعالى، وإن كانوا في الدنيا سفلة في أعين المكذبين من أصحاب الجاه والأموال، كما في الحديث الشريف: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[(١)] .

هذا، ومن أساليب المجرمين في التبرير:

الأسلوب الثامن: الاحتجاج على الحق بقلة أهله:

كما قال فرعون عن موسى ومن معه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٤]. فأبطل الله ذلك بمثل قوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

«فالكثرة على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب، فالحق أحق بالاتباع وإن قل أنصاره، كما قال تعالى: ﴿ . . وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ . . ﴾ [ص: ٢٤]، فأخبر الله عن أهل الحق أنهم قليلون، غير أن القلة لا تضرهم . . »[(٢)] .

ومن تأمل أحوال كثير من الرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم، تبين له ذلك جليًّا. ففي الصحيحين من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن

= ١٤١٦هـ): ص ٣٤٨.

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره . . : ج ٨ ص ١١ برقم ٣٤.

(٢) الألوسي، مسائل الجاهلية: ص ١١.

النبي ﷺ قال: «**عُرضت علي الأمم، فأجد النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده...**»(١)، فهذا نبي مرسل من عند الله تعالى، مؤيد بآيات بينات تدل على صدقه، ومع ذلك يأتي يوم القيامة وحده، ما آمن به أحد من الناس، ولو قام دجال من الدجاجلة لربما تبعه فئام من الناس. فالحق لا يُعرف بالكثرة والرجال، وإنما الرجال يُعرفون بالحق.

الأسلوب التاسع: الاحتجاج على بطلان الحق بكونه غريباً:

ومن ذلك قول مجرمي قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. أي: إنه أمر في غاية العجب، مخالف لما اعتدناه وألفناه(٢).

ولما كانت النفوس بطبعها مجبولة على التعلق بما اعتادته وألفته ولو كان باطلًا؛ فقد وجدت كلمات المجرمين صدى واسعاً في نفوس الأتباع، وصفقوا لها كعادتهم، وإلا فأي غرابة في أن يكون الإله واحداً، بل إن الغريب حقًّا، والذي تأباه الفطر السليمة والعقول المستقيمة، أن تتعدد الآلهة، ويكون لكل قوم إله لا يخلق شيئاً وهو يخلق. وأعجب من ذلك وأغرب أن تكون هذه الآلهة أصناماً من حجارة صماء أو أشجار جوفاء لا تسمع ولا تعقل شيئاً، ولا تملك لنفسها ـ فضلًا عن غيرها ـ ضرًّا ولا نفعاً، فيا لله العجب، كيف استساغت عقول المشركين هذا الأمر المخزي، وكيف رضيت به بين العالمين!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب: ج ٥ ص ٢٣٩٦ برقم ٦١٧٥. ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب: ج ١ ص ١٣٨ برقم ٣٧٥.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٦ ص ٣٥٩. والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٤٨٣.

الأسلوب العاشر: الاحتجاج بعدم إنزال القرآن جملة:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢].

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله تعالى لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل. .»[1] .

وهي حجة واهية لا طائل تحتها، وسواء نزل القرآن جملة واحدة أو مفرقاً، فإن ذلك لا يخل بإعجازه، بل إن الإعجاز في نزوله مفرقاً أظهر ليُطالبوا بسورة مثله، ولو نزل جملة واحدة ثم طُولبوا بالإتيان بمثله جملة لكانوا أعجز منهم حين طولبوا بمعارضة سورة واحدة منه فعجزوا[2] ، وقد تولى الله ـ عز وجل ـ الرد على هذه الشبهة، فقال ـ سبحانه ـ في تمام الآية: ﴿ . . كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ . . ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: «لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة، كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه

---

(١) المحرر الوجيز: ج ١١ ص ٣٦، ٣٧. وقد أنكر بعض العلماء نزول الكتب السابقة جملة واحدة، وقالوا: إنها نزلت مفرقة كالقرآن، ولا دليل على أنها نزلت جملة. وقد أجاب السيوطي ـ رحمه الله ـ عن ذلك بأدلة، منها: أن الكتب السابقة لو كانت كلها نزلت مفرقة كالقرآن لكان يكفي في الرد عليهم أن يقول: إن ذلك سنة الله في الكتب التي أنزلها على الرسل السابقين، كما أجاب بمثل ذلك على قولهم: ﴿. . ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. .﴾ [الفرقان: ٧] فقال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. .﴾ [الفرقان: ٢٠]. ثم ذكر ـ رحمه الله ـ أن القول بأن سائر الكتب أُنزلت جملة مشهور في كلام العلماء على ألسنتهم حتى كاد يكون إجماعاً. (الإتقان: ج ١ ص ٥٦).

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٦ ص ٤٥٥. والبقاعي، نظم الدرر: ج ٥ ص ٣١٥.

من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة.. وقيل: (لنثبت به فؤادك) أي: لتحفظه، فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ففُرِّق عليه ليثبت عنده حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً قارئاً، فيمكنه حفظ الجميع..»[1].

وفي إنزال القرآن الكريم مفرَّقاً فوائد أخرى كثيرة، منها:

١ ـ التمكن من تفهم معانيه، وتدبر آياته؛ فإنه لو نزل جملة واحدة لكان في تفهمه جملة نوع مشقة.

٢ ـ تخفيف الأحكام؛ فإنها لو نزلت جملة واحدة، ثم طولبوا بالعمل بها، لكان في ذلك من المشقة والعنت ما لا يخفى.

٣ ـ تسهيل الحفظ لاسيما والأمة أميَّة لا تقرأ ولا تكتب.

٤ ـ إمكان النسخ مراعاة لمصالح الأمة، ومستجدات الأحوال.

٥ ـ تلقين الجواب في وقته، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُسأل عن أشياء من علم الله تعالى، فينزل عليه الوحي بالجواب.

٦ ـ التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة، علماً وعملًا.

٧ ـ مسايرة الحوادث والمستجدات في تجددها وتفرقها، من معالجة قضية، أو إجابة سؤال، أو تصحيح خطأ في حينه ونحو ذلك.

٨ ـ إظهار كمال الإعجاز في القرآن الكريم، فهو مع تنزله مفرقاً، جاء في غاية الإحكام والترابط، والانسجام والتوافق، لا يخالف بعضه بعضاً، ولا يناقضه، ففي ذلك أعظم شاهد على كمال إعجاز القرآن الكريم وعظمته، وأنه من لدن حكيم عليم[2].

---

(١) السيوطي، الإتقان: ج ١ ص ٥٥، ٥٦ (باختصار).

(٢) انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن (ط ٣؛ المدينة النبوية: المكتبة العلمية: ١٤٠١هـ): ٢٣٢، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٥ ص ٣١٥. ومحمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن (ط ٣؛ بيروت: دار الفكر): ج ١ ص ٥٣ ـ ٦٢.

هذه بعض الحكم والفوائد في إنزال القرآن منجَّماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، فسبحان الحكيم العليم.

الأسلوب الحادي عشر: قولهم: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١].

أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بعث الله محمداً رسولاً، أنكرت العرب ذلك ـ ومن أنكر منهم ـ فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ . . ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ . . ﴾ [النحل: ٤٣]. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذاكان بشراً، فغير محمد كان أحق بالرسالة فـ ﴿ . . لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. يقولون: أشرف من محمد ﷺ. يعنون: الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان يسمى: ريحانة قريش ـ هذا من مكة، ومسعود بن عمرو بن عبيدالله الثقفي من أهل الطائف، فأنزل الله ردًّا عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ . . ﴾ أنا أفعل ما شئت(١).

وقريب من قول مجرمي قريش؛ ما قاله قوم صالح لما جاءهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ بالبينات، قالوا: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا . . ﴾ [القمر: ٢٥] أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر، وفينا من هو

---

(١) جامع البيان: ج ١١ ص ١٨٢ (باختصار). وانظر: السيوطي، لباب النقول: ص١٣٨. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٧ ص ٢٣٥. ومحمد بن عبدالوهاب، مسائل الجاهلية: ص ١٣٥.

أحق منه بالاختيار للنبوة، وأولى بذلك سنًّا وشرفاً ونبلًا[١].

وفي قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى الذين قالوا لنبيهم: ﴿.. ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ..﴾ [البقرة: ٢٤٦]، أنهم لما قال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، أنكروا ذلك، وقالوا: ﴿.. أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ..﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: «أنى يكون لطالوت الملك علينا وهو من سبط بنيامين بن يعقوب، وسبط بنيامين بن يعقوب لا ملك فيهم ولا نبوة، ونحن أحق بالملك منه لأنا من سبط يهوذا بن يعقوب..»[٢]، فأوحى الله إلى نبيه أن قل لهم: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ..﴾ فإن الله يصطفي من عباده من شاء ـ سبحانه ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

والمقصود أن المجرمين كثيراً ما يحتجون بهذه الحجة الباطلة.

الأسلوب الثاني عشر: قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ ..﴾ [الأحقاف: ١١].

قائل ذلك هم المشركون وكفرة أهل الكتاب، قالوا للذين آمنوا: لو كان ما جاء به محمد حقًّا وصدقاً ما سبقتمونا إلى التصديق به، وما سبقنا إليه أمثال صهيب وبلال وعمار، فنحن أعز، ونحن ونحن...[٣]، فأظهروا ما في قلوبهم من التعالي والغرور، وكأن الحق لا يكون حقًّا حتى يكونوا هم السابقين إليه، فأي حجة لهم في قولهم هذا سوى تبرير ما هم عليه من الكفر والضلال.

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ج ٤ ص ٤٦. والبقاعي، نظم الدرر: ج ٧ ص ٣٥٨.
(٢) جامع البيان: ج ٢ ص ٢٤٧.
(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٢٨١.

ومن ذلك قول المشركين أيضاً: ﴿.. أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ ..﴾ [الأنعام: ٥٣] يعنون المؤمنين[١]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿.. أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾، أي: «أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم..؟»[٢]، بلى، فالله ـ عز وجل ـ أعلم بمن كان من خلقه شاكراً لنعمه محافظاً عليها، ومن هو جاحد لها ومبدلها كفراً، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وإن أجلّ تلك النعم وأعظمها: نعمة إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونعمة السمع والبصر والعقل، لكن المجرمين جحدوا نِعَم الله ـ عز وجل ـ وكذبوا رسله، وتخلّفوا عن ركب الإيمان. فلما سبقهم المؤمنون ـ أولو القلوب الطاهرة، والعقول النزيهة ـ إلى الإيمان بالله ورسله، قالوا: لو كان خيراً ما سبقونا إليه. فيا لله العجب!

الأسلوب الثالث عشر: الاحتجاج على ترك الهدى بالقوى الخارجية:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ..﴾ [القصص: ٥٧].

القائل هم مشركو قريش، فقد كانوا يقولون: «إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكنا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة..»[٣].

وقولهم هذا دليل على سوء ظنهم بالله ـ عز وجل ـ وأنه لا يُعلي كلمته، ولا ينصر دينه وأولياءه، بل يسلمهم لأعدائهم فيسومونهم سوء

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٥ ص ٢٠٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٣٥.

(٣) البغوي، معالم التنزيل: ج ٦ ص ٢١٥. وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١١ ص ٣١٥.

العذاب. . فقطع الله حجتهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. فالذي مكن لهم هذا الحرم الآمن مع كثرة من يغشاه من الحجاج والزائرين من سائر فجاج الأرض وأقطارها، ومع إقامتهم هم على الشرك بالله وعبادة غيره سبحانه، أوليس بقادر على أن يمكنهم ويؤمنهم وقد آمنوا به وبرسوله ﷺ، واتبعوا دينه وشرعه، وتسلحوا بأقوى سلاح، وتحصنوا بأمنع حصن؟! ولكنهم كما قال تعالى: ﴿. . أكثرهم لا يعلمون﴾، ولو كانوا يعلمون لما رضوا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ بديلًا، ولو تخطفهم الأعداء من كل جانب.

ويشبه قول المشركين، ما قاله المنافقون احتجاجاً منهم على تولي اليهود، فإنهم قالوا: ﴿. . نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ . .﴾ [المائدة: ٥٢]. وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاءالله تعالى في مبحث الأساليب الخاصة بالمنافقين.

الأسلوب الرابع عشر: قولهم: درست:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ . .﴾ [الأنعام: ١٠٥].

قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «قال ابن عباس: (وليقولوا): يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن. (درست) أي تعلمت من يسار وجبر، ـ وكانا عبدين من سبي الروم ـ ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله. .»[1].

وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلًا إن شاءالله تعالى في المبحث الخامس من هذا الباب.

هذا ما ظهر لي من أساليب المجرمين في التبرير واختلاق الحجج في القرآن الكريم، والله تعالى أعلم.

---

(١) معالم التنزيل: ج ٣ ص ١٧٥.

المبحث الرابع
أساليب في التعنت والعناد والمشاقة[١]

قال تعالى: ﴿ . . وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ . . ﴾ [آل عمران: ١١٨] أي: «ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك . . »[٢] .

وقال تعالى ذاكراً سبباً من أسباب هلاك قوم عاد: ﴿ . . وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [هود: ٥٩].

وقال تعالى في وصف المجرم المكذب: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر: ١٦] أي: «معانداً للحق، مجانباً له»[٣] .

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ . . ﴾ [الأنفال: ١٣].

فالمجرمون لا يترددون في فعل كل ما من شأنه إدخال العنت على الرسول ـ عليه السلام ـ والمؤمنين.

---

(١) التعنت أصله التشديد، يقال أعنته وتعنته تعنتاً: سأله عن شيء أراد به اللبس عليه والمشقة، فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلاناً ويُعْنِته، فمرادهم: يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه. (انظر: لسان العرب: ج ٤ ص ٣١٢١، مادة «عنت»).
والعناد والمعاندة: أن يَعْرِفَ الرجل الشيء فيأباه، ويميل عنه، وعاند معاندة، أي خالف ورد الحق وهو يعرفه. قال الراغب: المعاندة والمعانتة يتقاربان، لكن المعاندة هي الممانعة. والمعانتة أن تتحرى مع الممانعة المشقة. (انظر: لسان العرب: ج ٤ ص ٣١٢٤، مادة «عند»، والبحر المحيط: ج ٣ ص ٤٢).
وأما المشاقة والشقاق فهي: غلبة العداوة والخلاف، شاقه مشاقة وشقاقاً: خالفه. وحقيقتها: أن يكون الإنسان في شق ومخالفه في شق. (انظر: لسان العرب: ج ٤ ص ٢٣٠١، مادة «شقق»، والمحرر الوجيز: ج ١٤ ص ٣٦٩).

(٢) البغوي: معالم التنزيل: ج ٢ ص ٩٥.

(٣) الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٣٠٧.

أما أساليبهم في ذلك، فهي ـ حسب ما ظهر لي من آيات القرآن الكريم ـ:

١ ـ التعجيز وطلب المستحيل.
٢ ـ إنكار البينات الواضحات.
٣ ـ استعجال العذاب.
٤ ـ الأمر بطرد الضعفاء.
٥ ـ مضاهاة الرسل عليهم السلام.
٦ ـ مضاهاة كلام الله تعالى، وزعمهم القدرة على الإتيان بمثله.
٧ ـ مطالبة الرسول ﷺ بمعجزات من قبله.
٨ ـ التجاهل.
٩ ـ المماطلة والمماحلة.
١٠ ـ استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.
١١ ـ تبديل القول وتغييره.

التفصيل:

الأسلوب الأول: التعجيز، وطلب المستحيل:

وهو أكثر أساليب المجرمين في التعنت والعناد ومشاقة الرسل ـ عليهم السلام ـ.

ومن ذلك قول المشركين: ﴿.. لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ..﴾ [البقرة: ١١٨].

وقولهم: ﴿.. لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ..﴾ [الأنعام: ٨]، وفي موضع آخر: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٧]، وفي موضع ثالث: ﴿.. لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا..﴾ [الفرقان: ٢١].

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل راحوا يثقلون كاهل النبي ﷺ بمطالبهم الكثيرة المعنتة كما حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ

تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ . .﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، فهذه سبعة مطالب تعجيزية جاءت دفعة واحدة ليتعنتوا بها رسولهم ﷺ.

أخرج ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن جماعة من صناديد قريش اجتمعوا عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفـرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك!، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئيًّا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يُسمون التابع من الجن: الرئيّ ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال رسول الله ﷺ: **«ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»** أو كما قال رسول

الله ﷺ، فقالوا يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك، وصدقوك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك بالحق رسولاً كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بهذا بُعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»، قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث مَلَكاً يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**» قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك**»، فقالوا: يا محمد، فما علم ربك أنّا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك، ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله ما نؤمن بالرحمن

أبداً، أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهنّ بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا، فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية.. فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجّل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت ألا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسيفاً لما فاته مما كان يطمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه..»[1].

هذا بعض ما جرى لرسول الله ﷺ مع قومه من مشركي قريش، ويظهر من ذلك شدة تعنتهم وعنادهم، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿.. قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)﴾.

والمشركون ليسوا بدعاً في ذلك، فقد سبقهم إليه مَنْ قبلهم من أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿.. قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ..﴾ [البقرة: ١١٨]، فالذين من قبلهم.هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى[2]، ثم قال تعالى: ﴿.. تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ أي: في التعنت والاقتراح، والاتفاق على الكفر[3]، وإن تناءت بهم الديار، وتباعدت بينهم الأزمان والأقطار، كما قال تعالى عن أهل الكتاب:

---

(١) جامع البيان: ج ٨ ص ١٤٩ ـ ١٥١ باختصار يسير. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٦٢، ٦٣. وابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٩٥، ٢٩٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٦١.

(٣) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ج ١ ص ١٥٦.

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً . . ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقد حذر الله المؤمنين من مشابهة المجرمين من أهل الكتاب، فقال سبحانه: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق أقوال أهل العلم في معنى هذه الآية: «والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ تعنتاً وتكذيباً وعناداً»(١).

فإن جاءهم الرسول ﷺ بآية بينة، وحقق لهم بعض ما طلبوا، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثاني: إنكار البينات الواضحات:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فهم يطلبون من أنبيائهم أن يأتوهم بآيات بينات، فإذا جاؤهم بها أنكروها وكذبوها، وهذا يدل على شدة عنادهم وتعنتهم.

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: انشقاق القمر: ج ٣ ص ١٤٠٤ برقم: ٣٦٥٥. ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: انشقاق القمر: ج ٨ ص ١٣٣ برقم ٤٦.

وفي رواية في غير الصحيحين أنهم لما رأوا ذلك قالوا: هذا سحر، سحركم ابن أبي كبشة[١] فانظروا إلى السفّار فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك[٢] فما زادهم ذلك إلا تمادياً في العناد، وقالوا: هذا سحر مستمر! أي: دائم متمادٍ، يغشى القريب والبعيد[٣].

أما المنافقون فقد ذكر ابن هشام في السيرة أن أحد المنافقين كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار؛ فلما كان من أمر الناس بالحِجْر ما كان [أي قلّ الماء]، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس ـ قالوا له [أي للمنافق]: ويحك، هل بعد هذا شيء؟! قال: سحابة مارّة[٤].

وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ. .﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

ولم يقف تعنت المجرمين عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلى أساليب أخرى أشد وقاحة وقبحاً، فمنها:

الأسلوب الثالث: استعجال العذاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ. .﴾ [الحج: ٤٧].

---

(١) يعنون رسول الله ﷺ. وهذه النسبة: قيل إنها كنية أبيه لأمه، وقيل نسبة إلى رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعَبَد الشعرى العَبور، فلما خالفهم رسول الله ﷺ شبهوه به. (انظر: النهاية: ج ٤ ص ١٤٤).

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ص ٩٦. وانظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ٧ ص ١٨٤. والعمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ١ ص ١٦١، ١٦٢. ومسند الإمام أحمد: ج ٤ ص ١١٦ برقم ١٦٧٢٦.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٥٤٨. وابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٤ ص ١٤١.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٤ ص ٥٢٢.

ومن ذلك قول بعض المشركين: ﴿.. ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقول أهل الكتاب: ﴿.. لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ..﴾ [المجادلة: ٨].

وكلا القولين في غاية العجب؛ فإن النفوس بطبعها تكره العذاب وتنفر منه، كيف وقد توعدهم به وحذرهم منه من لا يرتابون في صدقه وأمانته، ولهذا قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٤]، وقال صالح ـ عليه السلام ـ منكراً على قومه: ﴿.. لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ..﴾ [النمل: ٤٦]، فهل يفعل ذلك إلا من بلغ الغاية في التعنت والعناد والسفه؟!

ثم إنهم ـ لشدة تعنتهم وعنادهم ـ ليتساءلون ـ حين يؤخر عنهم العذاب قليلًا ـ قائلين: ﴿.. ما يحبسه..﴾ [هود: ٨] أي: «أي شيء يمنعه من النزول؟»[١]، ولئن كان الله ـ عز وجل ـ قد أخر عنهم العذاب لحكمة يعلمها سبحانه، فإن ذلك لن يغني عنهم شيئاً عند نزوله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، بل لا يزيدهم ذلك إلا إثماً واستحقاقاً للعذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وإنهم ـ لفرط جهلهم وغرورهم وأمنهم مكر الله عز وجل ـ حين يرون بوادر العذاب ومقدماته قد دنت من ديارهم، ولاحت في أفق سمائهم، وحلقت فوق أجوائهم، ليستبعدون وقوع العذاب، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤] أي: متراكم، بعضه فوق بعض كما جرت بذلك العادة[٢].

---

(١) الشوكاني، فتح القدير: ج ٢ ص ٥٤٨.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٢٤٥. والسعدي، تيسير الكريم=

بل بلغ من فرط غرورهم وأمنهم من مكر الله ـ عز وجل ـ أن يتفاءلوا ببوادر العذاب ومقدماته، كما حكى الله عن قوم هود أنهم لما رأوا سحاباً عارضاً[1] في ناحية من نواحي السماء، قالوا: ﴿ . . هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا . . ﴾، فجاء الجواب حاسماً من الله ـ عز وجل ـ: ﴿ . . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥][2].

وأعجب من ذلك أنهم لما أحسوا نزول العذاب ـ وقد كانوا من قبل يستعجلونه ـ سارعوا إلى الإيمان بما جاءت به الرسل، والتبري من الشرك، ولكن بعد فوات الأوان: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يونس: ٥١]، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [غافر: ٨٤]، ومثل هذا الإيمان لا ينتفع به صاحبه، ولا يغني عنه من عذاب الله من شيء؛ لأنه إيمان ضرورة ومعاينة، لا إيمان اختيار وتسليم، وهو الذي يكون بالغيب لا بالمعاينة والمشاهدة[3]، ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ

= الرحمن: ج ٧ ص ٢٠٠. والكِسْفُ: جمع كِسْفة، كسدر وسدرة، وهي القطعة من العذاب. (انظر السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٦٦).

(١) العرب تسمّي السحاب الذي يُرى في بعض أقطار السماء عشيًّا ثم يصبح من الغد قد استوى وحبا بعضه إلى بعض: عارضاً، وذلك لعرضة في بعض أرجاء السماء حين نشأ، كما قال الأعشى:

يا من يرى عارضاً قد بِتّ أرمقه ... كأنما البرق في حافاته الشُّعَلُ

(انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٢٩٢. وانظر: ابن منظور، لسان العرب: ج ٤ ص ٢٨٨٩، مادة «عرض». وأبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية (بيروت: دار مكتبة الحياة): ص ١٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ١٦٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٥٥٦.

﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٥].

وقد توعد الله المجرمين بالعذاب الأليم في الدنيا قبل الآخرة، وأن لهم حظًّا وافراً منه، كما كان لمن قبلهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾ [الذاريات: ٥٩] أي: «هو نازل بهم لا محالة، في وقته المعلوم، فلا يستعجلوه»[١].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ..﴾ [الرعد: ٦] أي: العقوبات التي حلت بالأمم السابقة[٢].

وقال تعالى بعد ذكر عذاب يوم القيامة: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾ [الطور: ٤٧].

وأوضح من ذلك وأصرح قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ..﴾ [الرعد: ٣٤].

وليس بالضرورة أن يكون هذا العذاب ظاهراً محسوساً، من خسف وتدمير ونحوه، فإن العذاب النفسي المعنوي الذي يلازم الأحياء، قد يكون أشد فتكاً وإيلاماً من العذاب الحسي الذي - في الغالب - ينتهي في وقت قصير، ولذا قد يستعجل بعض المجرمين حتفه، فيقتل نفسه ليريحها من العذاب النفسي الأليم، ومن حياة البؤس والشقاء، بخلاف المؤمنين الصادقين؛ فإنهم وإن عُذبوا في الدنيا وأوذوا في أبدانهم، فإن حلاوة الإيمان ولذته لا تفارق قلوبهم، ولسان حال أحدهم يقول: «إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب»[٣].

ثم على فرض أن بعض المجرمين نجا من عذاب الدنيا؛ فأين هو من عذاب الآخرة الذي يبدأ لحظة خروج روحه من جسده، ولهذا قال تعالى - معبراً بالفعل الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٤ ص ٤٤.
(٢) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٧٥.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ١٠ ص ٦٤٧.

تَسْتَعْجِلُوهُ . .﴾ [النحل: ١]، وأمر الله هو عذابه الذي توعد به المجرمين من أعدائه وأعداء رسله(١)، فإنهم مهما امتدت بهم آجالهم، فإن العذاب واقع بهم لا محالة، ويقال لهم يوم القيامة وهم في النار يفتنون: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

ومن استعجالهم العذاب: استعجال قيام الساعة:

قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا .﴾ [الشورى: ١٨]، وذلك بمثل قولهم للرسل ـ عليهم السلام ـ: ﴿. . مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨](٢)، يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وعناداً(٣)، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿. . لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وفي موضع آخر أمره أن يقول لهم: ﴿. . عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] أي: دنا واقترب(٤).

وفي موضع ثالث أن يقول لهم: ﴿. . إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

وفي موضع رابع أجابهم رب العزة بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

ومن أساليبهم في الاستعجال قولهم: ﴿. . رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ

---

(١) انظر: الطبري: جامع البيان: ج ٧ ص ٥٥٧.

(٢) هذه الآية وردت في القرآن الكريم ست مرات، في ستة مواضع، هذا أحدها، وفي الأنبياء الآية: ٣٨، والنمل: ٧١، وسبأ: ٢٩، ويس: ٤٨، والملك: ٢٥. (انظر: محمد بن عبدالعزيز المسند، تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهة الألفاظ (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١١هـ) ص ٥٤).

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ١١٠.

(٤) انظر: جامع البيان: ج ١٠ ص ١٠.

ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، والقِطّ: واحد القطوط، وهي الكتب بالجوائز والحظوظ[١]، والمعنى أنهم «سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة، قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله ـ عز وجل ـ»[٢] وتعنتاً واستكباراً.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، وسارع الضعفاء إلى الإيمان بالرسول ﷺ، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر في التعنت، وهو:

الأسلوب الرابع: الأمر بطرد الضعفاء:

قال تعالى حاكياً قول الملأ من قوم نوح: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

أخرج ابن جرير بسنده، عن جريج قال: قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء. فقال: ما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقوا ربهم فيسألهم عن أعمالهم[٣].

وقد فعل ذلك طواغيت قريش، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد مَن حوله من فقراء المؤمنين أمثال بلال وصهيب وعمّار وخبّاب، وأن يجعل لهم مجلساً غير مجلسهم، وخطر للنبي ﷺ أن يستجيب لهم، وحدثته نفسه بذلك طمعاً في إسلامهم، ولكن الله ـ جل وعز ـ نهاه عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وأمره بالصبر مع المؤمنين الصادقين: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ

---

(١) السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٦٢. والطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٦٠.

(٢) جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٦٠. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٢٩.

(٣) جامع البيان: ج ٧ ص ٣٠.

ٱلدُّنْيَا . . ﴾ [الكهف: ٢٨].

ثم بين حقيقة أولئك المجرمين، فقال سبحانه: ﴿ . . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨]، فقلوبهم عن ذكر الله غافلة، قد اتبعوا أهواءهم فانفرطت عليهم أمورهم، وإلا فإنهم على علم بأن الرسول ﷺ لن يطرد المؤمنين من حوله وهم الكثرة الكاثرة، إرضاء للقلة المتكبرة المتعجرفة، فهم إنما يطلبون ذلك من رسولهم ليتعنتوه، وليبرروا ما هم عليه من الكفر والضلال.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الخامس: مضاهاة الرسل:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ . . ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: إذا جاءتهم حجة بينة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، قالوا: لن نصدّق بما جئتنا به حتى يعطينا الله من المعجزات مثل الذي أعطى رسله السابقين من فلْق البحر، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. . قال الله تعالى: ﴿ . . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . . ﴾ أي: الله ـ عز وجل ـ أعلم بمن هو أهل للرسالة وجدير بها من خلقه، فيؤيده بالآيات والمعجزات، وليس مَنْ عَدَلَ بربه الأوثان والأصنام، وتنكّب طريق الحق أهل لذلك[1] .

والمجرمون يعلمون ـ في قرارة نفوسهم ـ أنهم ليسوا أهلًا لذلك، وإنما أرادوا التعنت والعناد ومشاقة الرسل ـ عليهم السلام ـ ولذلك توعدهم الله ـ جل وعز ـ بالذلة والصغار والعذاب الشديد: ﴿ . . سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولم يكتفِ المجرمون بذلك، بل إنهم لجؤوا إلى أسلوب آخر أبعد في

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص ٣٣٤، ٣٣٥.

العناد والشرّ، وهو:

الأسلوب السادس: مضاهاة كلام الله، وزعمهم القدرة على الإتيان بمثله:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١].

نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكان قد ذهب إلى بلاد فارس، ثم قدم الحيرة فسمع من سجع أهلها وكلامهم، فلما رجع إلى مكة وسمع ما يتلوه النبي ﷺ من القرآن، قال: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا..، فلما أمكن الله منه يوم بدر، وأسره المقداد بن عمرو رضي الله عنه، أمر النبي ﷺ بقتله صبراً، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله. قال: «**إنه كان يقول في كتاب الله وفي رسوله ما كان يقول**»، فأعاد المقداد قوله مرتين أو ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اغنِ المقداد من فضلك**» فقال المقداد: هذا الذي أردتُ[1] . أي أراد أن يدعو له النبي ﷺ.

وأقبح من ذلك قول من قال: ﴿.. سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ..﴾ [الأنعام: ٩٣]، فهو مع إقراره بأن القرآن منزل من عند الله، يقول ما قال[2] !

وقد تحدى الله المشركين وغيرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة، فلم يستطيعوا، بل لم يجرؤ أحد منهم أن يفعل ذلك، إلا ما كان من مسيلمة الكذاب وأضرابه من المتنبئين الكاذبين، فإنهم قد أتوا بكلام سمج، تمجه الآذان قبل القلوب بله أن يكون مثل كلام رب العالمين.

ومن ذلك قول مسيلمة: يا ضفدع نقّي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين.

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٢٣٠. والسيوطي، لباب النقول: ص ١١٨.

(٢) انظر الواحدي، أسباب النزول: ص ١٢٦.

وقوله: والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً. . .[١] إلى غير ذلك من الكلام السخيف المضحك الذي يأنف من قوله الصبيان البلهاء، فضلًا عن الرجال العقلاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولايزال التحدي قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله ـ عز وجل ـ وكذب الدجاجلة المفترون.

فإذا لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب السابع: مطالبة الرسول بمعجزات من قبله من الرسل:

ومن ذلك قول المشركين لما جاءهم نبينا محمد ﷺ بالحق: ﴿. . فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقولهم: ﴿. . لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ . .﴾ [القصص: ٤٨] أي: هلّا أعطاه الله من الآيات مثل ما أعطى موسى ـ عليه السلام ـ كالعصا واليد والطوفان. . إلخ، يقولون ذلك تعنتاً وعناداً، وإلا فلو جاءهم بها لما ازدادوا إلا كفراً وعناداً كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ . .﴾ [الإسراء: ٥٩]، ولهذا قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿. . أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ . .﴾، وحجتهم في ذلك قولهم: ﴿. . سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا . .﴾ أي تعاونا وتعاضدا[٢]، ويعنون بهما: التوراة والقرآن. ولم يقفوا عند هذا الحد، بل صرحوا بالكفر بهما فقالوا: ﴿. . إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾[٣]، فكيف يطالبون

---

(١) انظر: ابن الأثير، الكامل: ج ٢ ص ٢٤٤. وابن كثير، البداية والنهاية: ج ٦ ص ٣٢٦.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٧٩.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٣٩٢.

الرسول ﷺ بما كفروا به من قبل، وكفر به أشياعهم وأشباههم في الكفر؟! فهل هذا إلا دليل على تعنتهم وعنادهم، ولهذا تحداهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩]، ولما كان ذلك مستحيلًا، قال الله لنبيه ﷺ مبيناً حقيقة حالهم: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

ومن أساليب المجرمين في التعنت:

الأسلوب الثامن: التجاهل:

قال تعالى حكاية عن فرعون لما جاءه موسى ـ عليه السلام ـ بالبينات: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩]، قال ذلك على وجه التجاهل والمكابرة، وإلا فإن كل ما في الوجود يدل على الخالق المبدع سبحانه وتعالى، كما قال الشاعر:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ
ولله في كل تحريكة ... علينا وتسكينة شاهدُ[1]

ولهذا قال موسى ـ عليه السلام ـ كما في سورة الإسراء: ﴿.. لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ..﴾ [الإسراء: ١٠٢]. فتبين أنه ما أراد إلا التعنت والمكابرة.

الأسلوب التاسع: المماطلة والمماحلة:

وقصة بني إسرائيل والبقرة مثال على ذلك، فقد أمرهم الله ـ عز وجل ـ أن يذبحوا بقرة: أي بقرة، فكان يكفيهم أن يستعرضوا بقرة من

(١) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، عني بتحقيقها: شكري فيصل (دمشق: مكتبة دار الملاح): ص ١٠٤.

سائر البقر فيذبحوها، ويكونون قد امتثلوا أمر الله، لكنهم شددوا على أنفسهم، وأبوا إلا المماطلة والتعنت، فقالوا لموسى ـ عليه السلام ـ: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي؟.. فمازالوا به يماطلونه ويتعنتونه حتى شدد الله عليهم، فلم يجدوا تلك البقرة ـ بعد شق الأنفس ـ إلا عند مَن سألهم أضعاف ثمنها كما ذُكر، فحينئذٍ فعلوا وما كادوا[1]، قال تعالى: ﴿.. فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١] أي: لفرط عنادهم وتعنتهم، كادوا ألا يفعلوا.

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها..»[2]. وأخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا موسى، فشدد الله عليهم»[3].

ومن ذلك مماطلة آل فرعون في إرسال بني إسرائيل مع موسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣، ١٣٥].

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ أنه قال: «لما أتى

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٣٨٠، ٣٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١١١. وقد ذكر ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ قولين في معنى هذه الآية، الأول: أنهم ما كادوا يفعلون لغلاء ثمنها. والثاني: خوف الفضيحة؛ أن يطلع الله على القاتل الذي اختصموا فيه. ثم رجح أن المعنى: ما كادوا ليفعلوا للأمرين جميعاً. والذي يظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن ما ذكره ابن كثير هو الراجح، وذلك أن سياق الآيات إنما هو في تعنت بني إسرائيل ومماطلتهم. أما غلاء الثمن فليس عليه دليل إلا ما ورد عن طريق بعض الإسرائيليات التي يُستأنس بذكرها ولا يُعتمد عليها، وأما خوف الفضيحة، فأي فضيحة يخافون؟ فإنهم كانوا ـ سوى القاتل ـ حريصين على معرفة مرتكب الجريمة، وتبرئة أنفسهم من التهمة. فتبين من ذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت.

(٣) جامع البيان: ج ١ ص ٣٩٠.

موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل. فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فصبّ عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك أن يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا القمّل، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينا هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال فرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهمّ أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم؛ وجدوه دماً عَبِطاً، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم. فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟! فأتوه فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم، فلم

يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل[١] فأي تعنت أكثر من هذا؟!.

الأسلوب العاشر: استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير:

ومن ذلك ما قصه الله علينا من نبأ بني إسرائيل مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فقد امتن الله عليهم بأن فجر لهم من الحجارة الصماء عيوناً من الماء العذب الرقراق، وأنزل عليهم المن والسلوى، وهو طعام حلو لذيذ يأتيهم من السماء[٢]، ومع ذلك قالوا لنبيهم ـ عليه السلام ـ متمللين: ﴿.. يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ..﴾ [البقرة: ٦١]، فرغبوا عن أشرف طعام وأعلاه مما قد اختصهم الله به، إلى أوضعه وأدناه مما هو موجود في كل بلاد ومصر، فأجابهم موسى ـ عليه السلام ـ منكراً عليهم قولهم هذا: ﴿.. أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ..﴾، والمتأمل في هذه الآيات يلحظ سوء أدب بني إسرائيل مع نبيهم ـ عليه السلام ـ فإنهم:

أولاً: نادوه باسمه المجرد ولم ينادوه باسم الرسالة، وهم يعلمون أنه رسول من عند الله.

ثانياً: قولهم له: (ادع لنا ربك)! ولم يقولوا: ادع لنا الله أو ربنا، وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس ربهم وإنما رب موسى وحده. وكانوا من قبل قد سألوا موسى ـ عليه السلام ـ أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون عقاباً لهم من الله ـ عز وجل ـ ثم أحياهم الله من بعد موتهم لعلهم يتذكرون فيشكرون نعمة الله عليهم، لكنهم لم يعتبروا، وعادوا إلى تعنتهم وعنادهم.

ومن استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير:

---

(١) جامع البيان: ج ٦ ص ٣٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) المنّ: شيء حلو كان يسقط في السحَر على شجرهم، فيجتنونه ويأكلونه. والسلوى: طائر يشبه السماني لا واحد له. (السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٠٦، ١٩٧).

استبدال حكم الطاغوت بحكم الله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى: ﴿ . . يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ . . ﴾ [النساء: ٦٠]، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقد سبق الحديث عن ذلك في مبحث الإعراض والتولي[١] .

الأسلوب الحادي عشر: تبديل القول وتغييره:

وسيأتي الحديث عن ذلك ـ إن شاءالله ـ في مبحث الأساليب التي يختص بها أهل الكتاب .

---

(١) انظر: ص ٢٣٦ من هذا الكتاب .

المبحث الخامس
أساليب في إثارة الشكوك والشبهات وإطلاق التهم

من الأساليب التي لجأ إليها المجرمون في مواجهة الرسل ـ عليهم السلام ـ وما جاؤوا به من الحق المبين: إثارة الشكوك والشبهات، وإطلاق التهم جزافاً، ولا يخفى هدفهم من ذلك؛ فإن من شأن من تحوم حوله الشكوك والشبهات أن ينفر الناس منه ويحذروه ولا يتبعوه. هذا ما تصوره المجرمون بمقاييسهم الفاسدة، وقد فاتهم أن الذهب الخالص لا يزيده إحراق النار إلا توهجاً وإشراقاً، وأن العود لا يزيده الإحراق إلا طيباً.

ولما كانت الدعوة إنما تقوم على ركنين أساسيين، وهما: الداعي وما يدعو إليه؛ فإن المجرمين قد وجهوا سهام شكوكهم واتهاماتهم إلى الأمرين جميعاً، فطعنوا في الدعاة، وهم الرسل ـ عليهم السلام ـ، وطعنوا في رسالتهم، وفيما يلي تفصيل لذلك:

أولاً: ما يتعلق بالدعاة:

الدعاة ـ من الرسل وأتباعهم ـ هم حملة الدعوة ووقودها والمدافعون عنها، ولولاهم ـ بعد توفيق الله وتأييده ـ ما انتشر نور الحق، وما تقشعت سحب الظلام، فلا غرابة أن توجَّه إليهم سهام الطعن والتشكيك والتشويه، وأن تكال لهم التهم جزافاً لينصرف الناس عنهم وعما معهم من الحق، فالطعن فيهم خطة قديمة توارثها المجرمون جيلاً بعد جيل، وأحكموها غاية الإحكام: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وفيما يلي عرض مجمل ثم مفصل للتهم والمطاعن التي اعتاد المجرمون أن يوجهوها إلى الرسل ـ عليهم السلام ـ حسب ما ظهر لي من كتاب الله

ـ عز وجل ـ:

١ ـ التشكيك في نياتهم:

أ ـ اتهامهم بطلب العلو في الأرض.

ب ـ اتهامهم بالتصنع والرياء.

جـ ـ اتهامهم بالدعوة إلى أنفسهم وتعبيد الناس لهم.

٢ ـ التشكيك في منهجهم:

أ ـ اتهامهم بالضلال.

ب ـ اتهامهم بالتلقي من مصادر مجهولة.

جـ ـ اتهامهم بالابتداع في الدين.

د ـ اتهامهم بالشعر.

٣ ـ التشكيك في عدالتهم والطعن فيها:

أ ـ اتهامهم بالكذب.

ب ـ اتهامهم بالدجل والشعوذة.

جـ ـ اتهامهم بالجنون.

د ـ اتهامهم بأنهم مسحورون.

هـ ـ اتهامهم بالسفه.

و ـ الطعن في نزاهتهم، واتهامهم بالمحاباة.

ز ـ زعمهم أن الرسول ﷺ كان يحلم.

٤ ـ الطعن في أعراض الرسل.

٥ ـ اتهامهم بتهم باطلة تقلل من قدرهم، وتحطّ من مكانتهم.

التفصيل:

١ ـ التشكيك في نياتهم:

قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

فقولهم (يُراد) جاء مبنيًّا للمجهول، وذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أنهم إنما أرادوا ـ بادىء ذي بدء ـ التشكيك في نية الرسول ﷺ على وجه العموم، وصرف الناس عنه، ريثما ينظروا في أمره، ويحددوا التهمة!. والملأ من كفار قريش لا يخفى عليهم أمر محمد ﷺ وصدق نبوته، وقد سبق اعتراف أبي جهل وغيره بذلك(١) ولكن حبّ الزعامة يُطغي ويردي، ويُعمي ويُصمّ. وهذا هو حال جميع الرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم.

ثم إنهم بعد ذلك اختلفوا في تحديد التهمة، وما الذي يريده الرسول ﷺ بهم، ومن أبرز التهم التي وُجهت إلى الرسول ﷺ، بل الرسل جميعاً:

أ ـ اتهامهم بطلب العلو في الأرض:

ومن ذلك قول فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه: ﴿. . إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وقولهم له: ﴿. . أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وهكذا اتُّهم سائر الرسل ـ عليه السلام ـ بهذه التهمة الباطلة، ولو كانوا حقًّا طلاب زعامات ورياسات ـ كما قال المجرمون ـ لسلكوا لتحقيق ذلك طرقاً أخرى أيسر بكثير وأقرب من طريق الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ مع ما يكتنفه من أخطار مرعبة، وأهوال شاقة متعبة، وما يتطلبه من تضحيات جسام، وصبر وآلام، لكنهم أرادوا تبليغ رسالة الله ـ عز وجل ـ وإقامة دينه وشرعه في الأرض مهما كلفهم ذلك من تضحيات وآلام، ولو أن أقوام الرسل كانوا قائمين بذلك، ما بعث الله إليهم رسولاً واحداً، فالرسل ـ عليهم السلام ـ إنما بعثوا لإقامة دين الله، وتطهير الأرض من كل شرك وشر وفساد، والحيلولة دون الناس وشهواتهم المهلكة، وأهوائهم

---

(١) انظر: ص ٣٠ من هذا الكتاب.

المردية، وحري بمن كان هذا مقصده ومراده أن يُرمى بما رمي به الرسل ـ عليهم السلام ـ.

قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في مسائل الجاهلية: «المسألة السابعة والخمسون: رمي المؤمنين بطلب العلو في الأرض..».

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في تعليقه على هذه المسألة: «فكل من دعا إلى الحق رماه من كان على المسلك الجاهلي أن قصده من الدعوة طلب الرياسة والجاه، من غير أن ينظروا إلى ما دعا إليه، وما قام عليه من البراهين»[١].

وذلك أن قلوبهم قد أشربت حب الرياسة، فنضحت بما فيها، وقديماً قال الشاعر:

ويأبى الذي في القلب إلا تبيّناً ... وكل إناء بالذي فيه ينضحُ[٢]

فهم أولى بهذه التهمة من رسل الله الأمناء المكرمين.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير»[٣].

وقال أبو نعيم ـ رحمه الله ـ: «والله ما هلك من هلك إلا بحب الرئاسة»[٤].

ب ـ اتهامهم بالتصنع والرياء:

أخرج البخاري في صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما

---

(١) ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما وجدته بلفظ:

وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء...

لحيص بيص. (انظر: عبدالله بن خميس، الشوارد: ج ١ ص ١٣٩).

(٣) انظر: يوسف ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله (بيروت: دار الكتب العلمية: ١٣٩٨هـ) ص ١٤٣.

(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجَمْعٌ من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي!، إيكم يقوم إلى جزور آل فلان..» الحديث[١].

وهي تهمة أعجب من الأولى، فهل شقّوا عن قلوب الرسل ـ عليهم السلام ـ ورأوا ما فيها!

وقد سبق الحديث عن المنافقين، واتهامهم بعض المؤمنين بالرياء، عند قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات..﴾[٢].

ج ـ اتهامهم بالدعوة إلى أنفسهم، وتعبيد الناس لهم:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

روى ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بسنده، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟! فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوَذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**» أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ما كان لبشر..﴾ الآية[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب سترة المصلي، باب: المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى: ج ١ ص ١٩٤ برقم: ٤٩٨.

(٢) انظر: ص ١٩٥ من هذا البحث.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٧٧. وانظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ٦٤، والسيوطي، لباب النقول: ص ٥١.

وهذه التهمة أبعد ما تكون عن الرسل ـ عليهم السلام ـ لمن عرف سيرتهم، وتتبع أقوالهم وأفعالهم، فإنهم إنما بُعثوا لمحو الشرك من الأرض، وتعبيد الناس لله الواحد الأحد، فما من نبي إلا قال لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. ويكفي في ذلك قول المصطفى ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1] ، فكيف يقال بعد ذلك إنهم يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم؟! إن ذلك لا يكون أبداً.

٢ ـ التشكيك في منهجهم ودعوتهم:

والفرق بين هذا والذي قبله: أن الأول اتهامهم بفساد نياتهم وإن صح منهجهم وما يدعون إليه. أما هنا فعكس ذلك؛ فالتشكيك هنا منصبّ على منهجهم وما يدعون إليه وإن صحت نياتهم، كما قالت الأقوام المكذبة لرسلها: ﴿.. إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩]، فالمجرمون لما عجزوا عن الطعن في ذات الدين والتشكيك فيه صراحة، لجؤوا إلى التشكيك في دين الرسل ـ عليهم السلام ـ ومنهجهم ليوهموا الناس أن ثمة فرقاً بين الأمرين! ومن ذلك:

أ ـ اتهامهم بالضلال:

كما قال قوم نوح لنوح ـ عليه السلام ـ: ﴿.. إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠].

وكما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿.. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧].

وكان كفار قريش يقولون للمؤمنين إذا رأوهم: ﴿.. إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٣٢].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿واذكر في الكتاب مريم..﴾: ج ٣ ص ١٢٧١ برقم ٣٢٦١.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾، أي: ما كُلّفوا بالحكم عليهم، ولا وكلوا بذلك[١].

أما أهل الكتاب فإنهم كما قال تعالى: ﴿.. يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النساء: ٤٤]، ومعنى (يشترون الضلالة) أي يختارونها مع علمهم بالمنهج الحق[٢]، وقد سبق أنهم ضللوا المؤمنين، وقالوا عن المشركين متبجحين: ﴿.. هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النساء: ٥١]. فإذا كان عَبَدة الأوثان ـ في نظرهم ـ أهدى من المؤمنين سبيلًا؛ فماذا بقي للمؤمنين من الهدى؟!

ويوم القيامة حين ينكشف الغطاء، ويُكبكبون على وجوههم في جهنم، هم وآلهتهم وشركاؤهم ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ ثم يعترفون على أنفسهم قائلين: ﴿.. لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: ٨ ـ ١١].

فإذا غُمسوا في النار وذاقوا حرها؛ أقسموا بالله مخاطبين آلهتهم المزعومة قائلين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾، فشهدوا على أنفسهم أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس الرسل ـ عليهم السلام ـ كما كانوا يقولون، ثم يُلقون باللائمة على كبرائهم قائلين: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٩].

بل يشيرون إليهم قائلين: ﴿.. رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ..﴾، ولما كانوا مشتركين في الإجرام، أجابهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿.. لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨]، فحينئذٍ لا تنفع الظالمين

---

(١) انظر: جامع البيان: ج ٤ ص ١١٩.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص ٢٦٨.

معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

ب ـ اتهامهم بالتلقي من مصادر مجهولة:

قال تعالى: ﴿. . وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ. .﴾ [الأنعام: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وفي موضع آخر قالوا: ﴿. . إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ. .﴾ [الفرقان: ٤].

واختلف في المراد بهؤلاء القوم، فقيل: هما عبدان طفلان من أهل الكتاب، يقال لأحدهما (يسار)، والآخر (جبر).

أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن عبدالله بن مسلم[1] الحضرمي رضي الله عنه أنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لأحدهما: يسار، والآخر: جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما ليتعلم منهما، فأنزل الله تعالى: ﴿. . لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ. .﴾[2].

وقيل: هو قين بمكة أعجمي، يُقال له بلعام، ذُكر أن الرسول ﷺ كان يدخل عليه ويعلمه. فقالوا: إنما تعلم منه.

وقيل: هو غلام لبني المغيرة أعجمي، يقال له يعيش.

وقيل غير ذلك.

---

(١) هذا الصحابي الجليل مختلف في اسمه الأول، فهاهنا: عبدالله، وفي الإصابة: عبيد بن مسلم؛ بالتصغير دون الإضافة إلى اسم الله العظيم. ثم قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وسماه البغوي: عبيدالله بالإضافة». ولم يرجح ابن حجر، لكنه ذكره في التقريب بالإضافة: ج ١ ص ٥٣٩، وكذا ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل: ج ٥ ص ٣٣٢.

(٢) جامع البيان: ج ٧ ص ٦٤٩. وانظر: ابن حجر، الإصابة: ج ٢ ص ٤٣٩، والوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول: ص ٩٠، ٩١، والعمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ١ ص ١٦٥.

قال النحاس ـ رحمه الله ـ: «وهذه الأقوال غير متناقضة؛ لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه»[١] .

بل ذهب بعض المتأخرين إلى أبعد من ذلك، فزعموا أن النبي ﷺ إنما تعلّم من راهب ببصرى يقال له: بحيرى، وذلك أثناء رحلته مع عمه أبي طالب في تجارة له إلى الشام، وكان عمر النبي ﷺ آنذاك لا يتجاوز الثانية عشرة، وكان ذلك الراهب قد دعا أبا طالب ومن معه إلى طعام ـ فيما يُروى ـ فتعرف أثناء ذلك على النبي ﷺ، وعَرَفه بخاتم النبوة بين كتفيه، وبعلامات أخرى. . وهذه القصة ـ إن صحت[٢] ـ فهي حجة على من احتج بها؛ إذ كيف يعقل أن يتعلم نبي يوحى إليه، ويحمل خاتم النبوة بين كتفيه، من راهب منزوٍ في صومعة له، لم ينزل عليه وحي قط!

وعلى فرض أن ذلك ممكن، فهل يعقل أن يتعلم صبي صغير من رجل عابدٍ، منهج حياة متكامل، في ساعة واحدة لقيه فيها من غير ميعاد سابق؟! إن هذا من الإغراق في الخيال، بل هو من المحال، ولا يصح بحال من الأحوال[٣] .

ج ـ اتهامهم بالابتداع في الدين:

وقد سبق ما كان يفعله أبو لهب من ملاحقته النبي ﷺ، وهو يدعو إلى الله ـ عز وجل ـ وتحذير الناس منه، ومما يدعو إليه، وفي بعض الروايات

---

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج ٣ ص ٢٣٣. إلا ما روي أن المعلم سلمان الفارسي رضي الله عنه فإن ذلك لا يصح؛ لأن الآية مكية، وسلمان إنما أتى النبي ﷺ في المدينة.

(٢) انظر: الذهبي، السيرة النبوية (ط ٢؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٢هـ): ص ٢٨. وانظر أسانيد هذه القصة مفصلة بالرسم البيان في السيرة النبوية الصحيحة للعمري: ج ١ ما بين ص ١٠٦، ١٠٧ (ملحق).

(٣) انظر في تفصيل الرد على هذه الشبهة: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ١ ص ١٠٧، ١٠٨.

أنه كان يقول بعدما يفرغ النبي ﷺ من قوله: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي، من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه[١].

د ـ اتهامهم بالشعر:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

فنفى الله عن نبيه هذه التهمة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ..﴾ [يس: ٦٩] أي: «ما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته»[٢]، ولهذا لم يكن شيء من الحديث أبغض إليه منه، كما روى الإمام أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها سئلت: هل كان رسول الله ﷺ يُتسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه[٣].

وكان ﷺ يقول: «**لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً**»[٤].

ثم إن للشعر بحوره وأوزانه وقوافيه، كما هو معروف عند العرب. وما جاء به النبي ﷺ لا يشبه ذلك، ولا يدانيه، وقد اعترف بذلك أكابر مجرمي قريش كما سيأتي قريباً إن شاءالله تعالى، واستقر رأيهم على أن يقولوا: هو ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه.. ولذا لم يرد ذكر هذه التهمة في القرآن كثيراً[٥].

---

(١) انظر: الذهبي، السيرة النبوية: ص ١٨٩. وانظر: ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٥٧٨.

(٣) المسند: ج ٦ ص ١٥٣ برقم ٢٥٠١١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر...: ج ٥ ص ٢٢٧٩ برقم ٥٨٠٢، ومسلم في كتاب الشعر: ج ٧ ص ٥٠ برقم ٧.

(٥) ورد وصف النبي ﷺ في القرآن على لسان المشركين بأنه شاعر في ثلاثة مواضع فقط، ولم يرد في القرآن وصف نبي من الأنبياء بهذا الوصف غير نبينا محمد ﷺ. بخلاف قولهم: =

٣ ـ الطعن والتشكيك في عدالة الرسل:

فمن ذلك ما ينافي أصل العدالة وأساسها، ومنه ما ينافي كمالها مع بقاء الأصل.

فأما ما ينافي الأصل، فمنه:

أ ـ اتهامهم بالكذب:

ومن ذلك قولهم لنوح ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا معه: ﴿.. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

وقولهم لهود ـ عليه السلام ـ: ﴿.. وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقولهم عن صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿.. بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر: ٢٥].

وقول فرعون عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿.. وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ..﴾ [غافر: ٣٧].

وقولهم لشعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿.. وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقولهم عن نبينا محمد ﷺ: ﴿.. هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤].

وبالجملة، فقد قالت الأقوام المكذبة لرسلها ما حكاه الله عنهم: ﴿.. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥].

والحق أن المجرمين لا يرتابون لحظة واحدة في صدق الرسل ـ عليهم السلام ـ ونزاهتهم، ولكنهم كما قال الله ـ عز وجل ـ مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿.. فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

والمتأمل في الآيات السابقة، يلحظ كثرة ورود لفظ الظن في كلام المجرمين، وهو على بابه، من: ظنّ ـ كما يقول ابن عطية رحمه الله ـ لأنهم لا

= ساحر، فقد ورد كثيراً.

علم لهم إلا الظنون والتخرصات الكاذبة(١) .

وقد ظهر لي وجه آخر ـ والله تعالى أعلم ـ وهو أنهم لم يجزموا بكذب الرسل إظهاراً للإنصاف، وتظاهراً بالورع، وذلك أدعى لتصديق الناس لهم، وقبولهم هذه التهمة في حق الرسل ـ عليهم السلام ـ ولهذا لا يأتي هذا اللفظ في مثل هذا المقام، إلا مقترناً بذكر الأكابر والملأ من أقوام الرسل، وقد سبق أن ذلك أسلوب من أساليبهم في المكر والخداع والتضليل(٢) .

ب ـ اتهامهم بالدجل والشعوذة:

تارة بأنهم سحرة، وتارة بأنهم كهنة.

فأما الأول فهو كثير في القرآن، بل إن أحداً من رسل الله ـ عز وجل ـ لم يسلم من هذه التهمة، كما قال تعالى بعد ذكره تكذيب كفار قريش بنبينا محمد ﷺ، واختلافهم في أمره: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ . . ﴾ [الذاريات: ٥٢].

ولما كان قوم موسى قد اشتهروا بالسحر وبرزوا فيه؛ كان موسى ـ عليه السلام ـ أكثر من تعرض لهذه التهمة ونودي بها، فهو منذ اللحظة الأولى التي وقف فيها أمام فرعون الطاغية مذكراً له بالله ـ عز وجل ـ وداعياً إياه إلى الإيمان، وهو يقول له: ﴿ . . إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]، وتلقف الملأ هذه التهمة دون تروّ ولا تفكير، وبادروا إلى بثها بين العامة: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]، فأعادوا ما قاله فرعون دون زيادة ولا نقصان.

ولم يقصروا التهمة على موسى وحده، بل أشركوا معه أخاه هارون ـ عليهما السلام ـ فأصدروا قراراً جديداً، جاء فيه: ﴿ . . إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ

(١) انظر: المحرر الوجيز: ج ٥ ص ٥٤٠.

(٢) انظر: ص ٢٠٦ من هذا الكتاب.

يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: ٦٣]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد حتى جعلوا موسى ـ عليه السلام ـ هو كبير السحرة الذي علمهم السحر، وذلك بعد أن آمنوا به، وشهدوا شهادة الحق: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ . . ﴾ [طه: ٧١]، السحرة الحذاق المهرة، الذين جُمعوا من كل أنحاء مصر ليُبطلوا سحر موسى ـ عليه السلام ـ صاروا الآن تلاميذ له، تعلموا على يديه السحر!! فيا لله العجب، كيف تجرؤوا على إطلاق هذه التهمة الكبيرة التي لا يصدقها عقل، ولا يقرها منطق، كيف وقد بان الحق، وظهر ظهوراً لا يبقى معه شك، لكنه الطغيان حين يفقد صوابه.

ثم إنهم قد بلغ من تماديهم وعنادهم وإصرارهم على هذه التهمة الباطلة أن يقولوا لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، بل حتى وهم في حال الشدة والبأساء يقولون لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ . . ﴾ [الزخرف: ٤٩] فهم ـ مع وضوح الآيات وظهورها، وهم في أحلك الأوقات وأشدها ـ لايزالون مصرين على هذه التهمة التي يعلمون بطلانها في قرارة أنفسهم، فأمرهم في غاية العجب، ولولا أن الله ـ عز وجل ـ قص علينا خبرهم في كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما ظننا أن أمة تبلغ هذا الحد من العناد والطغيان.

وأما اتهامهم بالكهانة(١) فهو قليل في القرآن، وقد اتُّهم نبينا محمد ﷺ بذلك، فبرّأه الله مما قالوا بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩].

---

(١) قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ: «الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار. وقد كان في العرب كهنة، كشِقّ وسَطِيح. . » (النهاية: ج ٤ ص ٢١٤).

قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «نزلت في الذين اقتسموا عِقاب مكة، يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر»(١) .

وفي الصحيح عن جندب بن سفيان رضي الله عنه أن أم جميل امرأة أبي لهب قالت لما اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاث: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك. . »(٢) .

وإنما اتهموه بذلك لأن الكهان «كانوا يروّجون أقاويلهم الباطلة بأسجاع تروق للسامعين، فيستميلون بها القلوب، ويستصغون إليها الأسماع»(٣) ، ولكن؛ شتان ما بين الحق، والباطل. وما بين سجع الكهان، وآيات القرآن وما تضمنته من النور والهدى والبيان، وقد اعترف بذلك أكابر مجرمي قريش، فقد روى أصحاب السير أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً. قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأياً، قال: بل أنتم قولوا، وأنا أسمع. قالوا: نقول كاهن. فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه. فقالوا: نقول مجنون. فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: نقول شاعر: قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، قد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنفثه، ولا عقده. فقالوا: ما تقول يا أبا عبدشمس؟

---

(١) معالم التنزيل: ج ٧ ص ٣٩١.

(٢) أخرج الحديث بتمامه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿والضحى﴾: ج ٤ ص ١٨٩٢ برقم ٤٦٦٧. ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين: ج ٥ ص ١٨٢ برقم ١١٥.

(٣) النهاية: ج ٤ ص ٢١٤.

قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغدِق[١]، وإن فرعه لجنى، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن نقول: ساحر يفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه..[٢].

وفي الوليد بن المغيرة هذا نزل قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١ـ٢٦][٣].

ج ـ اتهامهم بالجنون:

كما قال تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩].

وقال فرعون ساخراً من موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ .. إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وقالها مجرمو قريش لأكمل الناس عقلاً، وأقومهم منهجاً؛ نبينا محمد ﷺ، كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿ .. يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، وكان قد صحبهم أربعين سنة قبل النبوة، فكانوا يلقبونه بالصادق الأمين، ويعدونه من أرجح الناس عقلاً، فلما بلغ الأربعين من عمره ـ وهي سن اكتمال العقل ـ قالوا: إنك لمجنون!! وقد صرح بذلك أحد شياطينهم ـ وهو النضر بن الحارث ـ فقال: يا معشر قريش، إنه ـ والله ـ قد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً؛ أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا

---

(١) من الغَدَق وهو الماء الكثير. وفي رواية (لعذق) بالذال. والأولى أفصح.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية: ص ٨٩، ٩٠. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٠.

(٣) انظر: السيوطي، لباب النقول: ص ٢٤٥. والوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول: ص ١٦٧، ١٦٨.

رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم ساحر، لا والله، ما هو بساحر ولا بكاهن ولا بشاعر، قد رأينا هؤلاء، وسمعنا كلامهم، فانظروا في شأنكم[١]. ولهذا أنكر الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢].

ثم تناقضوا بعد ذلك كعادتهم، فتارة قالوا: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٦].

وتارة قالوا: ﴿.. مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: ١٤] أي: «مجنون عُلّم هذا الكلام»[٢].

وشتان بين شاعر موهوب، يأتي بكلام موزون. ومجنون يهذي بما لا يدري، ويهرف بما لا يعرف، ويلقّن الكلام تلقيناً، فكيف يكون المجنون شاعراً، أم كيف يتعلم المجنون؟! إنها متناقضات لا يقبلها عقل.

وقد نفى الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ هذه التهمة، فقال سبحانه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢]، فمن أنعم الله عليه بنعمة الوحي والهداية والإسلام، كيف يكون مجنوناً؟!

وبالجملة، فإن هذه التهمة أيضاً لم يسلم منها أحد من رسل الله ـ عز وجل ـ كما سبق من قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وأما ما ينافي كمال العدالة، فمنه:

أ ـ اتهامهم بأنهم مسحورون:

قال تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٨].

وقال فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿.. إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ

---

(١) الذهبي، السيرة النبوية: ص ٩٠، ٩١.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٢٢٩.

مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]. أي: «إنك قد سُحرت، فكلامك مختلّ، وما تأتي به غير مستقيم»[١].

وقد سبق وأن اتهموا الرسول ﷺ بأنه ساحر، والآن صار مسحوراً، فأي تناقض بعد هذا؟!

ب ـ اتهامهم بالسفه:

كما قال الملأ من قوم عاد لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿. . إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ . .﴾ [الأعراف: ٦٦].

واتّهام المؤمنين بالسفه والسذاجة سنة من سنن المجرمين، ولهذا أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم بأنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ . .﴾ [البقرة: ١٣]. فرد الله عليهم بقوله: ﴿. . أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾. وأي سفه أعظم من الإعراض عن دين الله وشرعه، وتكذيب رسله ووحيه؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ . .﴾ [البقرة: ١٣٠] أي: «ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره، بتركه الحق إلى الضلال . .»[٢].

ج ـ الطعن في نزاهتهم، واتهامهم بالمحاباة:

قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . .﴾ إلى قوله: ﴿. . تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

في الصحيحين، عن عروة رضي الله عنه قال: خاصم الزبير رجلًا من الأنصار في شريج من الحرة[٣]، فقال النبي ﷺ: «**اسقِ يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**»، فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك!.

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٩ ص ٢١٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٨٥ (باختصار).

(٣) الشرجة: مسيل الماء من المرتفع إلى السهل. والحرة: هي الأرض ذات الحجارة السوداء. (النهاية: ج ٢ ص ٤٥٦، ج ١ ص ٣٦٥).

فتلون وجهه ثم قال: «**اسقِ يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر**[١] ، **ثم أرسل الماء إلى جارك**» واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه[٢] الأنصاري. كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك. .[٣] .

ومن ذلك أيضاً ما أخرجه الشيخان عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ يوم حنين آثر أناساً في القسمة، كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وغيرهما من أشراف العرب، تأليفاً لقلوبهم، لا محاباة منه ﷺ، فقال رجل من المنافقين: والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أُريد بها وجه الله.

قال ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته فأخبرته، فقال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل رسول الله؟!**» ثم قال: «**رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[٤] .

---

(١) الجدر: هو ما رُفع حول المزرعة كالجدار (النهاية: ج ١ ص ٢٤٦).

(٢) أحفظه: أثار حفيظته، أي: غضبه (انظر السابق: ج ١ ص ٤٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. .﴾: ج ٤ ص ١٦٧٤، ١٦٧٥ برقم ٤٣٠٩، ومسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب اتّباعه ﷺ: ج ٧ ص ٩١.

(٤) هذه القصة أخرجها البخاري في أبواب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، وغيرهم من الخمس ونحوه: ج ٣ ص ١١٤٨ برقم ٢٩٨١، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام. . . : ج ٣ ص ١٠٩. وقد أخرج البخاري في صحيحه قصة شبيهة بهذه القصة، ملخصها أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعث إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذُهيبة (قطعة من ذهب) فقسمها على أربعة من أصحابه، منهم: الأقرع وعيينة، يتألفهم بها، فقام رجل ـ من غير المنافقين ـ فقال: يا رسول الله، اتقِ الله! قال: «ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله. . .» وهذه القصة غير القصة الأولى التي وردت في حديث ابن مسعود، فالقائل في حديث ابن مسعود رجل من المنافقين، ولم يواجه به النبي ﷺ، أما القائل هنا فهو رجل من الغلاة واجه بقوله النبي ﷺ، وقد نبه على=

فقبّح الله المجرمين، ما أجرؤهم على رسل الله ـ جل وعلا ـ وما أبعدهم عن اتّباع طريق الحق والرشاد والهدى.

د ـ زعمهم أن الرسول ﷺ كان يحلم:

وهو مفهوم قولهم عن القرآن بأنه: ﴿.. أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ..﴾ [الأنبياء: ٥].

وسيأتي الحديث عن ذلك قريباً ـ إن شاءالله تعالى ـ في مطاعنهم ضد القرآن الكريم(١).

٤ ـ الطعن في أعراض الرسل:

تارة بقذف الرسول نفسه، وتارة بقذف أهل بيته.

فأما الأول فمنه:

أ ـ قذف موسى ـ عليه السلام ـ بالزنى:

وكان الذي قذفه ـ على ما ذكر بعض المفسرين ـ: ابن عمه قارون الذي قصّ الله علينا قصته في القرآن، فقد أخرج ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ..﴾ [القصص: ٧٦]، قال: «كان ابن عمه، وكان موسى يقضي في ناحية بني إسرائيل، وقارون في ناحية، قال: فدعا بغيّة كانت في بني إسرائيل، فجعل لها جُعلًا على أن ترمي موسى بنفسها، فتركته إذا كان يوم تجتمع فيه بنو إسرائيل إلى موسى، أتاه قارون، فقال: يا موسى ما حدّ من سرق؟ قال: أن تنقطع يده، قال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قال: فما حدّ من زنى؟ قال: أن يُرجم. قال: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قال: فإنك قد فعلت. قال: ويلك، بمن؟! قال: بفلانة، فدعاها موسى،

= ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (ج ٨ ص ٦٨)، فقال: «تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين، وقد وهم من خلطها بها».

(١) انظر: ص ٣١١ من هذا الكتاب.

فقال: أنشدكِ بالذي أنزل التوراة، أصدق قارون؟ قالت: اللهم إذ نشدتني، فإني أشهد أنك بريء، وأنك رسول الله، وأن عدو الله قارون جعل لي جعلًا على أن أرميك بنفسي. قال: فوثب موسى، فخر ساجداً لله، فأوحى الله إليه أن: ارفع رأسك، فقد أمرت الأرض أن تطيعك، فقال موسى: يا أرض خذيهم..(١).

وقد روي أن الدافع له إلى الاحتيال بهذه الحيلة: الفرار من دفع الزكاة(٢)، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿.. وآتيناه من الكنوز..﴾ والمال إنما يسمى كنزاً إذا لم يزكَّ لما روى أبو داود عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بلغ أن تؤدي زكاته، فزكي، فليس بكنز**»(٣).

وهذا لا ينفي وجود دوافع أخرى لبغيه وعلوه في الأرض، والله تعالى أعلم.

ب ـ اتهام عيسى ـ عليه السلام ـ بأنه ولد زنى، وأن أمه بغي:

قال تعالى ذامًّا اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ [النساء: ١٥٦]، فالبهتان العظيم هنا هو رميهم إياها بالزنى، وأنها حملت بولدها من ذلك!

زاد بعضهم: وهي حائض!!(٤).

---

(١) جامع البيان: ج ١٠ ص ١١٠، ١١١. وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٠١.

(٢) انظر: جامع البيان: ج ١٠ ص ١٠٩، والمحرر الوجيز: ج ١١ ص ٣٣٠.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة عن أم سلمة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي: ج ٢ ص ٢١٢ برقم: ١٥٦٤. وصححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ٢ ص ١٠٠ برقم ٥٥٩.

(٤) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ٣٥٠، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥٧٣.

وقد رموا داود ـ عليه السلام ـ بهذه التهمة قبل ذلك، ففي توراتهم المحرفة أن يهوذا بن يعقوب النبي، زوّج ولده الأكبر من امرأة يقال لها (تامار)، فكان يأتيها مستدبراً! فغضب الله من فعله، فأماته، فزوّج يهوذا ولده الآخر بها، فكان إذا دخل بها أمنى على الأرض، علماً بأنه إن أولدها كان أول الأولاد مدعوًّا باسم أخيه، ومنسوباً إلى أخيه، فكره الله ذلك من فعله، فأماته، فأمرها يهوذا باللحاق ببيت أبيها إلى أن يكبر ولده (شيلا)، ويتم عقله، ثم ماتت زوجة يهوذا، وذهب إلى منزله ليجزّ غنمه، فلما أخبرت تامار، لبست زي الزواني، وجلست على طريقه، فلما مر بها خالها زانية فراودها، فطالبته بالأجرة، فوعدها بجدي، ورمى عندها عصاه وخاتمه، فدخل بها، فعلقت منه بولد، ومن هذا الولد كان داود النبي[1] .

أما قذف أهل بيت الرسول، فلا أشهر من حادثة الإفك التي وقعت لأمنا، أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ والتي تولّى كبرها رأس المنافقين في المدينة: عبدالله بن أبي بن سلول، وملخصها أن النبي ﷺ لما قفل عائداً من غزوة غزاها، وآذن بالرحيل ليلًا، ذهبت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لقضاء بعض حاجتها، فلما عادت إلى رحلها فقدت عقداً لها، فذهبت تلتمسه، فحبسها ذلك، فلما عادت، لم تجد أحداً من القوم، وظنوا أنها ارتحلت هودجها، فقصدت مكانها الذي كانت فيه، وغلبتها عينها فنامت، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه من وراء الجيش، فرأى سواد إنسان نائم، فلما دنا منها عرفها، وكان قد رآها قبل نزول الحجاب، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من

---

(١) انظر: الإصحاح الثامن والثلاثون من سفر التكوين، فقرة (١ ـ ٢).

هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول[١] .

إن المنافقين القابعين في الظلام ـ ومثلهم اليهود الجبناء ـ لا يصنعون الأحداث؛ فهم أحقر من ذلك، ولكنهم يستغلونها ويوجهونها لصالحهم، وهذا ما صنعه رأس المنافقين في حادثة الإفك، فقد كان «يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه، ويفرّقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه»[٢] حتى تورط فيه بعض الصحابة الأخيار ـ رضي الله عنهم ـ وتكلموا فيه، فأقيم عليه حد القذف، وأنزل الله في ذلك آيات بينات تتلى إلى يوم القيامة، تشهد ببراءة الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ وبطهارة فِراش رسول الله ﷺ مما زعمه الأفاكون المفترون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾ الآيات. . إلى قوله: ﴿ . . لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٦].

والتوراة المحرفة مليئة بمثل هذه التهم القبيحة الباطلة التي لا تليق بعامة الناس، فضلًا عن الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ فمن ذلك ما افتروه على نبي الله لوط ـ عليه السلام ـ أنه لما خرج من المدينة، سكن في كهف جبل، ومعه ابنتاه، فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا، فارقدي بنا معه لنأخذ منه نسلًا! فرقدت معه الكبرى ثم الصغرى، ثم فعلتا ذلك في الليلة الثانية، وحملتا منه بولدين: مواب وعمران[٣] .

ومن ذلك ما افتروه على يوسف ـ عليه السلام ـ من أنه «حل سراويله، وجلس من امرأة العزيز مجلس المرأة من القابلة حتى انشق له الحائط، وخرجت له كفّ يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو عاضّ على أنامله، فقام وهرب. . وهذا لو رآه أفجر الناس لقام ولم يقضِ

(١) أخرج القصة بطولها البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً. .﴾: ج ٤ ص ١٧٧٤ برقم ٤٤٧٣ .
(٢) ابن القيم، زاد المعاد: ج ٣ ص ٢٦٠ .
(٣) انظر: العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح التاسع عشر، الفقرات: (٣٠ ـ ٣٧).

غرضه»[١].

والمقصود أن المجرمين لا يتورعون عن الطعن في أعراض الرسل ـ عليهم السلام ـ بغية إسقاط مكانتهم في نفوس الناس، ومن ثم تهتز ثقتهم بالدين الذي جاؤوا به، وهو أسلوب خبيث ماكر، لا يقدر قدره، ولا يعرف خطره، إلا من اكتوى بناره، وذاق مرارته. والله المستعان.

٥ ـ اتهامهم بتهم باطلة متنوعة تقلل من قدرهم، وتحط من مكانتهم:

ومن ذلك:

أ ـ اتهام موسى ـ عليه السلام ـ بأنه آدر[٢]:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فخرج موسى في إثره يقول: ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى، قالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً..**»[٣].

وفي رواية عند البخاري ـ رحمه الله ـ: «**إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما برص، وإما أدرة، وإما**

---

(١) ابن القيم، هداية الحيارى: ص ٢٤٨.

(٢) الأدرة: انتفاخ في الخصية (انظر: النهاية: ج ١ ص ٣١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة..: ج ١ ص ١٠٧ برقم ٢٧٤، ومسلم في كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة: ج ١ ص ١٨٣، ١٨٤ برقم ٧٥.

آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر.. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ.. ﴾»[1] .

قد اشتمل هذان الحديثان الشريفان على فوائد كثيرة، من أهمها ـ مما نحن الآن بصدده ـ: أن أهل الباطل ـ من المجرمين ـ لا يتورعون عن إطلاق التهم الباطلة على من لا يشاركهم في باطلهم بغية التمكين لهذا الباطل، وتهوين قبحه وشناعته في النفوس، وليتقبله الناس ويعتادوه، فيصبح شيئاً مألوفاً، فموسى ـ عليه السلام ـ في نظرهم ـ يود مشاركتهم فيما هم متلبسون فيه من كشف العورات، وفعل ما هو من أقبح المنكرات لولا ما فيه من العيب الذي يمنعه من ذلك!! ويشيع هذا الخبر، وكالعادة تتلقفه الألسن، ويتلقاه الناس بالقبول والتسليم، بل ولربما وجد فيه بعضهم مسوغاً لفعل المنكر واستحلاله بناء على هذه الشبهة الواهية والإشاعة الكاذبة.

ولا عبرة ـ في نظري والله تعالى أعلم ـ بقول من قال: إن ذلك العمل كان جائزاً في شرعهم[2] ؛ فإن الشرائع السماوية منزهة عن إباحة مثل هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء: ج ٣ ص ١٢٤٩ برقم ٣٢٢٣.

(٢) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم: ج ٤ ص ٣٢، ٣٣، وزين الدين العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب (بيروت: دار إحياء التراث العربي): ج ٢ ص ٢٢٥، وابن حجر، فتح الباري: ج ١ ص ٣٨٦. وحجة من قال بذلك: أنه لم ينقل عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه أنكر عليهم ذلك العمل. وهذا ليس بحجة؛ فإن عدم النقل، لا يدل على نقل العدم كما هو مقرر في علم الأصول.

العمل المشين الذي تأباه الفطر السليمة، والنفوس السوية المستقيمة.
وعصيان بني إسرائيل لموسى ـ عليه السلام ـ أمر معلوم ومشتهر، بل إنهم قد أعلنوا التمرد والعصيان كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿. . سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ. . ﴾ [النساء: ٤٦].
ولما أراد الله ـ عز وجل ـ إظهار الحق، وتبرئة نبيه موسى ـ عليه السلام ـ حصل ما حصل من هذه القصة العجيبة، وفي هذا أكبر دليل على أن الله ـ عز وجل ـ ينصر دينه، ويعز أولياءه، ويرد كيد المجرمين في نحورهم.

ب ـ اتهام موسى بقتل أخيه هارون:

وهذه التهمة لها قصة، يذكرها المفسرون عند تفسير الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى. . ﴾ [الأحزاب: ٦٩]. ومفادها أن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ لما صعدا الجبل مات هارون، فقالت بنو إسرائيل لموسى ـ عليه السلام ـ أنت قتلته، كان ألين منك، وأشد حياء. . فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته. . إلى آخر ما ورد في القصة[1].
هكذا يستغلّ المجرمون الأحداث، فيطلقون التهم جزافاً، بلا بينة ولا تحقيق، للحط من قدر الرسول ـ عليه السلام ـ والنيل منه. لكن الله ـ في كل مرة ـ يُظهر الحق، ويبطل الباطل، فيرتد كيد المجرمين في نحورهم.

ج ـ اتهام داود ـ عليه السلام ـ بعشق امرأة والتخلص من زوجها لِتزوّجها:

هذه القصة يذكرها بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿. . وَظَنَّ دَاوُدُ

---

(١) أخرجها ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم قال بعد أن ساق الأقوال في الآية: «وجائز أن يكون كل ذلك» أي مراداً بالآية (جامع البيان: ج ١٠ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨)، وتوسع ابن كثير، فقال معقباً على قول ابن جرير: «قلت: ويحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره. . » (تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٥٢١). وانظر: ابن القيم، هداية الحيارى. ص ٢٤٨.

أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴿٢٤﴾ [ص: ٢٤](١) ، وهي من أكاذيب اليهود وافتراءاتهم ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ للطعن في رسل الله.

قال البقاعي ـ رحمه الله ـ: «وأخبرني بعض من أسلم منهم [أي اليهود] أنهم يتعمدون ذلك في حق داود ـ عليه السلام ـ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ من ذريته، ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه»(٢) .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآيات: «قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. . . فالأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرد علمها إلى الله ـ عز وجل ـ»(٣) .

وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذه القصة: «فهذا ونحوه مما يقبح الحديث به عن متسم بالصلاح من آحاد المسلمين، فضلًا عن بعض أعلام الأنبياء. . .»، ثم ذكر عن سعيد بن المسيب، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم قصة داود كما يرويها القُصَّاص، جلدته مائة وستين، حد الفرية مضاعفاً(٤) .

وهذا من فقهه رضي الله عنه، فإن إشاعة مثل هذه التهمة عن نبي من خيرة أنبياء الله ـ وكلهم كذلك ـ يهوّن من أمر هذه المعصية القبيحة، كما يحط من قدر ذلك النبي الكريم، الذي أثنى عليه نبينا محمد ﷺ بقوله: **«أحب الصلاة إلى الله: صلاة داود ـ عليه السلام ـ، وأحب الصيام إلى الله: صيام داود، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم**

(١) انظر على سبيل المثال: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٧٠ ـ ٥٧٤، فقد ساق هذه القصة بأسانيد عدة، منها المرفوع والموقوف والمرسل. . ولم يتعقبها بشيء.

(٢) نظم الدرر: ج ٦ ص ٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣١.

(٤) انظر: الكشاف: ج ٣ ص ٣٢٢.

يوماً، **ويفطر يوماً**»[١] ، وفي رواية: «**ولا يفرّ إذا لاقى**»[٢] . ومن ثم يحط من قدر جميع الأنبياء.

د ـ اتهام نبينا محمد ﷺ بالتعلق بزينب بنت جحش قبل زواجه بها:

هذه القصة يذكرها بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وهي شبيهة بالتي قبلها (قصة داود ـ عليه السلام ـ) وكأنما خرجت من مشكاة واحدة! وخلاصتها؛ أن رسول الله ﷺ زوّج زيد بن حارثة مولاه رضي الله عنه، زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج يوماً يريد زيداً، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر، فانكشف وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، وفي رواية أنه قال: «**سبحان مقلب القلوب**»، فلما وقع ذلك، كُرِّهت إلى الآخر، فجاء، فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي. قال: «**مالك، أرابك منها شيء؟**» قال: لا، والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيراً. فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك زوجك، واتقِ الله**. . » وهو يخفي في نفسه حبها، والرغبة في الزواج منها. .[٣] .

وأصل القصة في صحيح البخاري، عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «**اتقِ الله، وأمسك عليك**

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب: من نام عند السحر: ج ١ ص ٣٨٠ برقم ١٠٧٩، ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به. . : ج ٣ ص ١٦٢ برقم ١٩٢.

(٢) أخرجها البخاري في كتاب الصوم، باب صوم داود ـ عليه السلام ـ: ج ٢ ص ٦٩٨ برقم ١٨٧٨.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٣٠٢، والطبقات لابن سعد: ج ٨ ص ١٠١، والحاكم، المستدرك: ج ٤ ص ٢٥.

زوجك». . . الحديث[١] ، وليس فيه أنه رأى زينت وتعلق قلبه بها. . . إلخ، ويؤيد ذلك، ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق السدي بإسناد حسن، وسياق حسن[٢] ، قال: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب، عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ، فزوجها إياه، ثم أعلم الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لايزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً»[٣] ، فتبين من هذا، أن الذي كان يخفيه رسول الله ﷺ في نفسه: إخبار الله إياه أن زينب ستكون زوجاً له بعد أن يطلقها زيد، وليس كما ذُكر في الروايات الأخرى، وهي روايات واهية ضعيفة، لا تصح سنداً ولا متناً، وما أحسن ما صنع ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: «ذكر بعضهم هاهنا آثاراًعن بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها، فلا نوردها»[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿وكان عرشه على الماء..﴾: ج ٦ ص ٢٦٩٩ برقم ٦٩٨٤ .

(٢) هذا ما فهمته من كلام الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ، انظر: الفتح: ج ٨ ص ٥٢٣، ٥٢٤ .

(٣) فتح الباري: ج ٨ ص ٥٢٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٩١ (باختصار). وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: (ج ٨ ص ٥٢٤) بعد أن ساق الأحاديث الصحيحة في ذلك: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد». وقال أبو حيان في البحر (ج ٧ ص ٢٢٦): «ولبعض المفسرين كلام في الآية،=

هذا من حيث الدليل والأثر، أما من حيث النظر فالقصة باطلة من وجوه، أذكر منها:

الوجه الأول: أن رسول الله ﷺ كان قد رأى زينب قبل نزول الحجاب، بل قد نشأت معه منذ الصغر، فهي ابنة عمته، ويعرفها حق المعرفة، أولَّما أصبحت ذات بعل - بل هو زوجها بنفسه ﷺ - وصارت ثيباً؛ يتعلق قلبه بها من نظرة لم يقصدها - بزعمهم - ولو كان الأمر كما زعموا لتزوجها وهي بكر قبل أن يزوجها مولاه، وما الذي يمنعه من ذلك؟[1].

الوجه الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿.. وتخفي في نفسك ما الله مبديه..﴾، فما الذي أبداه الله؟ هل أبدى حب رسول الله ﷺ لزينب، وعشقه لها؟ كلا، بل أبدى رغبته ﷺ في تنفيذ أمر ربه بالزواج منها، وإبطال ما كان سائداً في الجاهلية من تحريم نكاح الرجل مطلقة متبنّاه[2].

الوجه الثالث: سلّمنا أن الأمر كما زعموا من أن الريح كشفت الستر، وأن رسول الله ﷺ رأى زينب بلا عمد، فوقعت في نفسه، فهل يُلام الرجل على أمر لم يتعمده، ولا يد له فيه، لاسيما وأنه لم يسع إلى تطليقها من زوجها، بل نصحه بإمساكها وأن يتقي الله - عز وجل - فيها؟

فائدة: ذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ . . ﴾ [الأحزاب: ٣٨] إشارة إلى داود - عليه السلام - وأن الله كما جمع بينه وبين المرأة التي فُتن بها، وتزوجها بعد موت زوجها؛ جمع بين رسول الله ﷺ وزينب - رضي الله عنها -. . . وهذا باطل لما سبق، والله تعالى أعلم.

= يقتضي النقص من منصب النبوة، ضربنا عنه صفحاً».

(١) انظر: ابن العربي، أحكام القرآن: ج ٣ ص ١٥٤٣.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص ١٨٩ - ١٩١. والشنقيطي، أضواء البيان: ج ٦ ص ٥٨٢، ٥٨٣. وإبراهيم شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ (ط ٦؛ جدة: دار الشروق: ١٤٠٣هـ): ٩٢.

ثانياً: ما يتعلق بالدعوة:

إن من المعلوم أن الدعوة ـ التي هي مهمة الرسل ـ إنما تقوم على الوحي المنزل من عند الله تعالى، وكذلك ما يقوله الرسول ﷺ وما يفعله، فإنه جزء من الوحي، كما قال ـ تعالى ـ في وصف نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣، ٤]. وقال ﷺ لعبدالله بن عمرو رضي الله عنه لما نهته قريش عن الكتابة: «**اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**»[1].

وفي رواية: «**ما خرج منه إلا حق**»[2] وأشار إلى فيه.

ومن هنا، فإن الطعن في دعوة الرسل ممثلة في الوحي المنزل؛ طعن في الرسل ـ عليهم السلام ـ وهدم للأساس الذي تقوم عليه دعوتهم، وقد سلك المجرمون في ذلك أساليب شتى، ظهر لي منها ما يلي:

١ ـ نفي الوحي أو إنزال شيء من الكتب.
٢ ـ الطعن في الملائكة الأبرار.
٣ ـ الطعن في الكتب المنزّلة.
٤ ـ الطعن في ذات الدين.

التفصيل:

الأسلوب الأول: نفي الوحي أو إنزال شيء من الكتب:

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ .. ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقولهم هذا قدح في حكمة الله ـ تعالى ـ ورحمته، وأنه ـ سبحانه ـ يترك عباده هملًا لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يبين لهم طريق الخير، من طرق الشر. وسبيل الرشد، من سبل الغي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٢ ص ٢١٦ برقم ٦٥٠٧ بسند صحيح كما قال أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على المسند: ج ١٠ ص ١٥.

(٢) المصدر السابق: ج ٢ ص ٢٥٥ برقم ٦٧٩٩ بالإسناد السابق.

والضلال[١] .

كما تضمن قولهم هذا: إنكار النبوات، وإبطال الرسالات. وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً إن شاءالله تعالى[٢] .

الأسلوب الثاني: الطعن في الملائكة الأبرار:

فأما المشركون فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله! كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا . . ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النجم: ٢٧][٣] ، ولما قيل لهم: فمن أمهاتهن؟! قالوا: بنات سروات الجن[٤] ، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وأخرج ابن جرير عن قتادة ـ رحمهما الله ـ أن اليهود قالوا: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ تزوج إلى الجن، فخرج منهما الملائكة. . .[٥] . وهذا الذي قاله قتادة ـ رحمه الله ـ بعيد؛ إذ أن السورة مكية، وسياق الآيات إنما هو في المشركين، ولم يرد فيه ذكر لليهود ألبتة، ثم إن اليهود لم يُذكر عنهم أنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله، وإنما اشتهر ذلك عن المشركين، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النجم: ٢٧]، فخص الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ وهم المشركون ـ بهذا القول، أما اليهود فإنهم ليسوا داخلين في ذلك؛ لأنهم يؤمنون بالآخرة، وإن

---

(١) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٢) انظر: ص ٣٧٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ١٧٥ . وانظر: السيوطي، لباب النقول: ص ٢٠١ .

(٤) انظر: جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٣٥ . وسروات الجن: إشرافهم (انظر: النهاية: ج ٢ ص ٣٦٣).

(٥) جامع البيان: ج ١٠ ص ٥٣٥ .

كان إيمانهم بها ليس كإيمان المسلمين. لكنهم كانوا أخبث من ذلك، فإنهم قد طعنوا في خيرة الملائكة وأفضلهم، وأعلاهم منزلة عند الله تعالى، وهو: جبريل ـ عليه السلام ـ[١] الذي ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ، ليحصل لهم ما أرادوا من الطعن في رسالة نبينا محمد ﷺ إذ أن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الواسطة بينه وبين الله ـ عز وجل ـ.

أخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي... فذكر الحديث، وفيه أنهم سألوه عما حرم إسرائيل على نفسه، وعن علامة النبي، وعن الرعد وصوته، وكيف تذكر المرأة وتؤنث، وعمن يأتيه بخبر السماء.. إلى أن قالوا: فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «**جبريل**». قالوا: ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر، لكان خيراً.. فنزلت. انتهى مختصراً[٢].

---

(١) يكفي في فضله وعلو منزلته عند الله، ما ذكره الله عنه في سورة التكوير حيث قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [١٩ ـ ٢١]، فقد خصه الله ـ عز وجل ـ في هذه الآيات بسبع خصائص جليلة لم تجتمع في غيره.
الأولى: أنه رسول، ورسول من عند مَنْ؟ من عند الله ـ جل في علاه ـ.
الثانية: أنه كريم. أي: شريف، حسن الخلق، بهي المنظر. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٤٧٩).
الثالثة: أنه ذو قوة.
الرابعة: أنه عند ذي العرش، فهو قريب من الله ـ عز وجل ـ مقرب إليه، وكفى بها منزلة.
الخامسة: أنه مكين، أي له مكانة عند الله ومنزلة عالية.
السادسة: أنه مطاع، أي مسموع القول في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة.
السابعة: أنه أمين، أي على وحي الله، وما يكلَّف به من الأوامر والمهمات.

(٢) المسند: ج ١ ص ٣٤٠ برقم ٢٤٨٢. وقوّى إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح: ج ٨ ص ١١٦، وصحح إسناده أحمد شاكر. وانظر: السيوطي، لباب النقول: ص ١٢، ١٣.

الأسلوب الثالث: الطعن في الكتب المنزلة:

ومن ذلك: قول المشركين السابق: ﴿..ما أنزل الله على بشر من شيء..﴾.

ثم اختلفوا بعد ذلك في أمر القرآن الكريم الذي جاء به محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، أي: فرّقوا القول فيه(١).

فتارة قالوا: شعر، كما قالوا عن الرسول ـ عليه السلام ـ: إنه شاعر. فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤١]، وأثبت الحق: ﴿.. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩].

وتارة قالوا: هو ضرب من الكهانة، كما قالوا عن الرسول بأنه كاهن، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤٢].

وتارة قالوا: ﴿.. أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ..﴾ [الأنبياء: ٥]، أي: تخاليط أحلام، وهي التي لا يصح تأويلها، لاختلاطها، ودخول بعضها في بعض(٢)، وهذا من بالغ تعنتهم ومكابرتهم، وإلا فكيف يقال عن القرآن بأنه (أضغاث أحلام)، وقد جاء بأحسن لغة، وأفصح لسان؟!

وتارة قالوا بأنه: ﴿.. إِفْكٌ مُّفْتَرًى ..﴾ [سبأ: ٤٣] أي: كلام من أسوأ الكذب(٣)، تقوله الرسول ﷺ، واختلقه من تلقاء نفسه، فقال تعالى نافياً ذلك: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

وقال ـ سبحانه ـ معظماً هذا الأمر، ومبرئاً رسوله ﷺ من الكذب

---

(١) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٤٥، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢٨٦.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٣١١، وابن منظور، لسان العرب: مادة (ضغث).

(٣) انظر: نزهة القلوب: ص ٣٥.

والافتراء: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

ثم أمر الله رسوله أن:

- ﴿. . قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ . .﴾ [هود: ١٣].
- ثم ﴿. . قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ . .﴾ [يونس: ٣٨].
- ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].
- ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].
- ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

وتارة قالوا: ﴿. . أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي: أباطيلهم وترهاتهم[١]. وهذا هو أقل ما قاله المجرمون في القرآن، فهي تهمة جاهزة لا تحتاج إلى تفكير، ولذا؛ ما إن تتلى عليهم آيات الله حتى يقولوا ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

وتارة قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] أي «يُروى عن السحرة»[٢]، كما قالوا عن الرسول ﷺ: إنه ساحر. وهذا ما استقرّ عليه آخر رأيهم، خشية افتضاح أمرهم كما سبق قريباً من خبر اجتماعهم ومداولتهم بزعامة الوليد بن المغيرة[٣].

أما أهل الكتاب فإنهم وجّهوا سهام طعونهم وشكوكهم إلى القرآن خاصة، إذ هو الكتاب الذي يهدد وجودهم، ويقض مضاجعهم، وقد صرح بعضهم بأن هذا القرآن مادام موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع

---

(١) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ص ٩.
(٢) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٢٥٦.
(٣) انظر: ص ٢٩٢ من هذا الكتاب.

قوة في الأرض أن تخضعهم لغير دينهم الذي يدينون به وهو الإسلام، ولما كان هذا القرآن محفوظاً في الصدور لا في السطور فحسب، كان القضاء عليه قضاء حسيًّا من المستحيلات، ولذا سعى أعداء الله ـ من أهل الكتاب وغيرهم ـ إلى القضاء على هذا القرآن في النفوس قضاء معنويًّا، وذلك بصد المسلمين عنه بشتى الوسائل والطرق، وهو ما يُعبرّ عنه في الوقت الحاضر بـ (الغزو الفكري أو الثقافي)، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد.

وقد سبق طعن اليهود في مصدر هذا الكتاب، ومنزله على رسول الله ﷺ من عند الله، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ وسار على ذلك متأخروهم من أدعياء التجرد، وخدمة البحث العلمي، ممن امتلأت قلوبهم وبحوثهم ودراساتهم حقداً وحسداً على هذا الدين وأهله، وفيما يلي جملة من أقوالهم:

يقول المنصر (تاكلي): «يجب أن نستخدم القرآن ـ وهو أمضى سلاح في الإسلام ـ ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تماماً؛ يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً»[1].

ويقول أحدهم: «القرآن مجموع ملاحظات بينما كان محمد يعظ كان تلاميذه يدونونها على عجل»[2].

ويقول اللورد (كرومر) الذي كان حاكماً على مصر إبان الاستعمار الصليبي: «إن القرآن هو المسؤول عن تأخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة!».

ومن أقواله أيضاً: «لن يفلح الشرق ما لم يُرفع الحجاب عن وجه

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية (ط ٣؛ بيروت: المكتبة العصرية: ١٩٨٢م): ص ٤٠.

(٢) تاريخ محاضرات ج. إيزاك، نقلًا عن المصدر السابق: ص ٧٤ (بتصرف يسير).

المرأة، ويُغطى به القرآن»[1] .

وبعد؛ فإن القرآن سيبقى شامخاً ما بقي الليل والنهار حتى يأذن الله برفعه من الأرض حين يأتي وعده الحق، ولن يزداد مع مرور الأيام، وتوالي السهام إلا شموخاً وعلوًّا، كيف وقد تكفل الله ـ عز وجل ـ بحفظه، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

الأسلوب الرابع: الطعن في الدين:

قال تعالى في معرض حديثه عن المشركين: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ . . ﴾ [التوبة: ١٢].

وقال تعالى في معرض ذمه لطائفة من أهل الكتاب: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ . . ﴾ [النساء: ٤٦].

والطعن في الدين: القدح فيه بالثلب والعيب والانتقاص[2] .

فالمشركون جاهروا بذلك صراحة، أما اليهود والمنافقون فإنهم لجؤوا إلى الحيلة، فطعنوا في الدين بطرق ملتوية خفية، ومن أخطر هذه الطرق: إثارة الشبه المضللة حول مصداقية هذا الدين وصحته، ومن ذلك ما حدث عند تحويل القبلة، وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، فاستقبله بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . . ﴾ [البقرة: ١٤٤]، عند ذلك اختلف الناس، فكانوا أصنافاً، فأما المنافقون فقالوا: ما بالهم كانوا على قبلةٍ زماناً ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها!

---

(١) يراجع في ذلك كتاب: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله لجلال العالم (مكتبة الصحابة، جدة، ١٩٩٢م).

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٣٢٩.

وأما اليهود فقالوا: إن محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر.

وقال المشركون: تحير على محمد دينه، فتوجه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم، فأنزل الله ـ عز وجل ـ قوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ .. ﴾ [البقرة: ١٤٢][1].

هكذا يستغل المجرمون ـ بمختلف أصنافهم ـ الأحداث والمتغيرات، للتشكيك في مصداقية هذا الدين، والطعن فيه، والأمثلة على ذلك كثيرة لا أطيل بذكرها، وفيما ذكرته كفاية، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٢ ص ١٤، ١٥. وانظر: ابن القيم، زاد المعاد: ج ٣ ص ٦٦.

المبحث السادس
أساليب في التضييق والتعطيل والمنع

فكما أن الرسل ـ عليهم السلام ـ قد بُعثوا ـ في جملة ما بُعثوا به ـ للتضييق على الباطل ـ بجميع صوره ـ وتعطيله ومنعه، فكذلك المجرمون في صراعهم مع الحق، فإنهم لم يقر لهم قرار، ولم يهدأ لهم بال إلا بالتضييق على الحق، وتعطيله ومنعه؛ لأن في ظهوره خطراً على مصالحهم ورياساتهم الباطلة.

ولهم في ذلك أساليب عدة، ظهر لي منها ما يلي:

١ ـ منع الرسول والمؤمنين من إظهار دينهم.
٢ ـ منع الرسول من تبليغ الرسالة.
٣ ـ منع وصول الدعوة إلى الناس.
٤ ـ منع الناس من الدخول في الإسلام.
٥ ـ منع انتشار الدعوة.
٦ ـ منع الرسول والمؤمنين من الهجرة.
٧ ـ منع المؤمنين من حقوقهم المالية.
٨ ـ منع قيام الدولة الإسلامية.
٩ ـ منع الرسول والمؤمنين من دخول الحرم.
١٠ ـ منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها.

التفصيل:

الأسلوب الأول: منع الرسول والمؤمنين من إظهار دينهم:

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠].

أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنّ على عنقه. .[١] .

وفي رواية أنه مر برسول الله ﷺ وهو يصلي عند المقام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ، وانتهره. فقال: يا محمد. بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧، ١٨][٢] .

ثم نهى الله نبيه ﷺ عن طاعة ذلك المجرم، فقال سبحانه: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

وكما مُنع الرسول ﷺ من إظهار دينه، فقد مُنع المؤمنون كذلك، وعلى رأسهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشيًا، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَـرْكَ الغِماد[٣] لقيه ابن الدغنّة ـ وهو سيد القَارَة[٤] ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية﴾: ج ٤ ص ١٨٩٦ برقم ٤٦٧٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٣١٩ برم ٢٣٢٠، وصحح إسناده أحمد شاكر كما في تعليقه على المسند. وأخرجه أيضاً ابن جرير في التفسير: ج ١٢ ص ٦٤٨.

(٣) برك الغِماد (تُفتح الباء وتُكسر، وتُضم الغين وتُكسر): اسم موضع باليمن، وقيل: هو موضع وراء مكة بخمس ليال. (النهاية: ج ١ ص ١٢١).

(٤) القارة (بتخفيف الراء): قبيلة مشهورة. (انظر: فتح الباري: ج ٧ ص ٢٣٣).

يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُج مثله ولا يُخرج، أتُخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق؟! فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخفرك، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحبّ أن تسمع العرب أنّي أُخفرتُ في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أردّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل...[1].

---

(١) الحديث بطوله أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: ج ٣ ص ١٤١٧ برقم ٣٦٩٢.

هذه صورة واحدة لبعض ما كانت قريش تمارسه مع المؤمنين من منعهم من إظهار دينهم والمجاهرة به، ولو لم يقوموا بدعوة الناس ومخالطتهم، وذلك أن للحق تأثيراً فطريًّا في النفوس ولو لم ينطق به صاحبه، فما إن يراه الناس بأعينهم ممثلًا في دعاته الصادقين حتى تنزاح عن أبصار كثير منهم الغشاوة، ويستقر الإيمان في قلوبهم، ومن ثم يصعب رجوعهم إلى ملة الكفر، وهذا ما يخشاه المجرمون.

فإن عجزوا عن منع الرسول والمؤمنين من إظهار دينهم، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثاني: منع الرسول من تبليغ الرسالة:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ.. ﴾ [المائدة: ٦٧].

لقد مكث النبي ﷺ في بداية دعوته مستخفياً يدعو الناس سرًّا، حتى أمره الله ـ عز وجل ـ بالجهر بالدعوة وإظهارها بقوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤][١]، فتعرض ﷺ للأذى من قومه، وحاولوا منعه بشتى الوسائل والسبل، لكن الله عصمه وصانه بعمه أبي طالب، فكان يحميه ويحوطه ويذبّ عنه حتى كان مما قاله:

كذبتم وحق الله يُبزى[٢] محمد ... ولما نُطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل[٣]

فكان رسول الله ﷺ يبلغ دعوته محتمياً ـ بعد الله ـ بعمه أبي طالب، وكم حاولت قريش إقناع أبي طالب بالتخلي عن هذه الحماية لكنه كان يأبى، ومن ذلك ما أخرجه أبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٥٥٩.

(٢) (يُبزى) أي: يُقهر ويُغلب ويستذل.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٥، وابن منظور، لسان العرب: مادة (بزا): ج ١ ص ٢٧٨.

جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا، فيُسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفّه عنا فافعل. فقال لي: يا عقيل، التمس لي ابن عمك. فأخرجته من كبس من أكباس أبي طالب[1] فأقبل يمشي معي يطلب الفيء يمشي فيه فلا يقدر عليه، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال له أبو طالب: يا ابن أخي، والله ما علمتُ أن كنتَ لي لمطاعاً، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم، تُسمعهم ما يؤذيهم! فإن رأيت أن تكفّ عنهم؟ فحلّق ببصره إلى السماء، فقال: «**والله ما أنا بأقدر أن أدَعَ ما بُعثت به من أن يُشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**» فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين[2].

فلما توفي أبو طالب، وزالت الحماية عن رسول الله ﷺ، منعته قريش من تبليغ رسالة ربه، وضاعفت الأذى عليه، فخرج إلى الطائف ليؤدي مهمته في البلاغ، وليلتمس من أهلها النصرة والحماية، ويعرض عليهم ما جاء به من الهدى والنور، فلقي منهم أشد مما لقي من قومه، فعاد إلى مكة مهموماً طريداً، فلم يستطع دخولها إلا محتمياً بجوار المطعم بن عدي[3].

ثم إن رسول الله ﷺ بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، ويقول: «**ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**»[4].

---

(١) الكِبس: بيت صغير. (النهاية: ج ٤ ص ١٤٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ج ٦ ص ١٩١، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٥: «ورجاله رجال الصحيح». وقد سبق بنحوه. انظر: ص ٢٤.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٨١.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القرآن: ج ٥ ص ١٠٣ برقم ٤٧٣٤. والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ٢٤: ج ٥ ص ١٨٤ برقم ٢٩٢٥، وقال: هذا حديث غريب صحيح. وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية: ج ١ ص ٣٩ برقم ١٨٩. وقال=

وفي بعض الروايات أنه ﷺ كان يكلّم كل شريف قوم، فيقول: «**إنما أريد أن تحرزوني**[١] **مما يُراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء**» فلم يقبله أحد، ويقولون: قومه أعلم به، أترون أن رجلًا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه!. فكان ذلك مما ذخر الله للأنصار[٢] حيث شرح الله صدورهم لقبوله، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، فكان ﷺ في منعة وأمان، حتى نزل قوله تعالى: ﴿.. وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ..﴾ [المائدة: ٦٧]، فتولى الله حراسته وحمايته.

أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿.. والله يعصمك من الناس..﴾ فأخرج رأسه من القبة، فقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله..**»[٣].

وفي بداية العهد المدني، حاول بعض المجرمين من الكفرة ـ ممن انغمسوا في النفاق بعدئذ ـ منع رسول الله ﷺ من تبليغ دعوته في مجالسهم، فلما ظهر ﷺ على المشركين يوم بدر، كفّوا عن المجاهرة بذلك، وأظهروا الإسلام، وقالوا هذا أمر قد توجه[٤]. ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ ركب على حمار، وأردف أسامة وراءه، يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر، فسار حتى مر بمجلس فيه عبدالله بن أُبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبدالله، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما

= الذهبي في السيرة النبوية (ص ١٨٥): على شرط البخاري.

(١) أي: تحفظوني.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية: ص ١٨٥ (باختصار).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير: ج ٢ ص ٣١٣. والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب رقم ٦: ج ٥ ص ٢٣٤، ٢٣٥. وانظر: الذهبي، السيرة النبوية: ص ٨٦.

(٤) انظر: ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

غشيت المجلس عَجَاجَةُ الدابة، خمّر عبدالله بن أبي أنفه بردائه، قال: لا تغبرّوا علينا. فسلم النبي ﷺ ووقف، ونزل فدعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن، فقال له عبدالله بن أبي: يا أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا، فلا تؤذنا به في مجالسنا، وارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه. قال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، فركب النبي ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له: «**أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب**» يريد عبدالله بن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فلقد أعطاك الله ما أعطاك، ولقد اجتمع أهل هذه البحرة[١] أن يتوّجوه فيعصّبوه، فلما رُد ذلك بالحق الذي أعطاك شرِق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت[٢] .

وهكذا حاول اليهود بعد ذلك منع الدعوة، وسلكوا في ذلك شتى السبل، ولكن الله ـ عز وجل ـ خيبهم جميعاً، كيف وقد تولى الله ـ سبحانه ـ حفظ نبيه من قبل، وعصمته من الناس من بعد حتى يبلغ دعوة ربه.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ومن عصمة الله لرسوله ﷺ حفظُه من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً ـ بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته. . فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه

---

(١) البحرة: البلدة. (النهاية: ج ١ ص ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب عيادة المريض راكباً وماشياً وردفاً على الحمار: ج ٥ ص ٢١٤٣ برقم ٥٣٣٩. ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله، وصبره على أذى المنافقين: ج ٥ ص ١٨٢ برقم ١١٦.

وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمه أبو طالب، نال منه المشركون أذى يسيراً ثم قيّض الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، وكلما همّ به أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به، وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جدًّا يطول ذكرها..»[١].

والمقصود أن منع الرسول ﷺ من تبليغ رسالة ربه غاية ما سعى إليه المجرمون.

فإن عجزوا عن ذلك، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثالث: منع وصول الدعوة إلى الناس:

ولهم في ذلك أساليب عدة، منها:

١ ـ التشويش:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

واللغو: «الكلام الذي لا نفع فيه»[٢].

ومعنى (الغوا فيه): أي الغطوا فيه بالباطل، من المكاء والتصفير والتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ، حتى لا يُسمع منه القرآن ولا يُفهم معناه، وكانت قريش تفعل ذلك.

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: «كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويُصفّرون ويصفّقون؛ يخلطون عليه طوافه وصلاته»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٧٩.

(٢) السجستاني، نزهة القلوب: ص ٣٧.

(٣) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان: ج ١ ص ٢٤٤.

وقولهم: (لعلكم تغلبون): أي لعلكم بفعلكم هذا أن تحولوا بين الناس وبين سماع القرآن، أو فهمه إن سُمِع، ومن ثم ترك اتّباعه والإيمان به، فتغلبون بذلك محمداً[١].

٢ ـ التطويق والحصار:

ومن ذلك ما فعلته قريش من محاصرة الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين في شعب أبي طالب[٢]، وهذا الأسلوب هو أقصى ما فعلوه في تطويق الدعوة ومنعها حتى لا تصل إلى الناس، وقد فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً، فلم تلق الدعوة إلا مزيداً من التعاطف والتأييد من بعض المشركين، بل كانت سبباً في اختلافهم وتنازعهم وتفرقهم.

فإن وصلت الدعوة إلى الناس، وعجز المجرمون عن منعها، لجؤوا إلى:

الأسلوب الرابع: منع الناس من الدخول في الإسلام:

قال تعالى في وصف المجرم المكذّب: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ..﴾ [القلم: ١٢].

والخير هنا عامّ، وخصه بعضهم بالمال، و«الأحسن عموم الخير في المال وغيره»[٣]، ويدخل في ذلك ـ كما ذكر بعض المفسرين ـ: ترك الإنفاق على من أسلم أو أراد الإسلام، لمنعه من الدخول فيه.

قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ﴿مناع للخير..﴾ أي للإسلام؛ يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دخل واحد منكم في دين محمد، لا أنفعه بشيء أبداً»[٤].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ١٠٤، ١٠٥. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٩٨.

(٢) انظر: ص ٢١٤.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط: ج ٨ ص ١٢٥.

(٤) معالم التنزيل: ج ٨ ص ١٩٢. وانظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص ٢٣٣. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص ٢٣٢.

ولقد تفنن المجرمون من المشركين في أذى المؤمنين المستضعفين، من أجل منعهم من اعتناق هذا الدين، أو الثبات عليه، فساموهم سوء العذاب، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس[1] تنكيلاً بهم، وحتى الذين قدموا من خارج مكة ـ ممن لا سلطة لأهل مكة عليهم ـ لم يسلموا من أذى قريش ومحاولاتها للحيلولة بينهم وبين اعتناق الإسلام، ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في السيرة، قال: «. . ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً، أو قريباً من ذلك، من النصارى حين ظهر خبره، من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه فكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم؟! ما نعلم ركباً أحمق منكم. . أو كما قالوا لهم، فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا أنفسنا خيراً. . .»[2].

وهكذا ذهبت محاولات المجرمين أدراج الرياح، عندها لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك قريباً ـ إن شاءالله تعالى ـ في مبحث أساليب التنكيل والبطش. انظر: ص ٣٤٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق المسماة بـ كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، (ط ٢؛ تركيا: الوقف للخدمات الخيرية: ١٤٠١هـ): ص ١٩٩، ٢٠٠.

الأسلوب الخامس: منع انتشار الدعوة في الآفاق:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩].

لما ضاقت برسول الله ﷺ السبل، واشتد به أذى المشركين، لجأ إلى أسلوب آخر يضمن للدعوة بقاءها واستمرارها، وهذا الأسلوب هو محاولة نقل الدعوة إلى بيئة أخرى مناسبة، ومكان آمن تنطلق منه، فكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل في المواسم والأسواق وغيرها من التجمعات المعروفة، فأحسّت قريش بخطر هذا التوجه، وسعت إلى منعه ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، ومن ذلك، ما كان يصنعه أبو لهب عم الرسول ﷺ، فعن ربيعة بن عباد رضي الله عنه قال: رأيت أبا لهب بعكاظ، وهو يتبع رسول الله ﷺ وهو يقول: يا أيها الناس، إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على إثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه: أحول، ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم. يعني أبا لهب[1].

وقد كان لذلك أثره البين، فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: لبث رسول الله ﷺ عشر سنين، يتبع الحاج في منازلهم؛ في الموسم، وبمجنة، وبعكاظ وبمنازلهم بمنى، يقول: «**من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي عز وجل، وله الجنة**» فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه، حتى إن الرجل يرحل من مضر أو من اليمن، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ يشيرون

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٣ ص ٦٤٦ برقم ١٦٠٠٠. وقد سبق بنحوه. انظر: ص ١٧٧.

إليه بالأصابع . . »[١] .

فإن انتشرت الدعوة في الآفاق، وكان لها أتباع في الخارج، لجأ المجرمون إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب السادس: منع الرسول والمؤمنين من الهجرة:

أما الرسول ﷺ، فإنهم لما علموا بعزمه على الخروج والهجرة، بادروا إلى عقد اجتماع طارىء في دار الندوة للتباحث في شأنه، وقد استقر رأيهم أخيراً ـ بمباركة الشيطان ـ على أن يمنعوه من الخروج والهجرة، وذلك بإراقة دمه على يد فتية من كل قبيلة من قبائل مكة، ليضيع دمه بين القبائل، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، لكن الله أبى إلا أن يتمم لنبيه ﷺ هجرته، فخرج عليه الصلاة والسلام مهاجراً ـ على الرغم من الحصار المفروض على داره ـ وبصحبته الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه، فلما علمت قريش بخروجه، أعلنت عن جائزة مجزية لمن يأتي به حيًّا أو ميتاً، كل ذلك من أجل منعه من الخروج، ولكن الله خيب سعيهم، وحفظ نبيه ﷺ من كيدهم، فكان عليه الصلاة والسلام يقول لصاحبه وهو يرى أقدام الكفار عند باب الغار: ﴿ . . لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا . . ﴾ [التوبة: ٤٠]، ويقول له: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما**»[٢] ، فكانت عين الله ترعاهما حتى وصلا إلى المدينة.

وأما المؤمنون، فقد هاجر منهم من هاجر مستخفياً، ومُنع من مُنع، منهم: الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وغيرهم

---

(١) المصدر السابق: ج ٣ ص ٤٣١ برقم ١٤٦٣٦، والذهبي، السيرة النبوية: ص ٢٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم: ج ٣ ص ١٣٣٧ برقم ٣٤٥٣. ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ج ٧ ص ١٠٨ برقم ١ .

من المستضعفين، فكان النبي ﷺ يدعو لهم في الصلاة حين يرفع رأسه من الركوع، فيقول: «**اللهم أنجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف. . .**»[١] .

وممن مُنع من الهجرة: أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وكان زوجها أبو سلمة بن عبدالأسد رضي الله عنه هو أول من هاجر إلى المدينة فارًّا بدينه، وكان من شأنها في ذلك ما روته بنفسها، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج، رحّل لي بعيره، ثم حملني وابني عليه، ثم خرج بي يقودني، فلما رأته رجال بني المغيرة [قوم أم سلمة] قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها؛ أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟! فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك رهط أبي سلمة، فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم. .[٢] .

وممن مُنع من الهجرة أيضاً: أبو يحيى، صهيب الرومي ـ رضي الله عنه ـ لكنه افتدى نفسه بماله فتركوه، وذلك أنه لما أراد الهجرة لحقوه، وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك! فقال لهم: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. .[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد: ج ١ ص ٢٧٧ برقم ٧٧١، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة: ج ٢ ص ١٣٤ برقم ٢٩٥.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية: ص ٢١٢. وابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٦٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٧٧. وصحح إسنادها الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (ط ١؛ دمشق: دار القلم: ١٤٠٢هـ): ص ١٥٧.

وفي رواية، أنه لما هاجر تبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم رجلًا، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي كل سهم معي في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة، وخليتم سبيلي. قالوا: نعم. فلما قدم على النبي ﷺ المدينة، قال: «**ربح البيع أبا يحيى، ربح أبا يحيى**»، ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧][1].

ومثل ذلك صنع المشركون بكل من أراد الهجرة من المؤمنين، إلا من خرج مستخفياً، أو كانت له منعة وقوة كعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأمثاله، فلم يجرؤوا على منعه.

وقد بقي في مكة بعض المستضعفين من المؤمنين، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، حتى أذن الله بالفرج، وذلك يوم فتح مكة، حتى قال النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»[2].

فلما عجز المجرمون من المشركين عن منع الرسول ﷺ والمؤمنين من الهجرة، لجؤوا إلى:

الأسلوب السابع: منع المؤمنين من حقوقهم المالية:

وقد سبق قريباً خبر صهيب رضي الله عنه.

ومن ذلك أيضاً ما حصل لخباب بن الأرت رضي الله عنه ففي الصحيح عنه رضي الله عنه أنه قال: كنت قيناً في الجاهلية، وكان لي على

---

(١) السيوطي، لباب النقول: ص ٣٤. وانظر: الطبري، جامع البيان: ج ٢ ص ٣٣٣. وابن حجر، الإصابة: ج ٢ ص ١٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير: ج ١٠٢٥٣ برقم ٢٦٣١.

العاص بن وائل دراهم، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يبعثك. قال: فدعني حتى أموت ثم أبعث فأوتي مالاً وولداً ثم أقضيك. فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧](١).

فإن حصل المؤمنون على حقوقهم المالية، لجأ المجرمون إلى:

الأسلوب الثامن: منع قيام الدولة الإسلامية:

لقد كان أخشى ما يخشاه المجرمون من أعداء الرسل، هو أن تقوم للرسول ﷺ والمؤمنين دولة تحميهم، وتكون قاعدة لتجمعاتهم، ومنطلقاً لتحركاتهم ونشاطاتهم، ولأجل هذا سعوا بكل جهدهم إلى منع قيام هذه الدولة، والقضاء عليها في مهدها، بل قبل أن تولد، وكانت أولى محاولاتهم الفاشلة في ذلك، ما تعاقدوا عليه من السعي إلى قتل النبي ﷺ قبل هجرته. ثم خروجهم يوم بدر على إثر نجاة عيرهم، وقول أبي جهل لما أشار بعضهم بالرجوع: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً.. فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالوان يهابوننا أبداً»(٢)، ثم خروجهم يوم أحد بمن تبقى من طواغيتهم وما لحق بالمسلمين من الهزيمة بسبب عصيان الرسول ﷺ، وعزم المشركين على الرجوع لاستئصالهم والقضاء عليهم لولا أن الله لطف وسلّم، ثم ما حصل يوم الأحزاب من اجتماع قوى الشر جميعاً، من المشركين واليهود وجفاة الأعراب، وعزمهم على اقتلاع دولة الإسلام في المدينة من جذورها، لكن الله ـ عز وجل ـ نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وكانت هذه هي آخر محاولاتهم الفاشلة لمنع قيام دولة الإسلام في المدينة، حتى قال الرسول ﷺ بعدها: «**الآن نغزوهم**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب التقاضي: ج ٢ ص ٨٥٤ برقم ٢٢٩٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ٢٦٦ (باختصار يسير).

ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[١] ، وتحقق ما قاله ﷺ، فلم تمض سنوات معدودة حتى سار إليهم رسول الله ﷺ بجيوش ملأت السهل والوادي، وفتح الله لنبيه ﷺ مكة عاصمة الشرك والوثنية آنذاك، لتحل محلها دولة التوحيد والعدل والإيمان، ومن ثم دانت الجزيرة كلها للرسول ﷺ والمؤمنين، بل دان العالم بأسره، وأظهر الله دينه على الدين كله، وخاب المجرمون.

ومن أساليب المجرمين في المنع:

الأسلوب التاسع: منع الرسول والمؤمنين من دخول الحرم:

وسيأتي الحديث عن ذلك ـ إن شاءالله ـ في الأساليب التي يختص بها المشركون[٢] .

الأسلوب العاشر: منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه والسعي في خرابها:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ . . ﴾ [البقرة: ١١٤].

وهذا أعم من الذي قبله، فيدخل فيه كل من منع مسجداً من مساجد الله ـ عز وجل ـ أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها حسيًّا أو معنويًّا، فأما خرابها الحسي فيكون بهدمها أو إغلاقها وتعطيلها. وأما خرابها المعنوي فيكون بمنع المؤمنين الصادقين من دخولها والقيام فيها، إذ أن ذلك مؤدٍ إلى خرابها الحسي[٣] .

قال السعدي ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية: «وهذا عام لكل من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق: ج ٤ ص ١٥٠٩ برقم ٣٨٨٤.

(٢) انظر: ص ٣٨٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١ ص ٤٥٥. والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ١٢٦. والدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم: ج ٢ ص ٣١٣.

اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها محادة لله ومشاقة. . . »[1] .

بل ذهب ابن عطية ـ رحمه الله ـ إلى أبعد من ذلك، فقال: «وهذه الآية تتناول كل مَن منع من مسجد إلى يوم القيامة، أو خرّب مدينة إسلام؛ لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة؛ إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة»[2] .

والمقصود أن المساجد هي الجامعات الحقيقية التي تتربى فيها الأجيال، ويتخرج فيها الرجال والأبطال، فلا غرابة أن يتسلط عليها أعداء الرسل منعاً وتخريباً وتعطيلاً، حسيًّا إن قدروا، أو معنويًّا لتبقى جسداً بلا روح، شامخة البنيان، خاوية الأركان.

هذا ما ظهر لي في القرآن الكريم من أساليب المجرمين في التضييق والتعطيل والمنع، والله تعالى أعلم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ١٢٧.
(٢) المحرر الوجيز: ج ١ ص ٤٥٤.

المبحث السابع
أساليب في الأذى والتنكيل والبطش

قال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى . . ﴾ [آل عمران: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا . . ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالى منكراً على قوم عاد: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وهذا هو آخر سهم في جعبة المجرمين يطلقونه.

فأما الأذى فهو كثير في حياة الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم من المؤمنين، بل إن الله أخبر ـ كما في الآية الأولى ـ أن المجرمين لن يضروا المؤمنين فيما يكيدونهم به إلا أذى، فنفى لحوق الضرر بهم، وأثبت وقوع الأذى الذي يقع في الغالب على الظاهر وهو الجسد، أما الروح فإنها معلقة بالله تعالى، بل إنها ـ أحياناً ـ لتلتذّ بالأذى في سبيل الله، فلا سبيل للمجرمين إلى الوصول إليها إلا بإزهاقها، وهذا أيضاً بيد الله ـ عز وجل ـ وحده.

هذا، وقد علق الله ـ عز وجل ـ نفي الضرر بوجود أمرين مهمين، هما: الصبر والتقوى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ . . وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا . . ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وجمع ذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ . . ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فبالصبر والتقوى يتم الاهتداء، وبالاهتداء ينتفي الضرر، وبقدر التفريط في هذا الأمر يكون الضرر، والله تعالى أعلم.

وأما التنكيل والبطش، فليس بعد قتلهم الأنبياء والرسل من شيء.

وفيما يلي، ما ظهر لي من أساليبهم في الأذى والتنكيل والبطش:

١ ـ نبز الرسول والمؤمنين.
٢ ـ السب والشتم.
٣ ـ الضرب والإهانة.
٤ ـ الإثبات.
٥ ـ التعذيب والفتنة.
٦ ـ الاستفزاز من الأرض.
٧ ـ الإخراج.
٨ ـ المظاهرة على إخراج الرسول.
٩ ـ حشد جميع القوى والطاقات.
١٠ ـ رصّ الصفوف وتوحيدها.
١١ ـ الملاحقة والمطاردة.
١٢ ـ المقاتلة.
١٣ ـ شن الغارات للسلب والنهب وإضعاف دولة الرسول.
١٤ ـ القتل.

التفصيل:

الأسلوب الأول: نبز الرسول ﷺ والمؤمنين:

وتلقيبهم بألقاب غريبة بقصد التحريض على إيذائهم والنيل منهم.

قال تعالى ناهياً المؤمنين عن مشابهة المجرمين في ذلك: ﴿.. وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

فقد كان المشركون ينبزون الرسول ﷺ ومن آمن معه بالصباة،

فيقولون: فلان الصابىء، أو صبأ فلان[١]، أي: «خرج من دينه إلى دين آخر»[٢].

ومن ذلك، ما ذكره ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في السيرة، قال: حدثني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما أسلم عمر بن الخطاب قال: أي أهل مكة أنقل للحديث؟ قالوا: جميل بن معمر الجمحي. فخرج عمر، وخرجتُ وراء أبي، وأنا غليم أعقل كل ما رأيت، حتى أتاه، فقال: يا جميل، هل علمت أني أسلمتُ؟ فوالله ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه، وخرج عمر معه، وأنا مع أبي، حتى إذا قام على باب المسجد، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، إن عمر قد صبأ. فقال عمر: كذبت، ولكني أسلمتُ. فبادروه فقاتلهم وقاتلوه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم»... إلى آخر القصة[٣].

قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في مسائل الجاهلية: «المسألة الثامنة والخمسون: تلقيب أهل الهدى بالصباة والحشوية..»[٤].

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في تعليقه على المسائل: «فقد كان أهل الجاهلية يلقبون من خرج عن دينهم بالصابىء، كما كانوا يسمون رسول الله ﷺ بذلك، كما ورد في عدة أحاديث من صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، تنفيراً للناس عن اتباع غير سبيلهم، وهكذا تجد كثيراً من هذه الأمة يطلقون

---

(١) انظر: صحيح البخاري: ج ١ ص ١٣٠، وج٣ ص ١٢٩٤.

(٢) السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٢٢، ١٢٣. وانظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ٢٥١.

(٣) سيرة ابن إسحاق: ص ١٦٤.

(٤) مسائل الجاهلية: ص ٢٨. والحشوية: قوم كانوا يقولون بجواز ورود ما لا معنى له في الكتاب والسنة. وخصوم السلف يرمون السلف بهذا اللقب، تنفيراً للناس من اتّباعهم لأنهم يثبتون لله الأسماء والصفات كما جاءت على وجه يليق بجلاله سبحانه، ويقولون بالفوقية، وأن الله في السماء. (انظر: الألوسي، مسائل الجاهلية: ص ٩٤ ـ ٩٩).

على من خالفهم في بدعهم وأهوائهم أسماء مكروهة للناس . . »[١] .

كان هذه هو مبدأ أذاهم للرسول ﷺ والمؤمنين. فإن رأوا منهم إصراراً على دينهم وتشبثاً به، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثاني: السب والشتم:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ذكر الصنعاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره، عن قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: «كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . ﴾[٢] .

وفي رواية أنهم قالوا: لتكفنّ عن شتمك آلهتنا، أو لنشتمن من يأمرك . .[٣] .

وقد فعلوا ذلك، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ . . وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا . . ﴾ [الإسراء: ١١٠]، قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ . . ﴾، أي: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن. ﴿ . . وَلَا تُخَافِتْ بِهَا . . ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿ . . وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٤] .

---

(١) المصدر السابق: ص ٩٤.

(٢) عبدالرزاق الصنعاني، تفسير القرآن العزيز المسمى: تفسير عبدالرزاق (ط ١؛ بيروت: دار المعرفة: ١٤١١هـ) ج ١ ص ٢٠٨. وانظر: السيوطي، لباب النقول: ص ١١٠.

(٣) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ١٢٧. وانظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (ط ٢؛ بيروت: دار المعرفة: ١٣٩٣هـ) ج ٧ ص ٦٦٣ ـ ٦٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾: ج ٤ ص ١٧٤٩ برقم ٤٤٤٥. ومسلم في كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة=

وشتان بين من يسب مخلوقاً لا يملك لنفسه ـ فضلًا عن غيره ـ ضَّرا ولا نفعاً، ومن يسب الخالق سبحانه، رب العالمين، الذي بيده وحده الضر والنفع!

وإذا كانوا قد تجرؤوا على سب الخالق سبحانه، فمن دونه من باب أولى، وهذا ما صنعوه برسول الله ﷺ، والمؤمنين.

فأما الرسول ﷺ فقد بالغوا في إيذائه وشتمه، ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في السيرة، أن أبا جهل «اعترضه عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ومولاة لعبدالله بن جدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادٍ لقريش عند الكعبة، فجلس معهم، ولم يلبث حمزة بن عبدالمطلب أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له، فكان لا يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك، لا يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز قريش، وأشدها شكيمة، وكان يومئذ مشركاً على دين قومه، فلما مر بالمولاة، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم آنفاً، وجده هاهنا، فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب، فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع، معدًّا لأبي جهل أن يقع به، فلما دخل المسجد، نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس وضربه بها ضربة شجه بها شجة منكرة،

= الجهرية بين الجهر والإسرار: ج ٢ ص ٣٤ برقم ١٤٥.

وقامت رجال من قريش، من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت! قال حمزة: وما يمنعني منه وقد استبان لي منه ذلك، وأنا أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً..»[١].

ومن ذلك: تسميتهم له (مذمماً) مسبة له ﷺ، فقد روي أنه «لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها حجر وهي تقول:

مذمّماً أبينا   ودينه قلينا   وأمره عصينا..

ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك. فقال: «**إنها لن تراني**» وقرأ قرآناً اعتصم به منها، قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها..»[٢].

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مذمماً، ثم يسبونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تعجبون كيف يصرف**

---

(١) سيرة ابن إسحاق: ص ١٥١، ١٥٢ (بتصرف يسير).

(٢) أخرجه الحميدي في مسنده (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٩هـ): ج ١ ص ١٥٣ برقم ٣٢٣. وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده بنحوه مختصراً: ج ١ ص ٤٦، ٤٧ برقم ٢٥. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٥، ٣٥٦. والذهبي، السيرة النبوية: ج ٣ ص ٨٣، ٨٤. وابن حجر، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: ج ٣ ص ٣٩٩.

الله عني شتم قريش ولعنهم؛ يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد»[١] .

ومن ذلك أيضاً، تسميتهم له بابن أبي كبشة، نسبة إلى أحد أجداده لأمه، يريدون بذلك مسبته وانتقاصه؛ لأن من عادة العرب إذا انتقصت أحداً أن تنسبه إلى جد غامض غير معروف[٢] ، هذا مع يقينهم بصدق الرسول ﷺ، وأنه نبي مرسل، ففي الصحيحين من حديث أبي سفيان الطويل وقصته مع هرقل عظيم الروم، وفي آخره أن أبا سفيان قال: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. ثم قال: فمازلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام»[٣] .

هـذه صـورة واحـدة مـن صـور إصرار المشركين على شركهـم[٤] ، ومسبتهم الرسول ﷺ، مع ما ظهر لهم من دلائل نبوته وصدقه.

أما المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فقد نالهم حظ وافر من السب والشتم، ومن ذلك ما أخرجه البخاري في التاريخ، عن مسعود بن خراش رضي الله عنه قال: بينا نحن نطوف بين الصفا والمروة، إذا أناس كثير يتبعون فتى شابًّا موثقاً بيده في عنقه. قلت: ما شأنه؟! قالوا: هذا طلحة بن عبيدالله صبأ. وامرأة وراءه تدمدم وتسبه. قلت: من هذه؟! قالوا: الصعبة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء الرسول ﷺ: ج ٣ ص ١٣٠٠ برقم ٣٣٤٠. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٦.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ١ ص ٤٠. وابن الأثير، النهاية: ج ٤ ص ١٤٤.

(٣) أخرج الحديث بطوله البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ؛: ج ١ ص ٨ ـ ١٠ برقم ٧. ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: ج ٥ ص ١٦٣ ـ ١٦٦ برقم ٧٤.

(٤) قد أسلم أبو سفيان رضي الله عنه، وحسن إسلامه، وصار في عداد الصحابة الأبرار، رضي الله عنهم أجمعين، وما ذُكر هنا لا يغض من منزلته؛ فإن الإسلام يهدم ما كان قبله.

بنت الحضرمي أمه[١] .

وهذا ما كان يصنعه أبو جهل بالمستضعفين من المؤمنين، كان يأتيهم وهم في أدراع الحديد، فيشتمهم، ويوبخهم، ويتوعدهم بالعذاب الشديد[٢] .

أما اليهود والمنافقون فإنهم كانوا يتحايلون على سب النبي ﷺ، ففي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان اليهود يسلّمون على النبي ﷺ، يقولون: السام عليك، ففطنت عائشة إلى قولهم، فقالت: عليكم السام واللعنة. فقال النبي ﷺ: «**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» الحديث[٣] .

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجأ المجرمون إلى:

الأسلوب الثالث: الضرب والإهانة:

قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ. . ﴾ [الممتحنة: ٢].

وقد تعرض الرسول ﷺ، ومن معه من المؤمنين لشيء من ذلك، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال: لما مات أبو طالب، عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش، فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: «**أي بنية، لا تبكي فإن الله مانع أباك. .**»[٤] .

---

(١) البخاري، التاريخ الصغير (ط ١؛ حلب: دار الوعي: ١٣٩٧هـ) ج ١ ص ٨٨.

(٢) انظر: أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (ط ٣؛ بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤٠٠هـ) ج ١ ص ١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين: ج ٥ ص ٢٣٤٩ برقم ٦٠٣٢، ومسلم في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام: ج ٧ ص ٤ برقم ١٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٣٤.

وأشد من ذلك، ما أخرجه الشيخان، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا النبي ﷺ ساجد، وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور[١]، فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع، فقال النبي ﷺ: «**اللهم عليك الملأ من قريش. .**» الحديث[٢].

وأشد من ذلك كله، ما لقيه من أهل الطائف، ففي الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: «**لقد لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم: يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب. .**»[٣].

وفي بعض كتب السير، أنهم أغروا به السفهاء، فقعدوا له صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة، وهم في ذلك يستهزؤون ويسخرون، فما خلص منهم

---

(١) السلى: هو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، والجزور: البعير، ذكراً كان أو أنثى (النهاية: ج ١ ص ٢٦٦ وج ٢ ص ٣٩٦). والمقصود أنهم أرادوا إهانته بوضع النجاسة عليه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة: ج ٣ ص ١٣٩٩ برقم ٣٦٤١. ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين: ج ٥ ص ١٧٩ برقم ١٠٨.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء. . . : ج ٣ ص ١١٨ برقم ٣٠٥٩. ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين: ج ٥ ص ١٨١. وقرن الثعالب هو قرن المنازل الذي يحرم منه أهل نجد.

إلا وقدماه تسيلان الدماء، وهو موجَع مكروب. .»[١] .

ولعل السبب في كون ذلك اليوم أشدّ عليه من غيره، أنه اجتمع عليه فيه نوعي الأذى: الحسّي والمعنويّ، الجسدي والنفسي، فهو قد خرج من مكة طريداً وحيداً وهو يرجو النصرة من أهل الطائف، فإذ بهم يكونون عليه أشد من قومه الذين أخرجوه، وينال منهم من الأذى الجسدي والسخرية والتكذيب، ما لم ينله من قومه.

أما يوم أحد، وما أدراك ما يوم أحد، فقد كُسرت رباعيته، وشجّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟!**» فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ. . ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»[٢] .

وكماتعرض نبينا ﷺ للضرب والإهانة، فقد تعرض غيره من الأنبياء والرسل لشيء من ذلك، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء[٣] ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[٤] .

أما المؤمنون من أتباع الرسل، ـ فقد نال بعضهم من ذلك ما لم ينل نبيًا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وفيما يلي ذكر بعض الأمثلة لا على سبيل الحصر:

---

(١) انظر: أبو نعيم، دلائل النبوة: ص ١٠٣. وابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد: ج ٣ ص ١٧٩. وذكره البخاري تعليقاً في كتاب المغازي، باب ﴿. ليس لك من الأمر شيء﴾: ج ٤ ص ١٤٩٣.

(٣) يحكي نبيًا من الأنبياء: أي يفعل مثل فعله، مصوراً حاله وواصفاً فعله، يقال: حكاه، وحاكاه. . (انظر: النهاية: ج ١ ص ٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم. . ﴾ ج ٣ ص ١٢٨٢ برقم ٣٢٩٠. ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد: ج ٥ ص ١٧٩ برقم ١٠٥.

١ ـ روى ابن إسحاق في السيرة عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في قصة إعلان عمر إسلامه، وفيها أنهم ثاروا عليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، ويضربهم ويضربونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، فلما أعياه التعب قعد ـ رضي الله عنه ـ وقاموا على رأسه وهو يقول لهم: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنّا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا. . .[١] .

٢ ـ أخرج الشيخان عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قصة إسلام أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ وفيها أنه لما شهد شهادة الحق، قال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**» قال: قلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء. فقاموا، فضُربتُ لأموت، فأدركني العباس، فأكبّ عليّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم، تقتلون رجلًا من غفار، ومتجركم وممركم على غفار! فأقلعوا عني، فلما أن أصبحتُ الغد، رجعتُ، فقلتُ مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء. فصُنع بي مثل ما صُنع بالأمس، وأدركني العباس، فأكبّ عليّ، وقال مثل مقالته بالأمس. .[٢] .

وفي رواية لمسلم: فأتيت مكة، فتضعفت رجلًا منهم[٣] ، فقلت: أين

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق: ص ١٦٤. وابن كثير، البداية والنهاية: ج ٣ ص ٨٢، وقال: «وهذا إسناد جيد».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب قصة إسلام أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: ج ٣ ص ١٢٩٤ برقم ٣٣٢٨. ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر: ج ٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٧ برقم ١٣٣.

(٣) أي نظرت إلى أضعفهم فسألته، لأن الضعيف مأمون الغائلة (النووي، شرح مسلم: ج ١٦ ص ٢٨).

هذا الذي تدعونه الصابىء؟ فأشار إليّ، فقال: الصابىء.. فمال عليّ أهل الوادي بكل مدرة وعظم، حتى خررت مغشيًّا عليّ. قال: فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمر[١]. قال: فأتيت زمزم، فغسلتُ عني الدماء، وشربتُ من مائها..[٢].

وهذه غير الأولى، فهذه كانت قبل لقائه برسول الله ﷺ، وأما الأولى فكانت بعد لقائه به.

هذان أنموذجان فقط لما كان يصنعه المشركون بالمؤمنين من الضرب والإهانة، ولو ذهبتُ أستعرض كل ما لقيه المؤمنون من ذلك لطال بنا المقام، ففيما ذكرته كفاية إن شاءالله.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى:

الأسلوب الرابع: الإثبات:

وهو الحبس والتقييد ومنع الحركة[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ..﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى عن نبيه يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿.. فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أوّل من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي

---

(١) أي من كثرة الدماء التي سالت، والنصب: الصنم والحجر. كانت الجاهلية تنصبه، وتذبح عنده، فيحمرّ بالدم. (المصدر السابق، الصفحة نفسها).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر: ج ٧ ص ١٥٣ برقم ١٣٢.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثبت). والسجستاني، نزهة القلوب: ص ٢٢٧. وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ١ ص ٢٠٢. والشنقيطي، الترجمان والدليل: ج ١ ص ٦٣.

طالب، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس.. الحديث[١].

وممن أُثبت وأُوثق في الله: عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فقد أخرج ابن سعد، عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: لما أسلم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟! والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً، ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته في دينه، تركه[٢].

ومنهم: سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ فقد أخرج البخاري في صحيحه عن قيس قال: سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في مسجد الكوفة يقول: والله لقد رأيتني، وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر..[٣].

وفي رواية: «أنا وأخته»[٤] يعني: فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها.

ومنهم: خبيب بن عدي ـ رضي الله عنه ـ فقد أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ قصة أسره وقتله هو وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ على أيدي المشركين بعد أحد، وفيها: أن حيّاً من هذيل أسروه فباعوه بمكة فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، ـ وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر ـ فمكث

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٥٠٥ برقم ٣٨٣١. وابن ماجه في المقدمة: ج ١ ص ٢٩ برقم ١٣٧. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأحمد شاكر كما في تعليقه على المسند.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ط ١؛ مصر: مطبعة السعادة: ١٣٧١هـ) ص ١٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب إسلام سعيد بن زيد رضي الله عنه: ج ٣ ص ١٤٠٢ برقم ٣٦٤٩.

(٤) المصدر السابق: ج ٣ ص ١٤٠٤ برقم ٣٦٥٤.

عندهم أسيراً موثقاً، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها، فأعارته. قالت: فغفلتُ عن صبيّ لي، فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاءالله. وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قِطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد... الحديث[١].

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى:

الأسلوب الخامس: التعذيب والفتنة:

قال تعالى: ﴿.. وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ..﴾ [البقرة: ١٩١].

وفي موضع آخر: ﴿.. وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ..﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ: «الفتنة: الكفر والشرك.. أو التعذيب الحاصل للمؤمنين ليرجعوا عن الإسلام، فهي أكبر جرماً من القتل. والمعنى عند جمهور المفسرين: أن الفتنة التي تفتن المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أشد اجتراماً من قتلهم إياكم في المسجد الحرام..»[٢].

واستظهر ـ رحمه الله ـ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟..﴾ [البروج: ١٠]، فقال: «والظاهر أن: (الذين فتنوا) عام في كل من ابتلى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذى..»[٣].

ويؤيد ذلك، إن هذه الآيات نزلت والمؤمنون يُعذَّبون ويُفتنون في مكة

---

(١) أخرجه البخاري بطوله في كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع وذكوان..: ج ٤ ص ١٤٩٩ برقم: ٣٨٥٨.

(٢) البحر المحيط: ج ٢ ص ١٥٨ (باختصار يسير). وانظر: جامع البيان: ج ٢ ص ١٩٧. وزاد المعاد: ج ٣ ص ١٦٩.

(٣) البحر المحيط: ج ٨ ص ٤٤٤.

على أيدي مجرمي قريش، فكانت عليهم كالماء البارد للظمآن في الهاجرة، وهي على المشركين كالسياط اللاذعة[١] .

وإذا كان الله ـ عز وجل ـ قد أكرم رسله ـ في الجملة ـ من أن تنالهم أيدي المجرمين بالتعذيب والتنكيل؛ فإن أتباعهم من المؤمنين قد نالهم من ذلك ما لا يطيقه حجر فضلاً عن بشر، وقد سبق قريباً حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ[٢] ، أن أول من أظهر إسلامه سبعة. . إلى قوله: فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد.

وأخرج ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في السيرة، عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ قال: قلت لابن عباس: يا أبا عباس، أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ فقال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى إنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. وحتى إن الجُعَل[٣] ليمرّ بهم، فيقولون: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداءً منهم لما يبلغون من جهده[٤] .

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ٣٧٦.

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص ٣٤٤.

(٣) الجُعَل: حيوان معروف كالخنفساء، يدهده النجاسات بأنفه (لسان العرب: مادة: جعل).

(٤) سيرة ابن إسحاق: ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

ومن عُذّب في سبيل الله: بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ وقد سبق قريباً حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: كان لبعض بني جُمَح. . وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول: لا والله، لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول، وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحد(١).

ومنهم: الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ حواري رسول الله ﷺ(٢)، وابن عمته. فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي الأسود، قال: أسلم الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن ثمان سنين، وهاجر وهو ابن ثماني عشرة سنة، وكان عم الزبير يعلّق الزبير في حصير، ويدخّن عليه بالنار، وهو يقول: ارجع إلى الكفر. فيقول الزبير: لا أكفر أبداً(٣).

ومنهم: خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ فقد كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو أول من أظهر إسلامه وعُذّب عذاباً شديداً لأجل ذلك(٤).

أخرج ابن عبدالبر عن الشعبي ـ رحمهما الله ـ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل خباباً عما لقي من المشركين. فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري. فنظر، فقال: ما رأيت كاليوم. قال خباب: لقد أُوقدت لي

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣١٧، ٣١٨. وابن حجر، الإصابة: ج ١ ص ١٦٩.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حواريًا، وحواري الزبير» أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب فضل الطليعة: ج ٣ ص ١٠٤٦. ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير: ج ٧ ص ١٢٧ برقم ٤٨.

(٣) الحلية: ج ١ ص ٨٩. وانظر: الإصابة: ج ١ ص ٢٥٦.

(٤) انظر: الإصابة: ج ١ ص ٤١٦.

نار، وسُحبت عليها، فما أطفأها إلا ودَكُ ظهري[١] ، أي: شحمه.

ولما رجع علي ـ رضي الله عنه ـ من صفين، مر على قبر خباب فقال: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتُلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجره[٢] .

وقد بلغ به الجهد ـ رضي الله عنه ـ أن جاء يشكو إلى رسول الله ﷺ، ويستنصره على المشركين، ففي الصحيح عنه ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعوا الله؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال: **«لقد كان من قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه»**[٣] .

وفي رواية للبخاري: **«ولكنكم تستعجلون»** .

وممن عذب في سبيل الله أيضاً: آل ياسر، وهم: ياسر العنسي حليف آل مخزوم، وزوجته سمية بنت خباط، وهي أول شهيدة في الإسلام، وابنهما عمار ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ[٤] .

أخرج الطبراني وغيره، عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي عمار، وأم عمار [وهم يعذَّبون]: **«اصبروا آل**

---

(١) الاستيعاب (مع الإصابة): ج ١ ص ٤٢٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٤ ص ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة: ج ٣ ص ١٣٩٨ برقم ٣٦٣٩.

(٤) انظر: الإصابة: ج ٣ ص ٦١٠، و: ج ٤ ص ٣٢٧.

ياسر، موعدكم الجنة»[١] .

ولو ذهبت أستقصي أخبار كل من عذبوا في سبيل الله لطال بنا الحديث، ولكن فيما ذكرته كفاية إن شاءالله تعالى.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى:

الأسلوب السادس: الاستفزاز من الأرض:

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . .﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ . .﴾ [الإسراء: ١٠٣].

الاستفزاز: الإزعاج بسرعة[٢] ، والهدف منه التعجيل بإخراج المستفَزّ من الأرض التي هو فيها لينفرد بها المستفِزّ، وذلك بكثرة الأذى الذي من شأنه أن يؤدي إلى ذلك[٣] ، وسواء وقع منهم الاستفزاز أو قارب أن يقع[٤] ، فهو أسلوب من أساليبهم، همّوا به وإن لم يفعلوه، فهو داخل في حساباتهم، وهو أسلوب صبياني دني، وبقدر ما يدل على ما تحمله قلوبهم من مشاعر الحقد والبغضاء للرسول ﷺ والمؤمنين؛ بقدر ما يدل على ضعفهم وعجزهم عن مواجهة الحق بالبرهان والدليل، وإن فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من الأذى والتنكيل والبطش بالمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ٢٤ ص ٣٠٣ برقم ٧٦٩. قال الهيثمي في المجمع ج ٩ ص ٢٩٣: «ورجاله ثقات».

(٢) البغوي، معالم التنزيل: ج ٥ ص ١١٣.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٤ ص ٤١٤.

(٤) اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ . .﴾ هل وقع منهم الاستفزاز، ومن ثمّ كان خروجه ﷺ بسبب ذلك، أم أنه قارب الوقوع ولم يقع، وأن خروجه ﷺ كان بأمر ربه، لا بسبب استفزازهم له؟ على قولين مشهورين يذكرهما عامة المفسرين. انظر على سبيل المثال: البحر المحيط: ج ٦ ص ٦٣.

وقد ذُكر أيضاً أن أهل الكتاب لجؤوا إلى هذا الأسلوب، فقد أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه بلغه أن بعض اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن أرض الأنبياء أرض الشام، وإن هذه ليست بأرض الأنبياء. فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ . .﴾[١] . والصواب: أن الآية مكية، وأنها نزلت في المشركين[٢] وإن كان هذا لا يمنع من دخول اليهود في عموم الآية، وإن لم تكن نزلت في شأنهم، فالعبرة بعموم اللفظ، لاسيما وأن الله تعالى قد قال في الآية التي بعدها: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ . .﴾ [الإسراء: ٧٧]، فهي سنة ماضية، لا تبديل لها ولا تحويل، والله تعالى أعلم.

فإن لم يجدِ هذا الأسلوب، لجؤوا إلى:

الأسلوب الرابع: الإخراج:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ . .﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد فعلوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . .﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ . .﴾ [محمد: ١٣].

وفي الصحيحين، في حديث بدء الوحي الطويل، أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها

---

(١) جامع البيان: ج ٨ ص ١٢١.

(٢) وقد رجح هذا القول: ابن جرير، وابن كثير ـ رحمهما الله ـ بل رجحه عامة المفسرين.

جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجيّ هم؟!» قال: نعم. . . الحديث[(١)].

وكذا سائر الرسل ـ عليهم السلام ـ قد تعرضوا لذلك، فهذا لوط ـ عليه السلام ـ قال له قومه: ﴿. . لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وهذا شعيب ـ عليه السلام ـ قالوا له: ﴿. . لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . .﴾ [الأعراف: ٨٨].

وبالجملة، فقد قالت الأمم المكذبة لرسلها: ﴿. . لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . .﴾ [إبراهيم: ١٣].

وليس الرسل فحسب، بل حتى المؤمنين: ﴿. . فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ . .﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ . .﴾ [الحشر: ٨].

وكما همّ المشركون بإخراج الرسول ﷺ، بل قد فعلوا ذلك؛ فقد همّ به المنافقون، لكن الله أخزاهم وأذلهم، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . .﴾ [المنافقون: ٨]. وكانوا من قبل يقولون: ﴿. . لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا . .﴾ [المنافقون: ٧][(٢)].

أما الدافع إلى هذا الإخراج، فقد بينه الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ . .﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿. . يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ . .﴾ [الممتحنة: ١] أي: لا ذنب لكم إلا إيمانكم بالله[(٣)]، والمقصود: الإيمان الصحيح الذي ينفع صاحبه

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي: ج ١ ص ٥ برقم ٣. ومسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: ج ١ ص ٩٧، ٩٨ برقم ٢٥٢.

(٢) انظر: ص ٢١٤ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٤٧.

عند الله، وهو الإيمان الذي يقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وليس كإيمان المشركين القائم على الشرك، وعبادة غير الله معه. وقد بين الله ذلك بياناً شافياً في السورة نفسها، وضرب لذلك مثلاً: إبراهيم الحنيف ـ عليه السلام ـ والذين معه من المؤمنين الموحدين، وبراءتهم من الشرك وأهله في مفاصلة واضحة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ. . ﴾ [الممتحنة: ٤].

ثم إن المجرمين ـ كعادتهم ـ يرمون الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم من المؤمنين بما هم أولى به منهم، وما هم متلبسون به، كما تقول العرب: (رمتني بدائها وانسلت)(١)، فهذا فرعون، طاغية الزمان، يرمي موسى ـ عليه السلام ـ بأنه ما أراد بدعوته إلا إخراج أهل مصر منها!: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه: ٥٧].

ولما آمن السحرة بموسى ـ عليه السلام ـ وشهدوا شهادة الحق على رؤوس الأشهاد، أشركهم فرعون في هذه التهمة، فقال: ﴿ . . إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فليس موسى وحده الذي يريد إخراجهم من أرض مصر، وإنما هي مؤامرة قد خطط لها موسى من قبل مع السحرة الذين حُشروا من كل مكان بمصر! أما كيف التقى بهم موسى ـ عليه السلام ـ، وكيف تمت المؤامرة، فهذا لا يعرفه إلا فرعون وحده.

إن الله ـ عز وجل ـ إنما بعث الرسل لإخراج الناس من عبادة غير الله، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولم يبعثهم ليُخرجوا الناس من ديارهم، إلا على سبيل المقابلة قصاصاً(٢) كما قال تعالى: ﴿ . . وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ

---

(١) انظر: رياض عبدالحميد مراد، معجم الأمثال العربية (ط ١؛ الرياض: من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤٠٧هـ) ج ٢ ص ١٤١.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٢٢٦.

حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . . ﴾ [البقرة: ١٩١]، فلا لوم عليهم حينئذ في ذلك، فمن آمن بهم وصدقهم، فهو آمن حيثما كان، وقد عُصِم دمه وماله وحسابه على الله.

فإن عجز المجرمون عن إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثامن: المظاهرة على إخراج الرسول:

قال تعالى: ﴿ . . وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ . . ﴾ [الممتحنة: ٩].

أي: عاونوا وساعدوا على ذلك، وهم سائر الكفرة من أهل مكة وما حولها، ممن دخل مع مجرمي قريش في عهدهم حرباً على الرسول ﷺ والمؤمنين(١).

وهذه المظاهرة على إخراج الرسول والمؤمنين جريمة عظيمة، تُلحق صاحبها بالمجرمين، المحاربين لله ورسله، وتحرمه من البر والقسط اللذين أذن الله بهما لمن لم يكن كذلك، من الكفار المسالمين: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ . . ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

فإن همّ الرسول ﷺ بالخروج، وأحسّ المجرمون من جراء ذلك بالخطر، لجؤوا إلى:

الأسلوب التاسع: حشد جميع القوى والطاقات:

وهو الاستنفار العام.

قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٣].

فإذا اجتمعت الجموع، وحُشدت الطاقات، انتقلوا إلى:

الأسلوب العاشر: رصّ الصفوف وتوحيدها:

قال تعالى حاكياً قول السحرة: ﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ . . ﴾ [طه: ٦٤] أي: مصطفين مجتمعين، ليكون ذلك أشد لهيبتكم، وأوقع في

---

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ج ٥ ص ٢٥٤.

نفوس عدوكم[١] [٢] .

واجتماع أهل الباطل ـ على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ـ للوقوف في وجه الحق، أمر ليس بمستغرب، بل المستغرب ألا يجتمعوا، لأن دين الباطل واحد، وملة الكفر واحدة، كما أن سبيل الحق واحدة لا تتعدد.

فإذا حُشدت الطاقات، وتوحدت الصفوف، وأراد أهل الحق الفرار بدينهم، لجأ المجرمون إلى:

الأسلوب الحادي عشر: الملاحقة والمطاردة:

وقد فعل ذلك فرعون وجنوده حينما لاحقوا موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه، بغياً وعدواً، فأوحى الله إليه أن: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان: ٢٣]، ثم قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: وقت شروق الشمس[٣] ، فكانت النتيجة أن أنجى الله موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه، وأهلك فرعون ومن معه، وكانت العاقبة للمتقين.

وقد فعلت قريش مثل ذلك بالرسول ﷺ والمؤمنين؛ فأما الرسول ﷺ، فقد طاردوه، ورصدوا جوائز قيمة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، واستعانوا بالقافة للظفر به ومنعه من الخروج حتى إنهم وصلوا إلى الغار الذي كان مختبئاً فيه ﷺ هو وصاحبه، لكن الله أعمى أبصارهم، وحفظ نبيه من

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٥ ص ٢٨٣.

(٢) قوله تعالى: ﴿فأجمعوا كيدكم﴾، قرأ عامة القراء بالقطع وكسر الميم، والمعنى: أحكموا كيدكم واعزموا عليه. وقرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم، من الجمع، والمعنى: لا تَدَعوا من كيدكم شيئاً إلا جئتم به، وقراءة الجمهور أولى. (انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ٤٣١، ٤٣٢. والنيسابوري، الغاية في القراءات العشر: ص ٢٠٧).

(٣) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ص ١٨٩. وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٤٠.

كيدهم، وردهم خائبين.

وأما المؤمنون فقد لاحقوهم يوم أن هاجروا إلى الحبشة، ليردوهم إلى مكة، فقد أرسلوا اثنين من دهاتهم بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته لتحريضه على طرد المؤمنين من مملكته، وردهم إلى مكة، لكن محاولتهم أيضاً باءت بالفشل، ورُدت إليهم هداياهم، ليعودوا خائبين خاسرين[1] .

ويوم أن أراد المؤمنون الهجرة إلى المدينة، تعرضوا للملاحقة والمطاردة، ومن ذلك ما حدث لصهيب ـ رضي الله عنه ـ[2] ، وغيره من المؤمنين.

وحتى بعد الهجرة، وقيام دولة الإسلام في المدينة لم تتوقف عمليات الملاحقة والمطاردة للمؤمنين، ومن ذلك ما حدث لأبي بصير ـ رضي الله عنه ـ وقد كان من خبره أنه لما تم صلح الحديبية بين الرسول ﷺ، والمشركين ـ وكان من شروطه أنه لا يأتي رجل من المؤمنين من مكة إلى المدينة إلا رد إلى مكة ـ تمكن أبو بصير من الفرار من المشركين، واللحاق برسول الله ﷺ في المدينة، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا للنبي ﷺ: العهد الذي جعلت لنا. . فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً. فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جرّبت به، ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعراً**» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل ـ والله ـ صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: «**ويل أمّه،**

---

(١) سبق تخريج الحديث وذكره بتمامه، انظر: ص ٢٢٣.

(٢) انظر: ص ٣٢٨.

مِسعَرَ حربٍ لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر[١]، وانفلت أبو جندل بن سهيل من المشركين، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فلا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير وأصحابه، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم...»[٢].

والشاهد من هذه القصة: ما تعرض له أبو بصير - رضي الله عنه - من الملاحقة والمطاردة من قِبَل المشركين، من أجل فتنته عن دينه، ورده إلى المشركين، ولكن الله جعل له فرجاً ومخرجاً.

فإن كان للرسول ﷺ والمؤمنين قوة، وتصدوا للمجرمين، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثاني عشر: المقاتلة:

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

وقال جل وعلا: ﴿.. وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ..﴾ [البقرة: ٢١٧].

ففي الآية الأولى: الإذن للمؤمنين المستضعفين بقتال من قاتلهم ظلماً وعدواناً، ولهذا قال غير واحد من السلف: إن هذه الآية هي أول آية نزلت في القتال[٣].

وأما الآية الثانية، ففيها إخبار من الله - عز وجل - عن المشركين بأنهم

---

(١) سيف البحر: ساحله.

(٢) أخرج الحديث بطوله البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط: ج ٢ ص ٩٧٩ برقم ٢٥٨١.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٢٢٥.

لايزالون مقيمين على كفرهم وعنادهم واستعدادهم لقتال المؤمنين من أجل فتنتهم عن دينهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا. ولما كان الأمر كذلك، كان لابد من إيقافهم عند حدهم، لاسيما وقد صار للرسول ﷺ والمؤمنين قوة ودولة، فشرع الله للمؤمنين القتال، والرد بالمثل على من قاتلهم، ولكن: شتان بين قتال المؤمنين، وقتال غيرهم من المجرمين؛ فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله، والمجرمون يقاتلون في سبيل الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

ويلخص لنا ابن القيم ـ رحمه الله ـ هدي النبي ﷺ في قتال المجرمين، فيقول: «ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأُمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأُمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها؛ فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم؛ وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يُظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأُمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا

انسلخت قاتلهم . . ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم ، وضرب على أهل الذمة الجزية .

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته في المنافقين ، فإنه أُمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يُعرض عنهم ، ويُغلظ عليهم ، وأن يَبْلُغَ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأُخبر أنه إن استغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين»[1] .

وفيما يلي بعض الوقفات المهمة حول موضوع القتال والمقاتلة ، في القرآن :

١ ـ المجرمون ـ مهما بلغوا من الشجاعة والقوة المادية ـ فإنهم جبناء ؛ لأنهم يقاتلون من أجل الدنيا ، ولذا قال تعالى عنهم : ﴿ . . وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١١١] . وقال : ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٢٢] . ومن مظاهر جبنهم ، أنهم كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ . . ﴾ [الحشر : ١٤] . وبخاصة اليهود ، فإنهم لشدة جبنهم وخورهم ، لا يقدرون على المواجهة .

٢ ـ المشركون ـ على اختلاف معبوداتهم ـ يقاتلون المؤمنين مجتمعين مؤتلفين ، فأمر الله المؤمنين بقتالهم مجتمعين مؤتلفين ، قال تعالى :

---

(١) زاد المعاد : ج ٣ ص ١٥٨ ـ ١٦١ (باختصار) .

﴿.. وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ ..﴾ [التوبة: ٣٦](١).

٣ ـ المنافقون لا يقاتلون أبداً، وإن وَعَدوا بذلك، وخرجوا للقتال ظاهراً، قال تعالى: ﴿.. وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٠](٢)، ولهم في ذلك مواقف مخزية، مع المؤمنين، ومع غير المؤمنين؛ أما مع المؤمنين، فإنهم لما خرج النبي ﷺ إلى أُحد، وصار في منتصف الطريق، رجعوا على أعقابهم إلى المدينة بزعامة رأسهم عبدالله بن أُبي، وكان عددهم يشكل ثلث الجيش، ولما قيل لهم: ﴿.. تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ ..﴾ اعتذروا و﴿.. قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ..﴾ أي: «لو نعلم أنكم تقاتلون، لم نرجع»(٣)، وهو عذر أقبح من فعل، ولهذا أخبر الله عنهم بقوله: ﴿.. هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ..﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿.. لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ ..﴾ [التوبة: ٨٣].

وأما مع غير المؤمنين، فإنهم لما حاصر النبي ﷺ بني النضير، بعثوا إليهم قائلين: ﴿.. لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ ..﴾ [الحشر: ١١]، فكذبهم الله بقوله: ﴿.. وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ٢١](٤). وصدق الله، وكذب المنافقون؛ فإنهم لم يخرجوا معهم، ولم يغنوا عنهم شيئاً سوى المهانة والذلة والتشريد والطرد والإبعاد.

---

(١) انظر: جامع البيان: ج ٦ ص ٣٦٧. وتفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٥٥.
(٢) قوله: (إلا قليلًا): أي إلا تعذيراً، ليقولوا: قد قاتلنا! (انظر: البغوي: معالم التنزيل: ج ٦ ص ٣٥٥).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد: ج ٣ ص ١٩٤.
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ١٩١.

وقد أمر الله في القرآن بمقاتلة أقوام، ونهى عن مقاتلة آخرين؛ فأما الذين أمر الله بقتالهم فهم:

١ ـ الذين يقاتلون المؤمنين، وذلك على سبيل المقابلة، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ . . ﴾ [البقرة: ١٩٠]. وقد نُسخ هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿ . . وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً . . ﴾، وقوله: ﴿ . . فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . . ﴾ [التوبة: ٥][1].

٢ ـ أولياء الشيطان، وهم حزبه وجنده، قال تعالى: ﴿ . . فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦][2].

٣ ـ أئمة الكفر، وهم رؤوسه وزعماؤه، قال تعالى: ﴿ . . فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]، وإنما خص أئمة الكفر هنا؛ لأنهم هم الذين يحرّضون الناس على البقاء على الكفر، ومقاتلة المؤمنين[3].

٤ ـ كفرة أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الإسلام مع قيام الحجة ووضوح المحجة[4]، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

٥ ـ المشركون كافة، وقد سبق قريباً الحديث عن ذلك.

---

(١) انظر: هبة الله المقري، الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل (ط ١؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٤هـ): ص ٤٤. ومكي بن أبي طالب، الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه: ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٢ ص ٢٥٠.

(٣) انظر: جامع البيان: ج ٦ ص ٣٢٩. والبحر المحيط: ج ٥ ص ١٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٤٧.

٦ ـ الذين يلون المؤمنين من الكفار، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ . . ﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا «بدأ النبي ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فتح الله عليه سائر أقاليمها، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الكفار إلى جزيرة العرب، وسار إليهم حتى بلغ تبوك ثم رجع لشدة الجهد، وضيق الحال، ثم توفاه الله ـ عز وجل ـ وكان قد جهز جيشاً لذلك، فلما تولى الصديق ـ رضي الله عنه ـ من بعده أنفذ هذا الجيش بقيادة أسامة ـ رضي الله عنه ـ وأدى عن الرسول ﷺ ما حمله، ففتح الله على يديه البلاد، وأرغم به أنف كسرى وقيصر، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكان تمام الأمر على يدي وصية من بعده؛ الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع به الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحُملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم، ثم لما مات شهيداً، أجمع الصحابة على خلافة أمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ شهيد الدار، وامتدت الفتوحات في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله، وظهر دينه، كلما علت جحافل المسلمين أمة من الأمم الكافرة انتقلوا إلى مَن بعدهم، ثم الذين يلونهم، امتثالاً لقوله تعالى آنف الذكر . . »[1] .

٧ ـ البغاة المعتدون من المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى . . ﴾ [الحجرات: ٩]. «أمر الله ـ سبحانه ـ النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان منهم أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا، حَكَم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب، فهو باغٍ، فحقّ على الإمام أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٠١، ٤٠٢ (باختصار وتصرف).

الله، ويُقرّوا بحكم الله»[١] .

الأسلوب الثالث عشر: شنّ الغارات للسلب والنهب وإضعاف دولة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ . . ﴾ [المائدة: ٣٣].

أخرج الشيخان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم قوم على النبي ﷺ، فكلموه، فقالوا: قد استوخمنا هذه الأرض[٢] ، فقال: «**هذه نَعَم لنا تخرج، فاخرجوا فيها فاشربوا من ألبانها وأبوالها**» فخرجوا فيها فشربوا من أبوالها وألبانها، واستصحّوا، ومالوا على الراعي فقتلوه، واطّردوا النَعم. .[٣] .

هذه صورة من صور السلب والنهب والاعتداء، التي كان يمارسها بعض المجرمين من جفاة الأعراب لإضعاف دولة الرسول ﷺ.

ومن ذلك، ما أخرجه الشيخان أيضاً من حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ أن قوماً من الأعراب، من غطفان وفزارة، أغاروا على المدينة، فأخذوا لقاح النبي ﷺ[٤] ، فاستنقذها سلمة منهم حتى أتى بها النبي ﷺ. .[٥] .

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٣٨٧.

(٢) أي: استثقلناها، ولم يوافق هواؤها أبداننا. (انظر: النهاية: ج ٥ ص ١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . . ﴾: ج ٤ ص ١٦٨٤ برقم ٤٣٣٤ . ومسلم في كتاب القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين: ج ٥ ص ١٠١ برقم ٩ .

(٤) اللقاح: هي الإبل الحلوب. الواحدة: لقوح. (انظر: النهاية: ج ٤ ص ٢٦٢).

(٥) أخرج الحديث بطوله البخاري في كتاب الجهاد، باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته: يا صباحاه: ج ٣ ص ١١٠٦ برقم ٢٨٧٦ . ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قَرَد وغيرها: ج ٥ ص ١٨٩ .

الأسلوب الرابع عشر: القتل:

وقد سبق قوله تعالى مراراً: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ . . وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ . . ﴾ [غافر: ٥].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله . .»[١].

وهو إعدام للجسد، أما الروح فإنها في عليين. وإن الله ـ عز وجل ـ ليحيي بأرواح الشهداء أمة أو أمماً ما كانت لتحيا لو مات هؤلاء كما يموت سائر الناس، والأمثلة على ذلك كثيرة، من أوضحها: قصة أصحاب الأخدود التي أشار الله إليها في سورة البروج، وهي ثابتة ـ بطولها ـ في الصحيح[٢].

وإن من أشهر مَن عُرف بقتل الأنبياء والرسل هم اليهود ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ . . وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . . ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال أيضاً: ﴿ . . كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ . . ﴾ [المائدة: ٧٠][٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٧١ برقم ١٣١.

(٢) أخرجها مسلم في الصحيح في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام: ج ٨ ص ٢٢٩. وسأذكرها بطولها ـ إن شاءالله ـ في آخر هذا البحث. انظر: ص ٥٣٥.

(٣) ذكر بعض المفسرين أن التعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وفريقاً يقتلون﴾ فيه إشارة إلى قتل نبينا محمد ﷺ على أيدي يهود، ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يقول في مرض موته: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم». أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته: ج ٤ ص ١٦١١ برقم ٤١٦٥.

بل إنهم ـ قاتلهم الله ـ لم يستحيوا من المجاهرة بذلك، والمفاخرة به، كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿. . إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ . .﴾ [النساء: ١٥٧](1) فأي جرم أعظم من هذا الجرم؟

أما أتباع الرسل من المؤمنين الصادقين، فما أرخص دماءهم عند المجرمين، ولا عجب في ذلك؛ فإن من تجرأ على قتل الأنبياء والرسل وهم أكرم الخلق على الله، فلا يُنتظر منه إلا مثل هذا، وأكثر منه.

ثم إن القتل أنواع، فتارة يكون عنوة على رؤوس الأشهاد، كما همّوا أن يفعلوا بأبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿. . قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . .﴾ [العنكبوت: ٢٤]. ولكن الله أخزاهم: ﴿. . فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ . .﴾، وجعلها عليه برداً وسلاماً.

وتارة يكون غيلة، كما قال طغاة ثمود: ﴿. . لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ . .﴾ [النمل: ٤٩]. وقد همت قريش أن تفعل ذلك برسول الله ﷺ لما علموا بعزمه على الهجرة والخروج من مكة، كما همّ به المنافقون في غزوة تبوك، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿. . وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ . .﴾ [التوبة: ٧٤](2)، لكن الله خيب الجميع، وحفظ نبيه ﷺ من كيدهم ومكرهم.

وتارة بالحيلة، كما فعلت يهود، بتقديم الشاة المسمومة إلى رسول الله ﷺ، ليأكل منها، فلما أعلمه الوحي بكيدهم، اعتذروا عن ذلك بعذر هو

---

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٤ ص ٢٨٣. والبقاعي، نظم الدرر: ج ٢ ص ٣٥٠.

(٢) قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: نزلت في خمسة عشر رجلًا هموا بقتل النبي ﷺ، وتوافقوا على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل، وقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم يا أعداء الله، فهربوا. . (انظر: مسند أحمد: ج ٥ ص ٤٨٤، ٤٨٥، والبحر المحيط: ج ٥ ص ٧٣، والسيرة النبوية الصحيحة: ج ٢ ص ٥٣٦).

أقبح من فعلهم، فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريحُ، وإن كنت نبيًّا لم يضرّك!![1] . وقد أكل مع النبي ﷺ أحد أصحابه فلقي حتفه، بل إن هذه الأكلة كانت سبباً في وفاة النبي ﷺ كما ثبت ذلك في الصحيح[2] ، فقاتل الله أحفاد القردة والخنازير.

وتارة بقتل الأبناء من الذرية، واستحياء النساء، وهي طريقة فرعون وأشباهه من الطغاة، كما قال الله ـ عز وجل ـ ممتناً على بني إسرائيل (قتلة الأنبياء) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وتارة يكون بالإبادة الجماعية وإهلاك الحرث والنسل، كما قال الله تعالى في وصف صنف من المجرمين: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ . .﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فهم لا يتورعون عن تدمير قرى بأكملها، بما فيها من الأنفس والأموال والزروع، ودكها بكل الوسائل الممكنة، حين يرتفع فيها صوت الحق، أو تبدي أدنى مقاومة للطغيان. وقد سطر التاريخ صفحات سوداء من هذه الأعمال الإجرامية، ستظل شاهدة على الطغيان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذه بعض أنواع القتل التي يمارسها المجرمون.

ومن أساليبهم في القتل: قتل رسل الرسل، والمعروف عند العرب وغيرهم أن الرسل لا تُقتل، كما صح عن النبي ﷺ أنه لما جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه، قال لهما: «**وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟!**» قالا: نعم. فقال: «**أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل، لضربت أعناقكما**»[3] ، وقد

---

(١) أخرج الحديث بطوله البخاري في أبواب الجزية والموادعة، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يُعفى عنهم: ج ٣ ص ١١٥٦ برقم ٢٩٩٨.

(٢) سبق ذكر الحديث وتخريجه، انظر: هامش الصفحة التي قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ج ٣ ص ٦٤٠ برقم ١٥٩٦٩، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب=

فعل ذلك المجرمون، فقتلوا رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى ملك الروم أو بُصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطاً، ثم ضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فكانت هذه الحادثة الغاشمة سبباً لغزوة مؤتة[١] .

وبهذا الأسلوب أكون قد أتيت على آخر أساليب المجرمين المشتركة في التصدي لدعوة المرسلين ـ عليهم السلام ـ وفي الفصل القادم ـ إن شاءالله ـ أذكر الأساليب غير المشتركة، وهي التي يختص بها كل صنف من المجرمين دون الآخر، والله ولي التوفيق، وهو المستعان أولاً وأخيراً.

= في الرسل: ج ٣ ص ١٩١ برقم ٢٧٦١ . وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود: ج ٢ ص ٥٢٨، والأرنؤوط في تخريجه للزاد: ج ٣ ص ٦١١ .

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد: ج ٣ ص ٣٨١، وابن حجر، فتح الباري: ج ٧ ص ٥١١ .



الفصل الثاني

الأساليب الخاصة

غير المشتركة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: الأساليب الخاصة بالمشركين.
المبحث الثاني: الأساليب الخاصة بأهل الكتاب.
المبحث الثالث: الأساليب الخاصة بالمنافقين.

إن المجرمين وإن كانوا جميعاً يشتركون في كثير من الأساليب في تصديهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ كما هو الغالب؛ إلا أن كل صنف منهم ينفرد بأساليب خاصة لا يشاركه فيها غيره، وهذا نظراً لاختلاف توجهاتهم وأسسهم التي ينطلقون منها، وفي هذا الفصل ـ إن شاءالله تعالى ـ سأذكر الأساليب الخاصة بكل صنف من أصناف المجرمين الثلاثة حسب ما ظهر لي من آيات الكتاب الحكيم، وبينته السنة المطهرة، والله ولي التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

المبحث الأول
الأساليب التي يختص بها المشركون

وهي بإجمال:

١ ـ الاحتجاج على عبادة الأصنام بأنها تقربهم إلى الله زلفى.

٢ ـ إنكار النبوات والوحي.

٣ ـ الاحتجاج على الكفر ببشرية الرسول ﷺ.

٤ ـ الاحتجاج بالقدر على الكفر.

٥ ـ فصل الدين عن مناحي الحياة العامة.

٦ ـ الاستكبار بالحرم.

٧ ـ الصد عن المسجد الحرام.

التفصيل:

الأسلوب الأول: الاحتجاج على عبادة الأصنام بأنها تقربهم إلى الله زلفى:

قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ . . ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ . . وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ . . ﴾ [الزمر: ٣] أي: قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، كما في قراءة عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ[1].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، كلها تدل على احتجاج المشركين على عبادة غير الله بهذه الحجة الواهية التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل أنكرها عليهم القرآن أشد الإنكار، وللإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن هذه المسألة، كلام جميل، أنقله بطوله لأهميته، يقول:

«وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً أو شفيعاً، فهو كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٦١١.

مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكاً، كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له، كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً، كان شفيعاً عنده. فنفى ـ سبحانه ـ المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة، والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها للمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها..»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ: «ومِنْ جَهْلِ المشرك، اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعاً، أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول: ﴿.. مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ..﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿.. وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ..﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد واتّباع الرسول.. فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها»[2].

وقال ـ رحمه الله ـ: «طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فضلًا عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده كما تقدم، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها،

---

(١) مدارج السالكين: ج ١ ص ٣٤٣.

(٢) السابق: ص ٣٤١. (باختصار).

وهذه حالة كل مشرك.. فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين له بذمهم وعيبهم ومعاداتهم.. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم. ولله در خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث يقول: ﴿.. وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ..﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. وما نجا من شَرَك هذا الشرك إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله. واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده..»[1].

والمقصود أن هؤلاء المشركين قد جمعوا في عملهم هذا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد من الرسل وأتباعهم، فهم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، بل أعداء البشرية جمعاء فلو أن الناس كلهم كانوا على التوحيد الخالص لاستقامت أمورهم، ولكانوا كلهم عبيداً لله الواحد الأحد، لا يخضعون لغيره، ولا يرجون سواه، ولكن المجرمين أرادوا تعبيد الناس لأنفسهم ليكونوا هم السادة والمعظَّمين، ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا باللجوء إلى هذا الأسلوب المضلل، مع غيره من الأساليب الأخرى.

وما أحسن ما قاله صاحب يس وهو يدعو قومه إلى التوحيد الخالص، ونبذ الآلهة المدعاة: ﴿.. قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢٤]، فما كان من قومه إلا أن قتلوه، فكان جزاؤه أن قيل له: ﴿.. ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧][2].

---

(١) مدارج السالكين: ج ١ ص ٣٤٦ (باختصار وتصرف يسير).
(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٥٦٨.

ولما تلا النبي ﷺ سورة النجم في مجمع من المسلمين والمشركين، وألقى الشيطان في تلاوته ما ألقى، وهو قوله: «تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لترتجى. .» وذلك بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩]، فرح المشركون بذلك، وسجدوا مع النبي ﷺ في آخر السورة، وقالوا: إن محمداً رجع إلى دينه الأول. . وقد كان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فأنزل الله ـ عز وجل ـ تبياناً للحق، وتسلية لنبيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ. .﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤]، فعاد المشركون إلى ما كانوا عليه من إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين[1] .

---

(١) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ١٧٨، والسيوطي، لباب النقول: ص ١٦٣، ١٦٤. وهذه القصة تسمى قصة الغرانيق، وقد اختلف العلماء في ثبوتها، بل في وقوعها أصلًا، فأنكر ذلك طائفة من العلماء، وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره أنها وردت من طرق كلها مرسلة، وأنه لم يرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه، قال الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤] فنفى المقاربة للركون فضلًا عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. قال القاضي عياض في (الشفا): إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً. .» فتح القدير: ج ٣ ص ٥٤٦، وأما الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ فيرى أن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلًا، قال: «مع أن لهما طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين. .» فذكرهما، ثم أنكر على من أطلق القول ببطلان هذه القصة، وأنها لا أصل لها، إلى أن قال: «فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلًا، وقد ذكرتُ أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا=

والآيات الدالة على بطلان شفاعة الأصنام ـ وغيرها مما يُدعى من دون الله ـ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ . . ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وإنما يتبين ذلك ويظهر جلياً يوم القيامة، يوم يتلفت المشركون بحثاً عن شركائهم فلا يجدون أحداً، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ . . أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٢]، ثم يقال لهم: ﴿ . . وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤]. فيقولون معترفين: ﴿ . . قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ

= يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض. .» فتح الباري: ج ٨ ص ٤٣٩. وللألباني رسالة مستقلة بعنوان (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) بين فيها بطلان هذه القصة. لكن يبقى الإشكال ـ إن قلنا بعدم صحتها ـ في أن ظاهر القرآن يدل على وقوعها بوجه من الوجوه، وأن لها أصلاً، فإن في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي. .﴾ تسلية واضحة للنبي ﷺ، وكأن الله يقول له: يا محمد إن كان قد حصل لك ما حصل من إلقاء الشيطان ما ألقاه في تلاوتك؛ فإن ذلك قد حصل لمن قبلك من الأنبياء والمرسلين بلا استثناء، فلا تحزن. . ولله في ذلك حكم بالغة، بين بعضها بقوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. .﴾ الآيات، وهذا لا ينافي عصمة الرسول ﷺ، ولا ينافي قوله: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ وقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ فإن النبي ﷺ لم يتقول ذلك، ولا نطق به من تلقاء نفسه، وإنما هو من إلقاء الشيطان وتقوله، والرسول ﷺ منه براء. ثم إن الله ـ عز وجل ـ لم يقر ذلك بل أنكره وبيّنه، وما رُوي من أنه ﷺ تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه، فألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه، وتفسير التمني بما يحبه الإنسان ويشتهيه. . كل ذلك غير صحيح. والصحيح أن التمني في هذه الآية معناه التلاوة: تمنّى أي تلا وقرأ كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ . . ﴾ [البقرة: ٧٨] أي مجرد التلاوة، وعلى ذلك أكثر المفسرين. انظر: معالم التنزيل: ج ٥ ص ٣٩٤، وفتح الباري: ج ٨ ص ٤٤٠، وتيسير الكريم الرحمن: ج ٥ ص ٣٠٩.

أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ . . ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ولكن هيهات.

لكن لا بأس من المحاولة: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [القصص: ٦٤].

فهذه آيات واضحة صريحة في بطلان شفاعة الأصنام وغيرها مما يُدعى من دون الله، وأن الله ـ عز وجل ـ لم يأذن لهذه الأصنام ولا لغيرها بأن تشفع لأصحابها، وإنما اخترع ذلك أكابر المجرمين من المشركين بوحي من الشيطان، فاستحسنوه بعقولهم لما يعود عليهم به من المكاسب العاجلة، والرياسات الباطلة، ولما فيه من الصد عن سبيل الله وعن اتباع رسله، فإن الرسل ـ عليهم السلام ـ إنما بُعثوا لكسر الأصنام، والقضاء على كل مظاهر الشرك وصوره، وأن لا يُعبد إلا الله ـ عز وجل ـ[1] .

الأسلوب الثاني: إنكار النبوات والوحي:

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ . . ﴾ [الأنعام: ٩١].

نزلت هذه الآية في المشركين، وقيل في طائفة من اليهود.

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «والأول أصح؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ . . .»[2] .

ورجح ابن جرير ـ رحمه الله ـ هذا القول ونصره في تفسيره[3] .

ولو سلمنا أن بعض اليهود قد وقع منه ذلك، فإنه يكون على سبيل العناد والحمية والغضب للنفس، ولا يمثل قول اليهود. يدل على ذلك ما

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده: ج ١ ص ١٠٨، عن جرير بن حيان عن أبيه أن عليًّا رضي الله عنه قال: أبعثك فيما بعثني رسول الله ﷺ؛ أمرني أن أسوي كل قبر، وأطمس كل صنم. وفي لفظ ج ١ ص ١١٦: أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان: ج ٥ ص ٢٦٤.

ذكره البغوي ـ رحمه الله ـ من أن الحبر اليهودي الذي رُوي عنه إنكار النبوات وإنزال الكتب لما سمع منه اليهود تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟! فلمَ قلت: ما أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال: أغضبني محمد فقلت ذلك. فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق! فنزعوه عن الحبرية، وجعلوا مكانه حبراً آخر(١).

فالذين ينكرون جميع النبوات هم المشركون، أما أهل الكتاب فإنهم قد ينكرون نبوة بعض الأنبياء، لكنهم يثبتونها لأنبيائهم.

الأسلوب الثالث: الاحتجاج ببشرية الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

وهذه الشبهة الباردة إنما أثارها أكابر المجرمين من أعداء الرسل ـ بعد لقاء سري جرى بينهم ـ ليصدوا الناس عن سبيل الله، فلاقت استحساناً عند العامة(٢)، قال تعالى: ﴿.. وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣] أي: بالغوا في إخفاء نجواهم، ثم أوهموا العامة بأن كون الرسول ﷺ بشراً، دليل على كذبه في ادعاء الرسالة؛ لأن الرسول ـ بزعمهم ـ لا يكون إلا مَلَكاً، وبناء على ذلك فإن ما جاء به الرسول ﷺ من الخوارق ـ كالقرآن وغيره ـ سحر ينبغي عدم حضوره والتصديق به(٣).

ولكي تقوى هذه الشبهة في نفوس العامة، أضافوا إليها ما يؤكدها، ويدعو إلى التشبث بها، فمن ذلك:

---

(١) معالم التنزيل: ج ٣ ص ١٦٧. وانظر: الدر المنثور (بيروت: دار المعرفة) ج ٣ ص ٢٩.

(٢) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: ص ٤٢٦. والقاسمي، محاسن التأويل (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) ج ١١ ص ٤٢٤٩.

(٣) انظر: أنوار التنزيل: ص ٤٢٦.

قولهم: ﴿ . . مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤]، فوصفوه بما يوهم المساواة بينهم وبينه في كل وصف، ثم خوفوهم بأنهم إن صدّقوه وأطاعوه، أن ذلك موجب لخسارتهم وغبنهم[١] لما يؤدي إليه من غضب الأكابر، وقطع الأرزاق، وتعطل مصالحهم الدنيوية وغير ذلك مما هو في نظر المجرمين من الغبن والخسران المبين!

ومن ذلك قولهم: ﴿ . . مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ . . ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أي: إنما يريد أن يكون متبوعاً، له الأمر والنهي، وله الفضل عليكم بدعوى النبوة[٢]، وفي ذلك تنفير من دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ حيث صوروه داعية لنفسه لا لله ـ عز وجل ـ والعامة تأنف ممن هذا شأنه، وتنفر من اتباعه.

والمجرمون في احتجاجهم ببشرية الرسول ﷺ لهم سلف في ذلك، وهو إبليس اللعين؛ فإنه لما أُمر بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ قال محتجًّا: ﴿ . . لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣٣]، فاستحق بذلك الطرد والإبعاد من رحمة الله.

ولا ريب أن الرسل ـ عليهم السلام ـ بشر كغيرهم من البشر، إلا أن الله فضلهم بالوحي، واجتباهم على سائر الخلق بالرسالة، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ . . ﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: «بين الرسل ـ عليهم السلام ـ وسائر الناس مشابهة من جهة البشرية ولوازمها الضرورية، فيصح حينئذٍ قياس الرسل على غيرهم فيها . . . كما أن بين الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٥ ص ١٩٩.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٢٠٩. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٢٣٤، ٢٤٤.

وغيرهم من البشر فروق كثيرة، منها أن الله تعالى اصطفاهم على الناس برسالته وبكلامه ووحيه، وخصهم بذلك، فلا يقاس أحد من الناس بهم من هذه الجهة، كما لا يصح قياس غيرهم بهم في سائر خصائصهم التي فصلت في غير هذا الموضع، فالمجرمون لم يميزوا بين القياس الصحيح والفاسد، ولا عرفوا الجامع ولا الفارق كما سمعت من قياسهم الرسل على غيرهم..»[1].

ثم إن كون الرسول ﷺ بشراً من جنس قومه هو مقتضى العقل والحكمة والنظر الصحيح، فلو كان من غير جنسهم لكانوا أشد تكذيباً له وإنكاراً لرسالته، ولو كان مَلَكاً ـ كما يزعمون ـ لقالوا: أين نحن منه وهو مَلك، ونحن بشر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥].

وقد بين الله ـ عز وجل ـ الدوافع التي دفعتهم لتبرير كفرهم بهذه الحجة الواهية[2]، فمن ذلك:

١ ـ التعالي والاستكبار:

قال تعالى حاكياً قول قوم فرعون، لما جاءهم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿.. أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

٢ ـ الحسد:

ومن ذلك قول ثمود لما جاءهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾..﴾ [القمر: ٢٤].

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «وهذه المقالة من ثمود، حسد منهم لصالح ـ عليه السلام ـ واستبعاد أن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً، فقالوا: أنكون جميعاً، ونتبع واحداً؟! ولم يعلموا أن الفضل بيد الله

---

(١) مسائل الجاهلية: ص ٢٤، ٢٥.

(٢) سبق الحديث عن ذلك بشكل عام في مبحث «دوافع الصراع بين الحق والباطل» ص ٢٩.

ـ تعالى ـ يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على من رضيه»[١] .

٣ ـ التعجب والاستبعاد:

ومن ذلك قولهم: ﴿. . أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا . .﴾ [التغابن: ٦] استبعدوا أن تكون الرسالة في بشر مثلهم[٢] . هذا ما أظهروه، والله أعلم بما تنطوي عليه بواطنهم.

٤ ـ الاحتقار والازدراء:

ومن ذلك قول قوم نوح لنبيهم نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿. . مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا . .﴾ [هود: ٢٧] ففي قولهم هذا: «تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم. . .»[٣] .

٥ ـ التكذيب:

ومن ذلك قول أصحاب القرية المكذبين لرسلهم ـ عليهم السلام ـ: ﴿. . مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٤] [يس: ١٥].

الأسلوب الرابع: الاحتجاج بالقدر على الكفر:

ومعارضة شرع الله بقدر الله.

وهو أسلوب آخر من أساليب المشركين التبريرية، يلجؤون إليه إذا أعيتهم الحيلة لتسلية أنفسهم، وتبرير كفرهم وضلالهم، قال تعالى:

---

(١) المحرر الوجيز: ج ١٤ ص ١٥٨، ١٥٩.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص ٣٧٤.

(٣) الزمخشري، الكشاف: ج ٢ ص ٢١٣.

(٤) ذكر الماوردي ـ رحمه الله ـ في تفسيره أن ذكرهم الرحمن هنا يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون ذلك منهم إنكاراً للرحمن أن يكون إلهاً مرسِلاً. والثاني: أن يكون ذلك إنكاراً أن يكون للرحمن رسلاً. (النكت والعيون (بيروت: دار الكتب العلمية): ج ٥ ص ١١). والقول الأول ـ والله تعالى أعلم ـ أقرب إلى الصواب لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ . . ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهو أسلوب عقيم مضلل، فإن الله ـ جلت قدرته ـ قادر على هدايتهم جميعاً كما قال سبحانه: ﴿ . . فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ولكنه ـ تعالى ـ بين لهم طريق الخير وطريق الشر، وجعل لهم مشيئة لا تخرج عن مشيئته سبحانه، يميزون بها بين ما يضرهم وما ينفعهم، وأمرهم باتباع طريق الحق والهدى، فاختاروا طريق الشر بمحض مشيئتهم وإرادتهم، كما قال تعالى عن ثمود قوم صالح: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ . . ﴾ [فصلت: ١٧]، ولو شاؤوا هم لاختاروا طريق الخير واستقاموا عليه: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التكوير: ٢٨]، ولكنهم كما يخبرون عن أنفسهم يوم القيامة: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، ولذا يقولون معترفين: ﴿ . . لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠] فبطلت حجتهم بذلك[1].

الأسلوب الخامس: فصل الدين عن مناحي الحياة العامة:

قال تعالى حكاية عن قوم شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا . . ﴾ [هود: ٨٧].

إنه منطق عجيب ذلك الذي يفصل الدين ـ بكل ما فيه من طهارة ونظافة وصلاح ـ عن مناحي الحياة العامة، ويحصره في نطاق ضيق في الزمان والمكان، ويجعل دور الرسول ـ عليه السلام ـ مقتصراً على أداء بضع ركعات

---

(١) قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذه المسألة: «وهذه المسألة من غوامض مسائل الدين والوقوف على سرها عسر إلا على من وفقه الله، ولابن القيم كتاب جليل في هذا الباب، سماه: (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)» (مسائل الجاهلية: ص ٥٢.

يصليها هو ومن اتبعه من المؤمنين، في بضع أمتار من المسجد أو غيره، أما حياة الناس العامة، وأما قضايا المال والاقتصاد، والبيع والشراء، وسائر المعاملات، فلا شأن للرسول بها، فالدين صلة بين العبد وربه، ولا شأن له بمناحي الحياة العامة المختلفة[١] ! فليعبد ربه متى شاء، وكيف شاء، وحيث شاء، وليقتصر على ذلك ولا يجهر به، فإن ذلك أيضاً يؤذي المجرمين، وينغص عليهم عيشهم. . هذا هو منطق المجرمين من قوم شعيب، وهذه هي شريعتهم. وهو ذاته منطق المشركين من كفار قريش لما منعوا النبي ﷺ من الصلاة عند الكعبة[٢] ، ولذا، لما دخل التحريف إلى الديانة النصرانية وتلوثت ببراثن الشرك والوثنية، سلك أصحابها هذا المسلك الجاهلي، حتى نسبوا إلى المسيح ـ عليه السلام ـ قوله: دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر[٣] .

وقد ذكر أهل العلم أن لكل قوم وارثاً، وقد ورث هذه البدعة الجاهلية قوم من هذه الأمة، وربما احتجوا على أتباع الرسل بمثل قول النبي ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[٤] ، وألزموهم بما فهموه منه، وإن كانوا في حقيقة الأمر لا يقيمون لنصوص الشرع وزناً. ولا حجة لهم في هذا الحديث ـ ولا في غيره ـ، لاسيما إذا عُرف سببه؛ فإن النبي ﷺ مر بقوم يُلقّحون نخلًا لهم، فقال: «**لو لم تفعلوا لصلح**». قال: فخرج شيصاً[٥] ، فمر بهم

(١) انظر: عبدالرحمن السعدي، قصص الأنبياء في القرآن الكريم وما فيها من العبر (ط ١؛ الرياض: ار روضة الناظر: ١٤١٥هـ): ٥٥، ٥٦.

(٢) سبق الحديث عن ذلك، انظر: ص ٣١٧.

(٣) انظر: محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة (ط ١؛ بيروت: دار الشروق: ١٤٠٣هـ): ص ٩ ـ ٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي: ج ٧ ص ٩٥ برقم ١٤١.

(٥) الشيص: التمر الذي لا يشتد نـواه ويقوى، وقد لا يكون له نوى أصلًا (النهاية: ج ٢ ص ٥١٨).

فقال: «**ما لنخلكم؟**» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «**أنتم أعلم بدنياكم**»، وفي رواية أنه مر بقوم على رؤوس النخل، فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» فقالوا: يُلقّحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح. فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظن يغني ذلك شيئاً**» قال: فأُخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل**»(١).

فالقضية إذاً قضية عين، ومن الأمور الدنيوية البحتة التي لا علاقة لها بقضايا الأمة العامة، ولا بواقعها ومستقبلها القريب والبعيد كالقضايا الكبرى التي تتعلق مثلًا بالمال الذي هو عصب الحياة، أو المعاملات التي يحتاجها الناس في واقعهم وحياتهم اليومية. بل إن النبي ﷺ في هذا الحديث قد قرر قاعدة مهمة، وهي قوله: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه**» فدل على أن كل ما ينفع الناس في أمور دنياهم ينبغي أن يحرصوا عليه ما لم يتعارض مع أصل من أصول الدين الثابتة، وشرائعه المحكمة.

قال أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ تعليقاً على هذا الحديث: «وهذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر، وصنائع أوربة فيها، من عبيد المستشرقين، وتلامذة المبشرين، فجعلوه أصلًا يحجون به أهل السنة وأنصارها، وخدَّام الشريعة وحماتها، وإذا أرادوا أن ينفوا شيئاً من السنة، وأن ينكروا شريعة من شرائع الإسلام، في المعاملات، وشؤون الاجتماع وغيرها، يزعمون أن هذه من شؤون الدنيا، يتمسكون برواية أنس: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»، والله يعلم أنهم لا يؤمنون بأصل الدين، ولا بالألوهية، ولا بالرسالة، ولا يصدقون بالقرآن في قرارة نفوسهم، ومن آمن منهم فإنما يؤمن لسانه ظاهراً. فإذا ما جد الجد، وتعارضت الشريعة مع ما درسوا في مصر أو في

---

(١) التخريج السابق.

أوربة، لم يترددوا في المفاضلة، ولم يُحجموا عن الاختيار، وفضلوا ما أخذوه عن سادتهم، واختاروا ما أشربته قلوبهم . . ».

إلى أن قال: «والحديث واضح صريح، لا يعارض نصًّا، ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة في كل شأن، لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فكل ما جاء عنه فهو شرع وتشريع، ﴿ . . وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ . . ﴾ [النور: ٥٤]، وإنما كان في قصة تلقيح النخل أن قال لهم: «**ما أظن ذلك يغني شيئاً**» فهو لم يأمر ولم ينه، ولم يخبر عن الله، ولم يسنّ في ذلك سنة حتى يتوسع في هذا المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع، بل ظن، ثم اعتذر عن ظنه، قال: «**فلا تؤاخذوني بالظن**» فأين ما يرمي إليه أولئك؟ هدانا الله وإياهم سواء السبيل»[1] .

إن فصل الدين عن الحياة العامة من أنجح أساليب المجرمين في مجابهة الرسل ـ عليهم السلام ـ ومحاصرة دعوتهم، ولهذا؛ لما تمكن الرسول من فرض دعوته على حياة الناس العامة، كان ذلك إيذاناً بزوال قوى الشر والشرك والفساد، وانتصار الحق والعدل والإيمان. وهذا ما كان يدعو إليه شعيب وسائر الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ: ﴿ . . إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الأسلوب السادس: الاستكبار بالحرم:

قال تعالى في معرض ذمّه للمشركين: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]. فالضمير في قوله (مستكبرين) يعود إلى مجرمي قريش، و(به) أي البيت، أو الحرم. هذا هو قول الجمهور، مع أنه لم يجرِ ذكر للحرم في سياق الآية، ولكن لما كان استكبارهم بالبيت، وافتخارهم بولايته أمراً معروفاً ومشتهراً؛ كان الإضمار في الآية سائغاً[2] .

---

(١) المسند بتعليق أحمد شاكر: ج ٢ ص ٣٦٤، ٣٦٥ (باختصار).

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٦ ص ٣٨١، والشوكاني، فتح القدير: ج ٣ ص ٥٨٠.

ومعنى الآية: أنهم كانوا يستكبرون على الناس بالحرم، فيقولون: نحن أهل الحرم؛ فنحن أفضل من غيرنا وأعلى[١] .

قال محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ في مسائل الجاهلية: «المسألة السادسة والثمانون: الافتخار بولاية البيت، فذمهم الله بقوله: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ . . ثم قال الألوسي في آخر تعليقه على كلام الشيخ: «والمقصود أن من خصال الجاهلية، التكبر بسبب الرياسة على المواضع المقدسة . . »[٢] .

والمقصود من ذلك، صد الناس عن اتباع الرسول ﷺ، بالضرب على وتر حساس، وهو ولاية البيت، والقيام عليه، وبعض النفوس يفتنها ذلك، وتنخدع به، ولو أنها نظرت بعين البصيرة، لعلمت أن البقاع لا تقدّس أحداً، وإنما يقدس الإنسان عمله.

ولذلك، نفى الله عن المشركين أن يكونوا أفضل من غيرهم وأحق بولاية البيت، فقال سبحانه: ﴿ . . وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] أي: ليسوا أهله، ولا أهلاً لولايته، وإنما أهله وأحق به المتقون، وهم الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم[٣] ، ولما كان المشركون من أجهل الناس، وأبعدهم عن نور الوحي والرسالة، ختم الآية بقوله: (ولكنّ أكثرهم لا يعلمون) .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٢٣٠، والبغوي، معالم التنزيل: ج ٥ ص ٤٢٣، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٥ ص ٣٦٢.

(٢) مسائل الجاهلية: ص ١٣٠.

(٣) انظر: معالم التنزيل: ج ٣ ص ٣٥٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٠٦، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٣ ص ٢١٣.

الأسلوب السابع: الصد عن المسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿ . . وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . . ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . . ﴾ [الفتح: ٢٥]. وذلك قبل فتح مكة، وسقوط عاصمة الكفر، وكان الدافع إلى هذا الصد هو الأنفة والحمية الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ . . ﴾ [الفتح: ٢٦]، وذلك أنهم قالوا: يدخلون علينا، وقد قتلوا أبناءنا وإخواننا[1] .

وفي الصحيح، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رضي الله عنهما، قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلّد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه، قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك. فقال: «**أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا، كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين**». قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: «**امضوا على اسم الله**»[2] .

وسار النبي ﷺ وأصحابه، ومنعته قريش من دخول الحرم في ذلك العام لترضي غرورها وكبرياءها، على أن يأتي من قابل، فاستجاب النبي ﷺ

---

(١) انظر: السجستاني، نزهة القلوب: ج ٧٨، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية: ج ٤ ص ١٥٣١ برقم ٣٩٤٤.

لذلك بأمرٍ من ربه ـ جل وعلا ـ وتم ما تم من الصلح الذي سماه الله فتحاً، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يحلّوا ويحلقوا وينحروا ما معهم من الهدي، فلم يفعلوا حتى فعل هو ﷺ، عندئذ قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً لما أصابهم من الغم[1].

---

(١) أخرج ذلك البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب..: ج ٢ ص ٩٧٤ ـ ٩٧٩.

المبحث الثاني
الأساليب التي يختص بها أهل الكتاب

وهي بإجمال:

١ ـ كتم الحق وإخفاؤه.

٢ ـ تبديل القول.

٣ ـ التحايل على أحكام الله.

٤ ـ تحريف الكلم عن مواضعه.

٥ ـ لي ألسنتهم بالكتاب.

٦ ـ الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعض.

٧ ـ ادعاء الإيمان بما أُنزل عليهم دون غيره.

٨ ـ نبذ الكتاب، واتباع الأباطيل.

٩ ـ إعلان التمرد والعصيان.

١٠ ـ الاحتجاج على الكفر برسالة محمد ﷺ بعداوة جبريل.

١١ ـ التعصب لدينهم المحرف.

١٢ ـ الدعوة إلى دينهم.

١٣ ـ اتباع المتشابه من النصوص.

١٤ ـ الإيمان أول النهار والكفر آخره.

١٥ ـ النيل من الذات الإلهية.

١٦ ـ التفريق بين الله ورسله.

١٧ ـ التفريق بين الرسل.

١٨ ـ تشجيع الشاذين والمرتدين والمتمردين.

١٩ ـ البَهْت.

التفصيل:

الأسلوب الأول: كتم الحق وإخفاؤه:

قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿.. وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ..﴾ [النساء: ٣٧].

فكتم الحق أسلوب ماكر من أساليبهم في مجابهة دعوة الرسل قد لا يتنبه له بعض أهل العلم، فضلًا عن غيرهم، وهو دليل على فساد نيتهم وسوء طويتهم، فما يكتم الحق إلا جاحد معاند.

ومن أمثلة كتمهم للحق، جحدهم نبوة نبينا محمد ﷺ، مع أن ذلك مذكور في كتبهم، ولهذا قال الله تعالى في مطلع الآية الأولى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾، وقد رُوي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لعبدالله بن سلام - رضي الله عنه - وهو من أحبار يهود -: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم، وأكثر؛ بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته، فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه[1].

ومن ذلك: كتمهم حد الزنى في كتابهم، ففي الصحيحين، عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**» فقالوا: نفضحهم، ويُجلدون. فقال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد.. فيها آية

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص ١٦٣.

الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما..[1].

وهذا غيض من فيض مما كتموه من الحق وأخفوه لأغراض كثيرة، من أهمها: الفرار من الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ حسداً وبغياً.

الأسلوب الثاني: تبديل القول وتغييره:

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ..﴾ [البقرة: ٥٩].

أخرج الشيخان في صحيحيهما، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل ﴿.. ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة..﴾ فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم**[2] **وقالوا: حبة في شعرة**»[3].

هكذا يتعمد المجرمون من أهل الكتاب تبديل القول وتغييره ليوافق أهواءهم ونفسياتهم المنحرفة، وهذا من تلاعب الشيطان بهم ليكونوا من حزبه، ولينضموا إليه في عداوته للرسل، وإلا فما كان يضيرهم لو أنهم أطاعوا رسولهم، وفعلوا ما أمرهم به بلا تغيير ولا تبديل؟ لاسيما وقد وُعدوا إن هم فعلوا لتُغفرنّ لهم خطاياهم، وليزيدن الله محسنهم من فضله، لكنهم أبوا إلا طاعة الشيطان، واختيار العذاب والهوان: ﴿.. فَأَنزَلْنَا عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿..يعرفونه كما يعرفون أبناءهم..﴾: ج ٣ ص ١٣٣٠ برقم ٣٤٣٦، ومسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى: ج ٥ ص ١٢١ برقم ٢٦.

(٢) أستاههم: جمع است، وهو مقعدة الإنسان. (النهاية: ج ٢ ص ٣٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى: ج ٣ ص ١٢٤٨ برقم ٣٢٢٢، ومسلم في أول كتاب التفسير: ج ٨ ص ٢٣٧. وقد ورد في بعض روايات الحديث عند غير الشيخين ألفاظ أخرى غير ما قالوه هنا، فإن صحت، فيحمل ذلك على اختلاف القائلين، فيكون بعضهم قال كذا، وبعضهم قال كذا، وإلا فإن ما في الصحيحين أولى من غيره وأصح. انظر: البحر المحيط: ج ١ ص ٣٨٦.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

الأسلوب الثالث: التحايل على أحكام الله:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وكان من شأنهم في ذلك ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة، قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال، فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف. قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من اليهود، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كدّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرّعاً بيضاء سماناً، كأنها الماخض، تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم، فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: ويلكم والله، ننهاكم أن تعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: (لَمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً). قال الأيمنون: (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) أي ينتهون؛ إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يُصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فعلتم يا أعداء الله، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا، ضربوا عليهم الباب، ونادوا

فلم يجابوا، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلًا، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردة والله تعادى لها أذناب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابهم من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس، فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن كذا، فتقول برأسها: أي نعم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥][١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله ـ تعالى ـ بأكل الحرام واستباحة الفروج والحرام، والدم الحرام، وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت، ولكن لما استحلوا محارم الله ـ تعالى ـ بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال؛ مسخهم الله ـ تعالى ـ قردة. .»[٢].

ومن ذلك: تحايلهم على شتم الرسول ﷺ، وقد سبق الحديث عن ذلك[٣].

ومن تحايلهم على أحكام الله تعالى: أنهم لما حرم الله عليهم شحوم الميتة أذابوها، واستخرجوا ما فيها من الدهن، ثم باعوها وأكلوا ثمنها، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن حكم بيع شحوم الميتة، قال: «**لا، هو حرام**» ثم قال: «**قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه**»[٤].

يقول ذلك ﷺ تحذيراً من مشابهة اليهود، لا بل صح عنه ما هو أبلغ

---

(١) جامع البيان: ج ٦ ص ٩٥.

(٢) إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ٢١٧، ٢١٨.

(٣) انظر ص ٣٤٠ من هذا الكتاب.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع الميتة والأصنام: ج ٢ ص ٧٧٩ برقم ٢١٢١، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام: ج ٥ ص ٤١.

من هذا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»[1] .

الأسلوب الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه:

قال تعالى: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ . . ﴾ [النساء: ٤٦].

وتحريف الكلم عن مواضعه نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه. والنوع الثاني ـ كما يرى ابن القيم ـ رحمه الله ـ هو الأكثر من فعلهم، وإنما حملهم على ذلك: كثرة البشارات في كتبهم بنبي هذه الأمة وتنوعها، وعجزهم عن كتمانها وإخفائها أو تغيير لفظها، فلجؤوا إلى تحريف معناها، وهو تحريف التأويل[2] .

ويرى أبو حيان ـ رحمه الله ـ أن التحريف كما وقع في المعاني، وقع في الألفاظ، فإن المعاني تبع للألفاظ، قال: «ومن طالع التوراة علم يقيناً أن التبديل في الألفاظ والمعاني؛ لأنها تضمنت أشياء يجزم العاقل أنها ليست من عند الله، ولا أن ذلك يقع في كتاب إلهي من كثرة التناقض في الأخبار والأعداد، ونسبة أشياء إلى الله ـ تعالى ـ من الأكل والمصارعة وغير ذلك، ونسبة أشياء إلى الأنبياء من الكذب والسكر من الخمر، والزنى ببناتهم، وغير ذلك من القبائح التي ينزه العاقل نفسه عن أن يتصف بشيء منها،

---

(١) أخرجه أبو عبدالله بن بطة في إبطال الحيل (بيروت: المكتب الإسلامي) ص ٤٧، وحسن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى: ج ٢٩ ص ٢٩، وذكره ابن كثير في تفسيره وقال: هذا إسناد جيد: ج ٢ ص ٢٥٧. وصححه ابن باز كما في مجلة البحوث الإسلامية: ج ١٨ ص ١٣١.

(٢) انظر: هداية الحيارى: ص ١٠٢.

فضلًا عن منصب النبوة»[١].

والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ خصوصاً فيما يتعلق بالبشارات، أن ما كان منها بيّناً واضحاً لا يمكن تأويله وتحريف معناه، حذفوه وأزالوه بالكلية. وما كان يحتمل التأويل، أولوه وحرفوا معناه وأبقوه. أما ما اختلقوه من عند أنفسهم فهو كثير كما ذكر أبو حيان. وربما كتب بعضهم بيده كتاباً مختلقاً، وزعم أنه من عند الله ليصيب به عرضاً من الدنيا، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقد سار على ذلك أحفادهم قديماً وحديثاً، وحاولوا مراراً تحريف كلام الله الذي أنزله على محمد ﷺ، لكن الله ـ عز وجل ـ قد تكفل بحفظه بنفسه، وصيانته من أن تمسه أيدي العابثين، أو يطاله تحريف المبطلين، ولم يكل حفظه إلى العلماء والأحبار والربانيين كما هو الحال في الكتب السابقة.

فأما قديماً، فقد ذُكر أن يهوديًا تكلم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام، فدعاه المتوكل إلى الإسلام فأبى، فبذل له المتوكل ضروباً من الإنعام، وراجعه في ذلك مرة بعد مرة، فلم يزده ذلك إلا بعداً وإعراضاً، فغاب مدة ثم دخل إلى مجلس الخليفة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فسأله المتوكل عن سبب إسلامه، فقال: إني لما قطعت من عنقي قلادة التقليد، نظرت في الأديان طالباً الحق حيث كان، فأخذت نسخة من التوراة فنظرت فيها وتدبرت معانيها، وزدت فيها ونقصت، ودخلت بها سوق اليهود، وبعتها فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً، وأخذت الإنجيل، وزدت فيه ونقصت، ودخلت به سوق النصارى، وبعته، فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً، وأخذت القرآن، وقرأته

(١) البحر المحيط: ج ٢ ص ٥٢٧.

وتأملته، فإذا فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، فزدت فيه ونقصت، ودخلت به سوق المسلمين، وبعته، فنظر فيه المسلمون، فعرفوا المواضع التي زدت فيها ونقصت، وردوا كل كلمة إلى موضعها، وكل حرف إلى مكانه، فعلمت أنه الحق لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فآمنت به وصدقت ما جاء به»[1].

وأما حديثاً، فإنهم لما عجزوا عن تحريف ألفاظ القرآن العربي، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، لجؤوا إلى تحريف معانيه؛ إما عن طريق تفاسيرهم العربية المضللة، أو عن طريق ترجماتهم له إلى اللغات الأخرى التي لا ينطق أصحابها العربية، وقبل أن أسوق أمثلة على ذلك، أذكر قول واحد من كبار كتّاب الغرب ومفكريهم، وهو الأستاذ «موريس بوكاي» حيث يقول حول هذا الموضوع: «إن الترجمة كأداة (هكذا) لا يمكن أن تحل محل فهم المعنى كما عبرّت عنه اللغة العربية..».

وهذا أمر مجمع عليه.

ثم يوضح ذلك بقوله: «ويظهر الدليل واضحاً عند مقابلة النص العربي بترجمات عديدة، وعند فحص الأسلوب الذي تترجم به نفس الآية حيث تتبين الرغبة الواضحة في إخفاء بعض المعاني، أو تعمّد تغييرها حتى

---

(١) انظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان المنسوب إلى ابن القيم ـ رحمه الله ـ (بيروت: دار الكتب العلمية) ص ٣٥١. وقد حقق بعض المعاصرين عدم صحة نسبته إليه، وجزم بعضهم بأنه لابن النقيب المتوفى سنة ٦٩٨هـ، وهو بعنوان: مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني، والبديع وإعجاز القرآن. انظر: بكر أبو زيد، ابن القيم، حياته وآثاره (ط ٢؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٣هـ) ص ١٨٤، وأبو عبيدة، مشهور بن حسن آل سلمان، كتب حذر منها العلماء (ط ١؛ الرياض: دار الصميعي: ١٤١٥هـ) ج ٢ ص ٣٢٤.

يتواءم النص مع وجهة النظر الشخصية. . »[١] .

وأضيف إلى ذلك ما أكده بعض المستشرقين، ومنهم الألماني «فيشر» من أن أغلب مترجمي القرآن مستعربون من الطبقة الثانية، بل ومنهم من هو من الطبقة الثالثة والرابعة. . »[٢] .

ويصفهم الدكتور عمر فروخ بقوله: «إنهم جهّال فعلًا، ولكن فيهم نفر أذكياء جداً، ألبسوا ذكاءهم الماكر ثوب البساطة والغباء»[٣] .

أما الأمثلة على تحريفهم معاني القرآن الكريم فهي كثيرة جداً، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في ترجمة «د. بلاشير» التي أصدرتها دار «ميزونيف دلاروس» للنشر في باريس وذلك سنة ١٩٦٦م حيث ترجم قوله تعالى: ﴿. . ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ . .﴾ [الأعراف: ١٥٧] بـ (نبي الوثنيين). وفي ترجمة أخرى للآنسة «ماسون»: (نبي الكفرة)[٤] ولا يخفى ما يهدف إليه أولئك من إخفاء صفة الأمية عن نبينا محمد ﷺ، ومحاولة نفيها عنه، فإن إثباتها ـ كما يقول موريس بوكاي ـ يثير حرج معظم المستشرقين؛ لأنهم يروجون فكرة أن القرآن رسالة من صنع البشر، وأن محمداً هو كاتبها، أو أنه أعاد ما أُملي عليه[٥] ، ومن جهة أخرى فإن إثباتها يدفع كثيرين ـ لاسيما من غير المسلمين ـ إلى التساؤل: إن كان محمد أميًّا فكيف استطاع أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز؟

وإن من الغريب والمؤسف أن ترجمة الآنسة المذكورة للقرآن هي

---

(١) الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم، لنخبة من المفكرين والباحثين (ط ١) ص ٩٣، ٩٤ (بتصرف).

(٢) انظر: محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن (بيروت: دار الآفاق الجديدة) ص ٥٠، ٥١.

(٣) الاستشراق، ما له وما عليه، نقلًا عن المصدر السابق: ص ٩٩.

(٤) انظر: الندوة العالمية: ص ٩٥.

(٥) المصدر السابق: ص ٩٦.

الترجمة الشائعة بين القراء المثقفين في فرنسا، وقد قدمتها صحيفة «لوموند» الفرنسية في التاسع من ديسمبر ١٩٧٩م، بوصفها الترجمة الوحيدة للقرآن التي أجازتها جامعة الأزهر، ويوصي بها الكتّاب النصارى والمنظمات التنصيرية[١]، ولا أدري، هل كذبت الصحيفة على الأزهر، أم أنها غفلة الصالحين؟

والمقصود، أن التحريف ديدن هؤلاء قديماً وحديثاً.

الأسلوب الخامس: لّي ألسنتهم بالكتاب:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ..﴾ [آل عمران: ٧٨]. وهؤلاء هم اليهود[٢].

وأصل اللّي: الفتل والقلب، من قول القائل: لوى فلان يد فلان: إذا فتلها وقلبها، ومنه قول الشاعر: لوى يده الله الذي هو غالبه. يقال: لوى يده ولسانه ليًّا[٣].

ومعنى (يلوون) في الآية: «يتحيّلون على تبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ، واشتراكها، وتشعّب التأويلات فيها.. وليس التبديل المحض بلي»[٤].

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب، لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب..»[٥].

---

(١) السابق: ص ٩٥.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٢١.

(٣) الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٢٢ (باختصار يسير). وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (لوى): ج ٥ ص ٤١٠٧.

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٣ ص ١٨٤ (باختصار وتصرف).

(٥) الكشاف: ج ١ ص ١٩٧.

فإنهم كانوا يختلقون أشياء من عند أنفسهم، فينسبونها إلى أنبيائهم على أنها من الوحي المنزل، ثم يتلونها على الطريقة التي يتلون بها كتبهم بالتلحين والترتيل والإتيان بنغمات صوتية خاصة، مع غنة شديدة، ومدود متكلفة، حتى إن الذي يسمعهم لا يشك في أن ما يقرؤونه هو كلام الله المنزل على أنبيائه، فيلبسون على الناس بهذه الطريقة الماكرة[١].

ومن ذلك أيضاً: أن يفتلوا ألسنتهم بتغيير بعض الأحرف إلى أحرف أخرى قريبة منها يتغير بها المعنى، فمثلًا: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) يقولون: (إلا بالحدّ). و(من زنى فارجموه) يقولون: (فارحموه)، أو (فحمموه)، ونحو ذلك من التلبيس والليّ[٢].

وليتهم اكتفوا بذلك، بل قالوا ـ مجترئين على الله تعالى ـ: هو من عند الله، وما هو من عند الله، فقالوا على الله الكذب وهم يعلمون.

الأسلوب السادس: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض:

قال تعالى منكراً على بني إسرائيل: ﴿.. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ..﴾ [البقرة: ٨٥].

وذلك أن الله ـ عز وجل ـ فرض عليهم ألا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأوجب عليهم إذا وجدوا أسيراً منهم، أن يفدوه، فعملوا بالأخير، ولم يعملوا بما قبله، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿.. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ ..﴾ وهو فداء الأسير، ﴿.. وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ..﴾ وهو القتل والإخراج؟[٣].

هذه صورة واحدة من صور إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض،

---

(١) انظر: عبدالقادر شيبة الحمد، تهذيب التفسير، ج ٢ ص ٤١٨.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٢ ص ١١٦.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٤٤٣، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ١٠٧.

يذكرها الله ـ عز وجل ـ للتنبيه على خبثهم وتناقضهم، وإلا فإن الصور كثيرة، فما وافق أهواءهم ورغباتهم من الكتاب أو مما جاءت به الرسل، آمنوا به، وعملوا به. وما ليس كذلك، كفروا به، وضربوا به عرض الحائط، وهذا مثل قولهم: ﴿.. إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا..﴾ [المائدة: ٤١].

الأسلوب السابع: ادعاؤهم الإيمان بما أنزل عليهم دون غيره:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ..﴾ [البقرة: ٩١].

أي: إذا قيل لليهود، وأمثالهم من أهل الكتاب، آمنوا بما أُنزل على محمد ﷺ، وصدقوه واتبعوه، قالوا حسبنا الإيمان بما أُنزل علينا، ولا نقرّ إلا به، ويكفرون بما سوى ذلك مما أنزله الله على رسله، وهم يعلمون أنه مصدق لما معهم، ومن لم يصدق بما وافق ما معه، لم يصدق بما معه؛ لأن الإيمان ببعض ما أنزل الله من الكتب دون بعض تناقض واضطراب[1].

ثم إنهم لو كانوا صادقين في دعواهم، فلِمَ يرتكبون أفظع الجرائم التي نُهوا عنها وحرمتها كتبهم، كقتل الأنبياء، واستحلال ما حرم الله ـ عز وجل ـ ولا يجتمع الإيمان بما أنزل الله، واستحلال ما حرم من قتل الأنبياء وغيره[2]. ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿.. قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فملخص الرد عليهم من وجهين:

الأول: أن ما وراء التوراة من الكتب المنزلة مصدق لما في التوراة، فالكفر به كفر بالتوراة.

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٢٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ج ١ ص ٤٧٥، ومحمد بن عبدالوهاب، مسائل الجاهلية: ص ٢٨، ١٠٥.

(٢) انظر: البحر المحيط: ج ١ ص ٤٧٥.

الثاني: أن ارتكاب أفظع الجرائم كقتل الأنبياء، واستحلال ما حرم الله، منافٍ للإيمان بما في التوراة وما أنزل الله، وهم قد فعلوا ذلك وأقروه.

فبطل ادعاؤهم الإيمان بما أُنزل عليهم دون غيره.

فإن قيل: فلِمَ عبر بالفعل المضارع (تقتلون) عن أمر قد مضى وانقضى، والخطاب لمن عاصروا الرسول ﷺ؟

فالجواب: أن في ذلك دليلًا على أنهم راضون بهذا الأمر، وماضون فيه، ولذلك كانوا يحومون حول قتل الرسول ﷺ، فسحروه مرة، وسمّوه أخرى، وحاولوا رضخ رأسه بحجر عظيم من فوق سطوحهم، بل قد ثبت في الصحيح أن موت الرسول ﷺ كان على أيديهم من آثار الشاة المسمومة التي قدموها له يوم خيبر[1].

والمقصود أنهم لجؤوا إلى هذا الأسلوب فراراً من الاعتراف بنبوة نبينا محمد ﷺ، لما أشربته قلوبهم من بغضه وعداوته حسداً وبغياً.

الأسلوب الثامن: نبذ الكتاب، واتباع الأباطيل:

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ** . . ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

النبذ: «هو الطرح والإلقاء»[2].

والكتاب هاهنا: هو التوراة، وقيل القرآن. واستظهره أبو حيان في تفسيره[3]، ويحتمل أن يكون المراد به الجنس، فيشمل التوراة والقرآن، إذ أن بعضها يصدق بعضاً، فنبذ واحد منها نبذ للجميع، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: ص ٣٦٤ من هذا الكتاب.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١ ص ٤١٢، وانظر: لسان العرب، مادة (نبذ): ج ٦ ص ٤٣٢٢.

(٣) انظر: البحر المحيط: ج ١ ص ٤٩٣.

وقوله: (وراء ظهورهم): هذا مثل يضرب لمن أعرض عن الشيء جملة. تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره، أي أعرض عنه بالكلية. وذلك أن ما جُعل وراء الظهر، زال النظر إليه(١).

فهم لم يكتفوا بنبذ الكتاب وطرحه، حتى جعلوه وراءهم ظهريًّا، وهذا أبلغ في الإعراض والصد. ويزداد الأمر فداحة كونهم يعلمون أنه الحق من ربهم، لكنهم يتجاهلون ذلك: ﴿.. كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيا لها من جريمة عظيمة تستوجب مقت الله وغضبه وعقابه.

ولما كان من سنن الله ـ عز وجل ـ في خلقه أن من ترك ما ينفعه ـ وهو قادر على الانتفاع به ـ ابتُلي بالاشتغال بما يضره ولا ينفعه؛ فقد ابتُلي هؤلاء بالاشتغال بكتب السحر، وما اختلقته الشياطين من ذلك، ونسبته ـ زوراً وبهتاناً ـ إلى سليمان ـ عليه السلام ـ(٢)، فأضافوا إلى جرائمهم السابقة جريمة أخرى لا تقل خطراً عن سابقتها، فتحصل من جرائمهم ما يلي:

١ ـ نبذ الكتاب وراء ظهورهم، والإعراض عنه بالكلية.

٢ ـ تجاهل الحق.

٣ ـ الإعراض عن علم الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ إلى علوم الشياطين والسحرة، وأكاذيبهم على أنبياء الله ـ عز وجل ـ.

وهذه قطرات من بحر جرائمهم التي ارتكبوها في حق الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ ولهذا استحقت هذه الأمة وصف الأمة الغضبية ـ كما يسميها ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ(٣)، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن المغضوب عليهم: اليهود**»(٤).

---

(١) انظر: المصدر السابق: ج ١ ص ٤٩٤.

(٢) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ١ ص ١١٧.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ٢٩٨، وهداية الحيارى: ص ٣٧.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: ج ٤ ص ٥١٢ برقم ١٩٣٢٩. والترمذي في كتاب المناقب: ج ٥ ص ٢٠٣، وجزم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه=

الأسلوب التاسع: إعلان التمرد والعصيان:

قال تعالى: ﴿. . قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. . ﴾ [البقرة: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿. . وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. . ﴾ [النساء: ٤٦].

فالآية الأولى في أسلافهم، ولهذا جاء التعبير بالفعل الماضي (قالوا)، وأما الثانية فإنها في الذين عاصروا الرسول ﷺ من يهود المدينة، فجاء التعبير بالفعل المضارع (يقولون)، وفي هذا دليل على أنهم سائرون على ما كان عليه سلفهم، من الكفر والعناد والتمرد والعصيان، بل لقد فاقوا سلفهم في ذلك، فلم يكتفوا بقولهم سمعنا وعصينا، حتى أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿. . واسمع غير مُسمع وراعنا. . ﴾ أي: اسمع، لا أسمعك الله. أذى منهم لرسول الله ﷺ وشتماً له، واستهزاءً به[1]، فبئس خلف لبئس سلف.

وكان أسلافهم قد قالوا من قبل: سمعنا وأطعنا، وآمنا بالتوراة وبكل ما فيها، وأُخذ عليهم الميثاق في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. . ﴾ [المائدة: ٧][2]، لكنهم نقضوا الميثاق، وكفروا بما في التوراة، وأعلنوا التمرد والعصيان كما سبق، فاستحقوا بذلك الطرد والإبعاد عن رحمة الله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً. . ﴾ [المائدة: ١٣].

أما المؤمنون فإنهم كما وصفهم الله ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿ءَامَنَ

= الله ـ بصحته كما في درء تعارض العقل والنقل: (ط ١؛ الرياض: من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٣٩٩هـ): ج ١ ص ١٦٦.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ١٢١، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥٠٧.

(٢) هذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، في تفسير هذه الآية. والجمهور على أنه العهد الذي أخذه النبي ﷺ على المؤمنين ليلة العقبة، وهو: السمع والطاعة، في المنشط والمكره. وإنما أضافه الله إلى نفسه لأنه كان بأمره. (انظر: البحر المحيط: ج ٣ ص ٤٥٤، وفتح القدير: ج ٢ ص ٢٤).

ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ . . ﴾ إلى قوله: ﴿. . وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالا: أي رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ . .﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ . .﴾ قال: نعم. ﴿. . رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ . .﴾ قال: نعم. ﴿. . وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ قال: نعم[1].

فهؤلاء لما أحسنوا النية، وأعلنوا الرضى والإذعان والاستسلام لأمر

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿. . وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه. .﴾ ج ١ ص ٨٠ برقم ١٩٩.

الله، خفف الله عنهم، ووضع عنهم الأغلال والإصر. وأولئك لما أساؤوا النية والعمل، وأعلنوا التمرد والعصيان، لعنهم الله ـ عز وجل ـ وطبع على قلوبهم، وحمّلهم ما يشق عليهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

الأسلوب العاشر: الاحتجاج على الكفر بعداوة جبريل:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ. . ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد سبق حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند أحمد، وفيه أن يهود سألوا رسول الله ﷺ عمن يأتيه بخبر السماء، وقالوا: أخبرنا من صاحبك؟ فلما قال: جبريل، قالوا: ذاك ينزل بالحرب والقتال، عدونا. . . الحديث[١].

وهكذا لجؤوا إلى هذه الحيلة السخيفة فراراً من الإيمان بنبينا محمد ﷺ والإقرار بنبوته، من بعد تبين لهم الحق، وأنه ﷺ رسول من عند الله تعالى، وحجتهم هذه من أعجب الحجج، إذ كيف يسوغ لإنسان أن يعادي ملائكة الرحمن الذين ما خلقوا إلا لتسبيحه وتعظيمه، وليكونوا سفراء بينه وبين خلقه، كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿ . . لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

وجبريل ـ عليه السلام ـ هو خيرهم وأفضلهم[٢]، وإذا كان ينزل بالحرب والقتال والعذاب ـ كما يقولون ـ فإنما ينزل بذلك على المجرمين من أعداء الرسل من اليهود وأمثالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٨]. فقاتل الله اليهود، ما أجرأهم على الله، وعلى ملائكته ورسله.

---

(١) انظر تخريج الحديث ص ٣١٠ من هذا الكتاب.

(٢) انظر حاشية ص ٣١٠.

الأسلوب الحادي عشر: التعصب لدينهم المحرف:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..﴾ [البقرة: ١٢٠].

والمعنى: لن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم اليهودية، ولا النصارى حتى تتبع ملتهم النصرانية[١].

وإنما وحّد الملة مع اختلاف الجنس، لأن الكفر ملة واحدة[٢]، ويدل على اختلافهم قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ..﴾ [البقرة: ١١٣]، وقوله: ﴿.. وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ..﴾ [البقرة: ١٤٥].

ففي الآيات الثلاث السابقة دليل واضح على تعصبهم لدينهم المحرف، ومهما قدم لهم الرسول ﷺ من تنازلات، وحاول إرضاءهم، فإنهم لن يرضوا عنه حتى ينخلع من دينه بالكلية، ويتبع ملتهم وطريقتهم. بل إنهم حتى في أحلك الظروف وأصعب المواقف، والسيف مصلت فوق رؤوسهم، والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان بالدين الحق، وهم لا يساورهم شك في صدق الرسول وما جاء به ليصرون على التمسك بدينهم المحرف، ويتعصبون له، ومن الأمثلة على ذلك، ما رواه أهل السير أن النبي ﷺ لما حاصر بني قريظة، وجهدهم الحصار؛ قذف الله في قلوبهم الرعب، فلما أيقنوا بأن الرسول ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال لهم سيدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ١ ص ١٤٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام: ج ١٩ ص ١٠٧.
(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ١٦٣.

نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلًا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً[١].

فلما أصبحوا، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكم فيهم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ وكانوا حلفاء الأوس في الجاهلية، فحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ: «**حكمت بحكم الله، أو بحكم الملك**»[٢]، فلما أُتي بحيي بن أخطب ـ وهو من زعماء يهود ـ نظر إلى رسول الله ﷺ، فقال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل الله يُخذل! ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه[٣].

إنه يعترف ويقر بأن محمداً ﷺ على الحق، بل إنه منذ أن رآه أول مرة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ: ج ٣ ص ١٣٨٤ برقم ٣٥٩٣، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد..: ج ٥ ص ١٦٠ برقم ٦٤.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٤١. والطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٢٩٤ـ٢٨٦.

بعد مقدمه ﷺ من مكة إلى المدينة وهو مقر بأنه للنبي المرتقب، وقد أعلن منذ ذلك الحين عداوته له ما بقي، وهاهو اليوم وهو في أحرج المواقف يؤكد هذه العداوة، ويقر بأنه لم يلم نفسه قط على ذلك، وقومه يسمعون كلامه، ويأبون إلا التعصب لدينهم المحرف، الذي عبثت به أيدي التحريف والتغيير على يد أمثال حيي وأضرابه.

ومن الأمثلة أيضاً على تعصبهم: ما رواه ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ من خبر الزبير بن باطا اليهودي القرظي، ويكنى أبا عبدالرحمن، وكان قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ في الجاهلية يوم بعاث، فأتاه ثابت، فقال له ـ وكان شيخاً كبيراً ـ يا أبا عبدالرحمن، هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك! قال ثابت: فإني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي. قال: إن الكريم يجزي الكريم، ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد كانت للزبير عليّ منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه. فقال رسول الله ﷺ: «**هو لك**» فأتاه، فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك. قال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده. قال: «**هم لك**» فأتاه، فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك ومالك، فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز، لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ماله. قال: «**هو لك**» فأتاه ثابت، فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك. قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي: كعب بن أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي: حيي بن أخطب؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا: عزّال بن سموأل؟ قال: قُتل. قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة، قال: ذهبوا،

قُتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. فقدمه ثابت، فضرب عنقه، فلما بلغ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قوله: (ألقى الأحبة) قال: يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[١].

فيا للعجب، كيف يختار رجل خسارة دينه ودنياه وآخرته، تعصباً لدين قد بان بطلانه، وظهرت خسارته وخذلانه، ولكن كما قال حيي: من يخذل الله يُخذل.

الأسلوب الثاني عشر: الدعوة إلى دينهم المحرف:

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ..﴾ [البقرة: ١٣٥].

والمعنى: «وقالت اليهود لمحمد وأصحابه من المؤمنين: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا، أي تصيبوا طريق الحق»[٢].

أخرج الطبري ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عبدالله بن صوريّا الأعور، قال لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد، تهتدِ، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله ـ عز وجل ـ فيهم هذه الآية[٣]. وفي آخرها أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿.. بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ التي نتفق عليها إجمالاً، وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فلا سبيل لنا إلى الاجتماع إلا بذلك. وكان كل من الطائفتين يدعي أنه على ملة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ولم يكونوا صادقين في ذلك، فإن إبراهيم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٤٢، ٢٤٣ (بتصرف يسير).
(٢) الطبري، جامع البيان: ج ١ ص ٦١٤، ٦١٥ (باختصار يسير).
(٣) جامع البيان: ج ١ ص ٦١٥.

كان حنيفاً مسلماً، ومحمد ﷺ إنما بُعث بالحنيفية السمحة؛ ملة إبراهيم، فلو كانوا صادقين في انتسابهم إليه لاتبعوا محمداً ﷺ، وآمنوا بما جاء به، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾ [آل عمران: ٦٨].

والمقصود: أنهم مع ضلالهم وانحرافهم يدعون غيرهم إلى اعتناق دينهم المحرف ـ ولازالوا ـ ويبذلون كل غالٍ ورخيص في سبيل ذلك، ويرون أن هذا الأسلوب من أنجع الأساليب للتصدي لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ بعامة، ودعوة نبينا محمد ﷺ بخاصة، لكن الله ـ عز وجل ـ لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين، بل جعل ـ سبحانه ـ العاقبة لعباده المؤمنين.

الأسلوب الثالث عشر: اتباع المتشابه من النصوص:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ.. ﴾ [آل عمران: ٧].

نزلت هذه الآية في نصارى نجران في ضمن بضع وثمانين آية من صدر سورة آل عمران، وذلك أنهم أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ـ عليه السلام ـ فأنزل الله فيهم هذه الآيات[1]. وكان قد جرى بينهم وبين رسول الله ﷺ كلام كثير حول عيسى ـ عليه السلام ـ فدمغهم رسول الله ﷺ بالحجج القاطعة، فلما رأى إصرارهم على ضلالهم، دعاهم إلى المباهلة، فهابوا أن يجيبوه إلى ذلك لعلمهم بأنه رسول من عند الله، وصالحوه على الجزية.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة،

---

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة: ص ١٢٤، والواحدي، أسباب النزول: ص ٥٣، والسيوطي، لباب النقول: ص ٤٧.

وغيره: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران؛ ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم.. قال: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب فاخرة، وأردية جميلة، يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**»، فصلوا إلى المشرق. قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبدالمسيح، والسيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة. تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً. ويحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام، ويُخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً.. ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يُعلَم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله. ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: (فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا)، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً ـ وفي كل ذلك من قولهم، قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ: «**أسلما**» قالا: قد أسلمنا. قال: «**إنكما لم تُسلما، فأسلما**» قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «**كذبتما، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير**» قالا: من أبوه يا محمد؟ (يعنيان عيسى)، فصمت رسول الله ﷺ عنهما، فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية منها. ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها، إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من

ملاعنتهم. . قالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. ثم انصرفوا عنه، وخلوا بالعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ فقالوا: يا عبدالمسيح، ماذا ترى؟ قال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبي قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادِعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. ففعلوا، وصالحوه على الجزية. . إلى آخر ما ورد في القصة[1] .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بالمتشابه في قوله تعالى: ﴿. . وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾، وإن مما ينبغي أن يُعلم أولاً أن الله ـ عز وجل ـ قد وصف كتابه ﴿القرآن﴾ بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنه محكمٌ كله، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ. .﴾ [هود: ١].

الوصف الثاني: أنه متشابه كله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ. .﴾ [الزمر: ٢٣].

وهذان الوصفان شاملان لكل القرآن؛ فهو محكم كله: بمعنى أنه متقن في أخباره وأحكامه وألفاظه، وغير ذلك مما يتعلق به. وهو متشابه كله: بمعنى أن بعضه يشبه بعضاً، فلا تناقض في أحكامه، ولا تعارض في أخباره.

الوصف الثالث: أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، كما في قوله تعالى: ﴿. . مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ. .﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج١ ص ٣٦٨ (باختصار وتصرف). وقد أخرج القصة مختصرة: البخاري في كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران: ج ٤ ص ١٥٩٢ برقم ٤١١٩، وأحمد في المسند: ج ١ ص ٥١٨ برقم ٣٩٣٠.

فالمحكم هنا: ما كان معناه ظاهراً بيناً غير مشتبه، بحيث يعلمه عامة الناس، مثل قوله تعالى: ﴿. . ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . .﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ . .﴾ [البقرة: ٤٣].

وأما المتشابه، فما كان بخلاف ذلك مما يخفى معناه على كثير من الناس، فلا يعلم معناه إلا الله، والراسخون في العلم ـ وهم الخاصة ـ[1]، فيعرفون كيف يجمعون بينه وبين المحكم، ويزيلون ما فيه من الاشتباه، وما يظهر فيه من التعارض، أو يردون المتشابه إلى المحكم، ويكلون علم المتشابه إلى الله، ويقولون: آمنا به كل من عند ربنا، بخلاف أهل الزيغ والفتنة، فإنهم يجعلون من ذلك طريقاً إلى الطعن في القرآن، والتشكيك فيه، ونصرة أهوائهم ومذاهبهم الباطلة[2].

ومن الأمثلة على ذلك: ما فعله نصارى نجران من احتجاجهم بقول الله: (خلقنا، وقضينا، وإنّا) على أنه ـ سبحانه ـ ثالث ثلاثة، ويقولون: لو كان واحداً لقال: (خلقتُ، وقضيتُ، وأنا)[3]، مع أن هذا موجود في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿. . وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ . .﴾ [مريم: ٩]، وقوله:

(١) اختُلف في الوقف في الآية: هل هو على لفظ الجلالة، أم على قوله (والراسخون في العلم)؟ والذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وجمهور التابعين، وجماهير الأمة ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ أن الوقف على قوله تعالى: ﴿إلا الله﴾، وأن ذلك لا ينفي علم الراسخين في العلم بمعناه وتفسيره، لأن الله لم يقل: لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله، وإنما قال: لا يعلم تأويله إلا الله. . . (مجموع الفتاوى: ج ١٣ ص ٢٧٥) وقد أطال شيخ الإسلام الحديث في هذه المسألة، وبين معنى التأويل في الآية، فليراجع.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ١٧ ص ٤١٨، وفتاوى إسلامية: ج ٤ ص ٤٣، وأحمد الدويش (جمع وترتيب) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (ط ١؛ الرياض: مكتبة المعارف: ١٤١١هـ) ج ٤ ص ١٣٩، ١٤٠.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ١٦٣.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ . . ﴾ [طه: ٨٢]، لكنهم تركوا الواضح المحكم، وأخذوا بالمتشابه.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: احتجاجهم على ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ بما ورد في القرآن من وصفه بأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، ويتركون الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ . . ﴾ [الزخرف: ٥٩][1] ، إلى غير ذلك مما احتجوا به من المتشابه، واتخذوه طريقاً إلى إثارة الفتنة، والصد عن سبيل الله.

الأسلوب الرابع عشر: الإيمان أول النهار، والكفر آخره:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قال الحسن والسدي ـ رحمهما الله ـ: تواطأ اثنا عشر حبراً من أحبار يهود، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذاك، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك، شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منّا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم[2] .

وهو أسلوب ماكر من أساليب يهود، يدل على ضعفهم، وإفلاسهم، وفساد سرائرهم، لاسيما وقد تبين لهم الحق. وإنما حملهم على ذلك الحسد، كما قال تعالى في موضع آخر مبيناً سوء نواياهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣٤٥.

(٢) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ٦٢، وجامع البيان: ج ٣ ص ٣٠٩، ٣١٠، ومسائل الجاهلية بزيادات الألوسي: ص ٩٠، ٩١.

﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ . .﴾ [البقرة: ١٠٩]، فهم لم يكتفوا بما تكنه صدورهم من حقد على المؤمنين حتى اتخذوا هذه الخطوة العملية لإضلال المؤمنين، وإخراجهم من دينهم كما صرح بذلك أحد أحفادهم[١]، فقال ـ وهو يخاطب جمعاً من أتباعه ـ: «إن مهمة التبشير التي نُدبتم للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً[٢]، إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام، ليُصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، ومن ثم لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. لقد هيأتم جميع العقول لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له ألا وهو: إخراج المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، فجاء النشء الإسلامي مطابقاً لما أراد الاستعمار؛ لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ويسعى إلى الحصول على الشهوات بأي أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلم فللحصول على الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات. . إنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات. أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه»[٣].

إنها مهمة في غاية الخسة والوضاعة؛ أن يسعى إنسان في الحيلولة بين

---

(١) هو القس صاموئيل شاتليهو زويمر، من أقطاب التنصير في المشرق العربي، ويُعد رئيس المستشرقين في الشرق الأوسط، وذكر بعض الكتّاب أنه من أصل يهودي. (انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون: ج ٣ ص ١٣٨، نقلًا عن: علي إبراهيم النملة، التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته (الرياض: ١٤١٣هـ): ص ٣٩.

(٢) يقول ذلك رفعاً لمعنويات أتباعه؛ لأنهم عجزوا عن تنصير مسلم واحد عن رغبة واقتناع، فلم يظفروا إلا بطفل صغير غَمْر، أو ذي حاجة لسدّ حاجته، أو جاهل.

(٣) عبدالله التل، جذور البلاء (ط ٢؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٣٩٨هـ): القسم الأول ص ٢٧٥، ٢٧٦ (بتصرف).

الناس وبين ربهم وخالقهم، ليصبحوا (لا صلة لهم بالله) كما يقول هذا القسّ المجرم.

والمقصود: أن السعي إلى إخراج المسلم من دينه أسلوب من أساليب المجرمين عموماً، لكن الإيمان أول النهار، والكفر آخره لهذا الغرض، أسلوب من أساليب أهل الكتاب.

الأسلوب الخامس عشر: النيل من الذات الإلهية:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ . .﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ . .﴾ [المائدة: ٦٤].

فقد وصفوا الله بالفقر، كما وصفوه بالبخل، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً.

أما وصفه ـ سبحانه ـ بالفقر، فقد أخرج الطبري وغيره، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: دخل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بيت المدراس، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتقِ الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، لو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويعطيناه! ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا الربا! فغضب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذِبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما

صنع بي صاحبك! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**ما حملك على ما صنعت؟**» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء! فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص، ردًّا عليه، وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ . .﴾[1] .

وأما وصفه بالبخل، فقد قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، وأخصبهم ناحية. فلما عصوا الله في أمر محمد ﷺ، وكذبوا به، كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة. أي محبوسة مقبوضة عن الرزق؛ نسبه إلى البخل ـ تعالى الله عن ذلك ـ فلما لم ينهه الآخرون عن هذا القول، كانوا شركاء له فيه»[2] .

أما ما افتروه على الله ـ عز وجل ـ في كتبهم مما فيه انتقاص للذات الإلهية، فهو كثير، فمن ذلك قولهم في التوراة المحرفة: إن الله استراح في اليوم السابع بعد خلق السموات والأرض[3] وهو القائل سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

وقولهم: إن الله تعالى بكى على الطوفان، حتى رمدت عيناه، وعادته الملائكة!!

وقولهم في بعض أدعية صلواتهم مخاطبين الله ـ جل وعلا ـ: انتبه، كم

---

(١) جامع البيان: ج ٣ ص ٥٣٥.

(٢) معالم التنزيل: ج ٣ ص ٧٦ (باختصار وتصرف يسير).

(٣) هذه الفرية وردت في الإصحاح الثاني من سفر التكوين، فقرة: ١ ـ ٢، وانظر: هداية الحيارى، الحاشية: ص ٢٠٣.

تنام يا رب، استيقظ من رقدتك[١] وكأنهم ينخونه بذلك!

وقولهم: إن الله لما رأى فساد قوم نوح، وأن شرهم قد عظم، ندم على خلق البشر في الأرض، وشق عليه ذلك[٢] !

إلى غير ذلك مما افتروه على الله، وانتقصوه به، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

أما النصارى، فإنهم قد سبوا الله مسبة ما سبقهم إليها أحد من العالمين، حيث زعموا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ «نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر، يتخبط بين البول والدم والنجو، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل رضيعاً صغيراً يمص الثدي، ولفّ في القُمُط، وأودع السرير، يبكي، ويجوع، ويعطش، ويبول، ويتغوط، ويحمل على الأيدي والعواتق، ثم إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين[٣] ، وألبسوه إكليلًا من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا وهو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم، وهو المعبود المسجود له»[٤] .

فأي مسبة أعظم من هذه المسبة؟!

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في هذه الأمة: «أهينوهم، ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله ـ عز

---

(١) هذه الفرية والتي قبلها وردتا في العهد القديم، المزامير، المزمور الثامن والسبعون، فقرة: ٦٥ (وانظر: المصدر السابق، الحاشية: ص ٢٠٤).

(٢) هذه الفرية وردت في الإصحاح السادس من سفر التكوين، فقرة: ٥ ـ ٦ (وانظر المصدر السابق).

(٣) أي: قائمتين. (انظر: لسان العرب، مادة لصص): ج ٥ ص ٤٠٣٢.

(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ٢٨٢، ٢٨٣، وانظر: هداية الحيارى: ص ٣٩، ٤٠.

وجل ـ مسبة، ما سبه إياها أحد من البشر».

وذكر أيضاً أن بعض أئمة الإسلام كان إذا رأى صليبياً، أغمض عينيه عنه، وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب[١].

وإن عبدة الأوثان ـ مع شدة عداوتهم للرسل ـ ليأنفون من وصف آلهتهم التي يعبدونها من دون الله بمثل ما وصف به هؤلاء إلههم ومعبودهم الذي هو رب العالمين، وكأن الله في نفوسهم أجل من أن يصفوه بذلك. فعجباً لأمة الضلال والإضلال.

الأسلوب السادس عشر: التفريق بين الله ورسله:

الأسلوب السابع عشر: التفريق بين الرسل:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٠].

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، وذلك أن كلًّا من الطائفتين آمنت برسولها وكتابها المنزل، وكفرت بما سواه؛ فآمنت اليهود بموسى والتوراة، وكفرت بعيسى ومحمد. وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل، وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن[٢].

أما تفريقهم بين الله ورسوله، فإنهم فرقوا بينهما بالإيمان، حيث قالوا: نؤمن بالله، ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياء. وهذا من تناقضاتهم؛ فإن من آمن بالله إيماناً صحيحاً، وجب عليه الإيمان بجميع رسل الله وأنبيائه ـ عليهم السلام ـ لأن ذلك من تمام الإيمان به سبحانه.

---

(١) إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ٣٤٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ج ٣ ص ٤٠٠.

ومن عادى أحداً من رسل الله، فقد عادى الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فدل ذلك على أنهم أعداء لله ورسله.

وكذلك تفريقهم بين الرسل، فإنهم جميعاً من عند الله تعالى، فمن آمن برسول وكفر بآخر، فقد كفر بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، مع أنهم لم يكفروا إلا برسولهم صالح ـ عليه السلام ـ وذلك أن دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ واحدة، وكل دليل يستدلون به على الإيمان بمن آمنوا به من الرسل، موجود مثله أو أقوى منه للنبي الذي كفروا به. وكل شبهة يزعمون أنها تقدح في النبي الذي كفروا به، موجود مثلها أو أكبر منها فيمن آمنوا به. فلم يبق بعد ذلك إلا الهوى والعصبية، والدعاوى التي يمكن أن تُقابل بمثلها[1].

لكنهم، وقد شرقت نفوسهم بهذا النبي العربي الأمي ﷺ الذي لم يكن من جنسهم، لم يجدوا إلا اللجوء إلى مثل هذه الأساليب الملتوية، كما قال تعالى في ختام الآية: ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان[2] وهيهات أن يجدوا مثل هذا الطريق إلا بالكفر بالله ورسله جميعاً.

الأسلوب الثامن عشر: تشجيع الشاذين والمرتدين والمتمردين:

قال تعالى: ﴿.. وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ..﴾ [آل عمران: ١١٨] أي ما يشق عليكم[3].

ومن ذلك: تشجيع الشاذين والمتمردين، ودعمهم، وحمايتهم في حال القدرة، واحتضانهم، لما في ذلك من إضعاف للحق، وإغاظة لأهله.

---

(١) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٢ ص ٢٠٩.
(٢) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٢ ص ٣٠٥.
(٣) انظر: ص ٢٥٩.

ومن الأمثلة على ذلك: ما فعله نصارى نجران من مكاتبة الأسود العنسي، المتنبىء الكذاب، وتشجيعه على التمرد، حتى سار إليهم، ثم رحل إلى اليمن، فملكها، إلى أن قتلته امرأته وأراحت المسلمين من شره(١) .

وكذلك فعل نصارى تغلب حين أيدوا مسيلمة الكذاب يوم ادعى النبوة(٢) .

وهذان الكذابان هما اللذان رآهما النبي ﷺ في منامه، فقد أخرج الشيخان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا نائم، رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي**» فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة(٣) .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: ما جاء في حديث توبة كعب بن مالك الطويل، وهجر النبي ﷺ له والمسلمين، وفيه: «فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا بنبطي من أنباط الشام(٤) ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني، دفع إليّ كتاباً من ملك غسّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. . »(٥) .

---

(١) انظر: الغزالي، فقه السيرة: ص ٤٣٠.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ج ٣ ص ١٣٢٦ برقم ٣٤٢٤، ومسلم في كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ: ج ٧ ص ٥٨ برقم ٢١.

(٤) نبطي: نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه، وكانوا أهل فلاحة. وقد وقع في بعض الروايات أن هذا النبطي كان نصرانيًّا. (انظر: فتح الباري: ج ٨ ص ١٢٠).

(٥) الحديث بطوله أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك. . : ج ٤ ص ١٦٠٣ برقم ٤١٥٦، ومسلم في كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه: ج ٨ ص ١٠٥، ١٠٦ برقم ٥٣.

وحاشا لله أن يكون كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ شاذًّا أو متمرداً كالعنسي أو مسيلمة الكذاب وأضرابهما، وإن كانوا هم قد أرادوه كذلك، لكن الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لم تؤثر فيه الفتن، ولم تزعزعه المطامع.

وقد ورث هذا الأسلوب أحفادهم المتأخرون، فما إن يسمعوا بمرتد أو مرتدة، أو متمرد أو متمردة إلا ويسارعوا إلى احتضانه وتشجيعه وحمايته، وتسليط الأضواء عليه، والأمثلة على ذلك كثيرة ومعروفة.

الأسلوب التاسع عشر: البَهْت:

وهو الكذب والافتراء. يقال: بهته، يبهته، بهتاً وبُهتاناً أي قال عليه ما لم يفعله[١].

قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء: ١٥٦] وهو رميهم إياها بالزنى[٢].

وفي الصحيح عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في قصة إسلام عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وكان حبراً من أحبار يهود ـ أنه لما أسلم، وشهد شهادة الحق، قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني. فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «**أي رجل عبدالله فيكم؟**» فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «**أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبدالله، فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[٣].

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (بهت)، وابن الأثير، النهاية: ج ١ ص ١٦٥.

(٢) انظر: ص ٢٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿من كان عدوًّا لجبريل..﴾: ج ٤ ص ١٦٢٨ برقم ٤٢١٠.

إن البهت قد يقع من غير اليهود، لكنه في اليهود داء مستشرٍ، وسجية راسخة لا تنفك عنهم أبداً، ومن تأمل سيرتهم مع أنبيائهم، وما حرفوه وافتروه في كتبهم، ظهر له ذلك جليًا، وقد سبق من ذلك الكثير قريباً[1] .

هذا ما ظهر لي من أساليب أهل الكتاب في كتاب الله ـ عز وجل ـ.

---

(١) انظر: ص ٣٩٤ من هذا الكتاب.



المبحث الثالث
الأساليب التي يختص بها المنافقون

وهي بإجمال:

١ ـ التقية، وهي إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

٢ ـ ادعاء الإصلاح.

٣ ـ تولي الكفار.

٤ ـ الاحتجاج على تولي الكفار بخشية وقوع الدوائر.

٥ ـ إعلان الطاعة، وتبييت العصيان.

٦ ـ بث الشائعات المغرضة.

٧ ـ التخلف عن الجهاد.

٨ ـ الاعتذار عن الخروج إلى الجهاد بأعذار كاذبة.

٩ ـ الفرار من الجهاد.

١٠ ـ التسلل لواذاً.

١١ ـ تقليب الأمور.

١٢ ـ اتخاذ سيرة الرسول ﷺ والمؤمنين مادة للتندر والاستهزاء.

١٣ ـ الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف.

١٤ ـ قبض الأيدي عن الإنفاق.

١٥ ـ التشكيك في جهاد الرسول ﷺ.

١٦ ـ استغلال الأزمات للتشكيك.

١٧ ـ الدعوة إلى الإقليمية والوطنية بمفهومها الجاهلي الضيق.

١٨ ـ التعويق والتثبيط والتخذيل.

١٩ ـ إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

٢٠ ـ حضور مجالس الرسول ﷺ وإظهار عدم الانتفاع.
٢١ ـ الانصراف عند نزول الوحي.

التفصيل:

الأسلوب الأول: التقيّة:

وهي: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الأسلوب هو أصل أساليبهم كلها، ومنه تتفرع، ولأجله سُموا منافقين[1]، وهو ـ لعمر الله ـ الداهية الدهياء، والبلية العظمى، وما عظم خطر المنافقين، ولا خفي أمرهم إلا باتخاذهم هذا الأسلوب المخادع، والرسول ﷺ إنما أُمر أن يعامل الناس بما يظهر له من أعمالهم، أما سرائرهم فهي موكولة إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية.

وقد تصدى القرآن الكريم لهؤلاء المنافقين، فهتك أستارهم، وفضح أسرارهم، وكشف عما في دخائل نفوسهم، حتى إنهم ليحذرون من نزول القرآن كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ [التوبة: ٦٤].

أما منهج القرآن في حديثه عن المنافقين، فقد كان منهجاً فريداً، حيث اعتنى بذكر سماتهم وأوصافهم دون ذكر أسمائهم؛ لأن الأسماء تتغير، أما السمات فإنها ثابتة لا تتغير إلى يوم القيامة. وقد أنزل الله في ذلك سورة تتلى إلى يوم القيامة، وهي سورة براءة، وتسمى: الفاضحة، فقد أخرج

---

(١) انظر: ص ١٠٥ من هذا الكتاب.

الشيخان عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة. وفي لفظ مسلم: بل هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم.. حتى ظنوا أنها لن تُبقي أحداً منهم إلا ذُكر فيها..»[1].

وتسمى سورة العذاب، والمقشقشة؛ أي المبرئة من النفاق، والمنقّرة لأنها نقّرت عما في قلوب المنافقين، والمبعثرة لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين، ولها أسماء أُخر استوفى ذكرها السيوطي ـ رحمه الله ـ في الإتقان[2]، وكلها تدور حول هذا المعنى.

والمقصود، أن هذا الأسلوب هو أول أساليب المنافقين في تصديهم للرسل، وأخطرها على الإطلاق.

الأسلوب الثاني: ادعاء الإصلاح:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١] أي: إذا نصحهم ناصح، ونهاهم ناهٍ عن الفساد في الأرض، من موالاة أعداء الله، وارتكاب المعاصي والآثام، قالوا متبجحين: ﴿.. إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: ما أردنا بعملنا هذا إلا الإصلاح. يقولون ذلك قلباً للحقائق، وتزييفاً للواقع، وذلك مثل قولهم إذا ألجأتهم الحاجة، إلى التحاكم إلى الله ورسوله ـ وقد اختاروا من قبل التحاكم إلى غيره: ﴿.. إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢] أي: «ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك، إلا المداراة والمصانعة، لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر: ج ٤ ص ١٨٥٢ برقم ٤٦٠٠، ومسلم في كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر: ج ٨ ص ٢٤٥ برقم ٣١.

(٢) انظر: الإتقان: ج ١ ص ٧٢.

اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة. . .»[١]، وقد كذبوا، فإنهم ما أرادوا إلا الإساءة والتلفيق، لا الإحسان والتوفيق، ولهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ. . ﴾ [النساء: ٦٣].

ولما حصروا أعمالهم في دائرة الصلاح والإصلاح، وذلك منهم مجرد دعوى للتضليل، أكذبهم الله بقوله: ﴿. . ألا إنهم هم المفسدون. . ﴾ فحصر الإفساد فيهم، وذلك لعظم خطرهم وضررهم على الأمة، وإن كان غيرهم قد يكون مفسداً، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿. . هُمُ ٱلْعَدُوُّ. . ﴾ [المنافقون: ٤] حيث حصر العداوة فيهم، مع وجود أعداء غيرهم، وقد سبق توجيه ذلك[٢].

ولما كانت مصيبتهم في موت قلوبهم وانتكاسها، وعدم إحساسها بجراح الكفر والمعاصي، ختم الله الآية بقوله: ﴿. . ولكن لا يشعرون﴾.

ولولا خوفهم من سيف الحق المسلط، لما تذرعوا بادعاء الإصلاح كسائر إخوانهم من الكفرة.

والمقصود، أنه ليس كل من ادعى الإصلاح يكون مصلحاً.

الأسلوب الثالث: تولي الكفار من دون المؤمنين:

قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ. . ﴾ [المجادلة: ١٤].

أما الآيات في النهي عن تولي الكفار فهي كثيرة جداً، منها قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً. . ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥١٩.

(٢) انظر: ص ١٠٤ من هذا الكتاب.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ..﴾ [المائدة: ٥١].

فالمنافقون لا يقر لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال حتى يمدوا أيديهم إلى الكفار ليستعزوا بهم، ويستنصروهم، ويستدفعوا بهم العذاب، ولو كانوا يفقهون لعلموا أن العزة لله جميعاً، وأنه ـ سبحانه ـ قد كتبها لرسله وأوليائه المؤمنين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿.. وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

إن المنافقين كفار في الباطن، فلا غرابة أن يمدوا أيديهم إلى الكفار الصرحاء، ويستمطروا بهم المدد، ولهذا عقد الله بينهم حلف الإخاء في القرآن، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..﴾ [الحشر: ١١]، فهم إخوانهم في الكفر، وإن اختلفت منطلقاتهم، وأحوالهم قرباً وبُعداً عن المجتمع المسلم.

وهذا الأسلوب هو ملجأ المنافقين، وملاذهم الوحيد داخل المجتمع المسلم، فليس لهم من يلوذون به سوى إخوانهم في الكفر، فبئس الملجأ والملاذ.

ويدخل في توليهم الكفار، إظهار تضامنهم معهم، وتشجيعهم على محاربة الرسول ﷺ والمؤمنين، كما حصل منهم في غزوة بني النضير، وقولهم لهم: ﴿.. لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ..﴾ [الحشر: ١١]، فأكذبهم الله بقوله: ﴿.. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

فإن ظهر منهم ذلك، وعُوتبوا عليه، لجؤوا إلى:

الأسلوب الرابع: الاحتجاج على تولي الكفار بخشية وقوع الدوائر:

قال تعالى بعد نهيه المؤمنين عن تولي اليهود والنصارى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ . . ﴾ [المائدة: ٥٢].

أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي موالي من اليهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبدالله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية مواليّ! فقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن أبي: «**يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه؟**» قال: قد قبلتُ! فأنزل الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ . . ﴾ الآيات [المائدة: ٥١].

وهذا الأسلوب، وإن كان ظاهره الكياسة، وأخذ الحيطة والحذر؛ إلا أنه دليل على قلة فقه المنافقين، وضعف يقينهم بالله، ووعده ووعيده، فإن الله ـ عز وجل ـ قد كتب النصر والغلبة لدينه ورسله وأوليائه المؤمنين كما قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، فلا يرتاب في وعد الله ووعيده إلا من قلّ يقينه وعميت بصيرته من المنافقين وأشباههم، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ بعد ذكره حال المنافقين، وتوليهم الكفار خشية وقوع الدوائر: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٦].

وإذا كان من تولاهم المنافقون تعززاً واستكثاراً بهم، لا يستطيعون دفع الدوائر عن أنفسهم، فكيف يدفعونها عن غيرهم؟! ولكن المنافقين لا يفقهون.

الأسلوب الخامس: إعلان الطاعة وتبييت العصيان:

قال تعالى: في طائفة من المنافقين: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ . . ﴾ [النساء: ٨١].

والمعنى: أنهم يُظهرون الطاعة عند رسول الله ﷺ إذا أمرهم بأمر، فإذا خرجوا من عنده، غير جماعة منهم أمر رسول الله ﷺ، وبيتوا غيره. وهم إنما يفعلون ذلك ليأمنوا على دمائهم وأموالهم التي لولا نفاقهم لكانت حلالاً[١]. بخلاف أهل الكتاب الذين أعلنوا التمرد والعصيان ـ كما سبق ـ[٢].

الأسلوب السادس: بث الشائعات المغرضة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ . . ﴾ [النساء: ٨٣] أي: أشاعوه وأفشوه، وذلك أن النبي ﷺ كان «يبعث السرايا، فإذا غَلبوا أو غُلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيُفشونه ويحدثون به قبل أن يحدّث به رسول الله ﷺ، فيُضعفون به قلوب المؤمنين . .»[٣]، وقد يتلقاه عنهم بعض المؤمنين، من ذوي النوايا الحسنة، فيساهمون في بثّه وإشاعته عن حسن قصد، فتعظم الفتنة، ويكثر القيل والقال، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥]، وقد نزلت هذه الآية ضمن الآيات التي نزلت في حادثة الإفك لما أشاع المنافقون الطعن في عرض أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وشارك في ذلك بعض المؤمنين، وقد سبق الحديث عن ذلك[٤].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٤ ص ١٨٠، ١٨١.

(٢) انظر: ص ٤٣٠.

(٣) البغوي، معالم التنزيل: ج ٢ ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٤) انظر: ص ٣٠٠.

ومن ذلك أيضاً ما أخرجه مسلم ـ رحمه الله ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء حتى دخل المسجد، فوجد الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ، فاستفهمه: أطلقتهن؟ فقال: «لا» . . فذكر الحديث، ثم قال في آخره: فقمتُ على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ . . ﴾[1] .

والشائعات إنما تكثر في أوقات الأزمات، وفي أعقاب حوادث معينة، حيث تكون النفوس مهيأة لتلقي ما يشاع، والتفاعل معه. وقد يُتهم بريء، ويُبرأ متهم كما حصل في حادثة الإفك. والمنافقون قابعون في الظلام يفركون أيديهم فرحاً وسروراً. ولكن الأمر وإن كان في ظاهره شر للمؤمنين، فهو في حقيقته خير لهم، لما فيه من التمحيص وتطهير الصف المسلم.

وقد حذر الله المؤمنين من الانسياق وراء تلك الشائعات، والاستجابة لها، وأمرهم بالتريث في شأنها، وردها إلى أولي الأمر منهم: ﴿ . . وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ . . ﴾، وبهذا يُقضى على الشائعة في مهدها، ويبطل كيد الكائدين.

كما وردت نصوص في السنة المطهرة، تنهى المؤمنين عن سلوك هذا السبيل، وتدعوهم إلى التثبت والتريث عند نقل الأخبار، حرصاً على وحدة الصف المسلم، وسلامة المجتمع، فمن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٥٣. والحديث أخرجه بطوله مسلم في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، واعتزال النساء وتخييرهن: ج ٤ ص ١٨٨ . وأخرجه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مختصراً في كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . .﴾ دون ذكر آية النساء: ج ٥ ص ٢٠٢٦ برقم ٤٩٨٤ .

ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»(١).

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال..(٢) أي: كثرة الحديث من غير تثبت(٣).

وفي السنن من حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٤).

فلو امتثل المؤمنون هذه التوجيهات النبوية الكريمة، لقلت الشائعات المغرضة، وتلاشت، ولم يجد المنافقون والموتورون مجالاً للتنفيس عن أحقادهم وضغائنهم في المجتمع المسلم.

الأسلوب السابع: التخلّف عن الجهاد:

قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ.. ﴾ [التوبة: ٨١].

إن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وقد قرنه النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع: ج ١ ص ٨ برقم ٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض وأداء الديون...، باب ما يُنهى عن إضاعة المال: ج ٢ ص ٨٤٨ برقم ٢٢٧٧ بلفظ: «وكره لكم قيل وقال..»، ومسلم في كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة: ج ٥ ص ١٣١ برقم ١٠.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ١٠ ص ٤٠٧.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في قول الرجل «زعموا»: ج ٥ ص ٢٥٤ برقم ٤٩٧٢.

بالإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام لما سأله أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله، والجهاد في سبيله**. . .»[١] . وما ذاك إلا لمشقته على النفوس، مع ما فيه من المصالح العظيمة التي من أعظمها: القضاء على الكفر وأهله، وإعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ ولما كان المنافقون يسعون إلى ضد ذلك، كان لجؤوهم إلى هذا الأسلوب أمراً متوقعاً، وهم يهدفون بذلك إلى أمرين:

أحدهما: خذلان المؤمنين وإضعافهم.

والثاني: تشجيع الكسالى من المؤمنين على الجلوس وعدم الخروج، ولا شك أن لذلك أثره على المؤمنين كما حدث لبعض الصحابة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فهجرهم النبي ﷺ والمؤمنون، حتى أنزل الله توبتهم من فوق سبع سموات[٢] .

وإن كان خروج المنافقين مع المؤمنين لا يزيد المؤمنين إلا شرًّا وفساداً، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ. . ﴾ [التوبة: ٤٧]، فتخلفهم محنة، وخروجهم شر وفتنة.

فإن أُمروا بالخروج، أو عُوتبوا على تخلفهم وقعودهم، لجؤوا إلى:

الأسلوب الثامن: الاعتذار عن الخروج إلى الجهاد بأعذار واهية:

وقد سبق قريباً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ. . ﴾ [التوبة: ٤٥] أي عن الخروج إلى الجهاد.

وقال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ. . ﴾ [التوبة: ٩٤].

أما الأعذار التي يعتذرون بها، فهي أعذار كاذبة، تدل على فساد

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال: ج ١ ص ٦٢ برقم ١٣٦.

(٢) قصة المخلفين عن غزوة تبوك سبق تخريجها، انظر: ص ٤٢١.

قلوبهم، وانطماس بصائرهم، فمن ذلك:

١ ـ قولهم: ﴿.. لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ..﴾ [آل عمران: ١٦٧] أي: «لو نعلم أنكم تقاتلون، لسرنا معكم.. ولكن لا نرى أن يكون بينكم وبين القوم قتال...»[١]، فأكذبهم الله في آخر الآية بقوله: ﴿.. هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

٢ ـ قولهم: ﴿.. لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ..﴾ [التوبة: ٤٢] أي: لو أطقنا الخروج معكم لخرجنا، ولكننا لا نطيق لعدم وجود السعة والمراكب وما لا بد منه للمسافر والغازي[٢]، فأكذبهم الله ـ عز وجل ـ في آخر الآية بقوله: ﴿.. يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٣ ـ قول بعضهم للنبي ﷺ: ﴿.. ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ..﴾ [التوبة: ٤٩]. نزلت هذه الآية في الجد بن قيس، أخي بني سلمة، وكان من المنافقين، وذلك أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم، وهو في جهازه: «**هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عُجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «**قد أذنت لك**»[٣]، فأكذبهم الله بقوله: ﴿.. أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، فإن ما وقعوا فيه من الفتنة بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه، أعظم مما كانوا يخافونه من فتنة نساء بني الأصفر.

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٥١٠ (باختصار).

(٢) انظر: المصدر السابق: ج ٦ ص ٣٨٠.

(٣) المصدر السابق: ج ٦ ص ٣٨٧، وانظر: الواحدي، أسباب النزول: ص ١٤٢، والسيوطي، لباب النقول: ص ١٢٦.

٤ ـ قولهم: ﴿.. لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ..﴾ [التوبة: ٨١]، فيعتذرون عن الخروج بشدة الحر، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾، فهم قد فروا من حر ساعة، إلى حر الأبد في نار جهنم التي أعدها الله لمن عصاه، وخالف أمره، وأين حر الدنيا، من حر نار الآخرة؟

٥ ـ قولهم: ﴿.. إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ..﴾ [الأحزاب: ١٣] أي: خالية ضائعة مكشوفة، نخشى عليها السراق[١]، فأكذبهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿.. وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾، وسيأتي الحديث عن هذه الآية قريباً إن شاءالله.

فإن أعيتهم الحيلة، فلم يجدوا أعذاراً يعتذرون بها، وخرجوا كارهين، لجؤوا إلى:

الأسلوب التاسع: الفرار من الجهاد:

قال تعالى في وصف طائفة من المنافقين: ﴿.. وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣]، وذلك خذلاناً منهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب: ١٤] أي: ولو أنهم دُعوا إلى حرب الله ورسوله، وإثارة الفتنة، لطاروا إلى ذلك مجيبين، وأتوه غير متلبثين في بيوتهم إلا يسيراً[٢].

فإن رمقتهم الأبصار، وأحاطت بهم الأنظار، وعجزوا عن الفرار، لجؤوا إلى:

الأسلوب العاشر: التسلل لِواذاً:

قال تعالى: ﴿.. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ..﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) انظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٦ ص ٣٣٢.

(٢) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٢ ص ٢٧.

التسلل: الانطلاق في استخفاء وتدريج[١]. واللواذ: مصدر؛ لاوذت بفلان، ملاوذة، ولواذاً، وهو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا، وهذا بهذا..[٢].

وكانوا يفعلون ذلك للفرار من الجهاد، وهو أسلوب خفي، لكنه إن خفي على الرسول ﷺ والمؤمنين، فهو لن يخفى على الله الذي لا تخفى عليه خافية، لاسيما والوحي ينزل.

الأسلوب الحادي عشر: تقليب الأمور:

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ..﴾ [التوبة: ٤٨] أي: «صرفوها من أمر إلى أمر، ودبروها ظهراً لبطن، وسعوا بكل حيلة لإبطال دينك، وإضعاف أمرك»[٣]، وهو أسلوب من أساليبهم الخبيثة الماكرة، لاسيما وأن في المسلمين من يخفى عليه أمرهم، وينخدع بهم وبأساليبهم الخفية، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿.. وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ..﴾ أي: من يسمع كلامهم ويطيع لهم[٤]، لكن حين يجيء الحق بنوره الساطع، تعمى خفافيش الظلام، وينكشف أمرها، ويظهر أمر الله ولو كره المنافقون.

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب: مادة (سلل): ج ٣ ص ٢٠٧٤.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٣٦١، ولسان العرب: مادة (لوذ).

(٣) المحرر الوجيز: ج ٦ ص ٥١٤، والشوكاني، فتح القدير: ج ٢ ص ٤١٩ (بتصرف).

(٤) هذا هو أحد القولين في معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين، والقول الثاني: (فيكم سمّاعون لهم)، أي جواسيس لهم وعيون يتسمعون أخباركم، فينقلونها إليهم، واختاره الطبري. (انظر: جامع البيان: ج ٦ ص ٣٨٤، والبحر المحيط: ج ٥ ص ٥١). وأنكره شيخ الإسلام كما في درء التعارض ج ٥ ص ٢٦١.

الأسلوب الثاني عشر: اتخاذ سيرة الرسول ﷺ والمؤمنين مادة للتندر والسخرية:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . . ﴾ [التوبة: ٦٥].

أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رجل في غزوة تبوك، في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبدالله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ[1] تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ . . أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . . ﴾ إلى قوله: ﴿ . . مُجْرِمِينَ ﴾[2].

فالمنافقون ـ لقربهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين ـ لا يكفون في مجالسهم عن هذا الأسلوب الذميم، تنفيساً عن أحقادهم الدفينة، وأضغانهم المستترة، فلا يطيب لهم مجلس إلا بالتفكه بأعراض المؤمنين، والنيل منهم، وربما تأثر بهم بعض المخدوعين، فأورثوا في نفسه شبهة أو شكًّا فيما جاء به الرسول ﷺ، فكان ذلك سبباً في صده عن سبيل الله، وهذا ما يريده المنافقون.

الأسلوب الثالث عشر: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ . . ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(١) الحَقَب: هو الحزام الذي يلي حَقْو البعير (لسان العرب: مادة حقب): ج ٢ ص ٩٣٦.

(٢) جامع البيان: ج ٦ ص ٤٠٩. وانظر: الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النزول:

لما كان الرسول ﷺ والمؤمنون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتخذون من ذلك أسلوباً في الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ فإن المنافقين قد سلكوا الأسلوب المضاد لذلك، وهو: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، فلا سبيل لهم إلى مواجهة المؤمنين إلا بذلك، وهذا الأسلوب يمكن أن نسميه بـ: «أسلوب المخالفة والهدم»، وهو من أخطر أساليب المنافقين، فما يبنيه الرسول ﷺ والمؤمنون، يسعى المنافقون إلى هدمه وتقويضه، وما أصعب البناء، وما أسهل الهدم؛ فإن ما يُبنى في أعوام، يمكن هدمه في ساعات، إلا أن يكون البناء في غاية الإحكام، وعليه حراس أمناء أقوياء، فلا سبيل إلى هدمه وتقويضه.

ولما كان المنافقون في غاية الجبن والخوف، فإنهم لا يُظهرون ذلك، ولا يُصرحون به علانية، وإنما يغلفونه ببعض الألفاظ الخادعة، والعبارات المنمقة، والأساليب الملتوية التي قد تخفى على كثير من الناس، فإذا أُخذوا وحوسبوا، قالوا: ما أردنا ما فهمتم، ما أردنا إلا الإصلاح والإحسان، وربما حلفوا أيماناً مغلظة أنهم ما قالوا وما فعلوا، والله يشهد إنهم لكاذبون، والمؤمنون من أصحاب البصائر، يشهدون كذلك.

الأسلوب الرابع عشر: قبض الأيدي عن الإنفاق:

قال تعالى: ﴿.. وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ..﴾ [التوبة: ٦٧]. أي عن الإنفاق في سبيل الله[١].

إن الجهاد في سبيل الله إنما يقوم على دعامتين أساسيتين، هما: الأموال، والأنفس، ولهذا يكثر في القرآن الكريم الدعوة إلى الجهاد بهما، كقوله تعالى: ﴿.. وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ [التوبة: ٤١]، وإن من الملاحظ في جميع هذه الآيات: تقديم الجهاد بالمال على

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٤١١، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٣٦٨.

الجهاد بالنفس، إلا في موضع واحد فقط، وهو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم . .﴾ [التوبة: ١١١][1]، وما ذاك إلا لأهمية الإنفاق في سبيل الله، فإذا عُلم هذا، تبين السر في قبض المنافقين أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، فإن انخفاض دين الرسول هو غاية ما يسعون إليه، ومن كانت هذه غايته، فكيف يبسط يده للإنفاق في سبيل الله؟!

وليتهم قد اكتفوا بذلك، بل لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب الخامس عشر: التشكيك في جهاد الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ . .﴾ [التوبة: ٧٤].

نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين، يقال له: الجلاس بن سويد، وكان في حجره ابن امرأته من زوجها السابق: عمير بن سعد، فلما كان العام التاسع من الهجرة النبوية الشريفة، أعلن النبي ﷺ النفير لغزو الروم، وأمر الناس بأن يتجهزوا لذلك، فكان الغلام الصغير عمير يخرج إلى السوق، وإلى المسجد، فيرى من بذل المسلمين وتضحيتهم ما يملأ القلب إيماناً وسروراً، على الرغم من شدة الحر، وينوع الثمار، وميل النفوس إلى الراحة والقعود، لكنه لم ير من الجلاس نشاطاً لذلك، فكأنما أراد أن يستثير همته، ويبعث النشاط في نفسه، فأخذ يقصّ عليه ما رأى من صور التضحية والبذل، لكن الجلاس أجاب الفتى الصغير بجواب أطار صوابه، قال: لئن كان محمد صادقاً؛ لنحن شر من الحمير! فقال عمير: فأشهد أنه صادق، وأنك شر من الحمار. فقال الجلاس: اكتمها عليّ يا بني. فقال: لا والله. ونمى بها إلى رسول الله ﷺ، ولم يكتمها، وكان الجلاس لعمير كالأب، ينفق عليه، فدعا رسول الله ﷺ الجلاس، فعرفه بما قال عمير ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) انظر: محمد المسند، تنبيه الحفاظ: ص ٢٢.

فحلف الجلاس أنه ما قال، فنزلت: ﴿يحلفون بالله ما قالوا..﴾، فقال الجلاس: أتوب إلى الله..»[١].

لقد قال هذا المنافق ما قال، في وقت كان المسلمون فيه في أشد الحاجة إلى من يستثير فيهم الهمم، ويشعل فيهم جذوة الحماس للإنفاق في سبيل الله، والتضحية في سبيله، لكن هذا المنافق غاظه ما رأى وما سمع من حماس المؤمنين، وبذلهم في سبيل الله، فأظهر الله ما في قلبه من الكفر، ليكون المؤمنون على حذر من هذا الصنف من الناس. وإن حال هؤلاء المنافقين كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ .. ﴾ [النساء: ٣٧]، فهم قد بخلوا، وقبضوا أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، ويأمرون غيرهم بذلك تصريحاً وتلويحاً.

فإن عجزوا عن ذلك في حال الأمن، لجؤوا إلى:

الأسلوب السادس عشر: استغلال الأزمات للتشكيك والطعن:

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢].

وذلك يوم الأحزاب، يوم تكالبت قوى الكفر والشر على المدينة لاستئصال الرسول ﷺ والمؤمنين، وقد زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك انبرى المنافقون، فقالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط..»[٢].

لقد أعلنوها صريحة مدوية، في أحلك الظروف، وأحرج الساعات، فقد وجدوا الفرصة مواتية للكشف عن خبيئة نفوسهم، والتشكيك في وعد الله ورسوله ﷺ، وهم آمنون مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون،

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٤٢١، وابن عبدالبر، الاستيعاب: ج ٢ ص ٤٨٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٢٢٢.

فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك والتخذيل، وقد كانوا ـ لسوء ظنهم بالله عز وجل ـ قد ظنوا أن الجولة قد انتهت لصالح الكفر، وأن الدائرة قد دارت على الرسول ﷺ والمؤمنين، وهكذا هي الأزمات، تكشف عن خبايا النفوس، وتفضح دخائل القلوب، وتُظهر سوآت المنافقين المتسترين.

فإن عجزوا عن التشكيك والطعن، لجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو:

الأسلوب السابع عشر: الدعوة إلى الإقليمية الضيقة:

ومن ذلك الدعاء باسم الوطن بمفهومه الجاهلي:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . .﴾ [الأحزاب: ١٣].

فتأمل قولهم: (يا أهل يثرب) وهي التسمية القديمة للمدينة قبل مقدم النبي ﷺ إليها[١]، ولم يقولوا: يا أهل المدينة، أو يا أهل طيبة؛ وهو الاسم الذي سمّاها به رسول الله ﷺ، وإنما أرادوا تفريق الصف المسلم بهذه الدعوة الجاهلية الضيقة.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «نادوهم باسم الوطن. . إشارة إلى أن الدين، والأخوة الإيمانية، ليس لهما في قلوبهم قدر»[٢]، ومعلوم أن الوطن بهذا المفهوم الجاهلي، يدخل فيه الكافر والمنافق والمسلم، ومن يعمل لصالح الوطن، ومن يعمل ضده بأي شكل من الأشكال، وإن ادعى غير ذلك، فكيف يقف هؤلاء جميعاً تحت مظلة واحدة، ويرتبطون برباط واحد، مع ما بينهم من التضاد والاختلاف، بل إن هذه الدعوة في حقيقتها لتجمع

---

(١) «يثرب» اسم للمدينة قبل الهجرة، وهو: إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثرْب، وهو الفساد. وكلاهما مستقبح، ولذا غيره النبي ﷺ، وكان يحب الاسم الحسن، ويكره الخبيث. (انظر: فتح الباري: ج ٤ ص ٨٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٢٠٣.

كل أحد إلا المؤمنين الصادقين، فإن عقيدتهم تأبى عليهم أن يقفوا مع أعداء الله ورسله تحت مظلة واحدة، فلا رباط يجمع المؤمنين سوى رباط العقيدة والإيمان، مهما اختلفت ألسنتهم وأجناسهم، وتباعدت أوطانهم وأجسادهم. وكل أرض عليها مسلم فهي وطن إسلامي، هذا هو المفهوم الصحيح للوطن.

وقد ورث أحفاد المنافقين هذا الأسلوب، ورفعوا له شعارات براقة خادعة، منها قولهم: (الدين لله، والوطن للجميع)[1]، وهم يريدون بذلك إلغاء الرابطة الدينية، وتحطيم عقيدة الولاء والبراء التي هي من لوازم التوحيد والإيمان، ويبالغ بعضهم فيجعل الوطن قبلته التي يتوجه إليها، كما قال أحدهم:

ويا وطني لقيتك بعد اليأس   كأني قد لقيت بك الشبابا
أُدير إليك قبل البيت وجهي   إذا فهت الشهادة والمتابا[2]

ويقول آخر:

بلادك قدمها على كل ملة   ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
سلام على كفر يوحد بيننا   وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم[3]

---

(١) انظر: عبدالرحمن الدوسري، الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة: ص ٨٦، ٨٨.

(٢) هذان البيتان للشاعر أحمد شوقي. انظر: ديوان شوقي (القاهرة: دار نهضة مصر): ج ٢ ص ١٣.

(٣) هذان البيتان من قصيدة كفرية، للشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وقد رد عليها الشيخ عبدالرحمن الدوسري ـ رحمه الله ـ بقصيدة طويلة من سبعمائة بيت، يقول في مطلعها:

يقول طويغيت كفور مسير   بهدي من الماسون أخبث مجرم
بلادك قدمها على كل مله   . . . .

انظر: عبدالرحمن الدوسري، نفثات داعية (ط ٢؛ الرياض: مكتبة الرشد: ١٤٠٤هـ) ص ١٣.

الأسلوب الثامن عشر: التعويق والتثبيط والتخذيل:

قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا . . ﴾ [الأحزاب: ١٨]. المعوّقون: المثبطون المخذّلون، وهم المنافقون[1].

قال قتادة ـ رحمه الله ـ: «هؤلاء ناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ، ويقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا الرجل، فإنه هالك»[2].

وقد سبق قريباً[3] قول أحدهم قبل غزوة تبوك مثبطاً: لئن كان محمد صادقاً، لنحن شر من الحمير! وقد صدق، فإن الحمار لو كان له عقل لما رضي عن اتباع الحق بديلاً.

هذا تثبيطهم قبل الخروج، أما بعد الخروج؛ فمن أخطر أساليبهم في ذلك: ما فعله رأس المنافقين عبدالله بن أُبي يوم أحد حيث رجع بثلث الجيش إلى المدينة خذلاناً منه للمؤمنين، ولأجل هذا كره الله انبعاثهم في غزوة تبوك، وثبطهم عن الخروج كما قال سبحانه: ﴿ . . وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة: ٤٦]، ثم قال تعالى معللاً ذلك: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ . . ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: لو كانوا معكم في الغزو، ما زادوكم إلا شرًّا وفساداً، ولأسرعوا وسطكم بما يوقع العداوة والبغضاء بينكم، ويجر إلى الفتنة، ويفت من العزائم . .[4]. ولقد وقع منهم ذلك،

---

(١) انظر: ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٨٣.

(٢) الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ٢٧٤، وانظر: البغوي، معالم التنزيل: ج ٦ ص ٣٣٤.

(٣) انظر: ص ٤٤٠ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: معالم التنزيل: ج ٤ ص ٥٦.

فقد خرج نفر قليل منهم مع المؤمنين في غزوة تبوك، وهموا بأمور من الشر والفساد، ومن ذلك: قتل النبي ﷺ[١]، لكن الله أبطل كيدهم، وفضحهم، وحفظ نبيه ﷺ والمؤمنين من كيدهم وشرهم.

الأسلوب التاسع عشر: إشاعة الفاحشة في المؤمنين:

قال تعالى تعليقاً على حادثة الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ . .﴾ [النور: ١٩].

قوله: (تشيع): أي تنتشر وتشتهر، بالقول والفعل[٢].

نزلت هذه الآية في أعقاب حادثة الإفك[٣]، وهي تكشف عن أسلوب ماكر من أساليب المنافقين في مواجهة الدعوة، ألا وهو إشاعة الفاحشة، ونشرها، وإعلانها، والتحدث بها، ولا يخفى ما لهذا العمل من الأثر السيء على المجتمع المسلم، من زعزعة الثقة بكل ما هو عفيف وطاهر، و«إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة في المجتمع، ومن ثم تشيع في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع»[٤].

وهو أسلوب خفي، قد وقع فيه بعض الأخيار من أصحاب رسول الله ﷺ، وشاركوا في تنفيذه دون وعي، لكن الفارق بينهم وبين المنافقين؛ أن المنافقين يحبون ذلك، ويفرحون به، ويقصدونه، بخلاف المؤمنين فإنهم لا يحبون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ . .﴾، ولم يقل: (يُشيعون). والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: ص ٣٦٥.
(٢) انظر: نظم الدرر: ج ٥ ص ٢٤٥.
(٣) قد سبق الحديث عنها، انظر: ص ٢٩٩.
(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ٤ ص ٢٥٠٣ (بتصرف).

الأسلوب العشرون: حضور مجالس الرسول وإظهار عدم الانتفاع بها:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا . . ﴾ [محمد: ١٦]. فهم يحضرون مجالس الرسول ﷺ نفاقاً، فيستمعون إليه بآذانهم، أما قلوبهم فهي غارقة في بحور النفاق والغفلة، لا تفقه ما يُقال، ولا تعي، فهم كما قال تعالى: ﴿ . . لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ . . ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك حتى أظهروا ما في قلوبهم من الغفلة، والإعراض عن استماع قول النبي ﷺ وفهم خطابه، وذلك ليغيظوا المؤمنين، ويُضعفوا هممهم عن طلب العلم، والانتفاع بما جاء به الرسول ﷺ، وهذا يشبه قولهم عند نزول سورة من القرآن ﴿ . . أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا . . ﴾ [التوبة: ١٢٤]، فأخبر الله ـ عز وجل ـ أنها لم تزدهم إلا رجساً إلى رجسهم، وذلك لموت قلوبهم وفسادها.

الأسلوب الحادي والعشرون: الانصراف عند نزول القرآن:

قال تعالى: ﴿ . . وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ . . ﴾ [التوبة: ١٢٧] أي: هل يراكم أحد من المؤمنين عند انصرافكم، وذلك أنهم يشق عليهم سماع القرآن، ويخافون أن يفتضحوا[1]، كما قال تعالى في موضع آخر، مبيناً حقيقة حالهم: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ . . ﴾ [التوبة: ٦٤]، ولهذا كانت قلوبهم ترتجف كلما نزلت سورة من القرآن الكريم، ويلوذون بالفرار والانصراف ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فعوقبوا من جنس عملهم، بأن: ﴿ . . صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

هذا هو آخر أسلوب من أساليب المنافقين، وبه أكون قد انتهيت من ذكر الأساليب كلها، حسب ما ظهر لي من كتاب الله ـ عز وجل ـ.

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٣ ص ٤٠٦.

وقبل الولوج في الباب الأخير من أبواب هذا الكتاب، أود أن أنبه إلى ما أشرت إليه سابقاً من أن هذه الأساليب لا يلزم أن تكون بالترتيب الذي ذكرته، فقد يتقدم بعضها على بعض، وقد تجتمع، وقد تفترق، وقد يتداخل بعضها في بعض.

كما أنني لا أدّعي أني قد أحطت بجميع الأساليب في كتاب الله - عز وجل - لكن حسبي أني بذلت ما في وسعي لاستخراج أكثرها، والله ولي التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباب الثالث

سنن الله في إهلاك المجرمين، وانتصار دعوة المرسلين

وفيه فصلان:

الفصل الأول:

سنن الله في إهلاك المجرمين

الفصل الثاني:

سنن الله في انتصار دعوة المرسلين

الفصل الأول
سنن الله في إهلاك المجرمين

ويشتمل على ثلاث مباحث:

المبحث الأول: الإجرام بسبب للإهلاك.
المبحث الثاني: سنة الإمهال.
المبحث الثالث: انتقام الله من المجرمين.

المبحث الأول
الإجرام سبب للإهلاك

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

إن مما يُلاحظ في هذين الآيتين أن لفظ الإجرام جاء مقارناً للفظ الإهلاك، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإهلاك هاهنا هو إهلاك العذاب والنكال، وأن علة هذا الإهلاك هي الإجرام، وذلك أن لفظ الإهلاك قد يُفهم منه مجرد الإفناء والإماتة، كما يُقال: هلك فلان: إذا مات، فأتى بالصيغة المقتضية لإهلاك العذاب، وهي الإجرام[1] .

ولما كان الخبر ليس كالمعاينة؛ أمر الله ـ عز وجل ـ عباده بالسير في الأرض، والاعتبار بأحوال من مضى من المجرمين الهالكين، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]، وأخبر ـ سبحانه ـ أن مساكن هؤلاء المجرمين لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا، لتكون ماثلة للعيان، وشاهدة على الإجرام والجبروت والطغيان: ﴿.. فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٩٧، والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٦٦٠.

وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم لهلاك الأمم أسباباً كثيرة، كلها تعود إلى معنى الإجرام، وهي:

١ ـ الظلم.

٢ ـ تكذيب الرسل ـ عليهم السلام ـ.

٣ ـ البطر.

٤ ـ الاغترار بالقوة المادية، والعَدد والعُدة.

٥ ـ كثرة المعاصي والذنوب.

٦ ـ الفسق والفجور.

٧ ـ دعاء النبي ﷺ على أمته.

التفصيل:

أولاً: الظلم:

قال تعالى: ﴿. . هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ . .﴾ [يونس: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٦].

والظلم نوعان:

ـ **ظلم النفس**، وذلك باجترام المعاصي والآثام، وأعظمها الشرك بالله ـ عز وجل ـ وسيأتي الحديث عن ذلك قريباً إن شاء الله[1].

ـ **وظلم الغير**، وذلك بالاعتداء على حقوق الآخرين، والبغي عليهم، وهو من أعظم أسباب الهلاك، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) انظر: ص ٤٥٩ من هذا البحث.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢].

وإن من أقبح الظلم وأعظمه: معاداة الرسل ـ عليهم السلام ـ وإيذاءهم، والتضييق عليهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ . .﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

فهذا وعد من الله ـ عز وجل ـ لرسله ـ عليهم السلام ـ بإهلاك الظالمين، وإسكان الرسل الأرض من بعدهم؛ مطلق الأرض، وقيل: بل أرض الظالمين على وجه الخصوص.

والذي يظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن المقصود مطلق الأرض ـ ومنها أرض الظالمين ـ[1] كما حدث ذلك لأول الرسل نوح ـ عليه السلام ـ ولآخرهم نبينا محمد ﷺ حيث دانت لهما المعمورة بعد أن أهلك الله الظالمين المكذبين، ويؤيد ذلك، أن الله ـ عز وجل ـ قد أخبر أن مساكن الظالمين المعذبين لم تُسكن من بعدهم إلا قليلًا كما سبق، ولهذا نهى النبي ﷺ عن

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ج ٢ ص ٢٩٦، والشوكاني، فتح القدير: ج ٣ ص ١١٩، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ . .﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ . .﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وحديث: «من آذى جاره، أورثه الله داره»، ولا دليل لهم في ذلك، فأما الآية الأولى؛ فإن الله عز وجل أخبر أنه أورث بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها. (قيل: الأرض كلها، وقيل غير ذلك) ولم يذكر أنهم سكنوا في مساكن الظالمين وأرضهم (انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ٦ ص ٥٦، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٣ ص ٩٢). وأما الآية الثانية، فإنها في يهود بني قريظة، ومن المعلوم أن الله عز وجل لم يهلكهم هلاكاً عاماً كما فعل بالأمم المكذبة من قبلهم، وإنما نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فحكم فيهم بحكم الله، وقد سبق الحديث عن ذلك مفصلًا (انظر: ص ٤٠٧). وأما حديث: «من آذى جاره . .» فلم أجده في كتب الحديث المعتمدة، وعلى فرض صحته أو صحة معناه، فليس هو مما نحن فيه، إذ هو محمول على قضايا فردية خاصة لا تعلق لها بإيذاء الرسل وإخراجهم من ديارهم، والله تعالى أعلم.

دخول مساكنهم، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما مر بالحجر ـ وهي ديار ثمود ـ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا، إلا أن تكونوا باكين ـ أن يصيبكم ما أصابهم**» ثم تقنّع بردائه وهو على الرحل(١).

وفي رواية: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكين.. الحديث**»(٢).

وإن من سنن الله ـ عز وجل ـ في عباده ـ فيما يتعلق بموضوع الظلم ـ: سنة الإمهال كما ورد في الحديث الشريف: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](٣)، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلًا، في المبحث القادم إن شاءالله تعالى.

ثانياً: البطر:

وهو الطغيان في النعمة؛ يُقال: بَطِرَ النعمة بطراً، فهو بَطِرٌ: لم يشكرها(٤).

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا..﴾ [القصص: ٥٨].

ومظاهر البطر كثيرة، منها ما ذُكر في حديث عبادة بن الصامت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا..﴾: ج ٣ ص ١٢٣٧ برقم ٣٢٠٠، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا..: ج ٨ ص ٢٢٠ برقم ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر: ج ٤ ص ١٦٠٩ برقم ٤١٥٨، ومسلم: التخريج السابق.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ..﴾: ج ٤ ص ١٧٢٦ برقم ٤٤٠٩، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم: ج ٨ ص ١٩ برقم ٦١.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (بطر): ج ١ ص ٣٠٠.

ـ رضي الله عنه ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده، ليبيتن ناس من أمتي على أشر وبطر، ولعب ولهو، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم والقينات، وشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير**»[١].

ففي هذا الحديث من مظاهر البطر ما يلي:

١ ـ **استحلال المحارم**، ولفظ المحارم عام يدخل فيه كل ما حرم الله ـ عز وجل ـ ومن ذلك: الفرج الحرام الذي غالباً ما يكون مصاحباً لما ذُكر في الحديث من الغناء والسكر، ويؤيد ذلك: ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير، والخمر والمعازف**»[٢].

والحِرُ (بتخفيف الراء): الفرج، وأصله: حِرْحٌ، وجمعه أحراح[٣].

٢ ـ **استحلال القينات**، وهن المغنيات من الإماء[٤]، ولعل المقصود ـ والله تعالى أعلم ـ استحلال فروجهن، أو استحلال الغناء المحرم، كما يشهد لذلك حديث أبي مالك الأشعري السابق، والله تعالى أعلم.

٣ ـ **شرب الخمر**، وهو ـ في الغالب ـ من علامات البطر والأشر، وطغيان النعمة، ولذا كان غالب من يشربها هم أصحاب النعمة والجاه والغنى، إلا من رحم الله ـ عز وجل ـ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٥ ص ٤١٢ برقم ٢٢٧٨٦. وأصله في البخاري: ج ٥ ص ٢١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه: ج ٥ ص ٢١٢٣ برقم ٥٢٦٨.

(٣) ابن الأثير، النهاية: ج ١ ص ٣٦٦.

(٤) قال ابن الأثير في النهاية (ج ٤ ص ١٣٥): القينة: الأمة غنّت أو لم تغن، والماشطة، وكثيراً ما تطلق على المغنية من الإماء. وانظر: ابن الجوزي، غريب الحديث (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٥هـ) ج ٢ ص ٢٧٥.

٤ ـ **أكل الربا**، وهو من أكبر الكبائر، وأعظمها بعد الشرك بالله، وأكلة الربا هم أباطرة الناس.

٥ ـ **لبس الحرير**: أي للرجال، وهو أيضاً من علامات طغيان النعمة، وليونة العيش، والرغبة في الدنيا، والإعراض عن الآخرة. كما أنه ـ مع ما سبق ـ من علامات الترف، والمترفون(١) هم أعداء الرسل، كما قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤].

وطغيان المترفين وفسقهم وفجورهم، من أسباب هلاك الأمم، وخراب الديار، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

ولما ذكر الله ـ عز وجل ـ أصحاب الشمال، وما أعد لهم في الآخرة من العذاب والنكال ـ ذكر من أسباب دخولهم النار، واستحقاقهم العذاب أنهم كانوا في الدنيا مترفين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥].

فبين البطر والترف علاقة نسب حميمة، ولُحمة ارتباط وثيقة.

ثالثاً: الاغترار بالقوة المادية، والعَدد والعُدّة:

قال تعالى في سياق حديثه عن قارون: ﴿ .. أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ .. ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، ومن قرأ التاريخ، وقلب صفحاته

---

(١) المترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفته النعمة: أي أطغته (لسان العرب، مادة ترف): ج ١ ص ٤٢٩. وانظر: الطبري، جامع البيان: ج ٧ ص ١٣٧.

الغابرة ـ رأى من ذلك العجب؛ من قرون سادت ثم بادت، وحل بها ما حل بغيرها من الهلاك والدمار بسبب الطغيان والجبروت. وإن كان فيما قصه الله علينا في كتابه الكريم ما يكفي ويشفي، لكن تبقى حقيقة واحدة، لا يتبينها المجرمون إلا بعد فوات الأوان، وذلك يوم القيامة؛ يوم الحسرة والندامة، وهي أن القوة لله جميعاً: ﴿. . وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

نعم. . إن القوة لله جميعاً، فما يغتر بقوته إلا شقي، والسعيد من وُعِظ بغيره من الأمم الهالكة.

رابعاً: المعاصي والذنوب:

قال تعالى: ﴿. . فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ. .﴾ [الأنعام: ٦].

فالمعاصي والذنوب خطرها عظيم، وضررها جسيم، وهي من أعظم أسباب هلاك الأمم وزوالها، لاسيما إذا كثرت وفشت، كما قال تعالى: ﴿. . وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] أي لكثرتها وظهورها، فيعاقبهم عليها، ويعاجلهم بالعقوبة(١).

وفي الصحيحين، عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعه: الإبهام والتي تليها.

قالت زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(٢).

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤٠٠، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٦ ص ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج: ج ٣ ص ١٢٢٠. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: ج=

وفي المسند، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا، «**كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، فأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها**»(١) .

والله ـ عز وجل ـ لا يؤاخذ عباده بذنوبهم إذا هم تابوا إليه منها وأنابوا، بل يفرح ـ سبحانه ـ بتوبة عبده إذا تاب إليه كما ورد في الحديث: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا استيقظ على بعيره قد أضله بأرضِ فلاة**»(٢) ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها(٣) ، ولولا ذلك لتعطلت صفة المغفرة والرحمة، ولهذا قال النبي ﷺ ـ مؤكداً قوله بالقسم ـ: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٤) .

وإنما يؤاخذ الله ـ عز وجل ـ من أصر على الذنب، واستخف بالرب، وبأمره ونهيه ـ سبحانه ـ كما قال ـ تعالى ـ لما ذكر أصحاب الشمال، وأسباب دخولهم النار، قال: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٦]، أي: يقيمون على الذنب العظيم. فلا يتوبون ولا

= ٨ ص ١٦٦ برقم ١ .

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ١ ص ٥٠٣ برقم ٣٨١٧. وذكره الألباني في صحيح الجامع: ج ٢ ص ٣٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب الحض على التوبة: ج ٨ ص ٩٣ برقم ٨.

(٣) قد ورد ذلك في حديث أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب ولو تكررت: ج ٨ ص ١٠٠ برقم ٣١.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة: ج ٨ ص ٩٤ برقم ٩.

يستغفرون[١] .

وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ عن إهلاك المجرمين، وأنه قد أخذ كلًّا بذنبه، وعاقبه بعقوبة من جنس عمله، جزاء وفاقاً، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ . . ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فهذه الأربع هي أصل عقوبات الأمم كلها، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلًا، في المبحث الثالث من هذا الفصل إن شاءالله تعالى[٢] .

خامساً: الفسق والفجور:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ . . فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأصل الفسق في اللغة: الخروج عن الأمر، وفسق عن أمر ربه، أي: خرج[٣] ، وقد سبق قول الحسن ـ رحمه الله ـ[٤] : «إذا استُعمل الفسق في أي نوع من أنواع المعاصي، وقع على أعظمها . .» .

وقد غاير الله ـ عز وجل ـ بين الفسوق والعصيان، كما في قوله تعالى: ﴿ . . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ . . ﴾ [الحجرات: ٧]، فجعل الفسوق مرتبة بين الكفر والعصيان[٥] .

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١١ ص ٦٤٨.

(٢) انظر: ص ٥٢٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (فسق)، والشنقيطي، الترجمان والدليل: ج ٢ ص ٥٦٧. ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (مصر: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث: ١٤١٠هـ): ج ٢ ص ٨٥٤.

(٤) انظر: ص ٢٠٢.

(٥) انظر: تفسير المراغي (ط ٢؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي: ١٩٨٥م): ج ٢٦ ص ١٢٦، ١٢٧.

ولذا فإن الله ـ عز وجل ـ لا يعاقب العامة بالمعاصي والذنوب إلا إذا كثرت وأُعلنت، بخلاف الفسق والفجور، فإن قليله موجب للهلاك والبوار، كما قال تعالى: ﴿.. وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، أنه لا يهدي القوم الفاسقين[١]، ولا يرضى عنهم[٢]، ولا يتقبل منهم أعمالهم[٣]، ولا يُضلّ إلا هم[٤].

والمقصود أن الفسوق من أسباب الهلاك، وأن الفاسقين: من أعداء الرسل.

سادساً: التكذيب:

قال تعالى عن قوم فرعون لما جاءهم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالبينات: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

والمقصود بالتكذيب هنا: التكذيب الظاهر[٥]، أما الباطن فإنهم لا يرتابون في صدق الرسل ـ عليهم السلام ـ كما قال تعالى: ﴿.. فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا..﴾ [النمل: ١٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

سابعاً: دعاء النبي ﷺ على أمته:

ومن ذلك قول نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿.. رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ

---

(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿.. وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

(٢) قال تعالى: ﴿.. فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. [التوبة: ٩٦].

(٣) قال تعالى في المنافقين: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

(٤) قال تعالى: ﴿.. وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

(٥) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٣٥٧.

ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

وقوله: ﴿.. أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، فاستجاب الله دعاءه، فنزل العذاب فوراً.

ومن ذلك قول لوط ـ عليه السلام ـ: ﴿.. رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وقول موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿.. رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨]، وكان هارون ـ عليه السلام ـ يؤمن على دعائه، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا..﴾ [يونس: ١٠]، فأخذ العلماء من ذلك: أن الذي يؤمن على دعاء الداعي يكون بمنزلته، أو شريكاً له في دعوته[١].

وقد أخرج الشيخان في صحيحيهما، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها**» وفي رواية: «**قد دعا بها فاستجيب، فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[٢].

قال بعض أهل العلم: «المراد بهذا الحديث أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك، فاستجيب له، إلا نبينا محمد ﷺ فلم يدعُ، فأُعطي الشفاعة عوضاً عن ذلك للصبر على أذاهم»[٣].

وفي هذا الإطلاق ـ والله تعالى أعلم ـ نظر، فإن من الأنبياء من لم يدعُ على أمته، بل كان يدعو لهم ـ وقد ضربوه وأدموه ـ، وهو يقول: «**اللهم**

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٦٠٢، ٦٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة: ج ٥ ص ٢٣٢٣ برقم ٥٩٤٥، ٥٩٤٦، ومسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته: ج ١ ص ١٣٠ برقم ٣٣٩.

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري: ج ١١ ص ٩٧.

اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»[١] .

وهذا عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ لما عاتبه ربه قائلًا له: ﴿ . . ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . ﴾ [المائدة: ١١٦]، نفى أن يكون قد قال ذلك، منزهاً ربه ـ عز وجل ـ عما يقول الظالمون، ثم قال في آخر كلامه ومناجاته ربه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فلم يدعُ عليهم بالهلاك، ولا سأل ربه ذلك، بل فوض الأمر إليه ـ سبحانه ـ بألطف إشارة، وأحسن عبارة.

فإن قال قائل: قد ثبت في الصحيح أن نبينا محمداً ﷺ دعا على قومه بدعوات، منها دعاؤه عليهم بسنين كسني يوسف ـ عليه السلام ـ[٢] فاستجيب له. . فما تقولون في ذلك؟

فالجواب: أن هذه الدعوات ليست هي الدعوة المستجابة التي أعطاها الله كل نبي، كما يدل عليه حديث أبي هريرة السابق، ثم إنه ﷺ لم يدعُ عليهم بالإهلاك والاستئصال العام، بل لما جاءه ملك الجبال، وقال له: «إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» وهما جبلا مكة، قال: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»**[٣] ، وفي ذلك دليل على بُعد نظره ﷺ.

فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ دعا على قريش بعامة، فقال: **«اللهم عليك بقريش»** ثلاثاً[٤] .

---

(١) قد ورد ذلك في حديث سبق تخريجه. انظر: ص ٣٤٢.

(٢) قد ورد ذلك في حديث سبق تخريجه، انظر: ص ٢٢١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين. . : ج ٣ ص ١١٨٠ برقم ٣٠٥٩، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين: ج ٥ ص ١٨١ برقم ١١١.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين. . : ج ٥ ص ١٨٠ برقم ١٠٧.

فالجواب: أن النبي ﷺ إنما أراد الملأ منهم كما جاء التصريح بذلك في آخر الحديث، وفي الروايات الأخرى، وهم سبعة قد عدّهم بأسمائهم: ابو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وأبيّ بن خلف.

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو راوي الحديث: فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيّرتهم الشمس، وكان يوماً حارّاً[1].

وليست هذه هي الدعوة المستجابة التي ورد ذكرها في الحديث، وإنما استجاب الله دعاء نبيه هنا، تكرماً منه وتفضلًا، والله تعالى أعلم.

هذا ما ظهر لي من أسباب هلاك الأمم في القرآن، وقد ورد في السنة المطهرة ذكر أسباب أخرى لها ما يؤيدها من كتاب الله ـ عز وجل ـ وقد ظهر لي منها بعد الاستقراء والتتبع ما يلي:

١ ـ كثرة المسائل.
٢ ـ الاختلاف والتفرق.
٣ ـ إقامة الحدود على الضعفاء دون الشرفاء.
٤ ـ ظهور المنكرات والفواحش.
٥ ـ الشح.
٦ ـ التنافس في الدنيا.
٧ ـ تغيير خلق الله.

التفصيل:

أولاً: كثرة المسائل:

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن

---

(١) الحديث.. أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة...: ج ١ ص ٩٤، ٩٥ برقم ٢٣٧، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ..: ج ٥ ص ١٨٠، ١٨١ برقم١١٠.

النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم: كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[١] .

ويؤيد ذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ . . ﴾ [المائدة: ١٠١]، ولهذا، يذكر غالب المفسرين هذا الحديث عند تفسير هذه الآية.

وقد ورد في بعض الأحاديث بيان لبعض المسائل المذمومة التي ورد النهي عنها، فمن ذلك ما أخرجه مسلم في الصحيح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**» فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم**» ثم ذكر الحديث السابق[٢] .

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: «**إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرَّم، فحُرِّم من أجل مسألته**»[٣] .

وقد تأدب أصحاب النبي ﷺ بهذا الأدب، فكانوا يكرهون كثرة المسائل إلا ما لابد لهم منه، وكان يعجبهم أن يأتي الرجل من البادية ليسأل النبي ﷺ فينتفعون بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: ج ٦ ص ٢٦٥٨ برقم ٦٨٥٨، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه. . . : ج ٧ ص ٩١ برقم ١٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر: ج ٤ ص ١٠٢ برقم ٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف مالا يعنيه: ج ٦ ص ٥٦٥٨ برقم ٦٨٥٩، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله: ج ٧ ص ٩٢ برقم ١٣٢.

ثانياً: الاختلاف والتفرق[1] :

أخرج البخاري في صحيحه، عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[2] .

ويؤيد ذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والآيات في ذم الاختلاف والتفرق كثيرة جداً.

ومن الاختلاف المذموم المفضي إلى الهلاك: الاختلاف في الكتاب، كما يدل عليه أول الحديث السابق؛ فإن فيه أن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رجلًا قرأ آية سمعت من النبي ﷺ خلافها، فأخذت بيده، فأتيت به رسول الله ﷺ، فقال: «**كلاكما محسن**» ثم ذكر الحديث[3] .

وفي صحيح مسلم، عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: هجرت[4] إلى رسول الله ﷺ يوماً، فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»[5] .

ولهذا أمر النبي ﷺ بقراءة القرآن ما اجتمعت عليه القلوب، ونهى عن قراءته في حال الاختلاف، فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن

---

(١) قد سبق ذكر الفرق بينهما، انظر: ص ١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب: ما يذكر في الإشخاص والملازمة: ج ٢ ص ٨٤٩ برقم ٢٢٧٩.

(٣) التخريج السابق.

(٤) التهجير: التبكير إلى كل شيء، والمبادرة إليه، يقال: هجّر يهجر تهجيراً. (انظر: النهاية: ج ٥ ص ٢٤٦).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن: ج ٨ ص ٥٧ برقم ٢.

جندب بن عبدالله البجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا»**(١).

ومن الاختلاف المذموم، المفضي إلى الهلاك: الاختلاف في القدر، وهو فرع عن الاختلاف في الكتاب، فقد أخرج ابن ماجه في سننه بإسناد حسن صحيح(٢) **عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «أبهذا أُمرتم، أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم»**(٣).

ثالثاً: إقامة الحدود على الضعفاء دون الشرفاء:

أو المحاباة في تطبيق الحدود الشرعية.

أخرج الشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قصة المرأة المخزومية التي سرقت، وفيها أن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أراد أن يشفع لها، فقال له النبي ﷺ: **«أتشفع في حد من حدود الله!»** ثم قام فاختطب فقال: **«أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..»**(٤).

ويؤيد ذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ: ما ورد من الآيات في ذم أهل الكتاب، وتلاعبهم بأحكام الله وحدوده وشرائعه، وتحايلهم عليها، وقد

---

(١) التخريج السابق.

(٢) كذا قال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ط ٣؛ بيروت: المكتب الإسلامي: ١٤٠٨هـ): ج ١ ص ٢١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في القدر: ج ١ ص ١٨ برقم ٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع: ج ٦ ص ٢٤٩١ برقم ٦٤٠٥، ومسلم في كتاب الحدود، باب قطع السارق في الشريف وغيره..: ج ٥ ص ١١٤، ١١٥، واللفظ لمسلم.

سبق الحديث عن شيء من ذلك في الأساليب[(١)] .

وإنما كان هذا العمل سبباً للهلاك ـ والله تعالى أعلم ـ لأمور:

أحدها: أن في هذا العمل تلاعباً بأحكام الله وحدوده، واستهانة بها، وهذا يستدعي غضب الله ومقته.

الثاني: أن في ترك إقامة الحدود على الشرفاء، تجريئاً لهم ولغيرهم على انتهاك حدود الله، والتمادي في غيهم وفسادهم، وذلك موجب للهلاك.

الثالث: أن إقامة الحد على الضعيف دون الشريف منافٍ للعدل والحق الذي قامت عليه السموات والأرض، فهو من الظلم الموجب للهلاك.

ولذا، ما فشا هذا الداء في أمة إلا كان سبباً لهلاكها.

رابعاً: ظهور المنكرات والفواحش:

أخرج الطبراني والحاكم، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا ظهر الزنى والربا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله**»[(٢)] .

وقد سبق قريباً حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، وفيه أنها قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[(٣)] .

والخبث إنما يكثر إذا ظهرت المعاصي وفشت، ولم تُنكَر، أو كان الإنكار ضعيفاً، أما إذا كان المنكر خفيًا، فإنه لا يضر إلا صاحبه.

فإن قيل: وكيف تهلك الأمة، وفيها الصالحون؟!

---

(١) انظر: ص ٣٩٢ من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١ ص ١٤٤ برقم ٤٦٠، وأخرجه الحاكم من طريق آخر: ج ٢ ص ٣٧، وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٩٢.

(٣) انظر: ص ٤٥٩ من هذا الكتاب.

فالجواب: أن الصالحين ما لم يكونوا مصلحين، فإن صلاحهم مقصور على أنفسهم، لا ينتفع به غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧]، ولم يقل: (وأهلها صالحون).

والفرق بين الصالح والمصلح، كالفرق بين الماء الطاهر والطهور على تقسيم الفقهاء؛ فالماء الطاهر عندهم، هو الطاهر في نفسه، غير المطهر لغيره. والطهور: هو الطاهر في نفسه، المطهر لغيره[1] . وهكذا الصالح والمصلح.

فإذا كان في الأمة مصلحون كثيرون، كانوا أماناً لها من العذاب والهلاك بإذن الله تعالى.

هذا على مستوى الأمة، أما على مستوى الأفراد، فإن الله ـ عز وجل ـ وعد المؤمنين المصلحين بالأمن والأمان والاطمئنان، في حاضرهم ومستقبلهم وما يخلفونه وراءهم، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ .. فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٨][2] .

خامساً: الشح:

أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم،**

---

(١) القول الصحيح الذي اختاره المحققون من أهل العلم أن الطهور والطاهر قسم واحد، وأن الماء قسمان لا ثالث لهما: طهور ونجس. (انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ج ١٩ ص ٢٣٦، وابن سعدي، المختارات الجلية من المسائل الفقهية (الرياض: المؤسسة السعيدية) ص ٧، وابن عثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع (ط ١؛ الرياض: مؤسسة آسام للنشر: ١٤١٤هـ) ج ١ ص ٤٤.

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ج ٢ ص ١٣٤.

واستحلوا محارمهم»[١] .

ويؤيد ذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾ [الحشر: ٩].

والشح: أشد البخل.

وقيل: هو البخل مع الحرص.

وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف.

يقال: شح يشح شحًا، فهو شحيح[٢] .

وإنما خص الشح بالذكر هنا دون البخل لأن البخل ثمرة من ثمرات الشح.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«والفرق بين الشح والبخل، أن الشح هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه. والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه، وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه، ووقي شره، وذلك هو المفلح: ﴿ .. وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾»[٣] .

سادساً: التنافس في الدنيا:

أخرج مسلم في صحيحه، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد، ثم صعد المنبر كالمودّع للأحياء

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم: ج ٨ ص ١٨ برقم ٥٦ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب: مادة (شحح)، وابن الأثير، النهاية: ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٣) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب (الرياض: نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) ص ٧٥ .

والأموات، فقال: «**إني فرطكم على الحوض، وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة. إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم**»(١) .

ويشهد لذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى ـ وقد ذكر نعيم الجنة: ﴿ . . وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، فبين سبحانه أن التنافس الحق هو الذي يكون في طلب الآخرة ونعيم الجنة، لا في طلب متاع الدنيا الزائل.

سابعاً: تغيير خلق الله:

أخرج البخاري في صحيحه، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ عام حج، وهو على المنبر، وهو يقول وتناول قصة من شعر كانت بيد حرسي: أين علماؤكم؟! سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: «**إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم**»(٢) .

ويؤيد ذلك من كتاب الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ . . وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ . . ﴾ [النساء: ١١٩].

وإنما كان ذلك سبباً للهلاك ـ والله تعالى أعلم ـ لما فيه من طاعة الشيطان، وانشغال النساء عما خُلقن له من بناء الأجيال وتربية الرجال، بأمور الزينة والجمال، والمبالغة في ذلك إلى حد التدليس والتزوير والغش، فحين يصل حال نساء الأمة إلى هذه الحال، فقل على الأمة السلام.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ: ج ٧ ص ٦٨ برقم ٣١.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب الوصل في الشعر: ج ٥ ص ٢٢١٦ برقم ٥٥٨٨.

المبحث الثاني
سنة الإمهال

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

وبمعناه الإملاء:

قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٣].

والفرق بينهما، أن الإمهال هو الإنظار، والرفق بالممهل، وعدم العجلة عليه.

والإملاء هو التأخير وإطالة العمر. فالإملاء فيه معنى الإمهال وزيادة[١].

ولما كان الأول بمقدور البشر، والثاني لا يقدر عليه إلا الله ـ عز وجل ـ نسب الثاني إلى نفسه سبحانه، وخرج الخطاب في الأول للرسول ﷺ، والله تعالى أعلم.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾: «أي أنظرهم، ولا تستعجل لهم، والرب هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ، على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى: انتظر بهم قليلًا»[٢].

وبمعنى الإمهال والإملاء: التمتيع:

---

(١) انظر: لسان العرب: مادتي (ملا) و(مهل).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (الرياض: توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) ص ٦٨.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ: «متع الله فلاناً، وأمتعه: إذا أبقاه وأنساه إلى أن ينتهي شبابه».

ثم نقل عن ثعلب في معنى: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين..﴾ قوله: «(معناه: أطلنا أعمارهم، ثم جاءهم الموت)»[(١)].

لكن من التمتيع ما يكون حسناً، وهو للمؤمنين المستغفرين، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾ [هود: ٣].

والمتاع الحسن، هو سعة الرزق، ورغد العيش والعافية في الدنيا، مع رجاء رحمة الله ـ عز وجل ـ والطمع في ثوابه، وسرور القلب بطاعته[(٢)].

بخلاف الكافر، فإنه وإن مُتع في هذه الحياة الدنيا برهة من الزمن، فمتاعه غير حسن، وإن ظهر للناس خلاف ذلك، فهو مصحوب بالآلام والهموم والغموم، وكلما ازداد متاعه في هذه الحياة الدنيا، ازدادت همومه وغمومه، وخوفه من فراق ذلك المتاع، وربما قتل نفسه ليريحها من تلك الهموم والغموم والآلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾..﴾ [طه: ١٢٤].

الإمهال قليلٌ مهما طال الزمن:

إن المتأمل في الآيات التي يُذكر فيها الإمهال والتمتيع، يلحظ اقتران

---

(١) انظر: لسان العرب: مادة (متع): ج ٦ ص ٤١٢٨.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٥ ص ٢٠٢، والشنقيطي، أضواء البيان: ج ٣ ص ٩.

ذلك بقوله: ﴿قليلًا﴾ وما في معناها كـ ﴿رويداً﴾ وذلك أنه وإن كان في حساب البشر قد يكون طويلًا، إلا أنه في حساب الله قليل.

وقد سبق حديث خباب ـ رضي الله عنه ـ واستنصاره النبي ﷺ وقد لقي هو وأصحابه من المشركين شدة، وقول النبي ﷺ له: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد...**» إلى قوله: «**ولكنكم تستعجلون**»[١].

وقد يكون أيضاً قليلًا في حساب البشر، فقد أخرج الطبري بسنده عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ قالت: لم يكن إلا يسير حتى كانت وقعة بدر[٢].

إن الدنيا مهما طالت فهي متاع، قال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ..﴾ [غافر: ٣٩].

ومتاعها قليل، قال تعالى: ﴿.. قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ..﴾ [النساء: ٧٧].

ولولا مهانة هذه الدنيا عند الله ـ عز وجل ـ وحقارتها ما متع فيها كافراً، ولا سقاه منها شربة ماء، لكن لهوانها عليه ـ سبحانه ـ جعلها داراً للكافرين، ومتاعاً لهم إلى حين، فهم فيها كما قال تبارك وتعالى: ﴿.. يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. أما المؤمنون، فإن الله وعدهم داراً خيراً من هذه الدار، وهي جنة عدن، وحذرهم من الاغترار بحال أهل الكفر، وما هم فيه من التمتيع والإمهال والتمكين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ..﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٨].

---

(١) انظر إلى الحديث بتمامه مع تخريجه ص ٣٤٩.

(٢) جامع البيان: ج ١٢ ص ٢٨٨.

هل الإمهال منسوخ؟

قد ذكر بعض المفسرين أن آيات الإمهال قد نسخت بآيات السيف[١] كقوله تعالى: ﴿. . فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . .﴾ [التوبة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿. . وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً . .﴾ [التوبة: ٣٦].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في دفع إيهام الاضطراب: «هذا الإمهال المذكور هنا[٢] ينافيه قوله تعالى: ﴿. . فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . .﴾، والجواب: أن الإمهال منسوخ بآيات السيف»[٣].

قال عطية محمد سالم معلقاً على كلام شيخه: «ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك، وهو قوله: ﴿. . أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، لأن رويداً بمعنى قليلًا، فقد قيد الإمهال بالقلة، مما يشعر بمجيء النسخ، وأنه ليس نهائيًا»[٤].

وفيما قاله نظر، فإن تقييد الإمهال بالقلة إنما هو للتهديد والوعيد[٥] لا من أجل الإشعار بمجيء النسخ، بدليل أن الله قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ . .﴾ فأتى بالاسم الظاهر بدل المضمر الذي دل عليه ما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، ومن القواعد المقررة في التفسير أن وضع الظاهر موضع المضمر أو العكس إنما يكون لنكتة[٦]، والنكتة هاهنا

---

(١) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٥ ص ٤٠٤، والبغوي، معالم التنزيل: ج ٨ ص ٣٩٥، والشنقيطي، أضواء البيان: ج ٩ ص ١٦٦، وانظر: المقري، الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل: ص ١٩٦.

(٢) أي في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: ص ٣١٣، وهو الجزء العاشر من أضواء البيان.

(٤) أضواء البيان: ج ٩ ص ١٦٧.

(٥) انظر: ابن الجوزي، نواسخ القرآن (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٥هـ) باب ذكر ما ادعى عليه النسخ في سورة الطارق: ص ٢٥١.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ج ١٤ ص ٨٨، والسيوطي، الاتقان: ج ١ ص=

ـ والله تعالى أعلم ـ هي أن هذا الحكم عام لجميع الكفار إلى قيام الساعة، وأن الألف واللام في (الكافرين) للاستغراق، والخطاب في الآية، وإن كان للنبي ﷺ، فهو عام لكل من يقوم مقامه من الدعاة إلى الله تعالى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ . . ﴾ [الروم: ٦٠] ونحوها من الآيات، ومن القواعد المقررة في التفسير أيضاً أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب للأمة، إلا أن يدل دليل على خلاف ذلك[1] وليس هناك ما يدل على أن الخطاب في الآية خاص بالنبي ﷺ.

وعلى هذا يكون الإمهال غير منسوخ، وإنما هو أمر كانت تقتضيه طبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة، ولذلك لما قوي أمر الدعوة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، جاء الأمر بالقتال: ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ . . ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى قتال الكفار، وترك إمهالهم، ومثل هذا لا يعدّ نسخاً، ولا تنطبق عليه شروط النسخ[2] .

الإمهال لا يكون إلا بعد ابتلاء وامتحان:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤].

إن من كمال عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته، ألا يعذب عباده إذا استحقوا العذاب، حتى يبتليهم بأنواع من البلايا والمحن، من فقر

= ٢٥١، وانظر: خالد السبت، قواعد التفسير: ج ١ ص ٣٩٩.

(١) انظر: السبت، قواعد التفسير: ج ٢ ص ٥٧٨. وانظر: مجد الدين ابن تيمية، المسودة: ص ٢٨.

(٢) انظر في طرق معرفة النسخ: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العربية: ١٤٠٥هـ): ج ٢ ص ٤٩٧، ٥٠١. وانظر: محمد صالح علي، النسخ في القرآن الكريم؛ مفهومه وتاريخه ودعاواه (ط ١؛ دمشق: دار القلم: ١٤٠٩هـ) ص ١٩.

ومرض وغيره، ليذكرهم بنعمته عليهم، فيعرفوا قدر هذه النعمة، ولا يغتروا بها، ولعلهم أن يرجعوا إلى ربهم وينيبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

ولكن ذلك لم يزد أكثرهم إلا طغياناً وكفراً، واتباعاً للشيطان: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

وهنا تجيء السنة الإلهية؛ سنة الإمهال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ..﴾ [الأنعام: ٤٤].

ثم تجيء السنة الأخرى التي تعقب سنة الإمهال، ألا وهي سنة الإهلاك والانتقام: ﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

ومن تأمل قوله: (حتى إذا فرحوا)، مع قوله: (أخذناهم بغتة) تبين له مدى خسران القوم، وشدة عذابهم، فهم ما كادوا ليفرحوا بما أوتوا من النعمة والبهجة والسرور حتى سُلبوا ذلك كله بغتة، وبلا مقدمات، فيا له من أخذ ما أشده وآلمه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقريب من ذلك، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾[1] [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

فقوله: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي: أبدلناهم مكان الشدة: الرخاء والنعمة ورغد العيش[2].

وقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أموالهم

---

(١) جاء لفظ الضراعة هنا مدغماً، وفي آية الأنعام السابقة جاء مفكوكاً عن الإدغام (يتضرعون)، وذلك مراعاة للمناسبة في الآية نفسها حيث ورد فيها قوله (تضرعوا) ولا إدغام فيه. (انظر: ابن الزبير، ملاك التأويل: ج ١ ص ٣٢٦، ٣٢٧).

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٨.

وأولادهم . .»[١] ، فكان مقتضى ذلك أن يشكروا هذه النعمة، ويعترفوا بالفضل لمسديها، وهو الله ـ عز وجل ـ وذلك بالمسارعة إلى التوبة النصوح، والتزام طاعة الله ـ عز وجل ـ وطاعة رسوله ﷺ، لكنهم استبدلوا بذلك قولهم إن ما أصابهم قد أصاب آباءهم من قبل، فالأمر لا يعدو أن يكون من الأمور الكونية المعتادة، التي تصيب الأبناء كما تصيب الآباء على مر الشهور وكر الدهور[٢] ، وقد غفلوا عن سنن الله الجارية في خلقه، والتي لا تتبدل ولا تتغير، ومنها أن الله ـ عز وجل ـ يبتلي عباده بالضراء والسراء لعلهم يتضرعون. ولذا كان قولهم هذا سبباً لهلاكهم وأخذهم بالعذاب المفاجىء: ﴿. . فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

والمقصود أن الإمهال يسبقه ابتلاء وامتحان، وتذكير وإعذار، فلا يهلك على الله إلا هالك[٣] .

الحكمة من الإمهال:

قد سبق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن العبث، وأن شيئاً في هذا الكون لا يجري إلا بإرادته وحكمته وتدبيره ـ سبحانه ـ ومن ذلك هذه السنة الجليلة: سنة الإمهال، وقد تأملت الآيات الواردة في ذلك، فظهر لي من حِكَم الإمهال ما يلي:

١ ـ تمحّض الكفر.

٢ ـ تثبيت المؤمنين وتطمينهم وتصبيرهم.

٣ ـ فتنة الكافرين، وتمحيص المؤمنين.

٤ ـ الاستدراج.

٥ ـ التهوين من أمر الكافرين والكائدين.

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المصدر السابق: ج ٦ ص ١٠ .

(٣) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان: ج ١ ص ٣٦١ .

٦ ـ التهديد والوعيد.
٧ ـ إظهار كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ.
٨ ـ قيام سوق الجهاد في سبيل الله.

التفصيل:

أولاً: تمحّض الكفر:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

إن الكفر ـ في كثير من الأحيان ـ قد تشوبه شائبة من إيمان، فيخفى على كثير من الناس، ولا سبيل إلى تخليصه من ذلك إلا بالإملاء للكافرين وإمهالهم، حتى يتمحض الكفر، وينكشف على حقيقته، وتزول عنه كل شائبة من إيمان.

ثم إن الله ـ عز وجل ـ وعد الكافرين بعذاب أليم، ومهين، وعظيم، فأراد أن يمهلهم ويملي لهم «ليبلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدار الذي كتبه لهم من العقاب والعذاب، ثم يقبضهم»[1] وهو غير ظالم لهم.

ثانياً: تثبيت المؤمنين وتطمينهم وتصبيرهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

إن المعركة بين الحق والباطل طويلة المدى، فهي لا تتم في يوم أو يومين، أو عام أو عامين، وإنما قد تكون بعمر الأجيال، ولأجل هذا كان الرسول ﷺ والمؤمنون بحاجة ماسة إلى التثبيت والتطمين والتصبير، ليُعدّوا لهذا الأمر عدّته، ويخوضوا المعركة بهمة عالية، ونفوس صابرة، وسواء كانت هذه المعركة بالسيف والسنان، أو بالحجة والبيان.

---

(١) الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ١٣٤.

وقد ورد في هذا الشأن آيات كثيرة(١) ، منها هذه الآيات التي ختم الله بها سورة الطارق، وقد دلت على تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين، وتصبيرهم من وجوه:

أحدها: إخباره ـ سبحانه ـ عن مقابلة كيد الكفار بكيد هو أعظم من كيدهم، وهو كيده ـ سبحانه ـ وأن المعركة بيده وحده، بل هي في حقيقتها من طرف واحد، إذ لا مقارنة بين كيد المخلوق الضعيف الحقير، وكيد الخالق القوي العزيز المالك المدبر.

الثاني: تكرير لفظ الإمهال، والمخالفة بين اللفظين: (مهلهم وأمهلهم)، وفي ذلك زيادة تسكين وتصبير منه ـ سبحانه ـ للرسول ﷺ والمؤمنين(٢) .

الثالث: قوله: ﴿رويداً﴾ أي: قليلًا. فالإمهال مهما طال أمده، فهو قصير إذا ما قيس بعمر هذه الدنيا، وفي ذلك أيضاً زيادة تثبيت وتطمين وتصبير. والله تعالى أعلى وأعلم.

ثالثاً: فتنة الكافرين، وتمحيص المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١].

نهى الله نبيه في هذه الاية أن يمد عينيه بالإعجاب، إلى ما مُتع به الكفار في هذه الحياة الدنيا، من الأموال والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا الزائلة، وأخبر ـ سبحانه ـ أن الحكمة من تمتيع الكفار في هذه الحياة الدنيا

---

(١) كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا.. ﴾ [يوسف: ١١٠].

(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف: ج ٤ ص ٢٠٣، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ٣٩٢.

هي اختبارهم وامتحانهم: (لنفتنهم فيه)، وليس ذلك لكرامتهم عليه سبحانه.

وكما أن في ذلك اختباراً للكافرين وامتحاناً لهم؛ ففيه أيضاً امتحاناً للمؤمنين، وذلك حين يرون الكفار وهم يمتعون في هذه الدنيا، وينعّمون فيها، وهم في ضيق من العيش، وخوف، وأذى واضطهاد، وربما كانوا مشردين، أو ملاحقين ومطاردين، فيفتتنوا في دينهم، ولهذا كان من دعاء موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين: ﴿ . . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥] أي: «لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم خير منّا، وأنهم إنما سلطوا علينا لكرامتهم عليك، وهواننا نحن»[١] ، ولا جرم أن ظهور الكفار على المؤمنين من أعظم الفتنة للفريقين جيمعاً؛ فأما أهل الباطل، فإنهم يغترون بذلك، وربما حدثتهم أنفسهم أنهم على الحق! وأما أهل الحق، فقد تساورهم بعض الشكوك في وعد الله ـ عز وجل ـ ولربما ألقى الشيطان في روع بعضهم أن لو كنتم على الحق، ما ظهر عليكم أحد من الخلق، ولا يخفى ما في ذلك من التمحيص والفتنة.

وقد ختم الله الآية السابقة من سورة طه بقوله: ﴿ . . وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، وفي ذلك توجيه لطيف، وهو أنه «من أعطاه ربه النصيب الأكبر، والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأدنى والأحقر، لاسيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار»[٢] .

وقد أوضح الله هذا المعنى في موضع آخر من كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٥٩٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٢٨. ويحتمل أن يكون المعنى: لا تسلطهم علينا فيفتنونا في ديننا. (انظر: المصدرين السابقين).

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان: ج ٣ ص ١٩٦. (بتصرف يسير).

أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، فما أوتيه ﷺ من السبع المثاني والقرآن العظيم هو الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، فأين ذلك مما أوتيه الكفار من متاع الدنيا الزائل الذي هو الحظ الأدنى الأحقر.

رابعاً: الاستدراج:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

والاستدراج هو «الأخذ قليلًا قليلًا، كما يرتقي الراقي في السلم، فيتدرج شيئاً بعد شيء حتى يصل إلى العلو»[١].

قال الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأصل الاستدراج، اغترار المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسن، حتى يورطه مكروهاً»[٢].

وقد أخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ..﴾ [الأنعام: ٤٤][٣].

وقال بعض السلف: «رب مستدرَج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم..»[٤].

ولذا، كثيراً ما يقرن الله ـ عز وجل ـ ذكر الإمهال والإملاء

---

(١) السجستاني، نزهة القلوب: ص ٢٠٧ (بتصرف).

(٢) جامع البيان: ج ٦ ص ١٣٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ج ٤ ص ٢٠٠ برقم ١٧٢٨٠، وحسّن إسناده العراقي في تخريج الإحياء: (بيروت: دار المعرفة): ج ٤ ص ١٣٢، وقال الألباني في تخريج المشكاة ج ٣ ص ١٤٣٦: «إسناده جيد».

(٤) انظر: ابن القيم، الجواب الكافي: ص ٧٠.

بالاستدراج أو ما في معناه، لما بينهما من التلازم في الغالب، ولما في ذلك من الحِكَم الكثيرة التي سبق ذكر شيء منها.

خامساً: التهوين من أمر الكافرين والكائدين:

وهذا - أيضاً - مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

فالرسول ﷺ منذ أن صدع بدعوته بين أظهر المشركين، وبيّن زيف ما هم عليه من عبادة غير الله، وهم في غمّ لا يزول، وهمّ لا ينقطع من أجل الكيد لهذه الدعوة، لا سيما وقد عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، ولما كان هذا الكيد يحزن الرسول ﷺ، ويضيق به صدره، جاءت هذه الآيات للتهوين من أمر الكائدين، والتقليل من شأنهم.

وقد جاء التصريح بذلك في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ . .﴾ [هود: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

كما أخبر - عز وجل - في آيات أُخر، أن كيد الكافرين ومكرهم عائد عليهم: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، فليطمئن الرسول ﷺ والمؤمنون، وليثقوا بوعد الله، فإن الله لا يخلف الميعاد.

سادساً: التهديد والوعيد:

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١][1].

فهذه الآية، واضح فيها التهديد للمكذبين بالرسل - عليهم السلام -

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٨ ص ٣٥٦.

ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

والنعمة (بفتح النون): «غضارة العيش، ولذاذة الحياة»[١].

وأولو النَّعمة: أصحابها، وهم المترفون، وقد سبق الحديث عن المترفين، وأنهم أول المكذبين بالرسل[٢].

والمقصود أن من الحكم في ورود آيات الإمهال: الوعيد والتهديد للمكذبين، وأن الله ليس بغافل عنهم، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلًا.

سابعاً: إظهار كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته:

وذلك أنه لا يعجل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت، كما أن إيقاع الشيء في غير وقته هو أقرب إلى النقص منه إلى الكمال، بل الأليق به أن يكون نقصاً[٣]، والله ـ عز وجل ـ منزه عن ذلك كله، فهو ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء في السموات والأرض، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقد جاء تأكيد هذا المعنى في آيات كثيرة من كتاب الله ـ عز وجل ـ منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٣ ص ٢٧٥.

(٢) انظر: ص ٤٥٨ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ج ٨ ص ٣٩٢.

ثامناً: قيام سوق الجهاد في سبيل الله:

فلولا هذه السنة، لتعطلت سوق الجهاد في سبيل الله، إذ أن الجهاد في سبيل الله لابد فيه من الإعداد، وتهيئة الظروف المناسبة. ومعاجلة الكافرين بالعذاب تنافي ذلك، فأمر الله نبيه ﷺ بإمهالهم حتى يعدّ المسلمون العدة لمجاهدة الأعداء، وإقامة سوق الجهاد[1].

هذا ما ظهر لي من الحكم في إمهال الكافرين والإملاء لهم وتمتيعهم، والله تعالى أعلم.

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٥٤١.

المبحث الثالث

انتقام الله من المجرمين

قال تعالى: ﴿.. إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

فهذا خبر من الله ـ عز وجل ـ يتضمن وعيداً للمجرمين بالانتقام منهم، وقد أخبر الله في موضع آخر عن تحقق هذا الوعيد، فقال ـ سبحانه ـ بعد أن ذكر مجيء الرسل ـ عليهم السلام ـ بالبينات: ﴿.. فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ..﴾ [الروم: ٤٧].

وقد سبق أن الله ـ عز وجل ـ أخبر في كتابه الكريم عن إهلاك المجرمين، وأنه أخذ كلًّا بذنبه، وأنه حصر العقوبات في أربع، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿.. فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وسيأتي لذلك مزيد بيان ـ إن شاءالله تعالى ـ في آخر هذا المبحث.

أما الأمم المكذبة التي أهلكها الله ـ عز وجل ـ فهي كثيرة جدًّا، كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ..﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال ـ سبحانه ـ بعد أن ذكر جملة من الأمم الهالكة: ﴿.. وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨].

وقد صرح الله ـ عز وجل ـ بذكر أسماء بعض هذه الأمم في كتابه الكريم، وذكر ما جرى منهم وما جرى لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، وهو ما يسمى بقصص القرآن[1]، وفي ذلك من الفوائد والحِكَم ما لا يقدر قدره

---

(١) انظر في فوائد قصص القرآن: جارالله الخطيب، قصص القرآن (الرياض: من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) ص ٤٢ ـ ٤٨، وقد ذكر ثلاث عشرة فائدة.

إلا الله ـ عز وجل ـ وأهم ذلك فائدتان أساسيتان:

الأول: تسلية النبي ﷺ، وتثبيته.

الثانية: التذكير والموعظة والعبرة، قال تعالى في بيان الفائدتين جميعاً: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أما عدد الأمم المكذبة التي قصها الله علينا في كتابه الكريم، فهي عشر، جاء ذكر السبع الأولى منها مرتباً في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ . .﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤]، وهي بإجمال:

١ ـ قوم نوح.
٢ ـ قوم هود (عاد).
٣ ـ قوم صالح (ثمود).
٤ ـ قوم إبراهيم.
٥ ـ قوم لوط (المؤتفكة).
٦ ـ قوم شعيب (أصحاب الأيكة).
٧ ـ قوم موسى.
٨ ـ أصحاب الرسّ.
٩ ـ أصحاب القرية.
١٠ ـ أصحاب الفيل.

وقد اشتركوا جميعاً في جريمة واحدة؛ ألا وهي جريمة الكفر بالله ـ عز وجل ـ وتكذيب الرسل ـ عليهم السلام ـ وانفردت كل أمة من هذه الأمم بجريمة خاصة ـ أو أكثر ـ من الجرائم العظيمة، الموجبة للهلاك والدمار، كما سيأتي بيان ذلك إن شاءالله تعالى.

التفصيل:

أولاً: قوم نوح ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وهم أول الأمم تكذيباً؛ لأن نوحاً ـ عليه السلام ـ هو أول الرسل[1].

وقد سبق أن مبدأ الشرك فيهم كان سببه تعظيم الصور، والغلوّ في الصالحين[1]، فلما جاءهم نوح ـ عليه السلام ـ بالحق من ربهم، كانوا ـ من كفر منهم ـ طائفتين:

الأولى: طائفة الأكابر، وهم السادة والقادة، وأهل الرأي والنظر.

الثاني طائفة الأتباع من عامة الناس، وهم الرعاع.

وهذا هو الحال في سائر الأمم المكذبة.

فأما الأكابر، فليس لديهم شك في صدق نوح ـ عليه السلام ـ وصحة ما جاء به، لكنهم إن اتبعوه، فقدوا مناصبهم ورياساتهم الباطلة، وصاروا كسائر الناس سواسية، وهذا ما لا يرضونه ولا يطيقونه، كيف وقد اعتادوا أن يكونوا هم السادة والقادة، والآمرين الناهين! لذا، فإنهم آثروا الوقوف بقوة في مواجهة الحق، والحيلولة بين الناس وبين اتّباع الرسول ﷺ، ومن ذلك ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٢، ٢٣]. وقد نجحوا في ذلك، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا. .﴾ [نوح: ٢٤].

وأما الأتباع، فإنهم وإن كانت لديهم بعض الشكوك والشبهات حول دعوة الرسول ـ عليه السلام ـ من آثار الدعايات المضللة التي يبثها الأكابر ـ إلا أنهم لم يكونوا جادين في البحث عن الحق، انسياقاً وراء شهواتهم الدنية، ومصالحهم الشخصية، وفي هذا يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قَالَ نُوحٌ

(١) انظر: ص ٨٥ من هذا الكتاب.

رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١]، بل إنهم كانوا لا يطيقون رؤية وجه نوح ـ عليه السلام ـ أو سماع كلماته الصادقة، خشية التأثر بها، أو بغضاً لقائلها، وهو نوح ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ . .﴾ [نوح: ٧]. وإنما حملهم على ذلك، الاستكبار، والإصرار على الباطل، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿. . وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

لكن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يداخله اليأس من استجابة قومه، وظل يدعوهم ليلًا ونهاراً، سرًّا وجهاراً، وبشتى الوسائل والطرق، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ويصبر على أذاهم، ولم ينقطع أمله حتى أُوحي إليه: ﴿. . أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ . .﴾ [هود: ٣٦]، عندئذ دعا ربه: ﴿. . أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وكان من دعائه على قومه أيضاً: ﴿. . رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

فأمره الله ـ عز وجل ـ بصنع السفينة، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهله، ومن آمن، وأغرق الله من سواهم من أهل الأرض جميعاً حتى علا الماء رؤوس الجبال، وكان ذلك إيذاناً بزوال قوى الشر والفساد، وتطهير الأرض من رجس الكفرة والفجرة.

وقد ابتُلي نوح ـ عليه السلام ـ في بيته ببليتين، الأولى بامرأته، والثانية بابنه.

أما امرأته، فقد وصفها الله ـ عز وجل ـ هي وامرأة لوط ـ عليه السلام ـ بالخيانة كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا . .﴾

[التحريم: ١٠]، والمقصود بالخيانة هنا: خيانة الدين، لا خيانة العِرض[١]، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ منزهون عن ذلك. وقد روى ابن جرير الطبري بسنده، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن امرأة نوح كانت تقول للناس: إنه مجنون[٢]!. لكن الله ـ عز وجل ـ لم يذكر مآلها في الدنيا، والظاهر أنها هلكت مع من هلك.

وأما ابن نوح، فقد ذكر الله قصته في القرآن، وأن نوحاً ـ عليه السلام ـ ناداه قائلًا ـ وقد أدركته شفقة الأبوة ـ: ﴿.. يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] أي: آمن، واركب معنا لتنجو من عذاب الله، ولا تكن من المهلكين[٣]، لكنه أصر على الكفر، وقال متبجحاً: ﴿.. سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ..﴾ [هود: ٤٣]، فقال له نوح ـ عليه السلام ـ في محاولة لإقناعه في اللحظات الأخيرة: ﴿.. لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ..﴾ لكن أمر الله كان أعجل من ذلك: ﴿.. وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

ولعل من أهم ما يستفاد من قصة نوح مع زوجه وابنه: أن الهداية بيد الله تعالى وحده، وأن الداعي إلى الله ـ عز وجل ـ قد يبتلى بأقرب الناس إليه، وذلك لا يحط من قدره، ولا يمنعه من دعوة الآخرين، لاسيما إذا لم يكن مقصّراً، وقام بما يجب عليه لإصلاح من تحت يده، والله تعالى أعلم.

ثانياً: قوم هود ـ عليه السلام ـ وهم (عاد):

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ١٦١.
(٢) جامع البيان: ج ١٢ ص ١٦٠.
(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٤٦.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم: ٥٠][1] .

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بـ(عاد الأولى) في هذه الآية، فذهب بعض المفسرين إلى أن في ذلك إشارة إلى وجود عاد ثانية، وهم الذين بقوا بعد هلاك عاد الأولى، وكانوا وقت نزول العذاب مقيمين في مكة مع إخوانهم من العمالقة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم، ثم هلكوا بعد ذلك. ذكر ذلك ابن جرير وابن كثير ـ رحمهما الله ـ وغيرهما. وقد أغرب ابن كثير ـ رحمه الله ـ فذكر أن الآيات التي في سورة الأحقاف، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ . . ﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٦] أنها خبر عن قوم عاد الثانية، وما سواها من الآيات في القرآن خبر عن عاد الأولى، واستدل على تغاير القصتين بما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه. قالت: قلت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟! فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا».

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين. . »، وذلك لما تقرر أن النكرة إذا أُعيدت نكرة، كانت غير الأولى. واستبعد ذلك ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح، ونقل قول الكرماني ـ رحمه الله ـ في الجواب عن ما احتج به ابن كثير، بأن هذه القاعدة المذكورة إنما تطّرد إذا لم يكن في السياق قرينة تدل على أنها عين الأول، فإن كان هناك قرينة كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ . . ﴾ [الزخرف: ٨٤] فلا. لكن ابن حجر عاد فقال: إن القول بوجود عاد الثانية محتمل، لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٥٠]، فإنه يشعر بأن ثم عاداً أخرى. وحسن ـ رحمه الله ـ حديث الجرادتين الذي فيه ذكر عاد الثانية، وهو عند أحمد وغيره، وقد استدل به أيضاً ابن كثير لورود ذكر مكة في بعض رواياته، ومكة إنما بنيت بعد عاد الأولى.

والذي ظهر لي بعد تأمل الأدلة، أن قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ لا يدل على وجود عاد ثانية، ويمكن أن يُجاب على أدلة المثبتين بما يلي:

أولاً: إن الله ـ عز وجل ـ لم يذكر في القرآن إلا عاداً واحدة، وهم قوم هود ـ عليه السلام ـ وليس في القرآن ما يدل صراحة على وجود عاد ثانية أو متأخرة، بل إن آيات القرآن لتدل صراحة على أن الله أهلكهم جميعاً، فلم يبق منهم أحداً، كما في قوله: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ

. . . .

= بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] أي: «هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن ينسب إليهم، بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً» قاله ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (ج٤ ص٤١٢)، وقوله هذا مناقض لما اختاره سابقاً!

ثانياً: أما قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾، فالمراد بالأولى: القديمة كما ذكر ذلك ابن عطية ـ رحمه الله ـ فهي أولى بالنسبة لمن أتى بعدها، بل إن في سياق هذه الآية ـ على قراءة الجمهور ـ ما يدل على عدم وجود عاد ثانية، فإن الله قال بعدها: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]، فقوله: (فما أبقى) عائد إلى قوم عاد وثمود، والمعنى: دمرهم، فلم يبق منهم أحداً.

ثالثاً: قولهم: إن العطف يقتضي التغاير في قول النبي ﷺ: «عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا. .» قد سبق ما نقله ابن حجر عن الكرماني في الجواب عنه، ويوضح ذلك أمران:

أحدهما: أن الذين قالوا: (هذا عارض ممطرنا) قد عذبوا بالريح أيضاً، كما أخبر الله ـ عز وجل ـ عنهم في سورة الأحقاف، فهم داخلون قطعاً في الأول، فيكون هذا من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: ما جاء في رواية مسلم، أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: . . فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا . .﴾»، فصرح بأن القائلين بهذا القول هم قوم عاد، وعند الإطلاق، لا يُفهم إلا عاد الأولى المذكورة في القرآن، وهم قوم هود ـ عليه السلام ـ.

رابعاً: حديث الجرادتين قد حسنه ابن حجر كما سبق قريباً، وقال عنه ابن كثير: هو غريب جدًّا، من غرائب الحديث وأفراده، ومع ذلك، فليس فيه ما يدل صراحة على وجود عاد أخرى، إلا ما جاء في رواية ابن إسحاق في السيرة حيث ورد فيها ذكر الحرم، وهو لم يبن إلا بعد هلاك عاد الأولى، لكن جاء في آخر تلك الرواية ذكر هود ـ عليه السلام ـ وأنه اعتزل هو ومن معه من المؤمنين في حظيرة. . ، كما جاء فيها أن الله سخر على قومه الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، وهذا مناقض لذكر الحرم الذي لم يبن إلا بعد هلاكهم، ولهذا قال ابن كثير عن رواية ابن إسحاق: «وهو سياق غريب، فيه فوائد كثيرة»، قلت: إذا لم يصح إسناد هذا السياق، ووقع فيه تناقض واضطراب، فما قيمة هذه الفوائد؟ =

وقد سكنوا الأحقاف من أرض اليمن، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان(١) .

وقد امتن الله عليهم بأن زادهم بسطة في خلقهم، وقوة في أجسامهم، فحملهم ذلك على الاغترار بقوتهم، وقالوا: ﴿ . . مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴾ [فصلت: ١٥]، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ . . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً . . ﴾ [فصلت: ١٥].

فبعث الله إليهم هوداً ـ عليه السلام ـ فأمرهم أولاً بعبادة الله وحده لا شريك له، ثم رغبهم في التوبة والاستغفار، والإنابة إلى العزيز الغفار، ووعدهم إن فعلوا ذلك، أن يرسل الله السماء عليهم مدراراً، ويزيدهم قوة إلى قوتهم، ثم سلك معهم سبيل الموعظة الحسنة، فوعظهم، وذكّرهم بتقوى الله ـ عز وجل ـ وقال لهم بألطف أسلوب وأرقه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٥]، فما كان منهم إلا أن ردوا عليه بأقبح رد، فقالوا: ﴿ . . سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٧، ١٣٧] أي: عادتهم ودينهم(٢) ، احتجوا بالعادات والتقاليد

= خامساً: قد ذكر بعض المثبتين لعاد الثانية أن سبب هلاكهم هو بغي بعضهم على بعض، حتى تفانوا بالقتل، وهذا أيضاً من تناقضاتهم، فإن الأحاديث والأخبار التي استدلوا بها على وجود عاد الثانية، ليس فيها ذكر شيء من ذلك، وإنما فيها أن الله عذبهم بريح أرسلها عليهم شرراً وناراً.

والحاصل، أن كل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر عاد، فإنما هو في قوم هود ـ عليه السلام ـ والله أعلم.

(١) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: المكتبة العصرية: ١٤٠٧هـ) ج ١ ص ٤١، وابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ١٢١.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٤٦٣، ٤٦٤.

البالية القديمة، ثم زادوا على ذلك أن قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]، وفي قولهم هذا دليل على غرورهم، وإعجابهم بأنفسهم وما هم عليه من الشرك والضلال.

بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فاتهموا هوداً ـ عليه السلام ـ في عقله، وأن آلهتهم المزعومة قد أصابته بسوء كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ . .﴾ [هود: ٥٤]، فما كان من هود ـ عليه السلام ـ إلا أن أعلن براءته من هذه الآلهة المدعاة التي لا تملك لنفسها ـ فضلًا عن غيرها ـ ضرًا ولا نفعاً: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ . .﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، ثم تحداهم جميعاً ـ وهو رجل واحد لا ناصر له إلا الله عز وجل ـ أن يمسوه بسوء، فقال: ﴿. . فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، وإنما تحداهم بذلك، لما رأى منهم من الاغترار بقوتهم، وقوة آلهتهم المدعاة[1]، وكانوا من قبل قد قالوا: ﴿. . يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ . .﴾ [هود: ٥٣] أي: ببرهان جلي، وآية واضحة تدل على صدقك[2]، فجعل الله بينته هذا الأمر الجلي الذي تحداهم به، وهو من أعظم البينات «أن رجلًا واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله، جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم. . ثم أشهدهم ـ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـ أنه بريء من آلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها، ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم

---

(١) وهذا هو شأن الرسل مع أقوامهم؛ إنما يأتونهم بالآيات التي تتناسب مع ما برزوا فيه، وعرفوه، وأتقنوه، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليهم، وسيأتي تفصيل ذلك قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٦ ص ٥٨٥.

منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك: أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رمتموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه ـ تعالى ـ وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليّه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معه عليه.. بل ينتقم ممن خرج عن الصراط وعمل بخلافه، ويُنزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب ـ تعالى ـ ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم.. فأي آية وبرهان ودليل أحسن من ذلك؟»[1].

فلما عجزوا عن إلحاق الضرر به أو مسّه بسوء، اتهموه بسوء المقصد، وأنه إنما أراد صرفهم عن آلهتهم، ثم سألوه تعجيل العذاب، فقالوا: ﴿.. أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢]، فجاءهم العذاب. فقد أرسل الله عليهم سحاباً عارضاً في السماء، فلما رأوه مقبلاً، قالوا ـ لفرط غرورهم وجهلهم ـ: ﴿.. هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا..﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكانت ريحاً صرصراً عاتية، تدمر كل شيء بأمر ربها، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٧]، ونجى الله برحمته هوداً ومن معه من المؤمنين.

ثالثاً: قوم صالح ـ عليه السلام ـ وهم (ثمود):

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١].

وثمود قبيلة عربية مشهورة. سكن أهلها الحجر من شمال الجزيرة العربية، وكانوا أهل زرع ونخل وثمار. أما بيوتهم فكانوا ينحتونها من الجبال، ويبنون القصور على السهول، كما قال تعالى حاكياً قول صالح

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين: ج ٣ ص ٤٦٥ (باختصار وتصرف).

ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا . .﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقد ذُكر في سبب اتخاذهم الجبال بيوتاً، أن أعمارهم كانت طويلة، وكانوا من قبل يبنون بيوتهم من المدر، فكانت تخرب قبل موت الواحد منهم، فلجؤوا إلى نحت الجبال، واتخاذها بيوتاً حتى حذقوا في ذلك وأتقنوه وأحكموه[١]، ولاتزال آثارهم باقية معروفة إلى يومنا هذا.

وقد عبد قوم صالح الأصنام، فبعث الله إليهم نبيه صالحاً ـ عليه السلام ـ يدعوهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، لكنهم استكبروا عن قبول الحق، واتهموا صالحاً ـ عليه السلام ـ بالكذب، وأنه لا يعدو أن يكون بشراً مثلهم لا فرق بينهم وبينه، فقالوا: ﴿. . أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

فلما أظهر لهم صالح ـ عليه السلام ـ ما أيده الله به من الحجج والبراهين والبينات، لجؤوا ـ كعادتهم ـ إلى التعنت والتعجيز، وقالوا: يا صالح، إن كنت نبيًّا حقًّا، فأخرج لنا من هذه الصخرة الصماء، ناقة عُشَرَاء[٢]! وذكروا لها أوصافاً تعجيزية، فقال لهم صالح ـ عليه السلام ـ على ما ذكر بعض أهل السير والتفسير: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم، على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بي وتصدقون بما أُرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله ـ عز

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ١٣٩.

(٢) الناقة العشراء هي التي مضى لحملها عشرة أشهر، وهي من أنفس ما يكون. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة «عشر»).

وجل ـ ما قُدّر له، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَراء على الوجه الذي طلبوا، فلما عاينوها رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلًا، وبرهاناً ساطعاً، فأبى أكثرهم إلا الكفر والعناد، ولهذا قال تعالى: ﴿. . وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا . .﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: جحدوا بها، ولم يتبعوا الحق بسببها[١]، بل عمدوا إلى عقرها، وكان صالح ـ عليه السلام ـ قد حذرهم من أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب عظيم، فلم يلتفتوا إلى تحذيراته، وعقروا الناقة، وزادوا على ذلك أن قالوا: ﴿. . يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧]، فكانت النتيجة أن: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ . .﴾ [الأعراف: ٧٨]، وفي موضع آخر: ﴿. . ٱلصَّيْحَةُ . .﴾ [هود: ٦٧]، وفي موضع ثالث: ﴿. . بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥]، والمعنى واحد، فإن الله قد أرسل عليهم صيحة واحدة وصفها بأنها طاغية، أي قد تجاوزت الحد في الشدة والقوة، فرجفت بهم وزعزعتهم من قوتها وشدتها[٢]، ونجى الله نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين.

رابعاً: قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ:

وكانوا من عبّاد الأصنام والكواكب[٣]، ومنهم (آزر) أبو إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ١٣٤. (باختصار وتصرف).

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٥ ص ٥٣٨، وج١٢ ص ٢٠٧، وابن عطية، المحررالوجيز: ج ١٥ ص ٦٠، ٦١. وقد ذكر في معنى (الطاغية) أقوال أخرى، اخترت منها هذا القول لأنه أقرب إلى الصواب، حسب ما ظهر لي، وإن كانت باقي الأقوال محتملة، والله تعالى أعلم.

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ١٤٠.

أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].
وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ . .﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٨].

وقد جرت بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين أبيه وقومه محاورات ومناظرات سجلها القرآن الكريم بأروع أسلوب وأوضح بيان، انتهت بإفحامهم وإلزامهم بالحجة[١]، لكنهم أصروا على كفرهم وشركهم، بل أقدموا على أمر عظيم، وعمل شنيع، وهو محاولة قتل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذلك بإلقائه في النار، فأججوا ناراً عظيمة، وقذفوه فيها، لكن الله ـ عز وجل ـ جعلها عليه برداً وسلاماً: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وجعل قومه هم الأذلين الأخسرين.

ولم يذكر الله ـ عز وجل ـ لقوم إبراهيم عذاباً عاماً، فالله تعالى أعلم كيف كان منتهى أمرهم.

خامساً: المؤتفكة:

وهم قوم لوط ـ عليه السلام ـ.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

والمؤتفكة هي المنقلبة، يقال: ائتفكت بهم الأرض، أي انقلبت[٢].
وسميت قرى قوم لوط بذلك لأن الله ـ عز وجل ـ قلبها عليهم كما سيأتي.

وقد سكنوا في مدينة يقال لها: (سدوم) من أرض الشام، وهي أرض لها قرى مضافة إليها، ولهذا جاء ذكرها بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩][٣].

وأما جريمتهم، فلم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ فقد كانوا يأتون

---

(١) سبق الحديث عن شيء من ذلك، وسيأتي مزيد بيان إن شاءالله، انظر: ص ٥٣٩.

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب: مادة (أفك).

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: ج ١٥ ص ٦٤.

الذكران من العالمين، ويذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم، وقد بلغ شغفهم بهذه الجريمة النكراء أن أعلنوها في نواديهم، وقطعوا السبيل من أجلها، فلا يمر بهم أحد من الناس إلا راودوه عن نفسه، كما فعلوا بضيف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الملائكة الكرام، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ . . ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩][1] ، بل همّوا بإخراج لوط ـ عليه السلام ـ وأهله من قريتهم لتنزههم عن فعل هذه الفاحشة النكراء، فقالوا: ﴿ . . أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد سبق الحديث عن قبح جريمتهم، وسبب استحقاقهم وصف الإجرام، بما يغني عن إعادته هنا[2] .

وكان منتهى أمرهم أن استعجلوا العذاب ـ كغيرهم من الأمم الهالكة ـ فقالوا لنبيهم لوط ـ عليه السلام ـ: ﴿ . . ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فجاءهم العذاب، وما أدراك ما العذاب، فقد جمع الله لهم من العقوبات ما لم يجمعه لأمة قبلهم ولا بعدهم، وكانت هذه العقوبات من جنس أعمالهم القبيحة.

فأُولى هذه العقوبات: طمس الأعين، قال تعالى: ﴿ . . فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ . . ﴾ [القمر: ٣٧].

والثانية: الخسف، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا . . ﴾ [هود: ٨٢].

الثالثة: رميهم بالحجارة، قال تعالى: ﴿ . . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤].

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ١٠ ص ١٣٥، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٤١١.

(٢) انظر: ص ٧١.

وقد وصف الله هذه الحجارة بوصفين:

الأول: أنها من سجيل منضود، والسجيل: هو الشديد الصلب من الحجارة والطين[١].

وقيل: هو طين قد طبخ حتى صار كالرخام[٢].

وقد وصفه الله بأنه منضود، أي: «نُضد بعضه إلى بعض، فصّيرّ حجارة، ولم يُمطروا الطين»[٣].

الثاني: أنها مسومة عند ربك، أي: معلمة عند الله، لا تُشبه حجارة الأرض[٤]، عليها علامة العذاب والغضب[٥].

وقيل: مسوّمة: «معلّمة مختومة عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه»[٦]. وهذا القول ليس عليه دليل صحيح يمكن أن يُعتمد عليه، بل ظاهر القرآن يدلّ على بطلانه، إذ أنه يقتضي أن يكون عدد الحجارة النازلة، بعدد قوم لوط، وهذا لا يتفق مع قوله تعالى: ﴿. . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً . .﴾ [هود: ٨٢]، فإن لفظ الإمطار يدل على كثرة الحجارة النازلة، وأنها أكثر بكثير من عدد قوم لوط، كالمطر حين ينزل من السماء، ولهذا ـ والله تعالى أعلم ـ لم يأت التعبير بلفظ الإمطار في قصة أصحاب الفيل؛ لأن الحجارة التي أُرسلت عليهم كانت محدودة تحملها الطير بأرجلها، ولأشخاص بأعيانهم، في بقعة صغيرة محدودة من الأرض، والله تعالى أعلم.

---

(١) السجستاني، نزهة القلوب: ص ١١٦.
(٢) انظر: الفراء، معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٤.
(٣) الطبري، جامع البيان: ج ٧ ص ٩٢.
(٤) المصدر السابق: ص ٩٤.
(٥) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٣ ص ٤٤٦.
(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٥٥.

وقد ابتُلي لوط ـ عليه السلام ـ بما ابتلي به نوح ـ عليه السلام ـ من قبل من خيانة امرأته له، وقد تقدم بيان المقصود بهذه الخيانة، وأنها في الدين لا في العِرض[1] ، لكن الملاحظ هاهنا، أن الله ـ عز وجل ـ في الوقت الذي أغفل فيه ذكر مآل امرأة نوح ـ عليه السلام ـ ذكر فيه مآل امرأة لوط ـ عليه السلام ـ بل أعاد ذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم، والسر في ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن امرأة نوح لم تكن تخفي خيانتها لنوح ـ عليه السلام ـ كما سبق أنها كانت تقول: إنه مجنون[2] ، بخلاف امرأة لوط، فإنها قد سلكت مسلك النفاق مع لوط ـ عليه السلام ـ فكانت تظهر له خلاف ما كانت تخفيه من الخيانة والكفر، ويدل على ذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، فقد وصف الله بيت لوط بأنه من المسلمين، أي مَن فيه، ومعلوم أن امرأة لوط ـ عليه السلام ـ داخلة في هذا الوصف، فهي مسلمة في الظاهر، لكنها غير داخلة في الوصف الأول (وصف الإيمان) لأنها لم تكن مع المخرجين الناجين، بل كانت كافرة في الباطن (غير مؤمنة)، ولفظ الإيمان والإسلام إذا اجتمعا، دل الأول على الأمور الباطنة، والثاني على الأمور الظاهرة، ولو كانت امرأة لوط ـ عليه السلام ـ كافرة معلنة بكفرها لما صح وصف بيت لوط بأنه من المسلمين[3] ، والله تعالى أعلم.

سادساً: قوم شعيب ـ عليه السلام ـ وهم أصحاب مدين:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

---

(١) انظر: ص ٤٩٠.

(٢) انظر: ص ٤٩١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ٧ ص ٤٧٢، ٤٧٣.

وكانوا بعد قوم لوط ـ عليه السلام ـ بزمن غير بعيد، كما أن أرضهم لم تكن بعيدة عن قرى قوم لوط، ولذا قال لهم شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿. . وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]. أي في الزمان والمكان(١) .

وهم عرب. ومدين: اسم لمدينتهم، وهي بلدة من أرض معان في أطراف الشام مما يلي الحجاز، وهو اسم أيضاً لقبيلتهم(٢) .

وأما الأيكة، فهي «الشجر الملتفّ مثل الغيضة»(٣) .

وقد ذهب بعض المفسرين(٤) إلى التفريق بين أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، وأنهما أمتان مختلفتان، بُعث إليهما شعيب ـ عليه السلام ـ وحجتهم في ذلك أن الله ـ عز وجل ـ صرح بذكر الأخوة في آية مدين، دون آية أصحاب الأيكة، فقال في الأولى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . .﴾، وقال في الثانية: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ. .﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقل: أخوهم كما قال في الآية السابقة.

والصواب: أنها أمة واحدة، بدليل أن جملة ما ذكره الله تعالى عن أصحاب مدين هو جملة ما ذكره عن أصحاب الأيكة. وإنما لم يصرح في آية الشعراء بنسب الأخوة بينهم؛ «لأنهم نُسبوا إلى عبادة الأيكة. . فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نُسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً»(٥) .

وأما جريمتهم التي شاقوا الله بها، فهي: التطفيف في الكيل، وبخس

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٧ ص ١٠٣ .

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) محمود الغزنوي، وضح القرآن في مشكلات القرآن (ط ١؛ دمشق: دار القلم: ١٤١٠هـ): ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤) منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٤٣ .

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٣٤٥ .

الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وقطع الطريق، والصد عن سبيل الله. فهذه خمس جرائم استحقوا بسببها العذاب، هذا مع كفرهم بالله وتكذيبهم الرسل.

وقد جمعها الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ..﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

وهي جرائم بشعة، من شأنها أن تحيل حياة الناس عذاباً، وتملأ قلوبهم هلعاً ورعباً.

وإن من الملاحظ في هاتين الآيتين: تدرج شعيب ـ عليه السلام ـ في دعوتهم ونهيهم عن هذه الجرائم، فبدأ أولاً بأهم أمر وأعظمه، وهو توحيد الله ـ عز وجل ـ: ﴿..اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..﴾، ثم أمرهم بالوفاء بالكيل والميزان الذي هو أول جرائمهم وأكثرها بعد الشرك بالله.

ولما كان الأمر بالوفاء يتضمن النهي عن البخس؛ صرح به على وجه يشمله وغيره، فقال: ﴿.. ولا تبخسوا الناس أشياءهم..﴾ فليس بخس الناس مقصوراً على نقص الكيل والميزان، بل يشمل كل شيء من أشيائهم المعنوية والمادية.

ولما كان ذلك من الفساد في الأرض؛ أتبعه بالنهي عن كل فساد، فقال: ﴿.. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها..﴾ بأي نوع من أنواع الفساد.

ولما كان من أعظم الفساد في الأرض: قطع الطريق، وترويع الآمنين، وتعطيل مصالحهم، نهى عن ذلك بقوله: ﴿ولا تقعدوا بكل

صراط توعدون. .﴾ أي: تتهددون وتتوعدون[1] . وهذا هو الصراط الحسي.

ثم أتبعه بذكر الصراط المعنوي، وهو سبيل الله ـ عز وجل ـ وقطعهم له، بصد الناس عنه، فإنهم قد جمعوا بين الأمرين، فأفسدوا الدنيا والدين.

ولما كان سبيل الله لا يمكن قطعه بالتهديد والوعيد لما تقرر من أنه لا إكراه في الدين؛ سلكوا سبيلًا معوجاً في ذلك، وهو: إلقاء الشكوك والشبهات، وهي من أعظم ما يصدّ عن سبيل الله.

ثم بعد أن حذرهم من هذه الأعمال المنكرة، ذكرهم بنعم الله عليهم، ومن أعظمها تكثير سوادهم، ومضاعفة أعدادهم وأموالهم.

ثم لفت أنظارهم إلى مصارع مَنْ قبلهم مِنَ المفسدين، تحذيراً لهم من أن يصيبهم مثل ما أصابهم: ﴿. . وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦].

فآمنت طائفة منهم مع شعيب ـ عليه السلام ـ وهم قلة، وكفرت طائفة ـ وهم الأكثرون ـ ولم تكن لهم حجة يحتجون بها إلا أن قالوا: ﴿. . يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ . .﴾، ثم لجؤوا إلى التهديد والوعيد، والحرب النفسية، فقالوا: ﴿. . وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

وهذا هو ديدن المجرمين؛ إذا عجزوا عن مواجهة الحق بالحجة والبرهان، لجؤوا إلى التهديد والوعيد، وأرغوا وأزبدوا، وهذا أكبر دليل على إفلاسهم.

لكن شعيباً ـ عليه السلام ـ لثقته بربه ـ لم يعبأ بتهديداتهم، بل حذرهم من مغبة قولهم هذا، قائلًا لهم: ﴿. . يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ . .﴾ [هود: ٩٢] أي: «كيف تتركونني إكراماً

(١) انظر: الفراء، معاني القرآن: ج ١ ص ٣٨٥.

لقومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الله ـ عز وجل ـ أن تنالوا نبيه بمساءة؟»[١]، وقد أعرضتم عن الله ـ جل وعلا ـ وجعلتموه كالشيء الغائب الذي لا يُعبأ به، أتظنون أن الله غير مطلع عليكم: ﴿. . إن ربي بما تعملون محيط﴾.

فلما لم يستجيبوا له، ولم يأبهوا لقوله، خوفهم بوقوع العذاب، وأمرهم بالترقب، فما كان منهم إلا أن خيروه هو ومن معه من المؤمنين بين أمرين، فقالوا: ﴿. . **لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا** . .﴾ [الأعراف: ٨٨].

ولم يكن شعيب ـ عليه السلام ـ في يوم من الأيام على ملّتهم الباطلة، وهو النبي المرسل من عند الله، وإنما قصدوا بقولهم ﴿لتعودنّ في ملتنا﴾ أن يعود إلى ما كان عليه قبل إرساله من السكوت عما كانوا عليه من عبادة غير الله والإفساد في الأرض، والكفّ عن سب آلهتهم وعيب دينهم[٢]، والسكوت عن المنكر مع القدرة على إنكاره وتغييره، دليل على إقراره والرضى به.

ويُحتمل أن يكون الخطاب للرسول ـ عليه السلام ـ والمراد به أتباعه من المؤمنين، فإنهم كانوا من قبل على ملة قومهم، وهذا من باب تغليب حكم الجماعة على الواحد[٣].

ولما كان عود المؤمنين الذين خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، إلى ملة الباطل أمراً مستبعداً، أجابهم شعيب ـ عليه السلام ـ أصالة عن نفسه، ونيابة عن أتباعه من المؤمنين: ﴿. . **قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٤٥٨ (بتصرف يسير).
(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٤ ص ٣٤٥، والبقاعي، نظم الدرر: ج ٣ ص ٦٨.
(٣) انظر: البحر المحيط: ج ٤ ص ٣٤٥، وتفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٣٢.

﴿رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ . .﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، فكان ردًّا حاسماً لا مطمع فيه للمجرمين، وذلك أنه اشتمل على الحقائق التالية:

الأولى: أنه هو ومن معه من المؤمنين كارهون لملة الكفر، مبغضون لأهلها وما هم عليه من الشرك.

الثانية: أن ما عليه قومه من الشرك ما هو إلا كذب وافتراء، وأنه إن اتبعهم ومن معه من المؤمنين، كانوا من جملة الكاذبين المفترين.

الثالثة: اعترافه ومن معه بمنة الله عليهم، حيث أنقذهم من ملة الكفر وقد كانوا من أهلها.

الرابعة: أن عودهم إلى ملة الكفر بعد إذ هداهم الله إلى الحق من المحالات، كيف وقد خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، واستيقنوا بالله الواحد الديان، لكنهم مع ذلك علقوا الأمر بمشيئة الله تأدباً مع الله ـ عز وجل ـ الذي وسع كل شيء علماً[١].

الخامسة: إعلانه التوكل على الله ـ عز وجل ـ وتفويض الأمور كلها إليه ـ سبحانه ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه: ﴿. . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩].

وبعد أن قرر شعيب ـ عليه السلام ـ هذه الحقائق، وكأنه قد يئس من استجابة قومه، استفتح ربه قائلاً: ﴿. . رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

وفتح الله لعباده نوعان:

ـ فتح العلم، وذلك بتبيين الحق من الباطل، والمحق من المبطل.

ـ وفتح الجزاء، وذلك بإيقاع العقوبة على المجرمين وإحلال بأسه

---

(١) انظر: ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن: ج ٣ ص ٦٣.

بهم، ونصر المؤمنين وتمكينهم[١] .

وقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ أنه ما استفتح رسول قط على قومه، أو استفتحوا هم عليه إلا جاءهم الفتح ـ وهو الفصل بين الفريقين بالحق ـ وخاب وخسر المبطل منهما، وهو الكافر المعاند، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ . . ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٥].

وفي اللحظات الأخيرة، يقف الملأ من قوم شعيب ـ عليه السلام ـ وهم أكابر المجرمين من قومه، ليقطعوا الطريق على من يريد الالتحاق بركب الإيمان، قائلين ـ بلهجة تحذيرية ماكرة، ممزوجة بشفقة مصطنعة ـ: ﴿ . . لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٠]، فما أعجب منطق هؤلاء المجرمين وتلبيسهم ومكرهم، كيف جلعوا اتّباع الرسول ﷺ خسراناً، وجاء قولهم مؤكداً بمؤكدات لفظية، وهي: (إنّ)، و(إذاً)، و(اللام)، ولذا؛ لم يمهلهم الله ـ عز وجل ـ طويلاً: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف: ٩١]، عندها ظهر الحق، وتبين المبطل من المحق: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٢].

وقد تنوعت الآيات في ذكر عذاب قوم شعيب ـ عليه السلام ـ ففي سورة الأعراف والعنكبوت قال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ . . ﴾ [الأعراف: ٩١، والعنكبوت: ٣٧].

وفي سورة هود: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ . . ﴾ [هود: ٩٤].

وفي سورة الشعراء: ﴿ . . فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ . . ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « . . وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج

(١) انظر: المصدر السابق: ج ٣ ص ٦٤ .

عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وخمدت الأجسام: ﴿. . فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾»[١] .

ونجى الله شعيباً ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين كما جرت سنة الله ـ عز وجل ـ بذلك.

سابعاً: قوم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وهم قوم فرعون:

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ . .﴾ إلى قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨].

والآيات في خبر موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون كثيرة جدًّا. فقصة موسى مع فرعون أشهر من أن تذكر، وهي أكثر القصص وروداً في القرآن، لكثرة ما فيها من الدروس والعبر. ففرعون هو أستاذ مَن بعده من الطغاة والمجرمين، ومعلّمهم الأول بعد إبليس اللعين. كما أن الملأ من قوم فرعون هم الأسوة لكل من جاء بعدهم من بطانة السوء، وقد ورد في الحديث الصحيح، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**ما استُخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه، والمعصوم من عصم الله**»[٢] ، وهذا في شأن الخلفاء، فكيف بغيرهم من أكابر المجرمين؟

والمقصود أن الله ـ عز وجل ـ أرسل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وملئه، فكذبوهما، فأهلكهم الله بأن أغرقهم في اليم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب: المعصوم من عصم الله: ج ٦ ص ٢٤٣٨ برقم ٦٢٣٧.

فالأجساد للغرق، والأرواح للغرق على حد تعبير ابن القيم ـ رحمه الله ـ[١].

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥][٢].

وأنجى الله موسى ومن معه بمعجزة من عنده ـ سبحانه ـ وهي انفلاق البحر.

أما معجزة موسى ـ عليه السلام ـ فهي ليست معجزة واحدة، بل تسع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ..﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهي:

الأولى والثانية: العصا واليد، قال تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨].

الثالثة: انفلاق الحجر، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ..﴾ [البقرة: ٦٠].

الرابعة إلى الثامنة: الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم، قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ..﴾ [الأعراف: ١٣٣].

التاسعة: انفلاق البحر، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣][٣].

ومنهم من جعل انفلاق الحجر، وانفلاق البحر تابعاً للعصا، ولم

---

(١) انظر: الجواب الكافي: ص ٨١.

(٢) في قوله تعالى: ﴿فأدخلوا ناراً﴾ دليل على إثبات عذاب القبر، وذلك أنه عطف بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب، ولو كان المقصود نار الآخرة لعطف بثم التي تفيد الترتيب مع التراخي، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، فقوله: (ويوم تقوم الساعة..) دليل على أن النار التي يعرضون عليها، قبل قيام الساعة. انظر: الكشاف: ج ٤ ص ١٤٤.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ١٥٥، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٦٦.

يظهر لي وجه ذلك، بل الظاهر خلافه؛ فإن عصا موسى في الأصل كانت مع موسى ـ عليه السلام ـ كسائر العصي، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى . . ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، وهي بعد انقلابها حية، وحصول المعجزة الكبرى، عادت كما كانت في يد موسى كما هو الظاهر، وما أجراه الله على يد موسى بالعصا بعد ذلك فهو أمر جديد لا علاقة له بالأمر الأول.

وهاهنا نكتة لطيفة، وهي أن الله ـ عز وجل ـ قادر على إجراء الآيات دون حاجة إلى عصا أو غيرها، فمذا يغني ضرب حجر أصم أو بحر خضم، بعصا خشبية ونحوها، لكن الله أراد أن يعلّم الدعاة من الرسل وغيرهم درساً في التوكل الصحيح، وأنه لا ينفك عن فعل الأسباب الممكنة، مهما كانت ضئيلة أو ظُن عدم جدواها، فالله ـ عز وجل ـ هو مسبب الأسباب وخالقها. ورُبَّ سبب ضئيل مع صدق العقيدة والنية وصحة التوكل، يغني عن أسباب كثيرة خالية من ذلك، والله تعالى أعلم.

ونعود إلى آيات موسى ـ عليه السلام ـ فمنهم من جعل السنين ونقص الثمرات[1] من الآيات التسع، فجعلها بعضهم آيتين منفصلتين، وبعضهم جعلها آية واحدة، ولم يذكروا انفلاق الحجر والبحر[2]، ولم يظهر لي أيضاً وجه ذلك؛ فإن أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات كان عقوبة لهم من الله ـ عز وجل ـ وتذكيراً، ولم يكن من معجزات موسى ـ عليه السلام ـ وليس في سياق الآيات ما يدل على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل. . ﴾ فإنه قال بعدها: ﴿. . آيات مفصلات. . ﴾

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٨ ص ١٥٥، ١٥٦، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٦٦.

فنص على أنها آيات.

ومنهم من جعل من الآيات التسع: تلقف العصا ما يأفكون(١)، وهذا أيضاً ضعيف، فإنه تابع للعصا وليس آية مستقلة.

ومنهم من جعل الطمسة من الآيات أيضاً، وهي قول موسى ـ عليه السلام ـ داعياً ربه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ . .﴾ [يونس: ٨٨] وتأمين هارون ـ عليه السلام ـ على دعائه، وقول الله تعالى لهما: ﴿. . قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا. .﴾ [يونس: ٨٩](٢).

وهذا أيضاً فيه نظر، وليس هو بأولى ولا بأظهر من انفلاق الحجر والبحر لموسى ـ عليه السلام ـ.

ومما ذكره بعضهم من الآيات التسع: العقدة التي كانت بلسان موسى ـ عليه السلام ـ وهذا ليس بظاهر أيضاً، ولا دليل عليه، بل قد ورد ما يدل على خلافه، فإن الله ـ عز وجل ـ وصف الآيات بأنها بينات، وهذه ليست آية بينة، ولهذا قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عما في نفسه(٣)، ولو كانت هذه الآية بينة لما قال فرعون ما قال، ولما احتاج موسى إلى هارون ـ عليهما السلام ـ لفصاحته وطلاقة لسانه.

هذا ما وقفت عليه مما ذُكر أنه من الآيات التسع، والذي ظهر لي منها ما ذكرته في أول الحديث عن هذه المسألة. والله تعالى أعلم.

ثامناً: أصحاب الرس:

وقد ورد ذكرهم في القرآن مختصراً في موضعين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: جامع البيان: ج ٨ ص ١٥٥.

(٣) انظر: ص ٢١٢.

كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾ [ق: ١٢].

والرس هي: «البئر لم تطو»[١]، فكل ركيّة لم تطو، فهي رسّ[٢].

وقد كثرت أقوال المفسرين في المراد بأصحاب الرس، وهي أقوال لا مستند لها صحيح من كتاب ولا سنة، وحسبنا الوقوف عند النص القرآني، ولو كان في تفصيل خبرهم خير لذكره الله ـ عز وجل ـ وفصله. وخلاصة القول فيهم ـ كما دلت على ذلك آيات الكتاب العزيز ـ أنهم قوم كذبوا رسولهم، فأهلكهم الله ـ عز وجل ـ كما أهلك غيرهم من الأمم المكذبة[٣]، ولم يذكر الله ـ عز وجل ـ نوع العذاب الذي أحله بهم.

تاسعاً: أصحاب القرية:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿.. خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٩].

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه القرية هي (أنطاكية)، وهي البلدة المشهورة في الشام[٤].

وأنكر ذلك ابن كثير ـ رحمه الله ـ وذكر وجوهاً عدة تدل على بطلان هذا القول، ثم قال ـ رحمه الله ـ: «.. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية ـ إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة ـ مدينة أخرى

---

(١) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ج ٢ ص ٣٣.

(٢) السجستاني، نزهة القلوب: ص ٩٨.

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٦ ص ٤٥٨.

(٤) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت؛ دار بيروت: ١٤٠٤هـ): ج ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠.

غير هذه المشهورة المعروفة. . .»[١] .

أما قصة أصحاب هذه القرية، فحاصلها أن الله ـ عز وجل ـ بعث إليهم رسولين كريمين، فكذبوهما، فأيد الله الرسولين برسول ثالث، فما ازداد أولئك القوم إلا عناداً وتكذيباً، وإصراراً على الكفر، وقالوا لرسلهم كما قالت الأمم المكذبة من قبلهم: ﴿ . . مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[٢] [يس: ١٥]. ثم سلكوا مسلك التهديد والوعيد والحرب النفسية، فقالوا لرسلهم: ﴿ . . إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]. فهب لنصرة الرسل ـ عليهم السلام ـ رجل مؤمن منهم، جاء من أقصا المدينة يسعى، قائلًا لقومه بعبارات قد امتلأت شفقة ورحمة: ﴿ . . ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى آخر قوله الذي حكاه الله عنه في القرآن، فما كان منهم إلا أن قتلوه وأزهقوا روحه، فأرسل الله عليهم صيحة واحدة أهلكتهم جميعاً.

عاشراً: أصحاب الفيل:

وهم أبرهة الحبشي ومن معه من نصارى اليمن، وقد خصهم الله ـ عز وجل ـ بسورة من سور القرآن، وهي سورة الفيل، وقصتهم معروفة مشهورة، فإنهم جاؤوا لهدم الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ انتقاماً لكنيستهم التي بنوها بأرض الحبشة ليصرفوا إليها حجاج بيت الله الحرام؛ وكان بعض الأعراب قد أحدث فيها حدثاً، فكان ذلك سبباً لمجيئهم لهدم الكعبة، وكان من أمرهم ما كان[٣]، حيث أرسل الله عليهم: ﴿ . . طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] أي: متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٥٧٠.
(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ٢٣٠.
(٣) انظر في تفصيل قصتهم: الطبري، جامع البيان: ج ١٢ ص ٦٩٥.

نواح شتى[١] ، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل: ٤] وهو الشديد الصلب من الحجارة والطين[٢] ، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥] أي: «كزرع أكلته الدواب، فراثته، فيبس، وتفرقت أجزاؤه»[٣] .

هذه بعض الأمم المكذبة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وبعضها تكرر ذكره في أكثر من موضع، تارة بالتفصيل، وتارة بالإجمال.

وكما أهلك الله ـ عز وجل ـ أمماً بأكملها بسبب إجرامهم، فقد أهلك أفراداً من المجرمين طغوا وتجبروا، وكذبوا الرسل، فمنهم:

قارون: وكان من قوم موسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ . . ﴾ [القصص: ٧٦].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان ابن عم موسى[٤] . وقيل: بل هو عمّه أخو أبيه. وهو قول ابن إسحاق[٥] .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «وأكثر أهل العلم في ذلك على أنه ابن عمه . . ».

ثم ساق بسنده إلى قتادة ـ رحمه الله ـ أنه قال: «كنا نحدَّث أنه كان ابن عمه؛ أخي أبيه، وكان يسمى: (المنوّر) من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي»[٦] .

أما بغيه على قومه فبالكبِرْ والعُجب والترفّع، وكان من آثار ذلك أن زاد في ثيابه شبراً[٧] ، وجحد نعمة الله عليه، ونسبها إلى نفسه، فقال:

---

(١) المصدر السابق: ج ١٢ ص ٦٩١ .

(٢) انظر: ص ٥٠١ من هذا الكتاب.

(٣) جامع البيان: ج ١٢ ص ٦٩٨ ، والبغوي، معالم التنزيل: ج ٨ ص ٥٤١ .

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٣٩٨ . وانظر: جامع البيان: ج ١٠ ص ٩٩ .

(٥) انظر: المصدرين السابقين.

(٦) جامع البيان: ج ١٠ ص ١٠٠ .

(٧) انظر: المصدر السابق.

﴿ .. إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨] يعني ما آتاه الله من الكنوز والأموال، فكان ذلك مما حمله على الطغيان والتكبر، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ومن بغيه أيضاً: حسدُه لموسى ـ عليه السلام ـ على ما آتاه الله من النبوة، حتى حمله ذلك على تدبير مكيدة لرمي موسى ـ عليه السلام ـ بالزنى، على الملأ من بني إسرائيل، لكن الله أبطل كيده، وقد سبق الحديث عن ذلك في مباحث الأساليب[1].

أما العقوبة التي حلت به، فهي الخسف: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ .. ﴾ [القصص: ٨١]، وسيأتي قريباً ـ إن شاءالله ـ مناسبة هذه العقوبة لجريمته.

الجزاء من جنس العمل:

إن المتأمل في قصص هذه الأمم المكذبة، وما حل بها من العذاب والنكال في الدنيا، يلحظ أن الجزاء كان من جنس العمل، وأن كل أمة من هذه الأمم عوقبت بعقوبة تليق بها، وتتناسب مع جرمها الذي ارتكبته: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦][2].

فقوم نوح لما بلغوا الغاية في الطغيان، كما قال تعالى عنهم لما ذكر الأمم المكذبة: ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ [النجم: ٥٢]؛ عاقبهم بالغرق، حتى طغى الماء فوق رؤوس الجبال، فقابل طغيانهم بطغيان الماء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١].

ومثلهم فرعون وقومه، فإن الله أغرقهم في اليم، وذلك لشدة طغيانهم، وأي طغيان أعظم من قول فرعون لقومه: (ما علمتُ لكم من إله غيري)! وقوله: (أنا ربكم الأعلى)!. وهم يقرون له بذلك، ويشجعونه؟

---

(١) انظر: ٢٩٧.

(٢) انظر: ابن تيمية، كتاب النبوات (بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٢هـ): ص ٤٣.

لكن، لما كان مُلْك فرعون محدوداً لا يتجاوز حدود مصر، أغرقه الله وقومه في اليم، ولم يكن الغرق عاماً كما في قصة نوح ـ عليه السلام ـ.

أما قوم عاد فلما كان كفرهم سببه الاغترار بالقوة وضخامة الأجسام، وفي ذلك من الرسوخ والثبات ما يشبه النخلة التي لا يحركها شيء، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية، قلعتهم من أماكنهم، وألقتهم صرعى في مكان بعيد، كأنهم أعجاز نخل خاوية، فقد أخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ بسنده عن الحسن قال: «لما أقبلت الريح، قام إليها قوم عاد، فأخذ بعضهم بأيدي بعض كما تفعل الأعاجم، وغمزوا أقدامهم في الأرض، وقالوا: يا هود، من يزيل أقدامنا عن الأرض إن كنت صادقاً؟ فأرسل الله عليهم الريح العاتية، فصيرتهم كأنهم أعجاز نخل منقعر»[1]. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وأما ثمود فإنهم كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢]، ومن ذا الذي يستطيع اقتحام جبل أشم، أو قلع صخر أصم، لاسيما في ذلك العصر الذي ليس فيه الطائرة والدبابة والصاروخ والمدفع . . ، ولكن، كما قيل: «**من مأمنه يؤتى الحَذِر**»[2]، فقد أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فأرسل عليهم صيحة واحدة اقتحمت عليهم بيوتهم الآمنة. وإن من المعلوم أن إنساناً لو صاح في جبل، لتضاعف صوته مرات، وتردد صداه في جنبات ذلك المكان، فكيف إذا كانت الصيحة من رب العالمين؟

وقد جاء وصف هذه الصيحة بـ (الطاغية) كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ

---

(١) جامع البيان: ج ١١ ص ٥٥٨.

(٢) انظر: الميداني، مجمع الأمثال (بيروت: دار المعرفة: ١٣٧٤هـ): ج ٢ ص ٣١٠.

﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] وذلك لشدتها ومجاوزتها للحد الذي يطيقه البشر، وهذا الطغيان في مقابل طغيانهم هم، واستكبارهم عن أمر الله، واتباع رسله.

وأما قوم لوط، فقد عاقبهم الله بعقوبات ثلاث، لم يُعَاقَب بها أحد قبلهم ولا بعدهم وهي: طمس الأعين، والخسف، وإمطارهم بحجارة مسومة.

فأما طمس الأعين، فلأن أصل جريمتهم وأساسها: النظر إلى الصور الجميلة.

وأما الخسف، فلأنهم كانوا يتقلبون في هذه المعصية، ويعلو بعضهم بعضاً، وقد قلبوا فطرة الله ـ عز وجل ـ فناسب أن يقلب عليهم الأرض رأساً على عقب.

وأما الحجارة، فلأن شهوة هذه المعصية لما كانت تلهب كل عضو من أعضائهم، فلا تختص بعضو دون آخر؛ أمطرهم بحجارة لا تدع منهم موضعاً إلا أصابته، ولعل هذا هو السر في التعبير بلفظ الإمطار، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، فإن المطر إذا انهمر، لا يدع موضعاً من الجسم إلا أصابه، وبهذا علل بعض الفقهاء رجم الزاني المحصن[1]، والله تعالى أعلم.

وأما قوم شعيب ـ عليه السلام ـ فقد سبق أنهم عوقبوا أيضاً بثلاث عقوبات، وهي الرجفة والصيحة والظلة[2]، وقد جاءت هذه العقوبات مناسبة لجرائمهم، فأما الرجفة؛ فلأنهم أرجفوا بشعيب ـ عليه السلام ـ وأصحابه، وتوعدوهم بالجلاء، وذلك بقولهم: ﴿.. لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: عبدالرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة (تركيا: دار الدعوة: ١٤٠٤هـ): ج ٥ ص ٦٢.
(٢) انظر: ص ٥٠٨ من هذا الكتاب.

ءَامَنُواْ مَعَكَ . . ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وأما الصيحة؛ فلأنهم تهكموا به في قولهم: ﴿ . . أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ . . ﴾ [هود: ٨٧]، فجاءت الصيحة فأسكتتهم.

وأما الظلّة؛ فلأنهم قالوا لشعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فكان ذلك مناسباً لقولهم هذا. ذكر ذلك ابن كثير ـ رحمه الله ـ[١].

ويحتمل أن الله ـ عز وجل ـ أخذهم بالصيحة كما أخذ قوم صالح ـ عليه السلام ـ أي من حيث أمِنوا، لأنهم لما كانوا قطاعاً للطرق، فكأنهم قد أمنوا على أنفسهم بإخافة غيرهم، فأخافهم الله ـ عز وجل ـ بهذه الصيحة العظيمة. وقد سبق المثل المشهور: «**من مأمنه يؤتى الحَذِر**»[٢].

وأما أصحاب الفيل، فإنهم لما جاؤوا لهدم الكعبة المشرفة وتفريق أجزائها، ونقضها حجراً حجراً، أرسل الله عليهم حجارة من السماء، جعلتهم كعصف مأكول، حيث فرّقت أجزاءهم، وقطعت أوصالهم، وإنما لم تنزل الحجارة عليهم من السماء مباشرة وحملتها الطير الأبابيل؛ لأن الله ـ عز وجل ـ والله تعالى أعلم ـ لم يرد إهلاك أهل مكة كلهم، وإنما أراد إهلاك هذه الطغمة الفاسدة، فكان ذلك أبلغ في العقاب، ليكونوا عبرة لغيرهم.

أما قارون، فلما كانت جريمته العلو في الأرض، والتعالي على الخلق، ناسب أن يكون جزاؤه الخسف إلى أسفل، فبقدر علوه كان هبوطه، وقد صح في الحديث، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في حلّة تعجبه نفسه، مرجّل جُمّته**[٣]، **إذ خسف الله به**،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ٢٣٢.

(٢) انظر: ص ٥١٧ من هذا الكتاب.

(٣) الجمة من شعر الرأس: ما سقط على المنكبين. (النهاية: ج ١ ص ٣٠٠).

فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»[١] .

وفي رواية: «**بينا رجل يجر إزاره، إذ خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[٢] .

والمقصود، أن الله ـ عز وجل ـ قد أخذ كلًّا بذنبه، وأنزل به العقوبة التي تليق به، وتتناسب مع جرمه، جزاءاً وفاقاً، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ . . ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: « . . ولذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل، من جنسه في الخير والشر. فمن ستر مسلماً ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادماً أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن ضار مسلماً، ضار الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه، ومن خذل مسلماً في موضع يحب نصرته فيه، خذله الله في موضع يحب نصرته فيه . . ».

إلى أن قال: «فهذا شرع الله وقدره ووحيه، وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل . .»[٣] .

أصل عقوبات الأمم:

قد سبق أن الله ـ عز وجل ـ حصر عقوبات الأمم في أربع، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء: ج ٥ ص ٢١٨٢ برقم ٥٤٥٢، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه: ج ٦ ص ١٤٨ برقم ٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء: ج ٥ ص ٢١٨٢ برقم ٥٤٥٣.

(٣) إعلام الموقعين: ج ٢ ص ١٩٦.

أَغْرَقْنَا . . ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ومع أن الآية لم يرد فيها ما يفيد الحصر، إلا أن المتأمل في عقوبات الأمم يجد أنها لا تخرج عن هذه الأربع.

فقوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً . .﴾ يدخل فيه قوم عاد، وقوم لوط، وأصحاب الفيل؛ فإن الحاصب في اللغة يأتي بمعنى الريح الشديدة التي تحمل التراب والحصباء. ويأتي بمعنى العذاب الذي يرمي بالحصباء من السماء.

قال ابن منظور ـ رحمه الله ـ «وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا . . ﴾ [القمر: ٣٤] أي عذاباً يحصبهم، أي يرميهم بحجارة من سجيل، وقيل: حاصباً، أي ريحاً تقلع الحصباء لقوتها . .»(١) . فالأول هو ما أصاب قوم لوط ـ عليه السلام ـ وأصحاب الفيل. والثاني هو ما أصاب قوم هود ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿ . . ومنهم من أخذته الصيحة . .﴾ يدخل فيه قوم صالح ـ عليه السلام ـ، وقوم شعيب ـ عليه السلام ـ وأصحاب القرية، وهم قوم يس.

وقوله تعالى: ﴿ . . ومنهم من خسفنا به الأرض . .﴾ يدخل فيه قوم لوط أيضاً، وقارون.

وقوله تعالى: ﴿ . . ومنهم من أغرقنا . .﴾ يدخل فيه قوم نوح ـ عليه السلام ـ، وقوم موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، وهم فرعون وقومه.

فلم تبق أمة من الأمم المكذبة التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم إلا وهي داخلة في هذه الآية، والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) لسان العرب: مادة (حصب): ج ٢ ص ٨٩٣.

الفصل الثاني

سنن الله في انتصار دعوة الرسل
عليهم السلام

ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول: مفهوم الانتصار وحقيقته وصوره.
المبحث الثاني: أسباب تأخر النصر.
المبحث الثالث: شروط تحقق النصر.



المبحث الأول
مفهوم الانتصار وحقيقته وصوره

أولاً: مفهوم الانتصار وحقيقته:

قبل الحديث عن مفهوم الانتصار وجقيقته، لابد من بيان بعض الحقائق المهمة التي وإن كانت لم تغب عن أذهان الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم من المؤمنين الموقنين، إلا أنها قد غابت كثيراً عن أذهان بعض المنتسبين إلى الحق، والعاملين في ميدان الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ مما حملهم على التخلي عن دعوتهم، أو تقديم تنازلات لأعدائهم ما كانوا يحلمون بها، وإذا كان الله ـ عز وجل ـ قد خاطب نبيه وأفضل خلقه وهو المعصوم ﷺ بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ . . ﴾ [هود: ١٢]، فكيف بغيره ممن لم يكتب الله لهم العصمة؟

وهذه الحقائق هي:

الحقيقة الأولى: أن النصر لهذا الدين، والعاقبة ـ مهما طال الزمن ـ للمتقين. ومهما انتفش الباطل فترة من الزمن، وعلت في الأرض راياته، وتعددت أساليبه وغاياته، فإن مآله إلى الزوال والاضمحلال، ويبقى الحق شامخاً وراسخاً. والآيات في تقرير هذا المعنى وتأكيده صريحة وواضحة، فمنها:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ . . وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧ ﴾ [الروم: ٤٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا

ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة. .

ومع وضوح هذه الآيات وصراحتها، إلا أن النفس البشرية ـ مهما بلغت من الثبات والرسوخ واليقين ـ قد تهتز أحياناً أمام ضغط الواقع، ومرارة الفتن: ﴿. . حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. .﴾ فيأتي الجواب من الله ـ عز وجل ـ الذي بيده النصر: ﴿. . أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فالنصر إنما يأتي في موعده المحدد الذي قدره الله ـ عز وجل ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(١) [يوسف: ١١٠].

ولهذا كان النبي ﷺ في أحلك الظروف وأحرج الساعات، يذكِّر أصحابه بهذه الحقيقة المهمة ليطرد عن قلوبهم اليأس، ويقطع عنها الوساوس والشكوك، وقد سبق حديث خباب ـ رضي الله عنه ـ وقول النبي ﷺ له: «. .**وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه**»(٢) ، وفي غزوة الأحزاب، وعند حفر الخندق، وقد أقبل الأعداء من كل جانب، وبلغ الجهد من أصحاب رسول الله ﷺ كل مبلغ، اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن كسرها، فيأتي رسول الهدى ﷺ، فيضربها الضربة الأولى ويقول: «**الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحُمْر الساعة**» ويضربها الضربة الثانية ويقول: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني**

---

(١) قد سبق الحديث عن هذه الآية، انظر: ص ٢١٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ص ٣٤٩ من هذا الكتاب.

لأبصر قصر المدائن أبيض» ويضربها الثالثة ويقول: **«الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني، هذه الساعة»**(١) .

بل إن الرسول ﷺ، وهو مُلاحَق مُطارد، ليذكّر أعداءه بذلك ويغريهم به، كما فعل مع سراقة بن مالك المدلجي ـ رضي الله عنه ـ وكان يومذاك مشركاً، وقد أدرك النبي ﷺ، وكان يطمع في جائزة قريش، فساخت يدا فرسه في الأرض، فكتب له النبي ﷺ كتاب أمان، ووعده بأن يلبس سواري كسرى، فتحقق له ذلك في زمن الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ(٢) .

ولا شك أن مثل هذه الكلمات المشرقة، في مثل تلك المواقف الحرجة لتزيد المؤمنين إيماناً بربهم، وتسليماً ويقيناً بوعده ونصره، وإن لم يدرك بعضهم ذلك عياناً، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

الحقيقة الثانية: أن الله ـ عز وجل ـ لم يحدد موعداً لهذا النصر، فلا يعلم موعده إلا الله. وقد يؤخره الله ـ عز وجل ـ لحكمة يعلمها كما سيأتي.

الحقيقة الثالثة: أن هذا الوعد بالنصر لا يعني الركون إلى التراخي والكسل، وترك العمل، بحجة أن الله ـ عز وجل ـ ناصر دينه، ومعلٍ كلمته، وسيأتي الحديث عن ذلك قريباً إن شاءالله تعالى.

---

(١) انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة: ج ٢ ص ٤٢٣.

(٢) أخرج القصة بطولها البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: ج ٣ ص ١٤٢٠ برقم ٣٦٩٣. وليس فيها أنه وعده بسواري كسرى، وإنما ورد ذلك في حديث مرسل عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ. انظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب: ج ٢ ص ١١٩، وابن حجر، الإصابة: ج ٢ ص ١٨، ١٩.

مفهوم الانتصار وحقيقته:

إن اختلال المفاهيم عند كثير من الناس، في كثير من القضايا المختلفة، أمر واقع منذ القِدَم، والرسل ـ عليهم السلام ـ إنما بُعثوا ـ في جملة ما بُعثوا به ـ لتصحيح هذه المفاهيم.

وإن من المفاهيم الخاطئة التي تحتاج إلى تصحيح، ليس لدى العامة فقط، بل حتى لدى بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة: مفهوم الانتصار وحقيقته. فإن مفهوم الانتصار عند الكثيرين يعني أن ينتصر الرسول أو الداعي إلى الله انتصاراً ظاهراً، في أول مواجهة له مع الباطل، مع هلاك عدوّه في الوقت ذاته، كما حصل لبعض الرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم. وهذه الصورة وإن كانت من صور انتصار الحق، إلا أنها ليست هي الصورة الوحيدة للنصر، فهناك صور أخرى كثيرة غير هذه الصورة، بعضها أو أكثرها قد يبدو في نظر الكثيرين هزيمة وفشلًا، ومن هنا جاء الخلل في مفهوم الانتصار وحقيقته.

ولتصحيح هذا المفهوم، لابد من تجلية أمرين:

أحدهما: حقيقة الانتصار.

والثاني: صور الانتصار.

أولاً: حقيقة الانتصار:

قد سبق أن الدعوة إلى الله تقوم على ركنين أساسيين، هما: الداعي وما يدعو إليه (أي المنهج).

فأما الداعي ـ وهو الرسول، أو من يقوم مقامه من الدعاة ـ فإنه قد يطرأ عليه ما يطرأ على سائر البشر من الموت والقتل والمرض والغياب والضعف والغضب والاستعجال وغير ذلك مما هو من طبيعة البشر، وقد حدث كل ذلك لبعض الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ. وأما غيرهم من الدعاة فقد يطرأ عليهم ما هو أعظم من ذلك كالانحراف عن المنهج أو

الارتداد عنه، أو التخلي عن الدعوة، أو غير ذلك من دواعي الشهوة، ونوازع النفس الأمارة بالسوء. ولهذا جاء التحذير من ذلك، موجهاً إلى الرسل ـ عليهم السلام ـ بلهجة شديدة، لأنهم القدوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

لكن يبقى الركن الثاني من أركان الدعوة ـ وهو المنهج ـ ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل، لا تؤثر فيه الأحداث، ولا تغيره عوامل الزمن، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «..**الأنبياء إخوة لِعَلَّات**[١]؛ **أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[٢]. فدين الأنبياء واحد لا يتغير وهو الإسلام بمعناه الشامل، وإن اختلفت الشرائع باختلاف الزمان والمكان وحاجات الناس.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الانتصار الحقيقي هو انتصار المنهج، وذلك بظهوره وعلوه وبقائه على مر العصور والدهور، واقتناع الناس به، ولو أدى ذلك إلى مقتل الداعي ورحيله عن هذه الدار أو تغييبه، بل إن مقتل الداعي في حد ذاته قد يكون انتصاراً له ولدعوته كما سيأتي، قال الشاعر:

موت النفوس حياتها　　　من شاء أن يحيا يموت[٣]

ولهذا يحرص كثير من الأنبياء عند مواجهة أعداء الدعوة على اجتماع الناس، ليقولوا كلمتهم على رؤوس الأشهاد ـ ولو كلفهم ذلك حياتهم، أو

---

(١) أولاد العَلَّات: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. (النهاية: ج ٣ ص ٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿واذكر في الكتاب مريم..﴾: ج ٣ ص ١٢٧٠ برقم ٣٢٥٩، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ـ عليه السلام ـ: ج ٧ ص ٩٦ برقم ١٤٥.

(٣) لم أقف على قائله.

عرضهم للملاحقة والأذى ـ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة على الجميع، كما في قصة إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ.

ثانياً: صور الانتصار:

سبق قريباً أن لانتصار الحق صوراً عدة، وقد تأملت قصص القرآن الكريم، ولاسيما قصص الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم، فوجدتها مشتملة على جل هذه الصور، بل كلها، وفيما يلي عرض مجمل لما ظهر لي من هذه الصور، ثم عرض مفصل:

العرض المجمل لصور الانتصار:

الصورة الأولى: نصر الرسول بإهلاك أعدائه من المجرمين.

الصورة الثانية: نصر الرسول بخارقة من عنده ـ سبحانه ـ مع بقاء قومه.

الصورة الثالثة: نصره بالانتقام من أعدائه بعد قتله أو موته.

الصورة الرابعة: بنشر ذكره في العالمين بعد قتله أو موته، وإظهار دينه ودخول الناس فيه.

الصورة الخامسة: بتسليط الرسول على أعدائه، فيقتلهم، وهو النصر العسكري.

الصورة السادسة: بإظهاره عليهم بالحجة والبيان والدليل والبرهان.

الصورة السابعة: بتثبيته على الحق والربط على قلبه في أحلك الظروف وأصعب المواقف.

الصورة الثامنة: باستجابة قومه له وإيمانهم به.

الصورة التاسعة: بإيتائه الملك وتبويئه أعلى المناصب.

الصورة العاشرة: بإظهار براءته من تهمة وجهت إليه في عرضه أو دينه.

الصورة الحادية عشرة: بتوقيع معاهدة ظاهرها الذل والاستسلام، وهي في حقيقتها وما تؤول إليه، نصر وفتح مبين.

الصورة الثانية عشرة: بتخليصه من بلية حلت به في نفسه أو ماله أو ولده

وتعويضه عن ذلك أضعافاً، بعد شماتة أعدائه به.

العرض المفصل لصور الانتصار:

الصورة الأولى: إنجاء الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم من المؤمنين، وإهلاك أعدائهم من المجرمين بالاستئصال العام والعذاب الماحق، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

ومن الأمثلة على ذلك، قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وغيرهم من المكذبين الذين أهلكهم الله بعامة، فكان إهلاكهم انتصاراً ظاهراً للرسل ـ عليهم السلام ـ وقد سبق الحديث عن هذه الأمم وما عذبت به بالتفصيل في مبحث انتقام الله من المجرمين(١).

الصورة الثانية: أن يتسلط المجرمون على الرسول، حتى إذا ما قدروا عليه وهموا بقتله، أنجاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بين أيديهم بخارقة من عنده وهم ينظرون.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حصل لخليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقول الله ـ عز وجل ـ للنار التي أضرمها قومه ليحرقوه بها: ﴿.. يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩](٢).

وقد ذكر بعض أهل السير وغيرهم قصة شبيهة بقصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ جرت للتابعي الجليل أبي مسلم الخولاني عبدالله بن ثوب ـ رحمه الله ـ فقد أخرج اللالكائي بسنده إلى شرحبيل بن مسلم، أن الأسود بن قيس بن ذي الخمار (وهو الأسود العنسي) تنبأ باليمن، فبعث إلى أبي مسلم، فلما جاءه قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال:

---

(١) انظر: المبحث الثالث من الفصل الأول من الباب الثالث.

(٢) قد سبق الحديث عن قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه، انظر: ص ٤٩٨ من هذا الكتاب.

أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردد ذلك عليه، فأمر بنار عظيمة فأُججت، ثم ألقى فيها أبا مسلم، فلم يضره. فقيل له: انْفِهِ عنك، وإلا أفسد عليك من اتبعك. فأمره بالرحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قُبض رسول الله ﷺ، واستُخلف أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأناخ راحلته بباب المسجد ثم دخل المسجد فقام يصلي إلى سارية، فبصر به عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقام إليه فقال: ممّن الرجل؟!

قال: من أهل اليمن.

قال: ما فعل الذي أحرقه الكذاب بالنار.

قال: ذلك عبدالله بن ثُوَب.

فقال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. فاعتنقه ثم بكى، ثم ذهب حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الرحمن[1].

إن الخوارق التي يكرم الله بها بعض عباده، إما أن يجريها على أيدي أنبيائه ورسله ـ عليهم السلام ـ فتكون لهم معجزة يتحدون بها الناس، وإما

---

(١) اللالكائي، كرامات أولياء الله (ط ٢؛ الرياض: دار طيبة: ١٤١٥هـ) ص ٢٠٤. وقد ذكر هذه القصة: شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه (انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى: ج ١١ ص ٦٦٦، والنبوات ص ٧، ٨). وذكرها الذهبي في السير: ج ٤ ص ٨، ٩. وقد ضعف محقق كتاب كرامات الأولياء د. أحمد الغامدي إسناد هذه القصة، وقال: «فيه شرحبيل بن مسلم قال فيه ابن حجر: صدوق فيه لين. وفيه عبدالوهاب بن نجدة لم يُذكر فيه تعديل ولا جرح»ا.هـ فأما شرحبيل بن مسلم فقد وثقه أحمد وغيره، قال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي يقول: «شرحبيل بن مسلم من ثقات المسلمين» وممن وثقه: ابن نمير، والعجلي، وابن حبان. وقال الألباني: «وفي شرحبيل كلام لا يضر...، فقول الحافظ في التقريب: صدوق فيه لين. فيه لين». (انظر في هذا القول والذي قبله: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ٥ ص ٣٤٠، ٣٤١). وأما عبدالوهاب بن نجدة فقد وثقه الذهبي كما في السير: ج ٤ ص ٩. والله تعالى أعلم.

أن يجريها على أيدي غيرهم من أوليائه المؤمنين، المتبعين للكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، فتكون لهم كرامة تشهد لهم بالفضل والولاية. والفرق بين المعجزة والكرامة: أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي، دالة على نبوة النبي، بخلاف الكرامة، فإنها خالية من ذلك[1]، «وهذا في اصطلاح المتأخرين، أما السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ كالإمام أحمد وغيره، فإنهم كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات، وربما سموها آيات، لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي، وذلك أن «الدليل يستلزم المدلول، فيمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهاناً ـ وهو الدليل والعلم على نبوة النبي ـ يمتنع أن يكون لغير النبي»[2]. والأمر في ذلك لا يعدو أن يكون خلافاً لفظيًّا، والله تعالى أعلم.

الصورة الثالثة: أن يتسلط المجرمون على الرسول فيقتلونه، فينتقم الله منهم بعد موته، إما بعذاب من عنده يستأصلهم به، أو بتسليط بعض عباده عليهم.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزخرف: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لشعياء[3]، ويحيى بن زكريا، وأشباههما.

---

(١) انظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، لشرح الدرة المضية، في عقد الفرقة المرضية (ط ٢؛ دمشق: مؤسسة الخافقين: ١٤٠٢هـ) ج ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١. وانظر: عمر الأشقر، الرسل والرسالات (ط ١؛ الكويت: مكتبة الفلاح: ١٤٠١هـ) ص ١٢١، ١٢٢.

(٢) ابن تيمية، الجواب الصحيح: ج ٤ ص ٧٠.

(٣) هو نبي من أنبياء بني إسرائيل قبل زكريا ويحيى عليهما السلام، نشره قومه بالمنشار مع جذع شجرة كان قد اختفى فيه عنهم. (انظر: البداية والنهاية: ج ٢ ص ٣٢، ٣٣).

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ عند تفسير الآية السابقة من سورة غافر: «فإن قيل: وما معنى قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثلوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من همّ بقتله قومه.. فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله، والمؤمنين به في الحياة الدنيا؟

قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ وجهين كلاهما صحيح معناه، أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا إما بإعلائنا لهم على من كذبنا، وإظفارنا بهم حتى يقهروهم غلبة.. أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه بتسليطنا على قتلته من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفِعْلنا بقتَلَة يحيى من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له[1]...»[2].

وأخرج ابن جرير ـ رحمه الله ـ بسنده إلى السدي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿إنا لننصر..﴾ أنه قال: «قد كانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوماً فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم..»[3].

ويؤكد ذلك ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، فهم المنصورون على كل حال، إن لم يكن في الحال ففي المآل، وإن لم يكن في الحياة ففي الممات، وإن لم يكن بالسيف والسنان، فبالحجة والبيان والبرهان.

---

(١) العبارة هنا غير مستقيمة، ولعل صوابها: حتى انتصرنا به من قتَلَته. أو نحو هذا.

(٢) جامع البيان: ج ١١ ص ٦٩. (باختصار).

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الصورة الرابعة: أن يتسلط المجرمون على الرسول أو الداعي إما بقتل أو نفي أو تغييب، فيكون ذلك سبباً لانتصار الدين وظهوره، ودخول الناس فيه.

ومن الأمثلة على ذلك ما حصل لعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ من تسليط الروم على قتَلَته من اليهود (حسب ظنهم واعتقادهم) حتى أهلكهم الله بهم[1].

وأوضح من ذلك ما أشار الله ـ عز وجل ـ إليه في سورة البروج من قصة أصحاب الأخدود، وقد جاءت السنة المطهرة بتفصيل ذلك وبيانه، وأنا أذكر القصة كاملة لأهميتها، ولكثرة ما فيها من الدروس والعبر، ففي الصحيح، عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«كان ملِك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك، فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، إنك اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتُليت فلا تدلّ علي. وكان الغلام يبرىء الأكمه[2] والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه**

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) الأكمه: الأعمى، وقيل: الذي يولد أعمى. (انظر: النهاية: ج ٤ ص ٢٠١).

بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟! قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟!! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تُبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل.. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقُور[1] ، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به. فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه

---

(١) القرقور: السفينة العظيمة. (النهاية: ج ٤ ص ٤٨).

على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدغه[1] فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد ـ والله ـ نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه، اصبري فإنك على الحق»[2] .

إن الناظر في هذه القصة قد يظن لأول وهلة أن النصر كان حليفاً للباطل، وأن المجرم العتيد هو المنتصر الوحيد في هذه المعركة، ولكن الأمر في حقيقته خلاف ذلك، بل على النقيض منه تماماً لمن عرف مفهوم الانتصار، وأدرك حقيقته. إن الله ـ عز وجل ـ أراد أن «يعلم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزِنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة. والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة. وفي هذا

---

(١) الصدغ: ما بين العين إلى شحمة الأذن. (السابق: ج ٣ ص ١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام: ج ٨ ص ٢٢٩ برقم ٧٣.

الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرّف الجنس البشري كله، في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار»[١].

ثم إن المعركة لم تنته عند هذا الحد، فأين هؤلاء المجرمون من عقاب الله في الدنيا؟ ثم أين هم ـ إن أفلتوا ـ من عذاب الله وعقابه في الآخرة؟ فخاتمة المعركة لما تأت بعد والمؤمنون هم المنتصرون أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وإن بدا غير ذلك.

وبعد.. فإن هذه القصة مليئة بالدروس والعبر لمن تأملها حق التأمل. والذي يهمنا هاهنا هو ما حصل في خاتمتها من انتصار الإيمان والعقيدة في نفوس المؤمنين، وإن أُزهقت أرواحهم، وفنيت أجسادهم.

وأما السجن والتغييب فمثاله ما حصل ليوسف ـ عليه السلام ـ حيث كان سجنه سبباً لتمكينه في الأرض، وتبوئه أعلى المناصب بعد ثبوت براءته، وظهور صدقه. ولولا السجن ما حصل له هذا التمكين في الأرض.

وربما كان السجن هو نهاية المطاف لحياة الداعي، إما بموت أو قتل، فيكون ذلك سبباً لارتفاع ذكره في العالمين، وانتشار علمه في الأقربين والأبعدين، ومن أوضح الأمثلة على ذلك، ما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه قد مات في السجن. وهو القائل: «ما يصنع أعدائِي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رُحْتُ فهي معي، لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[٢]. وقد رفع الله ذكره بعد موته، ونفع بعلمه، فمن لا يعرف ابن تيمية؟

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق (بيروت: دار الشروق): ص ١٧٥.

(٢) ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة (بيروت: دار المعرفة): ج ٢ ص ٤٠٢. وانظر: صلاح الدين المنجد، شيخ الإسلام ابن تيمية؛ سيرته وأخباره عند المؤرخين (ط ١؛ بيروت: دار الكتاب الجديد: ١٩٧٦م): ص ١٤٩.

الصورة الخامسة: أن يسلط الله رسوله على أعدائه من المجرمين، فيجاهدهم بالسيف بعد الكلمة، فيقتلهم ويقهرهم ويذلهم، وتكون له الغلبة عليهم، وهو الانتصار العسكري.

ومن الأمثلة على ذلك: ما أكرم الله به داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ من القوة، وشدة البأس، وكثرة الجنود، حتى قهرا أعداءهما بالسيف، كما قال سليمان ـ عليه السلام ـ لما جاءه الرسول بالهدية من ملكة سبأ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

وهذه الصورة، من صور الانتصار الظاهر الذي لا خفاء فيه.

الصورة السادسة: الانتصار بالحجة والبيان، والدليل والبرهان.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لخليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه. وقد سجل الله ـ مناظرته إياهم في القرآن، فبدأها بإظهار حيرته وبحثه عن الإله المستحق للعبادة وحده دونما سواه[1]: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ثم قال مثل ذلك في القمر، ثم قال مثل ذلك في الشمس، ثم أعلن براءته من معبودات قومه، وتوجهه الخالص إلى الله ـ عز وجل ـ فاطر السموات والأرض: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وختم الله هذه المناظرة بقوله سبحانه:

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان في هذا المقام ناظراً لا مناظراً، بمعنى أن ما قاله من عبادة الكوكب والشمس والقمر كان على ظاهره، وأنه قد فعل ذلك ثم هداه الله ـ عز وجل ـ. والصواب ما اختاره ابن كثير ـ رحمه الله ـ وغيره من المحققين وهو أن إبراهيم كان مناظراً لا ناظراً، لأدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ٢ ص ١٥١.

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣] معلنا فيها انتصار إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه بالحجة والبرهان.

ومن ذلك أيضاً: ما جرى بينه وبين قومه من الحوار حول عبادة الأصنام، فإنه ـ عليه السلام ـ قد أقسم بالله في نفسه ليكيدن أصنامهم متى ما سنحت له الفرصة، وقد بر بقسمه، وذلك بعد خروج قومه إلى عيد من أعيادهم، فتوجه إلى أصنامهم: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، فلما قالوا له: ﴿ . . ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء ٦٢]، رد عليهم قائلًا: ﴿ . . بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فقطع بذلك حجتهم، وجعلهم في حيرة من أمرهم، حتى إنهم رجعوا إلى أنفسهم، فأقروا عليها بالظلم، لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى غيهم وضلالهم، فقالوا محتجين على إبراهيم، وما أوهنها من حجة: ﴿ . . لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، عند ذلك صعقهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ بحجته الدامغة: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧][١] .

فلما انقطعت حجتهم تماماً، وأحسوا بالهزيمة المرة، لجؤوا إلى القوة في مواجهة الحجة، وهذا من أكبر الأدلة على إفلاسهم وهزيمتهم: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهنا يتنزل نصر من نوع آخر، سبقت الإشارة إليه[٢] : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

ومن ذلك أيضاً ما قصه الله علينا من خبر إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٣٦ ـ ٤٢.

(٢) انظر: ص ٥٣١ من هذا الكتاب.

ذلك الذي آتاه الله الملك، ولندع القرآن يروي لنا أحداث هذه القصة:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ففي هذه المناظرة القصيرة التي جرت بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهذا الملك الجبّار، والتي قصها الله علينا في آية واحدة فقط، تتجلى صورة من صور الانتصار بالحجة والبيان، فسبحان من خلق الإنسان وعلمه البيان.

الصورة السابعة من صور الانتصار: الثبات على المنهج، لاسيما عند اشتداد الفتن:

فثبات المؤمن والداعي عند اشتداد الفتن من أعظم صور الانتصار.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

ومن أمثلة ذلك: ما حصل لنبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ لما دعته امرأة العزيز إلى نفسها، وهي مَن هي في المنصب والجمال، وهو في ريعان الشباب، كيف وقد غلّقت الأبواب، وقالت هيت لك! لكن يوسف ـ عليه السلام ـ ثبت ثبات الجبال، وقال: ﴿ .. مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣].

فثباته ـ عليه السلام ـ في مثل هذا الموقف من أروع صور الانتصار، وأشقّها على النفوس، وإن ترتب عليه ما ترتب من السجن وغيره، والنفس قد تصبر على الألم والأذى الجسدي، ولا تصبر على الشهوة والرغبة العارمة،

لاسيما شهوة الجنس.

ومن ذلك: ما حصل لأصحاب الأخدود، وقد خدت لهم الأخاديد، وأُضرمت فيها النيران، وخُيروا بين أمرين أحلاهما مر؛ إما الكفر أو أن يُلقَوا في هذه النيران الموقدة، فاختاروا الموت على الكفر[1]، وضربوا أروع الأمثلة في الثبات على الحق.

ومن ذلك أيضاً: ما حصل للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في فتنة خلق القرآن، وثباته العجيب والفريد في هذه المحنة التي أصبحت فيما بعد له منحة، حتى قيل: «إن الله ـ عز وجل ـ أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[2] وذلك لثباتهما وإصرارهما على قول الحق والعمل به، مع فقدان النصير والمعين سوى الله ـ عز وجل ـ.

ولقد كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يدرك حقيقة الانتصار ومفهومه الصحيح، فقد قال له رجل أيام المحنة: يا أبا عبدالله، ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟! فقال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة. وقلوبنا بعدُ لازمة للحق[3]. الله أكبر، ما أعظم فقه هذا الإمام، وما أجدره ـ رحمه الله ورضي عنه ـ بلقب إمام أهل السنة والجماعة.

---

(١) ربما قال قائل: لَمَ لم يتقوا هذه النار بإظهار الكفر مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ﴿.. إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦]؟ فالجواب: أن هذه الرخصة إنما هي من خصائص هذه الأمة دون سائر الأمم، بدليل قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه ابن ماجه: ج ١ ص ٣٧٧ وصححه الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل (ط ٣؛ بيروت: دار الآفاق الجديدة: ١٤٠٢هـ): ص ١١٠، والذهبي، سير أعلام النبلاء: ج ١١ ص ١٩٦.

(٣) مناقب الإمام أحمد: ص ٣١١.

والمقصود أن الثبات على المنهج من أعظم صور الانتصار، والله ـ عز وجل ـ إذا علم صدق العبد، وإخلاصه، ثبته وأعانه. فيوسف ـ عليه السلام ـ ثبته الله ـ عز وجل ـ بما أراه من برهان ربه، كما قال تعالى: ﴿.. وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ..﴾ [يوسف: ٢٤][1]، وقد بين الله ـ عز وجل ـ سبب تثبيته لنبيه يوسف ـ عليه السلام ـ فقال ـ سبحانه ـ: ﴿.. كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وأما الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فقد ثبته الله بكلمة عابرة، من أعرابي بسيط، فقد روى المروزي عن أحمد أنه قال: «ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر الذي وقعت فيه، أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق[2]، قال لي: يا أحمد، إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً. قال: فقوي قلبي»[3].

قال الله تعالى مؤكداً هذه الحقيقة: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ..﴾ [الأحزاب: ٢٤]، فالصادق يُجزى بصدقه، والعكس صحيح.

الصورة الثامنة: استجابة المدعوين كلهم أو جلهم للرسول، وإيمانهم به.

وهذه الصورة، من صور الانتصار الظاهر.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لنبي الله يونس ـ عليه السلام ـ وحاصل قصته أن الله ـ عز وجل ـ بعثه إلى أهل نينوى من أرض الموصل

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بقوله: ﴿.. لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ..﴾ فذكروا في ذلك أقوالاً. قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ بعد أن ساق هذه الأقوال: «ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك كان، من أي. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه..» جامع البيان: ج ٧ ص ١٨٩.

(٢) لعله موضع من المواضع.

(٣) مناقب الإمام أحمد: ص ٣١٢، ٣١٣.

بالعراق، فدعاهم إلى الله مراراً وتكراراً، لكنهم تأبوا عليه، فتوعدهم بالعذاب القريب، واستعجل الخروج من بين أظهرهم، غير صابر عليهم ولا ممهل لهم، فلما رأوا مقدمات العذاب ألقى الله في قلوبهم التوبة والإنابة، فكشف عنهم العذاب، وكان من أمر يونس ـ عليه السلام ـ ما كان، من ركوبه الفلك، وإلقائه في اليم، وسجنه في بطن الحوت، واعترافه بالخطأ ثم إخراج الله له من بطن الحوت، فأرسله الله إلى قومه، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فآمنوا به جميعاً(١) .

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

وهذه الصورة من الصور النادرة الوقوع، إذ الغالب وجود مكذبين من أقوام الرسل ـ عليهم الرسل ـ لكن الله ـ عز وجل ـ يمنّ على من يشاء من عباده.

الصورة التاسعة: تبوء الرسول أعلى المناصب بعد الابتلاء والامتحان، وإمساكه بزمام الأمور.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل ليوسف ـ عليه السلام ـ من توليه ملك مصر بعد أن مر بأطوار عدة من الابتلاء والأذى، ابتداءً من إلقائه في غيابة الجب، ثم بيعه بدراهم معدودة واسترقاقه، ثم ما ابتُلي به من كيد امرأة العزيز، ودخوله السجن على إثر ذلك، ولبثه فيه بضع سنين.. إلى أن مكنه الله في الأرض.

ومن ذلك أيضاً: ما من الله به على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ٢٣١، وابن سعدي، قصص الأنبياء: ص ٧٢، ٧٣.

من إيتائهما الملك والحكمة، وتسخير أصناف من المخلوقات لهما، فكانت تحت قهرهما وسيطرتهما.

فأما داود ـ عليه السلام ـ فقد كان جنديًّا من جنود طالوت ـ وهو من ملوك بني إسرائيل ـ وكان ـ عليه السلام ـ مخلصاً وشجاعاً، فقتل عدو الله جالوت، فأحبه بنو إسرائيل، واختاروه ليكون ملكاً عليهم، فآتاه الله الملك والحكمة، وعلّمه مما يشاء.

ثم ورثه سليمان ـ عليه السلام ـ حتى بلغ من ملكه أن خضع له جميع ملوك الأرض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الصورة العاشرة من صور الانتصار: أن يتهم الرسول في نفسه أو عرضه، فيُظهر الله براءته، ويكون ذلك سبباً لمحبة الناس له، وتعاطفهم معه.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لموسى ـ عليه السلام ـ من اتهامه بالزنى، وكذلك ما رُمي به من الأدرة. فبرأه الله من ذلك كله، وكان عند الله وعند الناس وجيهاً، وقد سبق الحديث عن ذلك مفصلاً[1].

الصورة الحادية عشرة: أن يوقّع الرسول أو الداعي مع عدوه معاهدة صلح؛ ظاهرها ذل واستسلام وانهزام، وحقيقتها نصر عزيز، وفتح مبين.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل من صلح الحديبية بين نبينا ﷺ وكفار قريش، ولأهمية هذا الحدث، واشتماله على كثير من الدروس والفوائد، أذكره بطوله كما ورد في الصحيح، فعن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم ـ رضي الله عنهما ـ يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم**[2]، **في خيل لقريش**

---

(١) انظر: ص ٢٩٧ و٣٠١ من هذا الكتاب.

(٢) الغميم: موضع بين رابغ والجحفة (الفتح: ج ٥ ص ٣٣٥).

طليعة[١] ، **فخذوا ذات اليمين»** فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرَة الجيش[٢] ، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**». ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً[٣] ، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري[٤] حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصحِ[٥] رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية[٦] ومعهم العُوذ المطافيل[٧] ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا**

---

(١) الطليعة: مقدمة الجيش. (السابق).

(٢) القترة: الغبار الأسود (السابق).

(٣) الثمد: حفيرة فيها مثمود، أي قليل، والتبرّض: الأخذ قليلاً، وقيل: جمع الماء بالكفين. (السابق ص ٣٣٦، ٣٣٧).

(٤) يجيش: يفور. (السابق).

(٥) العيبة: ما توضع فيه الثياب لحفظها، والمقصود أنهم موضع النصح له، والأمانة على سره. (السابق).

(٦) أعداد: جمع عد، وهو الماء الذي لا انقطاع له. (السابق).

(٧) العُوذ: جمع عائذ، وهي الناقة ذات اللبن. والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها. يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعوه. (السابق: ص ٣٣٨).

جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا[١]، وإن هموا أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفّذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هاتِ ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا[٢] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آتيه. قالوا: ائته، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبُديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس[٣] خليقاً أن يفرّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص ببظر اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال: مَن ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلّم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب

---

(١) جمّوا: استراحوا. (السابق).

(٢) بلّحوا: امتنعوا. (السابق).

(٣) أشواباً: أخلاطاً. (السابق).

يده بنعل السيف، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أيْ غُدَر، ألستُ أسعى في غدرتك. وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء**». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلِكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البدن، فابعثوها له**». فبعثت له، واستقبله الناس يلبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلّدت وأُشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مِكرَز بن حفص، فقال: دعوني آتيه. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «**هذا مكرز، وهو رجل فاجر**». فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النبي ﷺ: «**لقد سهُل لكم من أمركم**». فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «**بسم الله الرحمن**

الرحيم». قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**». ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**». فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبدالله**». قال الزهري: وذلك لقوله: «**لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**». فقال له النبي ﷺ: «**على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة(١) ، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد!**» قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلى فافعل**». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى**». قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**». قلت: فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟! قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا**

---

(١) أُخذنا ضغطة: أي قهراً.

نأتيه العام؟» قال: قلت: لا. قال: **«فإنك آتيه ومطّوف به»**. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟! قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«قوموا فانحروا ثم احلقوا»**. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ . .﴾ - حتى بلغ - ﴿. . بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ . .﴾ [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلْت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلّه الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جرّبت به، ثم جرّبت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى

المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعراً**». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: «**ويل أمّهِ، مِسْعَرَ حربٍ لو كان له أحد**». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ حتى بلغ: ﴿.. ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ..﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٦]. وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت»[1]. هذه هي قصة الصلح كاملة، وقد سماه الله فتحاً مبيناً.

قال الزهري - رحمه الله -: «فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس؛ فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[2].

قال ابن هشام - رحمه الله -: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط: ج ٢ ص ٩٤٧ - ٩٨٠. ومسلم (مختصراً) في كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية: ج ٥ ص ١٧٣ برقم ٩٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٣٢٢.

ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبدالله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»(١) .

الصورة الثانية عشرة: أن يبتلى الرسول ببلية في نفسه أو ماله أو ولده، فيطول بلاؤه حتى يشمت به أعداؤه، ويتخلى عنه أصحابه وأقرباؤه، ثم يكشف الله عنه هذا البلاء، ويعوضه الله عنه أضعاف ما فقده.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ . . ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لنبي الله أيوب ـ عليه السلام ـ حتى صار يضرب به المثل في الصبر، وقصته مع البلاء يطول ذكرها، لكني سأذكرها باختصار:

قال أهل السير: كان أيوب ـ عليه السلام ـ رجلًا كثير المال من كل صنف، كثير الأهل والولد، فسُلب ذلك كله، وابتلي بأنواع البلاء في جسده حتى لم يبق منه عضو سليم إلا قلبه ولسانه، فكان صابراً محتسباً، ذاكراً لله ـ عز وجل ـ راضياً بقضائه وقدره، فطال عليه البلاء حتى شمت به أعداؤه، وتخلى عنه أقرب أقربائه، وأخرج من البلد وألقي على مزبلة بعيدة عن البنيان، وانقطع عنه الناس إلا امرأته لم تزل تتردد عليه عرفاناً منها بجميله عليها وإحسانه إليها، فكانت تصلح من شأنه، وتقوم بمصلحته، وتعينه على قضاء حاجته حتى ضعف حالها، وقلّ مالها، فكانت تخدم بالأجر لتطعمه وتسد رمقه، وهي صابرة محتسبة على ما حل بها من المصيبة، بعد النعمة والحبرة، فلما طال عليهاالأمر قالت: يا أيوب، لو دعوت ربك لفرّج عنا. فقال: قد عشتُ سبعين سنة صحيحاً، فهو قليل لله أن أصبر سبعين سنة أخرى.

ثم إن الناس ـ لعلمهم أنها امرأة أيوب ـ رفضوا استخدامها، خوفاً

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

من أن تعديهم بسبب مخالطته، فعمدت إلى إحدى ضفيرتيها فحلقتها، وباعتها لبعض بنات الأشراف بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال لها: من أين لكِ هذا؟ فزعمت أنها خدمت به أناساً. فلما كان من الغد فعلت مثل ذلك بضفيرتها الأخرى، فلما جاءت بالطعام أنكره، وحلف ألا يأكله حتى تخبره من أين أتت به، فكشفت خمارها عن رأسها، فلما رآه محلوقاً لم يحتمل ذلك المنظر، وتوجه إلى ربه قائلاً: ﴿ . . أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ . .﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وذلك أنه ـ عليه السلام ـ كان يخرج في حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع إلى مكانه، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إليه وهو في مكانه أن: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢]، فامتثل أمر ربه، فأذهب الله ما به، وعاد أحسن مما كان، فاستقبلته امرأته فلم تعرفه، وقالت له: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. فما كادت تصدق ذلك.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم، وجعله مضرب المثل في الصبر والاحتساب[1].

أما أعداؤه الذين شمتوا به، فقد أخزاهم الله ـ عز وجل ـ ونصره عليهم، بما منّ عليه من الصحة والعافية، والمال الوفير والخير الكثير.

هذا ما ظهر لي من صور الانتصار، والمتأمل في هذه الصور يجد أنها جميعاً قد تحققت لخاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد ـ عليه وعلى إخوانه المرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ.

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٤. وانظر: الطبري، جامع البيان: ج ٩ ص ٥٥ ـ ٧٠. وقد ذكر ـ رحمه الله ـ إسرائيليات كثيرة، بعضها لا تطمئن إليه النفس، والله تعالى أعلم.

فإن الله ـ عز وجل ـ وإن لم يستأصل قومه المكذبين بالعذاب العام لما خصه به من ختم النبوة، وإرساله إلى الناس عامة، فإنه قد أهلك عدوه على وجه الخصوص كما في بدر وغيرها. ومن بقي منهم فقد اتّبعه وآمن به.

كما أن قومه قد تسلطوا عليه مراراً، وهموا بقتله، فأنجاه الله ـ عز وجل ـ بخوارق من عنده، ومن ذلك ما حصل يوم الهجرة من اجتماع المشركين عند بابه، وعزمهم على قتله بالسيف قتلة رجل واحد ليضيع دمه في القبائل، وخروجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بين أيديهم ـ وقد أعمى الله أبصارهم وألقى عليهم النعاس ـ ووَضْعِه ﷺ التراب على رؤوسهم تنكيلًا بهم[1].

أما انتقام الله له من عدوه بعد موته فإنه ﷺ لم يكن محتاجاً إلى ذلك وقد انتقم له منهم في حياته، ومع ذلك فقد انتقم الله له من أعدائه البعداء كالفُرْس والروم والمرتدين، فأهلكهم بأيدي أصحابه المؤمنين.

ولقد أوذي ﷺ من قبل المشركين حتى أجؤوه إلى الخروج من مكة، فكان ذلك سبباً لانتشار الدين، ودخول الناس فيه أفواجاً.

ثم سلطه الله على أعدائه فجاهدهم بالسيف وقاتلهم، فقتلهم، ومن نجا منهم: إما مات ذليلًا، أو آمن به وتابعه على دينه.

كما أن الله ـ عز وجل ـ قد نصره بالحجة والبيان، والدليل والبرهان، وأعظم ذلك ما جاء به من هذا القرآن الذي اشتمل على أروع البيان، وأوضح البرهان، حتى إنّ أعداءه من المجرمين مع ما أوتوا من الفصاحة والبلاغة، قد عجزوا عن الإتيان بسورة مثله.

أما ثباته ﷺ على الحق، فقد كان أثبت الناس قلباً، ويتجلى ذلك واضحاً يوم حنين، يوم أن ولّى أصحابه مدبرين، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكان ثباته ﷺ سبباً للنصر.

وأما استجابة قومه له، فيكفي أن من بقي من زعماء الكفر من

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٨٢، ٤٨٣.

أعدائه، قد آمنوا به واتبعوه على دينه، كأبي سفيان وغيره، كيف وقد أنزل الله عليه قبل موته بقليل قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢].

وأما تبوؤه أعلى المناصب، فإنه ﷺ كان هو الحاكم، والقاضي، والقائد، والمعلّم، والمربيّ، والقائم بجميع شؤون الدولة في المدينة بمؤازرة أصحابه الكرام، وذلك بعد أن كان مطارداً مطلوباً في مكة.

وأما التهم، فقد اتهم ﷺ في عرضه، وفي أحب أزواجه إليه الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ فجاءت البراءة من عند الله، في آيات تتلى إلى يوم القيامة، فأي انتصار أعظم من ذلك.

وأما توقيع معاهدة ظاهرها الذل والهزيمة، وهي في حقيقتها ومآلها نصر وفتح، فقد سبق قريباً ذكر حديث صلح الحديبية بطوله، وأن الله سماه فتحاً، وهذه الصورة من صور الانتصار، مما تفرد به نبينا محمد ﷺ فيما أعلم، والله تعالى أعلم، ولما كان ظاهر ذلك الذل، فقد وعده الله ـ عز وجل ـ بنصر آخر عزيز لا ذل فيه، فقال سبحانه: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣]، فكان هذا النصر العزيز هو فتح مكة.

وأما الابتلاء في النفس والمال والولد، فقد ابتلي ﷺ في نفسه بلاء عظيماً، وذلك يوم سُحر، فكان يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما فعله، حتى أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فرقاه، وأخبره بمكان السحر[1].

والمقصود أن جميع صور النصر قد تحققت لنبينا محمد ﷺ[2].

(١) قصة سحر النبي ﷺ ثابتة في صحيح البخاري، في أبواب الجزية والموادعة، باب: هل يُعفى عن الذمي إذا سحر: ج ٣ ص ١١٥٩ برقم ٣٠٠٤، وكتاب الطب، باب السحر: ج ٥ ص ٢١٧٤ برقم ٥٤٣٠.

(٢) يراجع في هذا الموضوع: ناصر العمر، حقيقة الانتصار (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١٢هـ): ص ١٣ ـ ٢٨، وعادل أبو العلا، الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف (ط ١؛ الرياض: من مطبوعات مكتبة الملك عبدالعزيز: ١٤١٦هـ).

المبحث الثاني
أسباب تأخر النصر وحِكَمه

قد سبق أن نصر الله لرسله وأوليائه حق أوجبه الله على نفسه، في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ . . وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]، لكن هذا النصر قد يؤخره الله ـ عز وجل ـ لحكمة يريدها سبحانه، حتى إن الحال ليصل بالرسل عليهم السلام ـ وهم المؤيدون بالوحي ـ إلى استبطاء النصر: ﴿ . . حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ . . ﴾ [البقرة: ٢١٤].

بل ربما حدثتهم أنفسهم ـ بسبب تأخر النصر ـ أنهم قد كُذبوا، وحينئذ يتنزل النصر في وقته الذي قرره الله ـ عز وجل ـ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١١٠].

أما أسباب تأخر النصر فهي كثيرة، وقد ظهر لي منها ـ بعد التتبع والنظر والرجوع إلى ما كتبه أهل العلم[1] ـ ما يلي:

١ ـ الانحراف عن المنهج.

٢ ـ استخراج عبودية المؤمنين.

٣ ـ تمييز الخبيث من الطيب.

٤ ـ التمحيص والتخليص.

---

(١) قد أفدت كثيراً في هذا الموضوع مما كتبه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»: ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها، وكذا ما كتبه سيد قطب ـ رحمه الله ـ في كتابه «في ظلال القرآن» ج ٤ ص ٢٤٢٦، ٢٤٢٧.

٥ ـ عدم اكتمال بنية الأمة.
٦ ـ عدم استنفاد الأمة كافة قواها وطاقاتها المذخورة.
٧ ـ عدم تجرد الأمة في بذلها وتضحياتها لله.
٨ ـ عدم تمحض الشر.
٩ ـ عدم انكشاف الباطل.
١٠ ـ عدم صلاحية البيئة المحيطة لاستقبال الحق وتقبله.
١١ ـ تقصير الأمة في صلتها بربها وخالقها ـ عز وجل ـ.

التفصيل:

أولاً: الانحراف عن المنهج الحق:

قال تعالى لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿. . فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

إن الانحراف عن المنهج الحق سبب رئيس من أسباب تأخر النصر. والمقصود بالانحراف هنا: الانحراف غير المتعمد، وهو الناتج: إما عن تقصير في طلب الحق والبحث عنه، وإما عن خطأ في تصوره وفهمه، وما أكثر ما يحدث ذلك، لاسيما في دعوات غير الرسل. لذا حرص أتباع الرسل على مراجعة مناهجهم، وتفقدها بين الفينة والأخرى لضمان استقامتها، وسلامتها من الزيغ والانحراف والتصورات الخاطئة، فإن المرء ربما اجتهد فظن أنه على صواب، وهو على خطأ، وإن كان هذا لا يعفيه من تحمل التبعات المترتبة على خطئه وتقصيره، ومنها تأخر النصر. وهذا هو السر في أن بعض الدعوات على الرغم من قدمها وكثرة ما تبذله من جهود مخلصة في الدعوة إلى الله، لم تحقق صورة واحدة من صور النصر، بل ربما كانت سبباً في تشويه صورة الحق، وتنفير الناس من اتّباعه، أو جرهم إلى هاوية الضلال والانحراف.

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك: الخوارج[١]، فإنهم كانوا من أزهد الناس وأكثرهم عبادة وورعاً وخوفاً من الله ـ عز وجل ـ، حتى إن النبي ﷺ قال في وصفهم: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم..**» لكن انحرافهم إنما جاء عن طريق جهلهم وفساد تصوراتهم، ولهذا جاء في تمام الحديث السابق: «**يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..**»[٢]، فهم يقرؤون القرآن لكنهم لا يفهمون كثيراً من معانيه، فيؤدي بهم ذلك إلى المروق من الدين وهم لا يشعرون، ولهذا شُبِّه مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد فيخترقه ويخرج منه دون أن يعلق به شيء منه، لسرعة دخوله وخروجه. وقد جاء وصفهم في بعض الروايات بأنهم: «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**»، وأن «**سيماهم التحالق**»[٣] أي حلق الرؤوس[٤]، وما ذاك

---

(١) الخوارج فرقة من فرق أهل الضلال، وهي من أول الفرق ظهوراً، من أبرز معتقداتهم: التكفير بالكبيرة، وقد كفّروا أصحاب رسول الله ﷺ، وخرجوا على علي ـ رضي الله عنه ـ فقاتلهم فقتلهم، ولهذا سمّوا الخوارج. (انظر: الشهرستاني، الملل والنحل (ط ١؛ مصر: مكتبة الأنجلو المصرية: ١٩٧٧م): ص ١١٨ ـ ١٢٣.

(٢) الحديث بتمامه أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ج ٣ ص ١٣٢١ برقم ٣٤١٣، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم: ج ٣ ص ١١٢، ١١٣ برقم ١٤٨.

(٣) صحيح مسلم: التخريج السابق.

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ج ص ١٦٧. قال النووي ـ رحمه الله ـ: «واستدل بعض الناس على كراهية حلق الرأس. ولا دلالة فيه، وإنما هو علامة لهم، والعلامة قد تكون بحرام، وقد تكون بمباح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «...وأما حلقه لغير ذلك [أي لغير الحج والعمرة أو لعذر] فقد تنازع العلماء في إباحته وكراهته نزاعاً معروفاً على قولين، هما روايتان عن أحمد. ولا نزاع بين علماء المسلمين وأئمة الدين أن ذلك لا يشرع ولا يستحب، ولا هو من سبيل الله وطريقه، ولا هو من الزهد المشروع للمسلمين، ولا مما أثنى الله به على أحد من=

وقد خرجوا على علي ـ رضي الله عنه ـ فقاتلهم فقتلهم، وكانوا شجعاناً وأبطالاً، لكن الله ـ عز وجل ـ لفساد تصوراتهم وانحراف منهجهم ـ قد خذلهم، وكانت طائفة منهم قد رجعت إلى الحق وانقادت له بعدما تبين لها جليًّا واضحاً، فنجت من القتل، وكانت مع الطائفة المنصورة.

ثانياً: استخراج عبودية المؤمنين لربهم: وذلهم له، وانكسارهم بين يديه، وافتقارهم إليه، وتضرعهم إليه بطلب النصر، وهذا كله ما كان ليحصل لو أن النصر جاء سريعاً، بل ربما حصل ضده، من البطر والأشر والغرور، وغير ذلك مما لا يحبه الله. ويمقته، فاقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يتأخر النصر لذلك ولغيره.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حصل لموسى ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين، فإن الله ـ عز وجل ـ قد أخر عنهم النصر على فرعون وملئه، مع ظهور الحق ووضوحه، فكان موسى ـ عليه السلام ـ يصبّر قومه ويسلّيهم بمثل قوله: ﴿. . ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ

= الفقراء. ومع هذا فقد اتخذه طوائف من النساك الفقراء والصوفية ديناً، حتى جعلوه شعاراً وعلامة على أهل الدين والنسك والخير والتوبة، والسلوك إلى الله المشير إلى الفقر والصوفية، حتى إن من لم يفعل ذلك يكون منقوصاً عندهم، خارجاً عن الطريقة المضلة المحمودة عندهم، ومن فعل ذلك دخل في هديهم وطريقتهم. وهذا ضلال عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين، واتخاذ ذلك ديناً وشعاراً لأهل الدين من أسباب تبديل الدين، بل جعله علامة على المروق من الدين أقرب، فإن الذي يكرهه ـ وإن فعله صاحبه عادة، لا عبادة ـ يحتج بأنه من سيماء الخوارج المارقين الذين جاءت الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ بذمهم من غير وجه، ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «سيماهم التحليق»، فإذا كان هذا سيماء أولئك المارقين وفي المسند والسنن عن النبي ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» كان هذا على بعده من شعار أهل الدين أولى من العكس» (الاستقامة (ط ١؛ الرياض: من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: ١٤٠٣هـ): ج ١ ص ٢٥٦).

عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فلما طال الانتظار، واشتد الأذى، وبلغ السيل الزبى، دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه قائلًا: ﴿.. رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وكان هارون ـ عليه السلام ـ يؤمن على دعاء موسى، فقال الله تعالى: ﴿.. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، فكان ذلك إيذاناً بالفرج وتحقق النصر، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

فتأمل هذا الدعاء الذي دعا به موسى ـ عليه السلام ـ ربه، وتكراره كلمة (ربنا) فيه ثلاث مرات، مما يدل على شدة تضرعه وانكساره بين يدي ربه، واضطراره إليه، ومثل هذا العمل: يحبه الله ـ عز وجل ـ ويجازي عليه. والله تعالى أعلم.

ثالثاً: تمييز الخبيث من الطيب:

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ..﴾ [الأنفال: ٣٧].

فلو كان النصر رخيصاً وعاجلًا، لدخل مع المؤمنين من ليس منهم، ممن قصده الدنيا والجاه والمكاسب العاجلة، فشاءت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يتأخر النصر ليتميز المؤمن الصادق، من الدعي الكاذب. وكلما تأخر النصر، ازداد عدد المتساقطين على طريق الحق وانكشف أمرهم، فلا يبقى في آخر الطريق إلا من يستحق النصر، وهذه سنة من سنن الله ـ عز وجل ـ في الدعوات.

رابعاً: تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين:

التمحيص إنما يكون بعد التمييز والفصل، وهي «عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونات، تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق، بلا غبش ولا ضباب»[١] . فالله ـ عز وجل ـ قد يمتحن عباده المؤمنين بتأخير النصر، وربما بإدالة عدوهم عليهم، ليمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أُحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢].

فذكر الله في هذه الآيات أنواعاً من الحِكَم التي من أجلها أُديل عليهم الكفار، منها: «تمحيص المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل عليهم العدو بسببها، وأنه ـ مع ذلك ـ يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم ظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته ـ سبحانه ـ تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم»[٢] .

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ١ ص ٤٨٢.

(٢) إغاثة اللهفان: ج ٢ ص ١٩٠، ١٩١. (باختصار وتصرف).

خامساً: عدم اكتمال بنية الأمة وتمام نضجها:

إن النصر قد يتأخر لأن بنية الأمة المؤمنة لما تكتمل بعد، ولما تنضج النضج المطلوب الذي يؤهلها لاستحقاق النصر، فلو نالته حينئذ لفقدته وشيكاً، لعجزها عن حمايته والمحافظة عليه طويلًا. ولهذا جاء الأمر للرسول ﷺ والمؤمنين في مكة قبل الهجرة بأن: ﴿. . كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ . .﴾ [النساء: ٧٧]. فلما اكتملت بنية الأمة المؤمنة، وصار لها كيان مستقل، جاء الأمر بالقتال، وتحقق النصر بإذن الله تعالى.

سادساً: عدم استنفاد الأمة كافة قواها وطاقاتها المذخورة:

إن النصر قد يتأخر لأن الأمة المؤمنة لم تبذل كل ما في طوقها من قوة، ولم تستنفد كافة طاقاتها المذخورة، فلا يتنزل النصر حتى تبذل الأمة آخر ما في طوقها، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً لا تبذله رخيصاً في سبيل الله، وحتى تجرب آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله ـ عز وجل ـ وتأييد منه، لا تكفل النصر، عندئذٍ تكل الأمر كله لله وحده، ليفعل ما يشاء ـ سبحانه ـ ويحكم ما يريد.

سابعاً: عدم تجرد الأمة في جهادها لله:

قد يتأخر النصر لأن الأمة المؤمنة لما تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ـ عز وجل ـ فهي تبذل وتقاتل لمغنم تحققه، أو حمية لذاتها، أو شجاعة أمام أعدائها، أو لغير ذلك من المقاصد الدنيوية العاجلة، والله ـ عز وجل ـ يريد أن يكون البذل والجهاد له وحده وفي سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، لاسيما إذا غلبت على المقصد الأساس أو كانت مساوية له، وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل**

لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[١] .

ولهذا السبب ـ ولغيره ـ حُجب النصر عن المؤمنين يوم أحد، وكشف الله ـ عز وجل ـ عما في قلوبهم فقال تعالى: ﴿ . . مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ . . ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ . . ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فإنهم لما رأوا انهزام المشركين في أول الأمر، تسابقوا إلى جمع الغنائم، وخالف الرماة أمر رسول الله ﷺ بلزوم أماكنهم على الجبل، فالتف المشركون عليهم، وكانت الهزيمة.

ثامناً: عدم تمحّض الشر:

إن من أسباب تأخر النصر أن يكون في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله ـ عز وجل ـ أن يجرده منه ليتمحض الشر خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير، وحين يتمحض الشر خالصاً فلا تبقى فيه بقية من خير، يكون النصر وشيكاً بإذن الله تعالى.

وقد تقتضي حكمة الله ـ عز وجل ـ لسبب أو لآخر ـ تعجيل النصر، ولو كان في الشر بقية من خير، فيحاسب الله كلًّا بحسب نيته، كما ثبت في الصحيحين، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم»**. قالت: قلت يا رسول الله، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: **«يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نياتهم»**[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾: ج ٦ ص ٢٧١٤ برقم ٧٠٢٠، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: ج ٦ ص ٤٦ برقم ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب ما ذُكر في الأسواق: ج ٢ ص ٧٤٦ برقم=

ولعل الحكمة في تعجيل النصر هنا قبل تمحّض الشر: حاجة المؤمنين إلى النصر العاجل الذي لا يحتمل التأخير، بدليل ما ورد في بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال: «**سيعوذ بهذا البيت ـ يعني الكعبة ـ قوم ليست لهم منعة ولا عدد ولا عدّة، يُبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم**»[1]، والله تعالى أعلم.

تاسعاً: عدم انكشاف الباطل وظهوره على حقيقته:

فقد يكون الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لما ينكشف زيفه للناس بعدُ، فلو ظهر عليه الحق حينئذ فلربما وجد له أنصاراً من المخدوعين به، ممن لم يقتنعوا بعدُ بفساده وضرورة زواله، فتظل جذوره باقية في النفوس، فيشاء الله ـ عز وجل ـ أن يتأخر النصر، ويبقى الباطل منتفشاً حتى يظهر زيفه، وينكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من أحد.

فإن قيل: فكيف يخفى زيف الباطل على كثير من الناس، مع وضوح الحق، وظهوره؟

فالجواب: إن أهل الباطل أذكى من أن يعلنوا عن باطلهم بصراحة، فيسلكون لذلك طرقاً ملتوية، ويرفعون شعارات براقة مضللة كما قال تعالى: ﴿.. وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..﴾ [الأعراف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿.. **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ..﴾ [الأنعام: ١١٢]، وربما أوحوا إلى الناس ـ بأساليبهم الماكرة ـ أن ما هم عليه وما يدعون إليه من الباطل هو الحق، وأن الحق هو الباطل، فيُلبّسون على الناس، ولولا ذلك ما وجد الباطل له أتباعاً.

لكن هذا الزيف ـ وإن خفي على الناس زمناً ـ فإن الزمن نفسه مع

= ٢٠١٢، ومسلم في كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت: ج ٨ ص ١٦٧ برقم ٤.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. انظر التخريج السابق.

جهود المخلصين من أهل الحق كفيلان بكشف هذا الزيف، وفضح أهله والداعين إليه، وعندها يتنزل النصر بإذن الله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

عاشراً: عدم صلاحية البيئة المحيطة بالحق لاستقباله وتقبّله:

قد يتأخر النصر لأن البيئة التي يعيش فيها الحق غير صالحة ولا مهيأة لاستقباله وتقبله والرضى به منهجاً للحياة، فلو تحقق النصر حينئذ للقي الحق معارضة شديدة لا يستقر له معها قرار، ولربما انعكس الحال، فعاد الباطل أقوى مما كان. فلابد من اختيار البيئة المناسبة واستصلاحها، وتهيئة النفوس قبل ذلك لاستقبال الحق والرضى به.

وأوضح مثالاً على ذلك: المجتمعان؛ المكي والمدني. ففي المجتمع المكي قبل الهجرة لم تكن البيئة صالحة لاستقبال الحق، فكان الرسول والمؤمنون مأمورين بالصبر وضبط النفس وكف الأيدي، فلما وُجدت البيئة المناسبة في المجتمع المدني، وتهيأت النفوس فيها لاستقبال الحق، حتى لم يبق بيت في المدينة إلا دخله الإسلام، تحقق النصر بإذن الله ـ عز جل ـ.

حادي عشر: تقصير الأمة المؤمنة في صلتها بربها:

إن النصر قد يتأخر لوجود قصور في علاقة الأمة بربها، فيتأخر النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بربها وخالقها وهي تعاني وتبذل وتتألم، ولا تجد لها سنداً ولا ملجأ في الضراء إلا الله وحده، «وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن الله به، فلا تطغى، ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله»[1]، فكم من أمة عُجّل

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ٤ ص ٢٤٢٧.

لها النصر، فحملها ذلك ـ لضعف صلتها بالله ـ على البغي والعدوان، والغرور والعجب، ومن ثم الانحراف عن النهج القويم والصراط المستقيم والانصراف عنه.

هذه هي الأسباب التي من أجلها قد يتأخر النصر عن الأمة المؤمنة ـ حسب ما ظهر لي، وما وقفت عليه من كلام أهل العلم ـ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المبحث الثالث
شروط تحقق النصر

كما أن للنصر صوراً، ولتأخره أسباباً، فإن لتحققه شروطاً لابد من توافرها.

وقبل الحديث عن هذه الشروط، لابد من ذكر مقدمتين:

الأولى: أن النصر بيد الله وحده، لا بيد غيره، ومن عنده وحده، لا من عند أحد سواه، قال تعالى: ﴿. . وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وحسب المؤمن الصادق أن يبذل ما في وسعه لنصرة دين الله وإعلاء كلمته، سواء تحقق له النصر أو لم يتحقق، وسواء تحقق على يديه أو على يدي غيره، كما قال الشاعر:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المقاصد[١]

فالمؤمن مطالب بالعمل ومسؤول عن ذلك، أما النتائج فأمرها موكول إلى الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى لنبيه ﷺ الذي تحققت على يديه جميع صور النصر: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، فلا ارتباط بين العمل والنتيجة لاسيما في الدعوة إلى الله، ولذا يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، كما سبق في الحديث الشريف[٢].

وكم أدى هذا المفهوم الخاطىء (ربط العمل بالنتائج) إلى تقاعس كثير

---

(١) لم أقف على قائله ووقفت على بيت بمعناه للوليد بن هشام يقول فيه:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه أن يساعده الدهر

(انظر: عبدالكريم الحقيل، منهل المستفيد من الشعر المفيد (ط ١؛ ١٤١٢هـ): ص ٨٣.

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص ٢٥٢ من هذا الكتاب.

من الدعاة، وقعودهم عن الدعوة إلى الله، أو تنازلهم عن شيء من أساسيات هذا الدين أو مسلماته التي لا تقبل المساومة، استعجالاً للنصر الذي لا يأتي إلا في وقته الذي حدده الله، وفي قصة يونس ـ عليه السلام ـ التي سبق ذكرها[1] عبرة لهؤلاء المستعجلين.

المقدمة الثانية: أن النصر قد لا يتحقق عبر جيل واحد من أجيال الأمة المؤمنة، فتتعاقب على تحقيقه أجيال عدة، وقد مات عدد من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يدركوا انتصارات المسلمين أو بعضها، مع أنهم كانوا من أوائل من ساهم في تحقيقها، منهم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومصعب بن عمير، وحمزة بن عبدالمطلب، وغيرهم ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ بل إن النبي ﷺ نفسه قد مات قبل أن يدرك انتصارات المسلمين الحاسمة في مثل معركة اليرموك، والقادسية، وغيرهما من المعارك الفاصلة التي كان لها شأن في تاريخ الإسلام.

فإذا استشعر المؤمن هذه الحقيقة، لم يضعف، ولم يهن، ولم يتوان عن القيام بواجبه في الدعوة انتظاراً للنتيجة.

شروط تحقق النصر:

لقد تأملت كتاب الله ـ عز وجل ـ فيما يتعلق بهذا الأمر، فظهر لي أن النصر نوعان:

النوع الأول: ظاهر لا خفاء فيه.

والنوع الثاني: غير ظاهر.

فالظاهر ـ في الغالب ـ ينتهي بتمكين الدعاة ـ من الرسل وأتباعهم ـ في الأرض، وإهلاك أعدائهم أو قهرهم وكبتهم.

وأما غير الظاهر فعلى الضد من ذلك، فهو ينتهي ـ في الغالب ـ إما بمقتل الدعاة، أو قهرهم وإذلالهم، وتمكين أعدائهم في الظاهر.

---

(١) انظر: ص ٥٤٣ من هذا الكتاب.

فالنصر الظاهر والتمكين في الأرض صنوان لا يفترقان في الغالب، وقد ورد ذكر التمكين في كتاب الله ـ عز وجل ـ في عدة مواضع، وجعل الله للنصر شروطاً قبل التمكين وبعده، فأما التي قبل التمكين، فهي:

١ ـ تحقيق التوحد الخالص لله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ نصرة دين الله ـ عز وجل ـ والتضحية في سبيله.

٣ ـ الصبر والتقوى.

٤ ـ بذل الأسباب الممكنة والمشروعة.

وأما التي بعد التمكين فهي:

١ ـ إقامة الصلاة.

٢ ـ إيتاء الزكاة.

٣ ـ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ومعنى كون هذه الشروط بعد التمكين، أي أنها مأخوذة في الحسبان في خطط الدعاة ومقرراتهم ومناهجهم، وإلا فإنهم غير جديرين بالنصر والتمكين، ومن تأمل مناهج بعض الدعوات وخططها، وجدها خلو من مثل هذه الركائز الأساسية التي لا يتحقق التمكين إلا بتحقيقها؟![1].

التفصيل:

أولاً: الشروط قبل التمكين:

الشرط الأول: تحقيق التوحيد الخالص لله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا . . ﴾ [النور: ٥٥].

ففي قوله تعالى: ﴿. . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . . ﴾ دليل

---

(١) انظر: صالح الدرويش، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواقع المسلمين اليوم (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١٢هـ): ص ٣١.

على أن العبادة وحدها لا تكفي ما لم تكن مبنية على التوحيد الخالص لله تعالى.

كما أن فيها دليلًا على أن تحقيق التوحيد قولاً وعملًا، شرط للاستخلاف والتمكين في الأرض وتحقق النصر[1].

ولما كانت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ أعظم الأعمال بعد التوحيد، أعقب ذلك بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

ففي إقامة الصلاة توثيق الصلة بالله، وفي إيتاء الزكاة توثيق الصلة بالمؤمنين، وفي طاعة الرسول ﷺ الفوز والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة.

وقد أغفل كثير من المنتسبين إلى الدعوة قديماً وحديثاً هذه القضية الأساسية (قضية التوحيد) فجمعوا في صفوفهم أصنافاً شتى ما بين ملحد وقبوري ومبتدع وماجن، بل لم تخل مناهج بعضهم من إقرار للشرك والطاغوت، ورضى به، واعتراف بكيانه بحجة مصلحة الدعوة، والدعوة براء من ذلك، ولأهمية هذه القضية جاء التأكيد عليها مراراً في كتاب الله، كقوله تعالى لسيد المرسلين، وإمام الموحدين نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، فتحقق النصر متوقف على تحقيق هذا الأمر العظيم.

الشرط الثاني: نصرة دين الله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى: ﴿.. وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص ٣٠٠، والشوكاني، فتح القدير: ج ٤ ص ٥٦.

فنصرة دين الله ـ عز وجل ـ والتضحية في سبيله، شرط من شروط تحقق النصر وتحقيقه، وإلا فكيف يتنزل النصر على الكسالى والقاعدين والعاطلين! وكيف يتنزل النصر على من يرى دين الله يمتهن، وحرماته تستباح وتنتهك، وهو ساكن ساكت، بارد القلب، لم يغضب لله، ولم يتحرك نصرة لدين الله؟! إن مثل هذا غير جدير بالنصر والتمكين.

ولربما قال قائل: أليس هذا الدين دين الله؟ ثم أليس الله على كل شيء قدير؟ فلم لا ينتصر هذا الدين دائماً وفي كل الأحوال والظروف، نصراً عزيزاً ظاهراً يراه الجميع ويدركه الجميع؟ ولِمَ ينهزم أصحابه أحياناً وهم على الحق، ويكون النصر حليف أعدائهم من الكفرة والمشركين؟

والجواب: إن هذا القول لا يصدر إلا من أحد اثنين: إما جاهل لم يدرك بعدُ طبيعة هذا الدين، أو متجاهل ليبرر كسله وقعوده عن نصرة هذا الدين.

إن هذا الدين وإن كان منهجاً إلهيًّا من عند الله ـ عز وجل ـ إلا أنه موضوع للبشر، وفي حدود طاقاتهم وإمكاناتهم البشرية المحدودة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ . . ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فهو لا يتحقق إلا بجهد البشر أنفسهم، وإن من الخطأ انتظار الخوارق الإلهية لتحقق النصر دون بذل الأسباب المشروعة لنصرة هذا الدين.

وهذا ما أراد الله ـ عز وجل ـ أن يتعلمه المؤمنون في غزوة أحد لما غفلوا عن هذه الحقيقة المهمة، فإنهم قد ظنوا أنهم ماداموا على الحق، وعدوهم على الباطل أنهم لن يُهزموا أبداً، فإذ بهم يفاجؤون بمثل هذه الهزيمة التي لم يحسبوا لها أي حساب، وإذا بالقرآن ينزل ليلامس جراحهم، ويجلّي لهم هذه الحقيقة: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ولقد تعلم المؤمنون هذه الحقيقة في هذه الغزوة، تعلموها «لا بالكلام وحده، ولا

بالعتاب، ولكن بالدماء والآلام، وبعد أن دفعوا الثمن غالياً: هزيمة بعد نصر، وخسارة بعد غنم، وشهداء كراماً فيهم سيد الشهداء حمزة ـ رضي الله عنه ـ وأغلى من ذلك كله وأشد وقعاً: جَرْحُ رسول الله ﷺ، وشجّ وجهه الكريم، وكسر رباعيته في فمه، ووقوعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش، مكيدة للمسلمين. . »[1] ، تعلّم المؤمنون هذا الدرس فاتضحت لهم الرؤية، وبانت لهم الحقيقة، حتى وقف الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ في مؤتة يقول لأصحابه: «يا قوم، إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. . ، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خُلْف، وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنة»[2] .

إذاً فليس النصر الظاهر يكون دائماً، فالشهادة في سبيل الله نصر، وهذا ما أراد عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ أن يقول لأصحابه في ذلك الموقف العصيب.

الشرط الثالث: الصبر والتقوى:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا . . ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى حكاية عن يوسف ـ عليه السلام ـ لما تولى الملك: ﴿ . . إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) سيد قطب، هذا الدين (ط ٧؛ بيروت: دار الشروق: ١٤٠٢هـ): ص ١١ (باختصار وتصرف يسير).

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ج ٣ ص ٣٧، والواقدي: ج ٢ ص ٧٦٠. وانظر: محمد باشميل، غزوة مؤتة (ط ٢؛ بيروت: دار الفكر: ١٣٩٤هـ): ٢٧١.

وقد سبق حديث خباب ـ رضي الله عنه ـ[1] ، وقول النبي ﷺ: «**لقد كان من قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد . .** » إلى قوله: «**ولكنكم تستعجلون**» ، فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا الحديث أن الصبر هو الطريق إلى النصر والتمكين.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده[2] ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «**يا غلام ـ أو يا غليم ـ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟** فقلت: بلى. فقال: **احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه. وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**».

قد تضمن هذا الحديث الجليل عدداً من التوجيهات النبوية الكريمة، الشاهد منها فيما يتعلق بما نحن فيه: قوله: «**واعلم أن النصر مع الصبر**». وأما التقوى فقد أشار إليها في أول الحديث بقوله: «**احفظ الله يحفظك**» وهذه هي حقيقة التقوى.

وكثيراً ما يقرن الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم بين الصبر والتقوى، كقوله تعالى: ﴿. . وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا . .﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿. . وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

---

(١) انظر: ص ٣٤٩ من هذا الكتاب.

(٢) ج ١ ص ٣٨٢ برقم: ٢٨٠٣. وصحح إسناده أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على المسند، مع كلام له حول أسانيد هذا الحديث (انظر: المسند بتعليق أحمد شاكر: ج ٤ ص ٢٨٦، ٢٨٧).

[آل عمران: ١٨٦]، والسر في ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن المؤمن قد يصبر بادىء ذي بدء، ثم يطول عليه الأمر، فيحمله ذلك على التسخط والجزع وعدم الرضى بقضاء الله وقدره، وربما حمله ذلك على الإخلال بالمنهج، أو التخلي عنه، ولا عاصم من ذلك إلا تقوى الله ـ عز وجل ـ فكانت قرينة الصبر في كتاب الله ـ عز وجل ـ.

وقد ورد الأمر بالصبر في مواضع كثيرة من كتاب الله ـ عز وجل ـ منها قوله تعالى: ﴿ . . فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ويلاحظ أن جل الآيات التي ورد فيها الأمر بالصبر، هي في الصبر على أذى المجرمين وتكذيبهم وعنادهم[١]، وهو من أهم ما يحتاجه الداعي للانتصار على عدوه.

الشرط الرابع: بذل الأسباب الممكنة:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ . .﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالنصر لا يتحقق إلا ببذل ما يمكن من الأسباب المشروعة.

والناس في ذلك طرفان ووسط، فمنهم من أعرض عن الأسباب بالكلية، أو نفى تأثيرها. ومنهم من انقطع إليها وجعل تعلقه بها ولو كانت غير مشروعة، وعندهم أن الغاية تبرر الوسيلة وهؤلاء جميعاً لا شك في ضلالهم، ومن الناس من جعل توكله على الله وحده مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وهؤلاء هم الموفّقون، وهم أهل الحق[٢].

---

(١) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٤٠٠.

(٢) انظر: ناصر بن عبدالكريم العقل، مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة (ط ١؛ الرياض: دار الوطن: ١٤١٣هـ): ص ٢٤.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلًا، وإنما يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿. . وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ . . ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكثير ممن لا تحقيق عنده ولا رسوخ في العلم، يستشكل هذا، ويتكايس في الجواب، تارة بأن هذا فعله تعليماً للأمة، وتارة بأن هذا كان قبل نزول الآية!. . . ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة لا ينافي تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلّف، فإن هذا الضمان له من ربه ـ تبارك وتعالى ـ لا يناقض احتراسه من الناس، ولا ينافيه. كما أن إخبار الله ـ سبحانه ـ له بأنه يُظهر دينه على الدين كله ويُعليه، لا يناقض أمره بالقتال، وإعداد العدّة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد، والحذر والاحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحرب، والتورية. . . وذلك لأن هذا إخبار من الله ـ سبحانه ـ عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مفضية إلى ذلك، مقتضية له، وهو ﷺ أعلم بربه، وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه. . » إلى آخر ما ذكره رحمه الله تعالى[1] .

أما الأسباب المشروعة لتحقيق النصر فهي كثيرة، وهي إما قولية، أو فعلية.

فأما القولية، فمنها:

١ ـ الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم

(١) زاد المعاد: ج ٣ ص ٤٨٠، ٤٨١.

بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ . . ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويدخل في ذلك الدروس والمحاضرات والخطب النافعة المنضبطة بضوابط الشرع، كما يدخل في ذلك المناظرات والمحاورات الهادفة التي تجرى مع خصوم هذا الدين، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

٢ ـ الدعاء والتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ . . ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. فكان دعاؤهم سبباً لتحقق النصر.

ومن ذلك دعوات الرسل ـ عليهم السلام ـ على أقوامهم، وقد سبق الحديث عن ذلك(١).

لكن الدعاء وحده بلا فعل الأسباب الأخرى قد لا يفيد شيئاً، وإلا لقعد الناس عن العمل، واكتفوا بالدعاء!

وأما الفعلية، فمنها:

١ ـ الأسوة الحسنة:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فللأسوة الحسنة دورها الفعال في صلاح الأمة واستقامتها، ومن ثم انتصارها على عدوها، فإن الناس يتأثرون بالأفعال أضعاف تأثرهم بالأقوال.

٢ ـ التربية والتعليم:

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ

---

(١) انظر: ص ٤٦٢، ٤٦٣ من هذا الكتاب.

ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ . . ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والربّاني هو الفقيه العالم(١) .

وقال بعض السلف: الرباني: الذي يربيّ الناس بصغار العلم قبل كباره(٢) .

وقيل: هو العالم الحكيم الناصح لله في خلقه(٣) .

وهذه الأقوال متقاربة، والمقصود أن الأمة بحاجة ماسة إلى هؤلاء الفقهاء الناصحين، والعلماء المربين، ولن يتحقق النصر للأمة ما لم تترب على أيدي أمثال هؤلاء الربانيين تربية إسلامية صحيحة.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله:

وهو ذروة سنام الدين، كما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»(٤) .

وفي لفظ آخر: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟: الجهاد**»(٥) .

فجعل الجهاد جامعاً لكل ذلك، ويمكن الجمع بين الروايتين ـ إن كان اللفظ الثاني محفوظاً ـ بأن يقال: إن الإسلام والصلاة من مستلزمات الجهاد في سبيل الله، فلا يقوى على الجهاد إلا من كان مسلماً مصلياً، بل لا يعد مجاهداً في سبيل الله من ليس كذلك، والله تعالى أعلم.

ولفظ الجهاد عام يدخل فيه كل أنواع الجهاد، ومن أعظمها: جهاد

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان: ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ج ٢ ص ٥٣٠.

(٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: ج ٥ ص ١١ برقم ٢٦١٦. وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي: ج ٢ ص ٣٢٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة: ج ٢ ص ٣٧٣ برقم ٤٠٢١. وصححه الألباني كذلك، كما في صحيح سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٣٥٩.

الأعداء بالسيف والسنان، وهو القتال، وهو من أعظم أسباب تحقق النصر، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ..﴾ [التوبة: ١٤]، وعلى الضد من ذلك فإن ترك الجهاد في سبيل الله من أسباب الذل والهوان، كما في السنن، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تبايعتم بالعينة[١]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[٢].

ثانياً: الشروط بعد التمكين:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

الشرط الأول: إقامة الصلاة:

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي الصلة بين العباد وبين ربهم ـ جل وعلا ـ فإقامتها، والعناية بها، دليل على الصدق والإخلاص، ولهذا لما ذكر رسول الله ﷺ الحكام، وذكر شرارهم، قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: أفلا ننابذهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم**

---

(١) العينة: هي أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها نقداً من المشتري بثمن أقل، قبل قبض الثمن الأول. (انظر: موفق الدين ابن قدامة، المغني (ط ٢؛ مصر: المكتبة السلفية: ١٣٤٧هـ): ج ٤ ص ٢٥٦، ٢٥٧، وسعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً (ط ١؛ دمشق: دار الفكر: ١٣٩٢هـ) مادة «عين». وقيل: هي أن يأتي الرجل رجلاً ليستقرضه، فلا يرغب المقرض في الإقراض طمعاً في الفضل الذي لا ينال بالقرض، فيقول: أبيعك هذا الثوب باثني عشر درهماً إلى أجل، وقيمته عشرة، ويسمى عينة لأن المقرض أعرض عن القرض إلى بيع العين. (الجرجاني، التعريفات (ط ١؛ بيروت: دار الكتب العلمية: ١٤٠٣هـ): ص ١٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع والإجارات، باب في النهي عن العينة: ج ٣ ص ٧٤٠ برقم ٣٤٦٢. وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير برقم ٤١٦.

الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة..»[١] ، فدلّ ذلك على أهمية الصلاة، ودورها في التمكين، والقضاء على الفتنة[٢] .

الشرط الثاني: إيتاء الزكاة:

الزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله. وإيتاؤها من أعظم أسباب التكافل في المجتمع المسلم، ومنعها موجب لمحق البركة، واضطراب المجتمع، واختلال توازنه، وتحوله إلى مجتمع طبقي، يحتقر فيه الغني الفقير، ويحقد فيه الفقير على الغني، وقد جاء في الحديث: «**لا قُدّست أمّة لا يؤخذ الحق من كبيرها لصغيرها**» وفي لفظ: «**لا يؤخذ الحق من قويّها لضعيفها**»[٣] .

الشرط الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد عده بعض أهل العلم الركن السادس من أركان الإسلام، وما ذاك إلا لأهميته، وعظيم أثره في المجتمع المسلم.

والأمة ـ مهما بلغت من القوة والتمكين ـ إذا لم تول هذه الشعيرة حقها من التطبيق والاهتمام، فمآلها إلى الضعف والتقهقر والانهزام. وقد علق الله الفلاح على هذا الأمر العظيم، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالنصر لا يتحقق لأمة تفشو فيها المنكرات، وتُعلَن فيها المعاصي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم: ج ٦ ص ٢٤ برقم ٦٥.

(٢) انظر: عبدالله الدميجي، الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة (ط ١؛ الرياض: دار طيبة: ١٤٠٧هـ): ص ٤٧١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في أبواب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ج ٢ ص ٣٨٣ بلفظ: «كيف يُقدّس الله أمّة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم» وهو جزء من حديث طويل. وحسن إسناده الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٣٦٨. وانظر: العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (القاهرة: مكتبة دار التراث): ج ٢ ص ٤٩٣.

والسيئات، ولا من مُنكِر ولا من مغيِّر.

وإنما ذكر هنا الصلاة والزكاة ولم يذكر الصوم والحج، وهما الركنان الباقيان من أركان الإسلام؛ فأما الصيام فلأنه لله ـ عز وجل ـ لا يطّلع عليه أحد. وأما الحج فلأنه لا يجب إلا مرة في العمر للمستطيع، ومن أقام الصلاة وهي تتكرر خمس مرات في اليوم، لن يتردد في إقامة شعيرة الحج مرة في العمر.

هذه هي الشروط بعد التمكين، وهي شروط مستقبلية في علم الله ـ عز وجل ـ فالله ـ عز وجل ـ أعلم بمن يقوى على تحقيقها في الواقع بعد التمكين، فيهبه النصر حينئذ.

هذا ما يتعلق بالنصر الظاهر المقترن بالتمكين الحسي، أما النصر غير الظاهر فإنه وإن كان لا يصاحبه تمكين حسي في الأرض، فإن فيه تمكيناً معنويًّا للرسول أو الداعي حيث ينشر الله ذكره في العالمين، ويكون في ذلك تمكين لدينه في القلوب حتى يأذن الله بالنصر الظاهر الذي يعقبه التمكين الحسي.

أما شروط تحقق هذا النصر فهي ذاتها الشروط السابقة. والله ولي التوفيق.

الخاتمة

سبحان من له البقاء والدوام، وسبحان الحي القيوم الذي لا ينام، والحمد لله أولاً وآخراً، وفي البدء والختام.

وبعد: فها أنذا أصل إلى خاتمة هذا البحث بعد أن أمضيت في كتابته ما يقارب السنتين، عشت فيها مع كتاب الله ـ عز وجل ـ أجمل اللحظات، وأروع الأوقات. أنهل من معينه الصافي، وأستقي من موارده العذبة الرائقة. عشت مع كتاب الله ـ عز وجل ـ قراءة وتدبّراً، ونظراً واستنباطاً. مستعيناً بالله أولاً، ثم بما تيسر لي الرجوع إليه من كتب أهل العلم قديماً وحديثاً، فتكشّفت لي جوانب مشرقة من عظمة هذا الكتاب الكريم، تنبىء عن شيء من روعة جماله ودقه إعجازه، وتذكرت كلاماً جميلًا لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قاله يوم أن حُبس في سجن القلعة، ومُنِعتْ عنه الدفاتر والأقلام، فأمضى جلّ وقته مع كتاب الله ـ عز وجل ـ قال ـ محدّثاً بنعمة الله عليه ـ: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً، ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا فيه من الخير». ونحو هذا[١].

وقال مرة ـ رحمه الله ـ: «قد فتح الله عليّ في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[٢].

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفيما يلي أهم النتائج التي توصلت إليها في ختام هذا البحث:

أولًا: إن الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية، إلى أن يرث الله

---

(١) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة: ج ٢ ص ٣٨٧ ـ ٤٠٨.

(٢) المصدر السابق.

الأرض ومن عليها، شاء الخلق أم أبوا، ومن ظن أن الحق يمكنه التعايش مع الباطل في أمن وسلام، فقد جهل سنن الله في هذا الكون. وهل انقطع الصراع يوماً ما منذ أن خلق الله هذه الخليقة على وجه الأرض؟

ثانياً: كما أن لهذا الصراع دوافعه وأسبابه التي تدعو إليه، فإن له حِكَماً يزداد المؤمن بمعرفتها إيماناً وثباتاً على هذا الدين.

ثالثاً: إن من المفاهيم الخاطئة التي تحتاج إلى تصحيح: مفهوم الإجرام! فقد شاع في الأزمنة المتأخرة قصر وصف الإجرام على من ارتكب عملًا جنائيًّا عدوانيًّا من قتل ونحوه حتى لا يكاد يطلق على غير ذلك، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً وسائغاً في اللغة والشرع، إلا أن القرآن لم يَرِدْ به بتاتاً، وغالب ما يرد لفظ الإجرام في القرآن في وصف الكافر المكذب بالله ورسله، ولو لم يرتكب قط في حياته عملًا جنائيًّا، وهذا المعنى لا يكاد يُعرف في هذا الزمن، بل إننا لنسمع كثيراً من يضفي على الكافر لقب «السيد» وقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»[1].

رابعاً: المجرمون في القرآن ليسوا صنفاً واحداً، بل أصنافاً ثلاثة: المشركون، وأهل الكتاب، والمنافقون.

ولهم سمات يُعرفون بها، كما أن لهم أساليب يحاربون بها الرسل. وهذه السمات والأساليب منها ما هو مشترك بين أصناف المجرمين جميعاً، ومنها ما يختص به صنف دون الآخر.

كما أن هناك تداخلًا بين هذه السمات والأساليب، ويمكن تقسيمها جميعاً إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ج ٥ ص ٤٣٢ برقم ٢٢٩٣٣، والبخاري في الأدب المفرد (بيروت: دار الكتب العلمية) ص ١١٣. وصححه الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ط ٢؛ الجبيل: دار الصديق: ١٤١٥هـ): ص ٢٨٤.

القسم الأول: ما يكون سمة وليس بأسلوب.
القسم الثاني: ما يكون أسلوباً وليس بسمة.
القسم الثالث: ما يكون سمة وأسلوباً في آن واحد.

خامساً: أساليب المجرمين في مواجهة الرسل - عليهم السلام - في القرآن الكريم كثيرة جداً ومتنوعة، وهي لا تخلو إما أن تكون مشتركة أو غير مشتركة.

فأما المشتركة - وهي الغالب على أساليب المجرمين - فتنتظمها كلها سبعة عقود رئيسة، وهي:
العقد الأول: أساليب في المكر والخداع.
العقد الثاني: أساليب في التولي والإعراض والصد عن سبيل الله.
العقد الثالث: أساليب في تبرير المواقف.
العقد الرابع: أساليب في التعنت والعناد والمشاقة.
العقد الخامس: أساليب في إثارة الشكوك والشبهات.
العقد السادس: أساليب في التضييق والتعطيل والمنع.
العقد السابع: أساليب في التنكيل والبطش والأذى.

وأما غير المشتركة، فلكل صنف من أصناف المجرمين الثلاثة أساليبه التي ينفرد بها، وهي محدودة، إذ الغالب - كما أسلفت - اشتراك المجرمين في أكثر الأساليب.

سادساً: قد ينجح المجرمون في تنفيذ بعض أساليبهم، وتحقيق بعض أهدافهم، لكنه نجاح مؤقت، يعقبه فشل ذريع، وخسران مبين، وهزيمة ماحقة، ظاهرة أو غير ظاهرة، كما جرت بذلك سنة الله - عز وجل -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ . .﴾ [آل عمران: ١٢]، ﴿. . إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

سابعاً: انتصار الحق على الباطل سنة ثابتة، لا تتحول ولا تتبدل،

وهو أمر قد أوجبه الله على نفسه كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿.. وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]. لكن قد يقع لبس عند كثير من الناس في مفهوم الانتصار، فيقصره بعضهم على بعض صوره الظاهرة دون سواها، فكان لابد من بيان المفهوم الصحيح للانتصار، وهو أن النصر له صور كثيرة، منها ما هو ظاهر مقرون بالتمكين الحسي، كإهلاك المجرمين وإنجاء الرسل من بعدهم. ومنها ما هو خفي غير ظاهر، مقرون بالتمكين المعنوي، كالذي ينتهي بمقتل الرسول أو الداعي أو قهره، وانتصار المجرمين في الظاهر.

ثامناً: قد يتأخر النصر عن المؤمنين لأسباب عدة، وحِكَم كثيرة، منها ما هو شرعي كالانحراف عن المنهج. ومنها ما هو كوني قدري كالتمييز والتمحيص.

كما قد يتخلف النصر عن الأمة المؤمنة لتخلف شرط من شروطه، والتي من أهمها تحقيق التوحيد الخالص لله ـ عز وجل ـ.

والله ولي التوفيق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

الفهارس



فهرس الآيات

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا..﴾.	٧٦	١٢١
	﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم..﴾.	٧٩	٣٩٥
	﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً..﴾.	٨٠	١٣٨
	﴿.. ثم توليتم إلا قليلاً منكم..﴾.	٨٣	٢٢٥
	﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب..﴾.	٨٥	٣٩٩
	﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله..﴾.	٨٩	١١٦
	﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا..﴾.	٩٠	٣٠
	﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله..﴾.	٩١	٤٠٠
	﴿.. قالوا سمعنا وعصينا..﴾.	٩٣	١٥٨، ٤٠٣
	﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة..﴾.	٩٦	٩١
	﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله..﴾.	٩٧	٤٠٥
	﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله..﴾.	٩٨	٤٠٥، ٤٢٠
	﴿أوكلما عاهدوا عهداً..﴾.	١٠٠	١٩٧
	﴿ولما جاءهم رسول من عند الله..﴾.	١٠١	٢٣٩، ٤٠١
	﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك..﴾.	١٠٢	٢٣٩
	﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب..﴾.	١٠٥	٣٠، ٩٥، ١٠١، ١٠٢
	﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم..﴾.	١٠٨	٢٦٤
	﴿ود كثير من أهل الكتاب..﴾.	١٠٩	٣٠، ٩٨، ٤١٤
	﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من..﴾.	١١١	١٣٠
	﴿وقالت اليهود ليست النصارى..﴾.	١١٣	٩٧، ٤٠٦
	﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله..﴾.	١١٤	١٣٥، ٣٣١
	﴿وقال الذين لا يعلمون لولا..﴾.	١١٨	١٣٢، ٢٦٠، ٢٦٣

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا..﴾.	١٢٠	٣٦، ١٥٨، ٤٠٦
	﴿.. قال ومن كفر فأمتعه قليلاً..﴾.	١٢٦	٤٧٤
	﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا..﴾.	١٣٠	٢٩٥
	﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى..﴾.	١٣٥	٤٠٩
	﴿.. ومن أظلم ممن كتم شهادة..﴾.	١٤٠	١٣٥
	﴿سيقول السفهاء من الناس ما..﴾.	١٤٢	٣١٥
	﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء..﴾.	١٤٤	٣١٤
	﴿ولئن أتيت الذين أوتو الكتاب..﴾.	١٤٥	٣٦، ٤٠٦
	﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه..﴾.	١٤٦	٣١، ١٥٨، ٣٩٠
	﴿.. ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون..﴾.	١٦٥	٤٥٩
	﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء..﴾.	١٦٩	١٣٩
	﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله..﴾.	١٧٠	٣٧، ٨٧، ٨٨، ٢٤٢
	﴿.. صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.	١٧١	١٣١
	﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين..﴾.	١٩٠	٣٦١
	﴿.. والفتنة أشد من القتل..﴾.	١٩١	٣٤٦
	﴿وإذا تولى سعى في الأرض..﴾.	٢٠٥	١٨٧، ٣٥٤، ٣٦٦
	﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة..﴾.	٢٠٦	٢٣٥
	﴿ومن الناس من يشري نفسه..﴾.	٢٠٧	٣٢٩
	﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا..﴾.	٢١٢	٢١٢
	﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة..﴾.	٢١٤	٢٠١، ٥٥٦
	﴿.. والله يعلم المفسد من المصلح..﴾.	٢٢٠	١٨٧
	﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم..﴾.	٢١٧	٢٣، ٣٥٧

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿إن الذين يشترون بعهد الله..﴾.	٧٧	١٥٩
	﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم..﴾.	٧٨	٣٩٨
	﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب..﴾.	٧٩	٢٨٣، ٥٧٧
	﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً..﴾.	١٠٠	١٩٥
	﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا..﴾.	١٠٣	١٤٠
	﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..﴾.	١٠٤	٥٧٩
	﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا..﴾.	١٠٥	١٤٠
	﴿لن يضروكم إلا أذى..﴾.	١١١	٣٣٣، ٣٥٩
	﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا..﴾.	١١٢	٩٩، ١٤٧
	﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة..﴾.	١١٣	٩٩، ١٠١
	﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر..﴾.	١١٤	٩٩
	﴿.. ودوا ما عنتم..﴾.	١١٨	٢٥٩، ٤٢٠
	﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم..﴾.	١٢٠	١٣٣، ١٤٦، ٣٣٣، ٥٧٣
	﴿.. وما النصر إلا من عند الله..﴾.	١٢٦	٥٦٧
	﴿.. ليس لك من الأمر شيء..﴾.	١٢٨	٣٤٢
	﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون..﴾.	١٣٩	٥٦١
	﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله..﴾.	١٤٠	٥١
	﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق..﴾.	١٤١	٤٩، ٥٠
	﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير..﴾.	١٤٦	٤٩، ٥٤١
	﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا﴾.	١٤٧	٤٩
	﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب﴾.	١٤٨	٤٩
	﴿.. منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد.﴾.	١٥٢	٥٦٣

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿.. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم..﴾.	١٥٤	١٠٨
	﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم..﴾.	١٦٥	٥٦٣، ٥٧١
	﴿.. هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان..﴾.	١٦٧	٣٦٠، ٤٣٥
	﴿الذين قال لهم الناس إن الناس..﴾.	١٧٣	٢١٧
	﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه..﴾.	١٧٥	٢٧
	﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما..﴾.	١٧٨	٢٦٦، ٤٨٠
	﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير..﴾.	١٨١	١٦٠، ٤١٦
	﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا..﴾.	١٨٣	٢٤٦، ٢٤٨
	﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم..﴾.	١٨٦	٣٣٣، ٥٥٢، ٥٧٣
	﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب.﴾.	١٨٧	١٦٠
	﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا..﴾.	١٨٨	١٤٦
	﴿إن في خلق السموات والأرض..﴾.	١٩٠	١٥٥
	﴿.. فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم..﴾.	١٩٥	٣٥٢
	﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد..﴾.	١٩٦	٤٧٥
	﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن..﴾.	١٩٩	١٠١
النساء	﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً..﴾.	١٠	١٣٥
	﴿يعدهم ويمنيهم..﴾.	٣٠	٨٨
	﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً..﴾.	٣٦	٨٣
	﴿.. ويكتمون ما آتاهم الله..﴾.	٣٧	٣٩٠، ٤٤١
	﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾	٤٤	٢٨٥
	﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم..﴾.	٤٦	١٥٩، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٩٤، ٤٠٣
	﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم..﴾.	٤٩	١٨٦

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
			٤٦٢
	﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا..﴾.	٣٤	٥٧٢
	﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم..﴾.	٣٩	٦٨
	﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله..﴾.	٤٠	١٥٤
	﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك..﴾.	٤٢	١٢٧، ٤٧٨
	﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن..﴾.	٤٣	٨٨، ١٢٦، ١٢٧، ٤٧٨
	﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم..﴾.	٤٤	٤٧٨
	﴿.. هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾.	٤٧	٤٥٤
	﴿.. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم..﴾.	٤٨	٤٧٠
	﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم..﴾.	٥٢	٢٥٠، ٢٧٠
	﴿..أهؤلاء من الله عليهم من بيننا..﴾.	٥٣	١٣٠، ٢٥٧
	﴿وكذلك نفصل الآيات..﴾.	٥٥	٨
	﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا..﴾.	٦٨	١٣٤، ١٥٢
	﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ..﴾.	٧٤	٤٩٨
	﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً..﴾.	٧٦	٥٣٩
	﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات..﴾.	٧٩	٥٣٩
	﴿وحاجه قومه..﴾.	٨٠	٩٢، ١٧٤
	﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون..﴾.	٨١	٩٢، ١٧٤
	﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..﴾.	٨٢	١٧٤
	﴿وتلك حجتنا آتيناهم إبراهيم..﴾.	٨٣	١٧٤، ٥٤٠
	﴿وما قدروا الله حق قدره..﴾.	٩١	٣٠٨، ٣٧٧
	﴿.. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله..﴾.	٩٣	٢٧٢

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿.. وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم..﴾.	٩٤	٣٧٦
	﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا..﴾.	١٠٥	٢٥٨، ٢٨٦
	﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله..﴾.	١٠٨	٣٣٦
	﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن..﴾.	١٠٩	٢٠٢
	﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً..﴾.	١١٢	٢١، ٢٦، ٢٨، ٥٤، ٥٦٤
	﴿وإن تطع أكثر من في الأرض..﴾.	١١٦	٢٥١
	﴿.. وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم..﴾.	١١٩	٩٤
	﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر..﴾.	١٢٣	٧٧، ١٧١، ٤٨٤
	﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن..﴾.	١٢٤	٩١، ٢٧١
	﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم..﴾.	١٣١	١٣٧
	﴿.. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا..﴾.	١٤١	١٤٤
	﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله..﴾.	١٤٨	٩٣، ١٥٧، ٣٨٢
	﴿.. وأن هذا صراطي مستقيماً..﴾.	١٥٣	١٨٧
	﴿.. فمن أظلم ممن كذب بآيات الله..﴾.	١٥٧	١٣٤
	﴿إن الذين فرقوادينهم وكانوا شيعاً..﴾.	١٥٩	١٤٠
الأعراف	﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا..﴾.	٢٨	١٣٨، ١٨٠
	﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها﴾.	٣٣	١٣٩
	﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم.﴾.	٣٨	٢٧، ٢٨٥
	﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم..﴾.	٣٩	٢٧
	﴿الذين يصدون عن سبيل الله..﴾.	٤٥	٤٤، ٢٢٥، ٥٦٤
	﴿.. لقد جاءت رسل ربنا بالحق..﴾.	٥٣	٣٧٦
	﴿.. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾.	٥٦	١٨٦

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال..﴾.	٥٩	٨٦، ٤١٣
	﴿.. إنا لنراك في ضلال مبين﴾.	٦٠	٢٨٤
	﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح..﴾.	٦٢	٢٣٥
	﴿.. إنا لنراك في سفاهة..﴾.	٦٦	٢٨٩، ٢٩٥
	﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم..﴾.	٦٨	٢٣٥
	﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده..﴾.	٧٠	٣٧
	﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد..﴾.	٧٤	٤٩٧
	﴿قال الملأ الذين استكبروا..﴾.	٧٥	٣٣
	﴿قال الذين استكبروا إنا بالذي..﴾.	٧٦	٣٣
	﴿.. يا صالح ائتنا بما تعدنا..﴾.	٧٧	٤٩٨
	﴿ولكن لا تحبون الناصحين..﴾.	٧٩	٢٣٥، ٢٣٦
	﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة..﴾.	٨٠	٧١
	﴿فأنجيناه وأهله..﴾.	٨٣	٦٧
	﴿وأمطرنا عليهم مطراً..﴾.	٨٤	٦٧
	﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً..﴾.	٨٥	٥٠٢، ٥٠٤
	﴿.. لنخرجنك يا شعيب..﴾.	٨٨	٢٣، ٢١٨، ٣٥٢، ٥٠٦، ٥١٩
	﴿على الله توكلنا ربنا افتح..﴾.	٨٩	٢٥، ٥٠٦
	﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه..﴾.	٩٠	٥٠٨
	﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم..﴾.	٩١	٥٠٨
	﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها..﴾.	٩٢	٥٠٨
	﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا..﴾.	٩٤	٤٧٨
	﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾.	١٠٧	٥١٠

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين..﴾.	٧٣	٥٢
	﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا..﴾.	٧٤	١١٢، ٢٠٣، ٣٦٥، ٤٤٠
	﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض..﴾.	٧٦	١٦٤
	﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم..﴾.	٧٧	١٦٤
	﴿الذين يلمزون المطوعين..﴾.	٧٩	١٦٣، ٢١٢
	﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف..﴾.	٨١	١٤٦، ١٦٣، ٤٣٣، ٤٣٦
	﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم..﴾.	٨٣	٣٦٠
	﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف..﴾.	٩٣	١٣٢
	﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم..﴾.	٩٤	٤٣٤
	﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم..﴾	٩٥	٢٠٣
	﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم..﴾.	٩٦	١١١، ٢٠٢، ٢٠٤
	﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً..﴾.	٩٧	١١٣
	﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون..﴾.	١٠١	٧٣
	﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً..﴾.	١٠٧	١٩٢
	﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم..﴾.	١١١	٤٤٠
	﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم﴾.	١٢٣	٣٦٢
	﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول..﴾.	١٢٤	١٥٢
	﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم..﴾.	١٢٥	١٥٢
	﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام..﴾.	١٢٦	١٢٨
	﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض..﴾.	١٢٧	١٢٨، ١٥٣، ٤٤٦
يونس	﴿.. إن هذا لساحر مبين﴾.	٢	٢٥٥

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿.. فنذر الذين لا يرجون لقاءنا..﴾.	١١	١٥١
	﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم..﴾.	١٣	١٣٤، ٤٥٤
	﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم..﴾.	١٨	٣٧٢
	﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً..﴾.	٣٦	٩٣
	﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى..﴾.	٣٧	٣١١
	﴿.. قل فأتوا بسورة مثله..﴾.	٣٨	٣١٢
	﴿.. وربك أعلم بالمفسدين﴾.	٤٠	١٨٧
	﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً..﴾.	٤٤	٤٧٧
	﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم..﴾.	٤٨	٢٦٩
	﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به آلان..﴾.	٥١	٢٦٧
	﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.	٥٨	١٤٧
	﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض..﴾.	٦٦	٩٣
	﴿وقالوا اتخذ الله ولداً..﴾.	٦٨	١٣٨، ١٣٩
	﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا..﴾.	٧٨	٣٤، ٢٨١
	﴿.. إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾.	٨١	١٨٧
	﴿ويحق الله الحق بكلماته..﴾.	٨٢	٤٧
	﴿.. وإن فرعون لعال في الأرض..﴾.	٨٣	١٤٥
	﴿.. ربنا لا تجعلنا فتنة للظالمين﴾.	٨٥	٤٨٢
	﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون..﴾.	٨٨	٤٦٣، ٥١٢، ٥٦٠
	﴿قال قد أجيبت دعوتكما..﴾.	٨٩	٥١٢، ٥٥٧، ٥٦٠
	﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك..﴾.	٩٦	٢٦٥
	﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها..﴾.	٩٨	٥٤٤

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
هود	﴿..كتاب أحكمت آياته..﴾.	١	٤١٢
	﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه..﴾.	٣	٤٧٤
	﴿..ليقولن ما يحبسه..﴾.	٨	٢٦٦
	﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾.	٥	٢٢٧
	﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك..﴾.	١٢	٤٨٤، ٥٢٥
	﴿.. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات..﴾.	١٣	٣١٢
	﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً..﴾.	١٨	١٣٤
	﴿.. وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا..﴾.	٢٧	٢٤٩، ٢٨٩، ٣٨١
	﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن..﴾.	٣٤	٢٣٦
	﴿أم يقولون افتراه..﴾.	٣٥	٣١٢
	﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك﴾.	٣٦	٤٩٠
	﴿وهي تجري بهم في موج من الجبال..﴾.	٤٢	٤٩١
	﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء..﴾.	٤٣	٤٩١
	﴿.. فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.	٤٩	٥٧٤
	﴿.. ولا تتولوا مجرمين﴾.	٥٢	٢٢٥
	﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة..﴾.	٥٣	٢٤٨، ٤٩٥
	﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا..﴾.	٥٤	٩٢، ٢١٧، ٤٩٥
	﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم..﴾.	٥٩	٣٨، ١٥٠، ٢٥٩
	﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً..﴾.	٦٢	٣٧
	﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة..﴾.	٦٧	٤٩٨
	﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق..﴾.	٧٩	٧١
	﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها..﴾.	٨٢	٥٠٠
	﴿قالوا يا شعيب أصلاتك..﴾.	٨٧	٣٨٢، ٥١٩

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿.. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت..﴾.	٨٨	٣٨٥
	﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي..﴾.	٨٩	٦٧، ٧٢، ٥٠٣
	﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما نقول..﴾.	٩١	٢١٣، ٢١٨، ٢٤٩، ٥٠٥
	﴿.. وأخذت الذين ظلموا الصيحة..﴾.	٩٤	٥٠٨
	﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم..﴾.	١٠١	١٣٤
	﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى..﴾.	١٠٢	٤٧٨
	﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء..﴾.	١٠٩	٣٧، ٨٧
	﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم..﴾.	١١٧	٤٧٠
	﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل..﴾.	١٢٠	٤٨٨
يوسف	﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه..﴾.	٢٣	١٣٥، ٥٤١
	﴿ولقد همت به وهم بها لولا..﴾.	٢٤	٥٤٣
	﴿.. فلبث في السجن بضع سنين﴾.	٤٢	٣٤٤
	﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله..﴾.	٧٥	١٣٥
	﴿.. إنه من يتق ويصبر فإن الله..﴾.	٩٠	٥٧٢
	﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً..﴾.	١٠٩	١١٤
	﴿حتى إذا استيأس الرسل..﴾.	١١٠	٢١٦، ٥٢٦، ٥٥٦
الرعد	﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة..﴾.	٦	٢٦٨
	﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك..﴾.	٣٢	٢١٢
	﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا..﴾.	٣٤	٢٦٨
	﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم..﴾.	٤٠	٥٦٧
إبراهيم	﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا..﴾.	٣	٣٩، ١٢٥، ١٣٧
	﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه..﴾.	٤	٢٤٩

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم..﴾.	٩	٢٣٠، ٢٨٤
	﴿.. ويصدون عن سبيل الله..﴾.	٣	١٧٣
	﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات..﴾.	١٠	٩١
	﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر..﴾.	١١	٩١
	﴿وقال الذين كفروا لرسلهم..﴾.	١٣	٣٥٢، ٤٥٥
	﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾.	١٥	٥٠٨
	﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر..﴾.	٢٢	٤٣
	﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله..﴾.	٢٨	١٢٥، ٢٥٧
	﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد..﴾.	٣٥	٣٧٤
	﴿وقد مكروا مكرهم..﴾.	٤٦	٢٧، ١٧١
الحجر	﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر..﴾.	٦	٢٩٣
	﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من..﴾.	٧	٢٦٠
	﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له..﴾.	٩	٣١٤، ٣٩٦
	﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من..﴾.	٣٣	٣٧٩
	﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان..﴾.	٤٢	١٥١
	﴿.. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾.	٧٤	٥٠٠
	﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾.	٧٥	١٢٣
	﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً..﴾.	٨٢	٥١٧
	﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن..﴾.	٨٧	٤٨٢
	﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به..﴾.	٨٨	٤٨٢
	﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾.	٩١	٣١١
	﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض..﴾.	٩٤	٣١٩
النحل	﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه..﴾.	١	٢٦٨

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿إلهكم إله واحد..﴾.	٢٢	٤٤، ٨٩
	﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم..﴾.	٢٤	٣١٢
	﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً..﴾.	٤٣	٢٥٥
	﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك..﴾.	٦٣	٨٨
	﴿.. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾.	٧٢	١٢٥
	﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله..﴾.	٨٨	١٨٨
	﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً..﴾.	٩٥	١٦٠
	﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا..﴾.	٩٩	١٥٠
	﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر..﴾.	١٠٣	٢٨٦
	﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه..﴾.	١١٣	١٣٤
	﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب..﴾.	١١٦	١٨٠، ١٨٣
	﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة..﴾.	١٢٥	١٧٤، ٥٧٦
	﴿واصبر وما صبرك إلا بالله..﴾.	١٢٧	٥٥، ٤٨٤
الإسراء	﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية..﴾.	١٦	٤٥٨، ٤٦١
	﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح..﴾.	١٧	٤٨٧
	﴿.. ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه..﴾.	٣٣	١٤٤
	﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن..﴾.	٤٦	١٢٨، ٢٢٩
	﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن..﴾.	٥٩	٢٧٣، ٤٩٨
	﴿وإن كادوا ليفتنونك..﴾.	٧٣	٢٣، ١٧٩، ٢٠٨
	﴿ولولا أن ثبتناك..﴾.	٧٤	٢٤، ١٧٩، ٥٢٩
	﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض..﴾.	٧٦	٣٥٠
	﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا..﴾.	٧٧	٣٥١
	﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل..﴾.	٨١	٥٦٥

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء..﴾.	٨٢	١٥١
	﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن..﴾.	٨٨	٢٧٣
	﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر..﴾.	٩٠	٢٦١
	﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى..﴾.	٩٤	٩١، ٣٧٨
	﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون..﴾.	٩٥	٩١، ٣٨٠
	﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات..﴾.	١٠١	٢٩٥، ٥١٠
	﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا..﴾.	١٠٢	٢٧٤
	﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض..﴾.	١٠٣	٣٥٠
	﴿.. ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها..﴾.	١١٠	٣٣٦
الكهف	﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾.	٤	١٨١
	﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة..﴾.	١٥	١٨٠
	﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه..﴾.	٢٨	١٣٧، ٢٧١
	﴿.. أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾.	٣٤	١٢٦
	﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه..﴾.	٣٥	١٢٦
	﴿ويجادل الذين كفروا..﴾.	٥٦	١٥٣
	﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا..﴾.	٥٩	٥٣١
	﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي..﴾.	١١٠	٣٧٩
مريم	﴿.. وقد خلقتك من قبل..﴾.	٩	٤١٣
	﴿قال إني عبدالله آتاني الكتاب..﴾.	٣٠	٤١٤
	﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات..﴾.	٧٣	٤٠
	﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا..﴾.	٧٧	٣٣٠
	﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا..﴾.	٨١	٩١
	﴿كلا سيكفرون بعبادتهم..﴾.	٨٢	٩٣

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه..﴾.	١٨	٥٦٥
	﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾.	٢٠	٤٠٥
	﴿.. بل أكثرهم لا يعلمون الحق..﴾.	٢٤	٩٦، ٩٨، ١٣٢
	﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا..﴾.	٢٥	٨٦
	﴿.. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى..﴾.	٢٨	٣٧٣
	﴿فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم..﴾.	٥٨	٥٤٠
	﴿قالوا فاتوا به على أعين الناس..﴾.	٦١	٢١٦
	﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا..﴾.	٦٢	٥٤٠
	﴿قال بل فعله كبيرهم هذا..﴾.	٦٣	٥٤٠
	﴿ثم نكسوا على رؤوسهم..﴾.	٦٥	٥٤٠
	﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا..﴾.	٦٦	٥٤٠
	﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله..﴾.	٦٧	٥٤٠
	﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم..﴾.	٦٨	٥٤٠
	﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً..﴾.	٦٩	٤٩٩، ٥٣١
	﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر..﴾.	٨٣	٥٥٣
	﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر..﴾.	٨٤	٥٥٣
	﴿واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة..﴾.	٩٧	١٣٦
الحج	﴿ومن الناس من يجادل في الله..﴾.	٨	٢٢٨
	﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا..﴾.	٣٩	٣٥٧
	﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق..﴾.	٤٠	٣٥٢، ٥٧٠
	﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا..﴾.	٤١	٥٧٨
	﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم..﴾.	٤٢	٤٨٨
	﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة..﴾.	٤٥	٤٥٣

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة..﴾.	١٩	٤٤٥
	﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله..﴾.	٤٨	١٣٥
	﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه..﴾.	٤٩	٢٣٧
	﴿.. وإن تطيعوه تهتدوا..﴾.	٥٤	٣٨٥
	﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات..﴾.	٥٥	٥٦٩
	﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا..﴾.	٥٦	٥٧٠
	﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين..﴾.	٥٧	٤٨٥
	﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم..﴾.	٦٣	٤٣٦
الفرقان	﴿.. إن هذا إلا إفك افتراه..﴾.	٤	٢٨٦
	﴿قل أنزله الذي يعلم السر..﴾.	٦	٣١٢
	﴿.. إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾.	٨	٢٩٤
	﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا..﴾.	٢١	٧٥، ٢٦٠
	﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى..﴾.	٢٢	٧٥
	﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً..﴾.	٣١	٢١، ٥٥
	﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة..﴾.	٣٢	٢٥٣
	﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل..﴾.	٣٧	١٠١
	﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس..﴾.	٣٨	٤٨٧، ٥١٢
	﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن..﴾.	٦٠	١٧٦
	﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم..﴾.	٧٣	٢٢٧
الشعراء	﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم..﴾.	٢٧	٢٩٣
	﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري..﴾.	٢٩	٢١٨

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿أتتركون فيما هاهنا آمنين﴾.	١٤٦	٤٩٧
	﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾.	١٥١	١٤٥، ١٨٥
	﴿أتأتون الذكران من العالمين﴾.	١٦٥	٧١
	﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط..﴾.	١٦٧	١٢٧، ٢١٨، ٣٥٢
	﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾.	١٧٦	٥٠٢
	﴿.. وإن نظنك لمن الكاذبين﴾.	١٨٦	٢٨٩
	﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء..﴾.	١٨٧	٥١٩
	﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة..﴾.	١٨٩	٥٠٨
	﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾.	٢٠٤	٢٦٦
	﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾.	٢٠٥	٢٦٦، ٤٧٤
النمل	﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم..﴾.	١٤	٣٨، ١٨٨، ٤٦٢
	﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس..﴾.	٢٤	٨٩
	﴿وإني مرسلة إليهم بهدية..﴾.	٣٥	٢١٠
	﴿.. بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾.	٣٦	٢١٠
	﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل..﴾.	٣٧	٥٣٩
	﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً﴾.	٤٥	٢١
	﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة..﴾.	٤٦	٢٦٦
	﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه..﴾.	٤٩	٣٦٥
	﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا..﴾.	٥٢	٤٥٣
	﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا..﴾.	٥٦	٧١، ٥٠٠
	﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر..﴾.	٥٨	٥١٨
	﴿بل أدارك علمهم في الآخرة﴾.	٦٦	٩٠
	﴿قل سيروا في الأرض فانظروا..﴾.	٦٩	٤٥٣

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿قل عسى أن يكون ردف لكم..﴾.	٧٢	٢٦٩
القصص	﴿.. إنه كان من المفسدين﴾.	٤	١٨٥
	﴿قال رب بما أنعمت علي فلن أكون..﴾.	١٧	٦٤، ٧٤
	﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا..﴾.	٣٦	٢٤٢، ٢٤٤
	﴿وقال فرعون يا أيها الملأ..﴾.	٣٨	٢٠٧
	﴿.. لولا أوتي مثل ما أوتي موسى..﴾.	٤٨	٢٧٣
	﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله..﴾.	٤٩	٢٧٤
	﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم..﴾.	٥٠	٤٢، ٩٤، ٢٧٤
	﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك..﴾.	٥٧	٢٥٧
	﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت..﴾.	٥٨	٤٥٣، ٤٥٦
	﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم..﴾.	٦٤	٣٧٧
	﴿إن قارون كان من قوم موسى..﴾.	٧٦	٤٤، ١٤٦، ٢٩٧، ٥١٥
	﴿قال إنما أوتيته على علم عندي..﴾.	٧٨	٤٤، ٧٦، ١٢٦، ٤٥٩، ٥١٦
	﴿فخرج على قومه في زينته..﴾.	٧٩	٤٤، ١٤٣
	﴿فخسفنا به وبداره الأرض..﴾.	٨١	٤٤، ٥١٦
	﴿تلك الدار الآخرة..﴾.	٨٣	٣٤
العنكبوت	﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا..﴾.	٢	٥٠
	﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم..﴾.	٣	٥٠
	﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله..﴾.	١٦	٤٩٩
	﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا..﴾.	٢٤	١٢٧، ٣٦٥
	﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً..﴾.	٢٥	٢٧

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا..﴾.	٣٤	٤٥٨
	﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً..﴾.	٣٥	٤٠
	﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم..﴾.	٣٧	٤٠
	﴿.. وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى..﴾.	٤٣	٣١١
	﴿وكذب الذين من قبلهم..﴾.	٤٥	٦٨
فاطر	﴿من كان يريد العزة فلله العزة..﴾.	١٠	١١١
	﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا..﴾.	٤٤	٤٨٥
يس	﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية..﴾.	١٣	٥١٣
	﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما..﴾.	١٤	٥١٣
	﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا..﴾.	١٥	٩٠، ٢٨٩، ٣٨١، ٥١٤
	﴿قالوا إنا تطيرنا بكم..﴾.	١٨	١٥٢، ٢١٨، ٥١٤
	﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى..﴾.	٢٠	٣٧٤
	﴿وإذا قيل لهم أنفقوا..﴾.	٤٧	٢٨٤
	﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة..﴾.	٤٩	٢٦٩
	﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾.	٥٩	٤٣
	﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم..﴾.	٦٠	٤٣
	﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾.	٦١	٤٣
	﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له..﴾.	٦٩	٢٨٨، ٣١١
الصافات	﴿وإذا ذكروا لا يذكرون﴾.	١٣	١٢٦
	﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾.	٢٧	٧٧
	﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾.	٣٣	٧٧
	﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾.	٣٤	٧٧

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله..﴾.	٣٥	٨٩، ٢٣٣
	﴿أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾.	٣٦	٢٩٤
	﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾.	١٤٧	٥٤٤
	﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾.	١٤٨	٥٤٤
	﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون﴾.	١٥١	١٨١
	﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً..﴾.	١٥٨	٣٠٩
	﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا..﴾.	١٧١	٤٣٠، ٥٢٥، ٥٣٤
ص	﴿..وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾.	٤	٢٨٩
	﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً..﴾.	٥	٣٨، ٢٥٢
	﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا..﴾.	٦	٩٥، ٢٠٤، ٢٨٠
	﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة..﴾.	٧	٢٤٤
	﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل..﴾.	١٦	٢٧٠
	﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي..﴾.	٢٤	٢٥١
	﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض..﴾.	٢٦	٩٤، ٣٠٤
	﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً..﴾.	٢٧	١٥٥
	﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد..﴾.	٤٢	٥٥٣
الزمر	﴿.. والذين اتخذوا من دونه أولياء ما..﴾.	٣	٣٧٢
	﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً..﴾.	٢٣	٤١٢
	﴿.. ويخوفونك بالذين من دونه..﴾.	٣٦	٢١٧
	﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب..﴾.	٤٥	٢٢٩
	﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء..﴾.	٤٣	٣٧٦
غافر	﴿وجادلوا بالباطل..﴾.	٥	١٤٤، ١٧٣، ٣٦٤

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿.. إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾.	٢٨	١٤٥
	﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى..﴾.	٢٩	٢٠٦
	﴿.. مسرف مرتاب..﴾.	٣٤	١٤٥
	﴿.. وإني لأظنه كاذباً..﴾.	٣٧	٢٨٩
	﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع..﴾.	٣٩	٤٧٥
	﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به..﴾.	٤٢	٨٥
	﴿.. وإن المسرفين هم أصحاب النار﴾.	٤٣	١٤٥
	﴿إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا..﴾.	٥١	٥٣٣، ٥٥٦
	﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض..﴾.	٧٥	١٤٦، ١٤٧
	﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات..﴾.	٨٣	١٤٦
	﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله..﴾.	٨٤	١٥٤، ٢٦٧
	﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا..﴾.	٨٥	٢٦٧
فصلت	﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه..﴾.	٥	٢١٥
	﴿الذين لا يؤتون الزكاة..﴾.	٧	١٥٦
	﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض..﴾.	١٥	٤٤، ٤٥٨، ٤٩٤
	﴿وأما ثمود فهديناهم..﴾.	١٧	٣٨٢
	﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن..﴾.	٢٦	٣٢٣
	﴿إن الذين يلحدون في آياتنا..﴾.	٤٠	١٧٥
الشورى	﴿.. ليس كمثله شيء..﴾.	١١	١٧٦
	﴿..وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم..﴾.	١٤	١٤٥
	﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها..﴾.	١٨	٢٦٩
	﴿أم يقولون افترى على الله كذباً..﴾.	٢٤	١٧٩
	﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس..﴾.	٤٢	٤٥٤

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿أهم خير أم قوم تبع..﴾.	٣٧	٤٥٣
الجاثية	﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب..﴾.	١٦	١٠٣
	﴿.. وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض..﴾.	١٩	١٣٧، ١٨٨
	﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه..﴾.	٢٣	٩٤
الأحقاف	﴿.. والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾.	٣	٢٣٥
	﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله..﴾.	٨	٣١٢
	﴿.. لو كان خيراً ما سبقونا إليه..﴾.	١١	١٣٠، ٢٥٦
	﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا..﴾.	٢٢	٤٩٦
	﴿.. بل هو ما استعجلتم به ريح..﴾.	٢٤	٢٦٧، ٤٩٦
	﴿.. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾.	٣٥	٤٦١
محمد	﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله..﴾.	٧	٥٧٠
	﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله..﴾.	٩	٤١، ١٣٢
	﴿.. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون..﴾.	١٢	١٥٥، ٤٧٥
	﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من..﴾.	١٣	٣٥١
	﴿أفمن كان على بينة من ربه..﴾.	١٤	٩٤، ١١٣
	﴿ومنهم من يستمع إليك..﴾.	١٦	١١٣، ٢٢٧، ٤٤٦
	﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا..﴾.	٢٢	١٨٧
	﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم..﴾.	٢٣	٢٢٧
	﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد..﴾.	٢٥	١١٢
	﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله..﴾.	٢٦	١١٨
	﴿.. ولتعرفنهم في لحن القول..﴾.	٣٠	١٦٦
	﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم..﴾.	٣١	٥١
	﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم..﴾.	٣٨	٢٤

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾.	٥٣	٤١، ٢٧٩
	﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب..﴾.	٥٩	٢٦٨
الطور	﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن..﴾.	٢٩	٢٩١
	﴿أم يقولون شاعر نتربص به..﴾.	٣٠	٢٣٨، ٢٨٨
	﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾.	٣١	٢٣٩
	﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا..﴾.	٣٢	٤١
	﴿أم يريدون كيداً..﴾.	٤٢	١٧١، ٤٨٤
	﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً..﴾.	٤٤	٢٦٦
	﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك..﴾.	٤٧	٢٦٨
النجم	﴿وما ينطق عن الهوى﴾.	٣	٣٠٨
	﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾.	١٩	٣٧٥
	﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم..﴾.	٢٣	٩٤
	﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة..﴾.	٢٧	٣٠٩
	﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾.	٥٠	٤٩٢
	﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا..﴾.	٥٢	٥١٦
القمر	﴿وإن يروا آية يعرضوا..﴾.	٢	١٣٩
	﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم..﴾.	٣	٤٢
	﴿كذبت قبلهم قوم نوح..﴾.	٩	٢٩٣
	﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾.	١٠	٤٦٣، ٤٩٠
	﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه..﴾.	٢٤	٣٨٠، ٤٩٧
	﴿أألقي الذكر عليه من بيننا..﴾.	٢٥	٢٥٥، ٢٨٩
	﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا..﴾.	٣٤	٥٢١
	﴿.. فطمسنا أعينهم..﴾.	٣٧	٥٠٠

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿كذبوا بآياتنا كلها..﴾.	٤٢	٢٦٤
	﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾.	٤٧	٦٧
الرحمن	﴿الرحمن﴾.	١	٧٦
	﴿علم القرآن﴾.	٢	٧٦
	﴿يعرف المجرمون بسيماهم..﴾.	٤١	٧٦
	﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾.	٤٣	٧٦
الواقعة	﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾.	٤٥	٤٥٨
	﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾.	٤٦	٢٣٢، ٤٦٠
الحديد	﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا..﴾.	١٤	١١٢
المجادلة	﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى..﴾.	٨	١٩٠، ٢٦٦
	﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً..﴾.	١٤	١١٨، ١٦٣، ٢٠٤، ٤٢٨
	﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا..﴾.	١٦	١١٠، ٢٠٣
	﴿.. فيحلفون له كما يحلفون لكم..﴾.	١٨	٢٠٤
	﴿.. أولئك حزب الشيطان..﴾.	١٩	٢٠٤
	﴿إن الذين يحادون الله ورسوله..﴾.	٢٠	١٤٧، ٥٢٦
	﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي..﴾.	٢١	٤٣٠
الحشر	﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب..﴾.	٢	١٠١
	﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا..﴾.	٨	٣٥٢
	﴿.. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.	٩	٤٧١

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿ألم تر إلى الذين نافقوا..﴾.	١١	١١٩، ٣٦٠، ٤٢٩
	﴿لأنتم أشد رهبة في صدروهم..﴾.	١٣	١٥٣
	﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى..﴾.	١٤	١٣١، ١٤٠، ١٤٣، ٣٥٩
	﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر..﴾.	١٦	٤٣
	﴿فلما كفر قال إني بريء منك..﴾.	١٧	٤٣
الممتحنة	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي..﴾.	١	٣٥٢
	﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء..﴾.	٢	٣٤٠
	﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم..﴾.	٤	٣٥٣
	﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم..﴾.	٨	٣٥٤
	﴿.. وظاهروا على إخراجكم..﴾.	٩	٣٥٤
الصف	﴿.. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم..﴾.	٥	١٥٣
	﴿ومن أظلم ممن افترى على الله..﴾.	٧	١٧٨
	﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم..﴾.	٨	٣٢٦
الجمعة	﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم..﴾.	٦	٣٦
المنافقون	﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد..﴾.	١	١٦٤
	﴿.. يحسبون كل صيحة عليهم..﴾.	٤	١٠٤، ١٤٤، ١٦١، ١٦٥
	﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم..﴾.	٥	٢٢٨
	﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا..﴾.	٧	١٥٣، ٢١٤، ٣٥٢
	﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة..﴾.	٨	١١٠، ٣٥٢، ٤٢٩
التغابن	﴿فقالوا أبشر يهدوننا..﴾.	٦	٣٤، ٩١، ٣٨١
التحريم	﴿.. لا يعصون الله ما أمرهم..﴾.	٦	٤٠٥

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿..فخانتاهما..﴾.	١٠	٢٠١، ٤٩١
الملك	﴿.. كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها..﴾.	٨	٢٨٥
	﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل..﴾.	١٠	٣٨٢
	﴿قل إنما العلم عند الله..﴾.	٢٦	٢٦٩
القلم	﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾.	٢	٧٥، ٢٩٤
	﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾.	١٠	١٣٦، ١٤٨، ٢٠٢
	﴿هماز مشاء بنميم﴾.	١١	١٣٦، ١٩٦
	﴿مناع للخير معتد أثيم﴾.	١٢	١٣٦، ٣٢٤
	﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾.	١٣	١٢٩
	﴿أن كان ذا مال وبنين﴾.	١٤	٤١
	﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾.	١٥	٤١، ١٢٤، ٣١٢
	﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾.	٣٥	٧٥
	﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى..﴾.	٤٢	١٤٩
	﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾.	٤٤	٤٨٣
	﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب..﴾.	٤٨	٧٦
	﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه..﴾.	٤٩	٧٦
	﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك..﴾.	٥١	١٢٨
الحاقة	﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾.	٦	٥١٧
	﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام..﴾.	٧	٤٩٦
	﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات..﴾.	٩	٤٩٩
	﴿إنا لما طغ الماء حملناكم..﴾.	١١	٥٠٦
	﴿وما هو بقول شاعر..﴾.	٤١	٣١١
	﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾.	٤٢	٣١١

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾.	٤٤	٣١٢، ٥٢٩
المعارج	﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾.	١	٧٠
	﴿يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب..﴾.	١١	٦٧
نوح	﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾.	٥	٢٣٠
	﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم..﴾.	٧	٢٣٢، ٤٩٠
	﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾.	١٣	٩٥
	﴿وقد خلقكم أطواراً﴾.	١٤	٩٥
	﴿قال نوح رب إنهم عصوني..﴾.	٢١	٤٠، ٤٩٠
	﴿ومكروا مكراً كباراً..﴾.	٢٢	١٧١، ٢٠٤، ٤٨٩
	﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً..﴾.	٢٥	٥١٠
	﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض..﴾.	٢٦	٤٦٢، ٤٩٠
المزمل	﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾.	١١	٤٧٣، ٤٨٤
	﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾.	١٢	٤٨٥
المدثر	﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾.	١١	٢٩٣
	﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾.	١٦	٢٥٩
	﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾.	٢٤	٣١٢
	﴿قالوا لم نك من المصلين﴾.	٤٣	١٢٩، ١٤٨
	﴿ولم نك نطعم المسكين﴾.	٤٤	١٢٩
	﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾.	٤٥	١٥٢
	﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾.	٤٦	٤٥
	﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾.	٤٩	١٢٨، ٢٣٠

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿كأنهم حمر مستنفرة﴾.	٥٠	١٢٨
	﴿فرت من قسورة﴾.	٥١	١٢٨
	﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾.	٥٣	٩٠
القيامة	﴿فلا صدق ولا صلى﴾.	٣١	١٤٨
المرسلات	﴿ألم نهلك الأولين﴾.	١٦	٤٥٣
	﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾.	١٧	٤٥٣
	﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾.	١٨	٤٥٣
	﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾.	٤٨	١٤٨
النبأ	﴿جزاء وفاقاً﴾.	٢٦	٥١٦
	﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾.	٢٧	٩٠
النازعات	﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾.	٢٤	٢٢١
	﴿فأما من طغى﴾.	٣٧	٤٢
	﴿وآثر الحياة الدنيا﴾.	٣٨	٤٢
	﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾.	٣٩	٤٢
التكوير	﴿وما صاحبكم بمجنون﴾.	٢٢	٢٩٤
	﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾.	٢٨	٣٨٢
المطففين	﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم﴾.	١٢	١٣٦
	﴿.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.	٢٦	٤٧٢
	﴿إن الذين أجرموا كانوا..﴾.	٢٩	٢١٢
	﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾.	٣٠	٢١٢
	﴿وإذا رأوهم قالوا..﴾.	٣٢	٢٨٤
البروج	﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات..﴾.	١٠	٣٤٦
الطارق	﴿إنهم يكيدون كيداً﴾.	١٥	٤٧٣، ٤٨٠، ٤٨٤

السورة	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
الأعلى	﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾.	٩	١٢٧
الفجر	﴿الذين طغوا في البلاد﴾.	١١	١٥٠
	﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾.	١٧	١٢٩
الضحى	﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾.	٩	١٢٩
العلق	﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾.	٦	١٥٠، ٣١٦، ٥١٦
	﴿أرأيت الذي ينهى﴾.	٩	٣١٧
	﴿فليدع ناديه. سندع الزبانية﴾.	١٧، ١٨	٣١٧
البينة	﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب..﴾.	١	٨٥، ١٠٢
الهمزة	﴿ويل لكل همزة لمزة﴾.	١	٢١٢
االفيل	﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾.	٣	٥١٤
الماعون	﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾.	١	١٢٩
	﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾.	٢	١٢٩
	﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾.	٣	١٣٠
الكوثر	﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾.	١	٢١٣
	﴿إن شانئك هو الأبتر﴾.	٣	١١٧
النصر	﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.	١	٥٥٥
المسد	﴿.. حمالة الحطب﴾.	٤	١٩٦

فهرس الأحاديث

الحديث | رقم الصفحة

فهرس الأعلام

(أ)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ي)

فهرس المصادر والمراجع

الكتب:

ـ القرآن الكريم

(أ)

١ ـ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط. دار الشروق، جدة. الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ.

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي. مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.

٣ ـ الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، عبدالرحمن الدوسري. مكتبة دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

٤ ـ الإحكام في أصول الأحكام، محمد بن حزم. دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٥ ـ أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي. تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة. بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ.

٦ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي. بتخريج: الحافظ العراقي. دار المعرفة، بيروت.

٧ ـ الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري. دار الكتب العلمية، بيروت.

٨ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٠ ـ أسباب النزول، أبو الحسن النيسابوري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
١١ ـ الاستقامة، أحمد ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
١٢ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب، يوسف بن عبدالبر. دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣ ـ أسرار التكرار في القرآن، محمود الكرماني. تحقيق: عبدالقادر عطا. دار الاعتصام، مصر، الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ.
١٤ ـ أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، محمد بن السيد درويش الشهير بالحوت البيروتي. المكتبة الأدبية، حلب.
١٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني. دار الكتاب العربي، بيروت.
١٦ ـ الأصول الثلاثة وأدلتها والقواعد الأربع وشروط الصلاة، محمد بن عبدالوهاب. دار الوطن، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٧ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي. ١٤٠٣هـ.
١٨ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. دار الفكر، بيروت.
١٩ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية. بتحقيق وتعليق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.
٢٠ ـ الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، عبدالله الدميجي. دار طيبة، الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢١ ـ الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية. تحقيق: سعيد محمد الخطيب. دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م.
٢٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواقع المسلمين اليوم، صالح الدرويش. دار الوطن، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٢٣ ـ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، محمد بن أبي بكر الرازي. تحقيق: محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٢٤ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي. دار الجيل.
٢٥ ـ الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه، مكي بن أبي طالب. من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

(ب)

٢٦ ـ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي. تحقيق: جماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٢٧ ـ البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٤هـ.
٢٨ ـ بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، جمع يسري السيد. دار ابن الجوزي، الدمام. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٢٩ ـ بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية. دار الفكر، بيروت.
٣٠ ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبدالفتاح القاضي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
٣١ ـ بروتوكولات حكماء صهيون. مكتبة الحنفاء، الكويت.

(ت)

٣٢ ـ التاريخ الإسلامي، محمود شاكر. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٣٣ ـ تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري.
٣٤ ـ التاريخ الصغير، محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمود إبراهيم زايد. دار الوعي، حلب. الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.
٣٥ ـ تأويل مشكل القرآن، عبدالله بن قتيبة. شرحه ونشره: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، المدينة النبوية. الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.
٣٦ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي وعمر فروخ. المكتبة العصرية، بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.
٣٧ ـ التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية. توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.
٣٨ ـ تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، أبو العلي المباركفوري. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٥٩هـ.
٣٩ ـ تذكرة الأريب في تفسير الغريب، أبو الفرج ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. مكتبة المعراف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٤٠ ـ الترجمان والدليل لآيات التنزيل، المختار أحمد الشنقيطي. دار روضة الصغير، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
٤١ ـ التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني. بإشراف: جماعة. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٤٢ ـ تفسير الإمام مجاهد بن جبر. تحقيق: محمد عبدالسلام أبو النيل. دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٤٣ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٤٤ ـ تفسير القرآن العزيز، عبدالرزاق الصنعاني. تحقيق وتخريج: عبدالمعطي أمين قلعجي. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٤٥ ـ تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ.
٤٦ ـ تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٥م.
٤٧ ـ التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، الحسن بن محمد الصغاني. تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٩٧هـ.
٤٨ ـ تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهة الألفاظ، محمد المسند. دار الوطن، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٤٩ ـ التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم النملة. الرياض. ١٤١٣هـ.
٥٠ ـ تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردىء الأقاويل، عبدالقادر شيبة الحمد. مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٥١ ـ التوحيد، محمد بن عبدالوهاب. دار السلسبيل، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٥٢ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٢هـ.
٥٣ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي. طبع وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.

(ج)

٥٤ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبدالبر. دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

٥٥ ـ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٥٦ ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. مكتبة الحلبوني بدمشق.

٥٧ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي. توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٨ ـ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تصحيح: أحمد البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٩ ـ جذور البلاء، عبدالله التل. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٦٠ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أحمد بن تيمية. تحقيق: مجدي قاسم. مكتبة البلد الأمين، جدة. الطبعة الأولى ؟

٦١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية. تحقيق: عبيدالله بن عالية. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

(ح)

٦٢ ـ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، أحمد بن محمد الصاوي. ضبط وتصحيح: محمد عبدالسلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٦٣ ـ الحرب النفسية في صدر الإسلام، محمد المخلف. دار عالم الكتب، الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
٦٤ ـ حقيقة الانتصار، ناصر العمر. دار الوطن، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٦٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.
٦٦ ـ حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي. تحقيق وتعليق: نايف العباس ومحمد علي دولة. دار الفكر العربي، القاهرة.

(د)

٦٧ ـ دراسة في السيرة، عماد الدين خليل. مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة السادسة ١٤٠٢هـ.
٦٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي. دار المعرفة، بيروت.
٦٩ ـ درء تعارض العقل والنقل، أحمد ابن تيمية. من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. تحقيق: محمد رشاد سالم. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
٧٠ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، ١٤٠٣هـ.
٧١ ـ دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني. عالم الكتب، بيروت.
٧٢ ـ دليل الرسائل الجامعية، زيد الحسين. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
٧٣ ـ ديوان شوقي، شرح وتعقيب: محمد أحمد الحوفي. دار نهضة مصر، القاهرة.

(ذ)

٧٤ ـ ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي. دار المعرفة، بيروت.

(ر)

٧٥ ـ رسالة في حكم تارك الصلاة، محمد بن عثيمين، مطابع الخالد، الرياض.

٧٦ ـ الرسل والرسالات، عمر الأشقر. مكتبة الفلاح، الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٧٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

(ز)

٧٨ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية. بتحقيق وتخريج وتعليق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٧٩ ـ زبدة التفسير من فتح القدير، محمد بن سليمان الأشقر. مكتبة دار السلام، الرياض. الطبعة الخامسة.

(س)

٨٠ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٥هـ.

٨١ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

٨٢ ـ سنن الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.

٨٣ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
٨٤ ـ السنة، ابن أبي عاصم عمرو بن الضحاك، بتخريج: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
٨٥ ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: جماعة، بإشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ.
٨٦ ـ السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام، تحقيق وعناية: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مؤسسة علوم القرآن.
٨٧ ـ السير النبوية، محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: حسام الدين القدسي. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
٨٨ ـ السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبدالواحد. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة. ١٣٨٣هـ.
٨٩ ـ السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري. مكتبة العلم والحكم، المدينة النبوية، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ.

(ش)

٩٠ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله بن الحسن اللالكائي. بتحقيق: أحمد بن سعد الحمدان، دار طيبة، الرياض.
٩١ ـ الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد ابن عثيمين. مؤسسة آسام للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٩٢ ـ شرح الورقات في أصول الفقه، عبدالله الفوزان. دار المسلم، الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
٩٣ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، الطبعة الأولى.

٩٤ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين، صلاح الدين المجد. دار الكتاب الجديد، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٦م.

(ص)

٩٥ ـ صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق، الجبيل. الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٩٦ ـ صحيح البخاري، بعناية مصطفى ديب البغا، دار القلم، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٩٧ ـ صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.

٩٨ ـ صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٩٩ ـ صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٠٠ ـ صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

١٠١ ـ صحيح مسلم، توزيع دار الإفتاء بالرياض.

١٠٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي. دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.

١٠٣ ـ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي. مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ.

١٠٤ ـ الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، عادل أبو العلا. من مطبوعات مكتبة الملك عبدالعزيز الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٠٥ ـ صفات المنافقين، ابن قيم الجوزية. المكتب الإسلامي، بيروت: الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ.

١٠٦ ـ صفة المنافق، جعفر بن محمد الفريابي. حققه وخرجه: بدر البدر. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

١٠٧ ـ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن الدوسري. مكتبة دار الأرقم، الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

(ط)

١٠٨ ـ طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين العراقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٩ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية. بعناية: محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

(ع)

١١٠ ـ العمدة في غريب القرآن، مكي بن أبي طالب. تحقيق: يوسف المرعشلي. مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

١١١ ـ الغاية في القراءات العشر، أحمد بن الحسين النيسابوري. تحقيق: محمد غياث الجمباز. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١١٢ ـ غريب الحديث، عبدالرحمن بن الجوزي. تخريج وتعليق: عبدالمعطي أمين قلعجي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١١٣ ـ غريب الحديث، عبدالله بن قتيبة.

١١٤ ـ غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل. دار الفكر، بيروت. الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ.

١١٥ ـ غزوة مؤتة، محمد أحمد باشميل. دار الفكر، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.

(ف)

١١٦ ـ فتاوى إسلامية، جمع وترتيب محمد المسند. دار الوطن، الرياض. الطبعة الولى ١٤١٥هـ.

١١٧ ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد الدويش. مكتبة المعارف، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١١٨ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر، بعناية محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

١١٩ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني. دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٢٠ ـ فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب، للديلمي. بتحقيق وتخريج: فواز الزمرلي ومحمد البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٢١ ـ فقه السيرة، محمد الغزالي. تخريج: محمد ناصر الدين الألباني. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

١٢٢ ـ الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري. دار الدعوة، تركيا، ١٤٠٤هـ.

١٢٣ ـ فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي. دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٢٤ ـ الفوائد، ابن قيم الجوزية، تخريج: أحمد راتب عرموش. دار النفائس، بيروت. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٢٥ ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، المنسوب لابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٦ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ.

١٢٧ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي. دار المعرفة، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩١هـ.

(ق)

١٢٨ ـ قاموس إلياس العصري، الياس أنطون. دار الجيل، بيروت. الطبعة التاسعة عشرة.

١٢٩ ـ القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو حبيب. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

١٣٠ ـ قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين الدامغاني. تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م.

١٣١ ـ القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٣٢ ـ قاموس المصطلحات العسكرية، محمد فتحي أمين.

١٣٣ ـ قصص الأنبياء في القرآن الكريم وما فيها من العبر، عبدالرحمن السعدي. دار روضة الناظر، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٣٤ ـ قصص القرآن، جار الله الخطيب. من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

١٣٥ ـ قطر المحيط، بطرس البستاني. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

١٣٦ ـ قواعد التفسير جمعاً ودراسة، خالد السبت. دار ابن عفان، الخبر. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٣٧ ـ القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار. دار اللواء، الرياض، ١٤٠١هـ.
١٣٨ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد ابن عثيمين. دار العاصمة، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٣٩ ـ ابن القيم، حياته وآثاره، بكر أبو زيد. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(ك)

١٤٠ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن قيم الجوزية، دار ابن خزيمة، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
١٤١ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير محمد بن محمد الشيباني، تعليق: نخبة من العلماء. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.
١٤٢ ـ الكامل في الضعفاء، ابن عدي. دار الفكر، بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٤٣ ـ كتب حذر منها العلماء، مشهور بن حسن آل سلمان. دار الصميعي، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٤٤ ـ كرامات أولياء الله، هبة الله اللالكائي. تحقيق: أحمد الغامدي. دار طيبة، الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
١٤٥ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جارالله الزمخشري. بتخريج الحافظ ابن حجر. دار المعرفة، بيروت.
١٤٦ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني. تعليق: أحمد القلاش. مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٤٧ ـ الكلام على مسألة السماع، ابن قيم الجوزية. تحقيق ودراسة: راشد الحمد. دار العاصمة، الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(ل)

١٤٨ ـ لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي. مطبعة الملاح، دمشق. الطبعة الأولى.

١٤٩ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: عبدالله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

١٥٠ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، محمد بن أحمد السفاريني. تعليق: عبدالله أبابطين وسليمان بن سحمان. مؤسسة الخافقين، دمشق. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

(م)

١٥١ ـ ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، إبراهيم الجيهان. طبع ونشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٤هـ.

١٥٢ ـ المبتدأ والمبعث والمغازي، محمد بن إسحاق. الوقف للخدمات الخيرية، تركيا. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

١٥٣ ـ مجمع الأمثال، الميداني. دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٤هـ.

١٥٤ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي. تصحيح وتحقيق وتعليق: هاشم المحلاتي وفضل الله الطبطبائي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.

١٥٥ ـ مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة، ناصر بن عبدالكريم العقل، دار الوطن، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٥٦ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم. الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
١٥٧ ـ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد السلمان. دار الثريا، الرياض. الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
١٥٨ ـ محاسن التويل، محمد جمال الدين القاسمي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٥٩ ـ محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة. طبع ونشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٤هـ.
١٦٠ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق ابن عطية. بتحقيق جماعة، توزيع رئاسة المحاكم الشرعية بقطر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
١٦١ ـ المحيط في اللغة، الصاحب إسماعيل بن عباد. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. عالم الكتب، بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٦٢ ـ المختارات الجلية من المسائل الفقهية، عبدالرحمن بن سعدي، المؤسسة السعيدية، الرياض.
١٦٣ ـ مختصر سيرة الرسول ﷺ، عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
١٦٤ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
١٦٥ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٦ ـ مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب. دار الشروق، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٦٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٦٨ ـ مرويات غزوة بدر، أحمد باوزير. مكتبة طيبة، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٦٩ ـ مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، للشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب. بزيادات محمود شكري الألوسي. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ١٣٩٥هـ.

١٧٠ ـ المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧١ ـ المستشرقون وترجمة القرآن، محمد صالح البنداق. دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٧٢ ـ المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي. دار صادر بمصر، الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ.

١٧٣ ـ المسند، أحمد بن حنبل، إعداد: جماعة، إشراف: سمير المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٧٤ ـ المسند، أحمد بن حنبل. بتخريج: أحمد شاكر، دار المعارف بمصر. الطبعة الرابعة ١٣٧٣هـ.

١٧٥ ـ المسند، عبدالله بن الزبير الحميدي. تحقيق وتعليق: حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

١٧٦ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى. تحقيق وتعليق: إرشد الحق الأثري. دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٧٧ ـ المسودة في أصول الفقه، مجد الدين ابن تيمية. مطبعة المدني، مصر.
١٧٨ ـ مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
١٧٩ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقري. المطبعة الأميرية، مصر. الطبعة الخامسة ١٩٢٢م.
١٨٠ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
١٨١ ـ معالم التنزيل، الحسين البغوي. بتحقيق جماعة، دار طيبة، ١٤٠٩هـ.
١٨٢ ـ معالم في الطريق، سيد قطب. دار الشروق، بيروت.
١٨٣ ـ معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، مصطفى مسلم. دار المسلم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٨٤ ـ معاني القرآن، أبو جعفر النحاس. جامعة أم القرى، مكة. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
١٨٥ ـ معاني القرآن، أبو زكريا الفراء. عالم الكتب، بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
١٨٦ ـ معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، محمد العدناني. مكتبة لبنان، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
١٨٧ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية. مصر ١٤٠٩هـ.
١٨٨ ـ معجم الأمثال العربية، رياض عبدالحميد مراد. من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٨٩ ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي. دار بيروت، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٩٠ ـ المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالعراق، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.
١٩١ ـ معجم الطبراني الأوسط.
١٩٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٩٣ ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الكتب العلمية، إيران.
١٩٤ ـ المغني، موفق الدين ابن قدامة المقدسي. المكتبة السلفية، مصر. الطبعة الثانية ١٣٤٧هـ.
١٩٥ ـ المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
١٩٦ ـ مفردات القرآن في مجمع البيان، الياس كلانتري. تهران، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٩٧ ـ مكمل إكمال الإكمال (حاشية على صحيح مسلم)، محمد بن محمد السنوسي التلمساني. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٩٨ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد ابن الزبير الغرناطي. تحقيق: محمود كامل. دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٩٩ ـ الملل والنحل، أبو الفتح محمد الشهرستاني. مكتبة الإنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
٢٠٠ ـ المنافقون في القرآن الكريم، عبدالعزيز الحميدي. دار المجتمع، جدة. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٠١ ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل، عبدالرحمن بن الجوزي. دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.
٢٠٢ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة.
٢٠٣ ـ منهل المستفيد من الشعر المفيد، عبدالكريم الحقيل. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٢٠٤ ـ الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ناصر القفاري وناصر العقل. دار الصميعي، الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
٢٠٥ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(ن)

٢٠٦ ـ الناسخ والمنسوخ من كتاب الله ـ عز وجل ـ هبة الله المقري. تحقيق: زهير الشاويش ومحمد الكنعاني. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
٢٠٧ ـ النبوات، أحمد ابن تيمية. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٢٠٨ ـ الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم، نخبة من المفكرين والباحثين. الطبعة الأولى.
٢٠٩ ـ نزهة القلوب، أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني. دار الرائد العربي، بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.
٢١٠ ـ النسخ في القرآن الكريم: مفهومه وتاريخه ودعاواه، محمد صالح علي. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٢١١ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. تخريج: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

٢١٢ ـ نفثات داعية، عبدالرحمن الدوسري. مكتبة الرشد، الرياض. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

٢١٣ ـ النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي. راجعه وعلق عليه: السيد بن عبدالمقصود. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير. تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي. المكتبة الإسلامية، القاهرة.

٢١٥ ـ نواسخ القرآن، عبدالرحمن بن الجوزي. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(هـ)

٢١٦ ـ الهادي إلى لغة العرب، حسن الكرمي. دار لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢١٧ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية. تخريج وتعليق: مصطفى أبو النصر. مكتبة السوادي، جدة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢١٨ ـ هذا الدين، سيد قطب. دار الشروق، بيروت. الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ.

٢١٩ ـ همجية التعاليم الصهيونية، بولس حنا مسعد. المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(و)

٢٢٠ ـ الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية. تحقيق وتعليق: إسماعيل الأنصاري. توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.

٢٢١ ـ وضح القرآن في مشكلات القرآن، محمود الغزنوي. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

الدوريات:

ـ مجلة الجندي المسلم، وزارة الدفاع والطيران، الرياض، المملكة العربية السعودية.

فهرس الموضوعات

الموضوع — رقم الصفحة